

١٧١



فتاوى الفيلز الكية

استعمل على عجايب الفيلز الكية وأغرائب الألبان

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ ططاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
مع الله المسلمين ببيان أمين

المجلد الثانى والعشرون

طبع في المطبعة

رئاسة السبابة السبابة وأولاده بمصر

وتمت في المطبعة

وباشر طبعه - محمد أمين عمران

رجب سنة ١٣٥١ هـ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفتح

(هي مدنية)

نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية

آياتها ٢٩ — نزلت بعد الجمعة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَاللَّهُ جَوْدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ
 اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ
 فَمِنْ يُوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
 فَاسْتَعْفِفْنَا لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ
 أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ
 يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا
 وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا *
 وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *
 سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَا خُذُوا هَازِلًا تَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
 اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُوْنَ
 إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ
 أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ
 يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَمُدُّهُ عَذَابًا أَلِيمًا *
 لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *
 وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ
 وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
 أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ
 ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

* وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِقَطْعِ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَنْ ظَنَرْتُمْ
 عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 وَالْهَدْيِ مَكْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ لَمْ تَعْلَوْهُمْ أَنْ
 تَطَّوُّوهُمْ فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَى أُولَئِكَ بِنَا
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَمَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تُلُوعِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
 وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ
 مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
 الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
 بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُكُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ
 السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ
 فَاسْتَوَى عَلَى سَوَابِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَصْفِيَهُمْ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

هذه السورة أربعة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة

﴿ القسم الثاني ﴾ فيما بشر الله به نبيه بالفتح ، واعزاز دينه ، ووعد المؤمنين ، ووعد الكافرين والمنافقين
 من أول السورة إلى قوله « فسيؤتيه أجرا عظيما » .

﴿ القسم الثالث ﴾ في ذم الخلفين من عرب أسلم وجهينة ، وصنينة ، وغفار ، وزجرهم ، وفي رضوان
 الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ ووعدهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة ، من قوله
 تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إلى قوله : « وكان الله بكل شيء عليما » .

﴿ القسم الرابع ﴾ في البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام
 آمنين ، وأن ذلك يكون ، وقد تم ذلك الخبر في العام القابل ، وفي وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه
 بالرحمة والشفقة ، وأنهم كزرع يحجب الزراع ، من قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق »
 إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

اعلم أيها الذكي أن الرحمة على قسمين : رحمة عامة ، ورحمة خاصة . فالعوالم العارضة والسفلية والهواء والماء والأثير والنور رحمة عامة ، فأما الصحة والعقل والملك وما أشبه ذلك فهي رحمة خاصة ، ولقد جعل الله لكل امرئ في أرضه سرّاً خاصاً بينه وبين ربه ، فانه يجعل لكل إنسان مطالب خاصة توافي حاجته ، ومتى قضاها الله له فانه يحمد الله عليها كثيراً ، وهذه المطالب عددها بعد الأشخاص الانسانية في الأرض ، وكل امرئ مطالبه على مقدار همته ، ضعة ورفعة ، ونقصا وشرفاً ، فهل أحدثك عما فتح الله به هليّ وعلى أمنا الاسلامية ، وكيف كان ذلك سرّاً بيني وبينه تعالى ؟ وكيف اتجهت همتي نحو ذلك الأمر ؟ وكيف أجاب الله دعائي ، أنا أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين في مشارق الأرض ومفاربها ، أنني دعوت الله بما سأذكره ، وأن الله أجاب دعائي وحققه فعلاً ، وذلك الدعاء كان موجهاً للنعم الخاصة كما هو شأن الناس جميعاً ، تعلمت القرآن في مكتب صغير لا علم فيه ولا فهم ، وإنما هو الحفظ المجرد ، نظرت أبناء عمي يسافرون إلى الجامع الأزهر ، أحببت أن أعلم ، احترق فؤادي على العلم ، أحسّ والدي بذلك ، أرسلني إلى الأزهر ، درست العلوم اللسانية والفقهية ونحوها ، لم يشف ذلك غالي ، كنت في أثناء عطلي أفسكر وأنا في حضرتنا في القمح والقطن والحشائش نهاراً ، والنجم والسماء ليلاً ، وفي آثار الأول التي خلفها قدماء المصريين ، أصوم نهاراً ، أصلي ليلاً ، أضرع إلى الله أن يعلمني ، أنا جاهل جت جاهل ، حضرت دروس التفسير ، ولكن يشتد دعائي دائماً ، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمني عجائب هذه الدنيا ، وحركات أفلاكها ، ونظام زرعها ، وكيف يكون ارتقاء أم الاسلام .

هذا دأبي ، وهذا هو السرّ الخاص بيني وبين الله عز وجل ، وهو الذي كان يهمني ، يهمني أن أقف على نظام هذا الوجود ، وعلى سرّ تأخر المسلمين ، وعلى حقائق دين الاسلام ، وكيف يرتقي المسلمون ؟ وما السبيل لذلك ؟ إن هذا المقام واضح في كتابي « التاج المصم » وهذا إجمال ماهناك . لم يكفني ظواهر العلوم ، ولا سبيل لدى إلا الدعاء ، فأخذت أدعو الله كل حين أن أعرف ما تقدم ، فانتظمت في سلك طلبة دار العلوم وهنا كانت دهشتي ، فإن ما كنت أدرسه بنفسى مجالا من النظر في السكواكب ليلاً ، وفي المزارع والهواء والضوء نهاراً هو عينه الذي يدرس في المدارس النظامية : حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء ، وكنت واضعاً نصب عيني دائماً رقيّ أم الاسلام ومعرفة الله تعالى بقولنا معاشر بني آدم ، وكنت لا أبالي بالعلوم والعظمة ، بل كانت كل أمنيّة المعرفة وأن أكون مجهولاً لا يعبأ بي ، فإن نفسي تقوّر فيها أن سعادتها في العلم ، أما الاعظام وبعد الصيت فانها لا تعبأ به . وقد كنت أرى أنني أجهل الناس وأضعف الطلبة .

كان مدرّس الانشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقد عرضت أوراق امتحان الانشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذي عين ممتحناً لنا من الوزارة آخر سنة من سني الدراسة ، ولقد كانت دهشتي عظيمة عند ما قابلني المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد مفتاح وقال لي : إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك (وهو اكتب خطاب تهنئة وتهزية) قال : إن هذا الموضوع من الكتب القديمة ، فليس في مصر الآن من يكتب هذا . قال : فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طول السنة من الانشاء فاقتنع بذلك وأعطاك ثمرة ١٩ من عشرين ، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨ فقلت له : عجباً ! أنا كنت أظن أن هذه الثمرة أنت تعطيتها لي لجرّد شهرتي في اللغة العربية ، لا للانشاء ، لأنني لا أعتقده انشاء ، فعجب ! وقال : كلا . أنا أعطيك الثمرة على نفس الانشاء .

وإنما ذكرت هذه الحادثة لأبين مقدار اتهاى لنفسي وعدم ثقّي بها ، وأنا لست أقول ان هذه صفة

محمودة . كلا . بل هي مدمومة لانها تسكون سببا في تسبيل المواهب الإلهية ، ولكني أقدر الحقيقة في ذاتها .
ولقد ذكرت في هذا التفسير وفي غيره صارا وتسكروا أي قبل أن أعرف هذه العلوم علمت الله أنه اذا علمني الحقائق على مقدار طاقتي لأؤلف كتبا ينتفع بها الشبان الذين يشاققون لما أشتاق إليه ، ولا يذهبون كما
كما عذبت في الوصول إلى المقائق .

فلما أن وظيفت في الحكومة بعد الخروج من المدرسة ، وصرت مدرسا ، أخذت نفسي طالبني بالوقت ،
بمهددا ، ولقد عرفت فأن التأليف ؟ فألفت كتاب « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » بادي ذي يده
وهناك كانت حوادث منزلية أرهقتني وتسكون لم يكن لي أثر شيء على نفسي من حيث التأليف ، ثم واصلت التأليف
والشعر فألفت « جمال العالم » و « النظام والاسلام » و « نظام العالم والأهم » و « التاج المرصع » وغيرها
من الكتب والرسائل ، وهما أنا الآن أكتب في تفسير القرآن الذي انتشر في أقطار الاسلام ، وترد على الرسائل
من تلك الأقطار النائية . ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله اخواننا المسلمون في شمالي افريقيا والسودان والشام
وبلاد اليمن وحضرموت ويران وبلاد جاوه وما حولها وعموم (اندونيسيا) ويدخل فيها سومطره وغيرها
وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركستان الشرقية التي عاصمتها كاشغر . ولهم الله لم يكن ليدور بخلدني ،
أو يخطر لي ، وأنا على شاطئ نهر أبي الأخضر بالقرب من قرية كنا كفر عوض الله حجازي بالشرقية وأنا أبحت عن
حشرة ودوية صغيرة تسكون ذات خطوط منتظمة تعرفني أن في العالم نظاما وسجلا وبهيجه ، وقد عثرت
فعلا على حشرة عليها خيطان : أبيض ناصع ، وأحرقان ، وقد انتظم بهيئة هندسية ، ودهشت للنظام والجمال وقلت
ههنا مبدأ نظام . أقول ما كان ليخطر لي أن ما قطع مؤادي ، وأقضى مضجعي ، وأطارنومي ، وأسهر جفني ،
وأطال ليلى ولأجله ساحرت النجوم ، وحالفت الوجوم ، وبايت العموم . سيصل يوما ما إلى الشبان في أقطار
الأرض ، ويدرسه العربي والأندلسي والهندي والصيني ، ويقدم من نفس « كاشغر » أحد شبانها ويقول
لي في هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١ م مانصه : « لقد أقضى الفكر مضجعي ، وأطارنومي ، وصرت
أغدو وأروح بين الاشجار المزهرة والحدائق النضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام ، وفيها الريح والريحان
والازهار والأثمار . كل ذلك نهرا ، فاذا جن الليل على وأرخى سدوله ، أخذت أساس النجوم ، وأطارد
الهموم ، فلا النجوم تعادني ، ولا الهموم تزييني . وأسأل الله . أقول له : رباه : ماهذه النجوم الشواقب ؟
وما هذه الجباب ؟ أسيرها نظام ؟ وما برهينها ؟ وما هذه البدائع .

« رباه : أنا جاهل جد جاهل . أنا مستغيث بك فأغثنني . وجاهل فعلمني . واذا طلع النهار أخذت أسامس
الازهار على الاشجار ، وأقول : أينها الازهار : ما أخبارك ؟ وما جالك ؟ وما عجايبك ؟ ثم أقول : أينها الاشجار
كليني كيف نظامك ؟ وما عناصرك ؟ وكيف كان نموك ؟ وما هذا الترتيب الذي أراه في أوراقك ؟ فلا أسمع
جوابا ، وأنشد :

لقد أسهمت إذ ناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادي

« ولما اشتد على الوجسد ، وزاد الهيام ، طفقت اذا جن الليل أربط جسمي بحبل في وقد نافذ في حائط
وأبكي حتى الصباح ، ودمت على ذلك ليالي ، وذلك من شدة اليأس من أساتذتي إذ كنت أسأل أحدهم هذه
الأسئلة فيقول : هذا فعل الله ، ولما أكرمت السؤال طفقوا يشبهونني أني مجنون ، فلم يكن لي محيص من
ذلك البكاء والعويل في خلوتي والتظاهر بالسأوى أمام الناس . قال : وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب « التاج
المرصع » في يدي ، أعازه لي أحد الأصدقاء ، فوجدت أسلوبا لم أعهده ، وأخذت أقرؤه ، فألفيته يصف
حالا هي نفس حالي ، ونفسا كانت محترقة كنفسي ومحرومة ، مما يشفي غليلها ، فطالعت بهلف مدة ثلاثة
أشهر ، فزالت حيرتي ، وحرك وجدى للسفر خارج بلادتي ، كما حرك وجدان ثلاثين شابا مثلي ، فسافرنا إلى

(كابل) وقد استصحبته « التاج المصنع » بهي ولم أخبر بسفرى من أعاره لى ، فلما وصلت إلى (كابل) ببلاد الأفغان وجدت فيها فسيحا كثيرة منه ، فأرسلت الكتاب لغيره لى وأعلمته بسفرى ، وهما أناذا اليوم قد تعالت في مدارس تركيا ، ونلت شهادة ، وقرأت اللغة الفرنسية ، وقد سافرت بعثتان أخريان إلى الأقطار الشرقية الغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرأوا كتب المصريين ، ومنها كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم المنشور حديثا ، فسألته : أقرأه باللغة العربية ؟ فقال نعم . فقلت : هو مترجم بلغتكم التركية فأطلعته عليها فدهش وقال : هذه لغة راقية ولكنى لم أطلع عليها لأن قيصر الروس ما كان ليجعل بيننا وبين اخواننا في القازان وغيرها مواصله .

ثم قال : « اننا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفرا عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرب إلى الله تعالى » انتهى

هذه هي الرحمة التي أردت أن أذكرها في تفسير البسملة في أول سورة الفتح ، وأليس من العجب أنى لم أوفق إلى تمام هذا الموضوع فأعرف خبر آخر بلاد الاسلام إلا عند تفسير سورة الفتح ، وأرى كتابى « القرآن والعلوم العصرية » بمعنى مترجما إلى لغة الملايو ، وأليس مما يوجب على إعلان شكركم لله وحده وتقديسه ، والقيام به ، وإفراغ الجهد في طاعته أن يكون انتشار هذه الفكرة هو غاية مطالبي ، ثم يتم ذلك المطلب وأنا سحي وأعلم به ، وهو هو الفتح الخاص الاسلامى ، وهذا هو النصر والفتح المبين في زماننا ، وقد قدمنا أن الرحمة عامة وخاصة ، فالعامة تفعلها جميع العلوم ، والخاصة بنا وبالأمة الاسلامية هي ما ذكرته الآن وقد قدمت أن كل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص ، فهذا هو الامر الخاص الذى اشتد لى عليه ، وقد نلت ، وهل لى بعده مطلب ؟ هو آخر مطالبي ، هو نهاية مقصدى ، الحمد لله فلا قرأ ما جاء في الذكر الحكيم على لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء » كتب صباح يوم الأحد ٥ يوليو سنة ١٩٣١ م

تذكرة

لقد تقدم في سورة محمد ﷺ في تفسير البسملة أن قتال الكافرين المذكور فيها توطئة لفتح البلاد ونشر العلوم ، فأهم الاسلام لم يكن الفتح لهم خلاصا بمكة ، إن الاسلام انتشر في أفاصي المعمورة ولا يزال ينتشر بل هو الآن ينتشر في أمريكا وفي أوروبا ، إنما المهم المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمى ، والعلم المنتشر في الكرة الأرضية الآن باجماع علماء العالم قاطبة سببه دين الاسلام ، فالمسلمون حركوا الأمم وان كان المحركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام .

إن أوروبا هجمت على الشرق فحملوا دين المسيح بدل الوثنية عندهم ، وبعد قرون جاء الاسلام فأقصاهم وأرجعهم إلى بلادهم ، فهجموا على الشرق مرة أخرى بالحروب الصليبية ، فحملوا معهم المدنية الاسلامية والعلوم المنشورة فيها ، ثم هاهم أولاء يهجمون على الشرق مرة أخرى اليوم ، وهما هوذا الشرق أخذ يعد عذبه ، وستكون نهضة الأمم كلها بسبب الشرق والعقول الخزوة فيه التي ستساعد على الرقي المنتظر فالنظام الحالى سببه فتح الاسلام المبين ، والنظام المستقبل سيكون بمساعدة المسلمين . أفلا أسمعك ما جاء في مقال جاء في جريدة الاهرام بتاريخ ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

العالم بمئة وخمسين سنة

العلماء يتنبئون

نيويورك في ١٥ مارس (اراسل الاحرام الخاص) : العلماء هم أنبياء هذا الزمان ، وأنا أعني العلماء العاملين ، لأولئك الذين يسطرون للقراء أقوالاً لا هم يفهمونها ولا الذين يقرءونها ، يعرف الطالع على تاريخ تدرّج العمران ، ورقق الانسان ، كيف فتح الناس السكر ، وذلكوا صمغها ، وهدوا عقابها ، وأنضموا وحوشها ، وحولوا آجامها إلى جنات غناء ، واستأصلوا منظم ما كان يذئابها من الأربطة ، وكيف تنلب العقل البشري على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته ، والعمل بأشارته ، وألجم البختار والبرق والغاز وقام بأعمال كثيرة كانت معدودة من المستحيلات ، فما الذي بقي وراء سنائر الغيب من مدهشات العلم وعجائبه ؟ وما الذي سيقدم عليه النبوغ البشري من الفرائب الشبيهة بالعجائب . لنسمع جواب أنبياء العلم فإن فيما أخصه من أقوالهم ما يرد غلة التائق إلى معرفة ما سيكون ، إنهم يستنبئون بالماضي لاختراق ظواهر المستقبل ومعرفة ما سيتم فيه من نتائج الأدمغة المفكرة .

يقول قائلهم : إن الملايين منا يتذكرون الخمسين سنة الماضية ، وآبأؤهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التي قبلها ، فلما نة عام التي ورائنا قد كانت مسرحاً لانقلاب كبير في حالة العالم وطرائق الميشتة فيه ، فاقضت أيام المركبة الخشبية التي تجرّها الجياد ، وجاء زمان التفارز الحديدية ، والسفن البخارية ، واخترع التلفون فقرب الأبعاد والمسافات ، وتلا ذلك التليفون والتلفراف اللاسلكيان ، ورفعت الطيارات أهل هذا الزمان من الغبراء إلى الأجواء ، فقهرت ناموس الجاذبية ، وحلت السيارة محل الجواد في شوارع المدن والطرق ، وخففت الكهرباء أعباء أعمال النساء ، فتولت عنهن السكس والغسل ، وإدارة آلة الخياطة ، وتنظيف المنازل وأوجدت الحرارة للدفء ، وبردت الهواء الحار بمراوحها ، وأنارت المنازل والشوارع والطرق المؤدية إلى البلدان ، ونابت عن الناس في فتح الابواب للزائرين ، وأدارت الآلات على اختلافها ، وجرت القطارات والمركبات العمومية ، وتولت فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت .

وفي المائة سنة التي انقضت نالت النساء حق الاقتراع والمشاركة في إدارة الحكومة ، وتبدلت الأمم بعضها من بعض ، فتنسّى لها الاجتماع معها بسهولة للتفاهم بشأن الأعمال والمتاجر والشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد في البلد الواحد ، وكان الناس من مضى خمسين سنة ينظرون إلى الغنى صاحب المليون ريال بعين الإعجاب ، أما اليوم فالذي يبلغ دخله السنوي مليوناً واحداً لا يهتم من الأغنياء ، ففي أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعي يزيد على مليون ريال ، وهنري فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يدفع للحكومة ضريبة على دخله السنوي تزيد على العشرين مليون ريال ، كان الناس من قبل يتعاملون بالملايين واليوم يتعاملون بالبلايين ، وبعد أن تنتهي حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شوهوا في الحرب الأخيرة تسكون قد أنفقت خمسة وسبعين مليون ريال ، والدول الأوروبية مدينة لها بمبلغ أحد عشر مليون ريال ، مما يؤيد ما قلناه من أن مقادير الغنى قد تغيرت وتعاظم أمر الثروات بحيث ان الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا في هذا الزمان يعتونها بالبلايين ، وصار البليون المقياس المعول عليه في المعاملات الدولية كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طوائف من الناس متحدون معاً ، ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه ، ولا صار أهناً عيشاً وأسعد حالاً ، فهو من هذا القبيل كالقطرة من الاوقيانوس العظيم لا تزيد في الكبر على أية قطرة ماء ، في أصغر وعاء ، وهكذا الناس فانهم لا يزالون كائنات بشرية صغيرة ، قطرات في أوقيانوس المجموع المدرك الحساس المعروف باسم الجنس البشري ، الاوقيانوس يكبر ويتعاظم في

الاتساع والقوة ، إلا أن القطرات التي تولفه لا يطرأ عليها تغيير في ذاتها ، فكيف يمكن الفرد من أن يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كاملة من كل وجه ؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع الخمسون سنة الماضية بل الألوف من الأجيال الفاضلة الإجابة عليه : كشف الانسان الراديوم في الأرض والعناصر والمعادن المختلفة والقوى الطبيعية التي لم يكن لأسلافه بها علم ، ولكنه من حيث اصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل ، وقد يكون ما قيل صحيحا من أن متوسط الذكاء بين الاجناس العليا من المتحضرين هو اليوم أقل منه بين أهل أدينا منذ ألفين وخمسمائة عام مضت ، فن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الاولى من حيث الخلق والابداع والاحاطة بما يحيط بنا من الأشياء المنظورة السكينة عند اقدامنا إلى المجرة في السماء قد ارتقينا وأحسننا عملا ولاكننا كأفراد لم نتقدم إلا قليلا ، ولا أسرنا من التحسن إلا البسر التافه .

فما الذي يحجى في الخمسين سنة التالية سيستكلمون أيامنا عن الفهم الجبرى الذي نفذ ، وعن آبار الزيت التي نضب معينها . وهكذا قبل أن ينفذ الفهم والزيت يكون الناس قد تمكنوا من تقييد المد والجزر أرقوة الشمس وكشفوا نبرا مخبوءة في جوف الارض على مسافة أميال من موطن أقدامنا ، وعندئذ يهزون بما كان يفعله أسلافهم .

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يباغ أحداث اليوم الشيخوخة تكون الأسفار الطويلة عبر الأوقيانوس وحول العالم في الطيارات ، فيتناول الراكب فيها طعام العشاء في باريس ، وطعام الغداء في نيويورك ، ولقد كان من غرائب الأيام التي انقضت أن يناجى الشخص الموجود في أعلى طبقات المخزن مع آخر في أسفله بواسطة الأنبوب الذي ابتدع لذلك القصد ، ثم جاء التليفون فتناجى الناس به بين البنايات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات شحيحة .

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكي لنقل الاصوات إلى الأبعاد الشاسعة ، فسمع أوبرا نيويورك في لندن وباريس والصين ، وفي الهند والعراق وبوضوح وجلاء كما يسميها أهل نيويورك ، ويقول اندهاش الفكر البشرى بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد انقضاء الاسبوع الواحد على وجودها ، فلا يهاب أحد بها بل يوجه اهتمامه لشيء جديد يكون أعجب وأغرب ، جازيا في ذلك على الاعتقاد الذي أصبح جزءا من طبيعته بأن كل شيء ممكن ، وفي الأعوام القليلة المقبلة ستضج آلة على صندوق الراديو في منزلك فترى الممثلين في الملاعب والخطباء على المنابر وتسمعك أصواتهم .

ذلك ما ستقوم به الكهرباء التي لا نفهمها إلا بما يبدو منها ، فهي قد قامت مقام الانسان في أعمال كثيرة تطبخ ، وتكفئ المنازل ، وتكوى الملابس ، وتدفع الحجلات في الشتاء ، وتبردها بالمراوح في الصيف ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة ، وتسيرها ، وتدفعها في الشتاء ، وتبرد هواءها في الصيف ، وتفتح أبوابها للخارجيين والداخلين الذي أغنى الشركات عن ملايين العمال . ومثل ذلك تفعل في المعامل على اختلافها ، وتبعث بالرسائل إلى أفاى المعمورة ، وهي التي تمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكي واللاسلكي . وسيمثل اهتمام الناس في المستقبل بنفقات الفعج لائقا البرد لأن نور الشمس الذي يلجمه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة ، أو حارا مقبولا ، وذلك بواسطة مرا كز للقوة تبقى معدل الحرارة عند نقطة معلومة محتلة من البرد والحر السنة بطولها .

ويقول أحد العلماء في كتاب عنوانه « المستقبل » مانصه : « إن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هي مبنية على درس الدورة التي يسير عليها التمدن الذي لا يلين حاملا معه الجنس البشرى إلى حيث يكون كما خلق ليكون ، فن مضى ثلاثين عاما كان التلغراف اللاسلكي مقتصر على أذرع معدودة ، أما اليوم فانه يساعدا على إيصال هزات الكهرباء إلى أفاى الأرض ، وإلى القمر أيضا ، فما الذي نقوله إذن

عن الغد .

وبعد دورة قصيرة من الزمان تنصّ أرجاء السماء بمواكب هوائية ضخمة ، وتكون سرية الطيران فتجتاز الاوقيانوس بنحو الساعة من الوقت ، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام ، لأن العلم سيمتدح مايساعد المركب الهوائى على الشعور بدقته من مركب آخرى ولوفى الظلام الدامس أو الضباب الكثيف ، وقد يصل بنا العلم الى عهد نستغنى فيه عن مولدات القوة فى مواكب الهواء ، فتستمد قوتها من الهواء الذى تسير فيه وتساعد الأشعة السكهر بائية الانسان فى مستقبل الأيام على تحويل الأمطار إلى الصحارى والبلدان القليلة أو العديمة المطر ، فتحوّلها إلى جنات نظرة عظيمة الاقبال ، زاهرة بمحصولات لا تخطر لنا اليوم بال . وتكون السكهر باء العامل الأكبر على إغناء المزروعات بحرارته ، ويرتقى فنّ الجراحة إلى أرفع الدرجات ، بحيث يتمكن الجراح من جعل الوجه الشنيع جيلا ، وتكون الاعمال الجراحية فى المستقبل قبل الولادة ، فتجعل تقاسيم وجه الطفل كما يراى أن تكون ، لأنه من الظلم أن يكون قبح صورة أحد الناس عثرة فى سبيل نجاحه ، فأما مثل هذه المشوهات يستأصل فى أول العمر أو قبل الولادة ، ويصير أمر تحديد النسل من الامور الضرورية ومن لزوميات المدن ، فلا يسمح يومئذ إلا لعدد معلوم من الناس فى الاكثار من البنين ، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية ، وتساعدهم ماليا ، وذلك لأن الارض تصبح مكتظة بالسكان بحيث يصير من الضروري تحديد عدد المواليد بخلاف ما هو الحال الآن ، يلد الفرد ما يشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم واعالتهم أو قصر فى ذلك ، وتصبح الامومة وظيفة شريفة تسيطر عليها الحكومة وتقوم بالنفقات .

ولكن هذه الحالة لا تطول كثيرا ، فقد يعمدون يومئذ إلى توليد الاطفال فى معامل الكيمياء بطريقة علمية بحمة وعلى قدر الحاجة لست الفراغ الذى يحدثه الموت ، ولا يزال أماننا حسبا يعتقد عظماء العلم مائة مليون سنة للقيام بأعمال أخرى عديدة تجزعقولنا القاصرة عن الاحاطة بها ، فسوف تمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة فى ذلك الفضاء الذى لاحتماله لأن الكثير منها مأهول بأناس عاملين مفكرين .

فلا تير الذى يشمل كل فضاء هو الذى يحمل رسائلنا إليها كما يحملها فى أرضنا من قارة إلى أخرى ، فلو نفا انسان من مضى خمس وعشرين سنة عن امكان ابتداء الطائرة والتحليق بها فى الجو من مكان إلى آخر ، أو عن البرق اللاسلكى ، وقال : إن الخطيب أو المنشد الذى يتكلم ، أرى فى نيويورك يكون مسموعا بوضوح فى أقصى الأرض لزجوه فى مأوى الجانين ، ولكن ما الفائدة من التخمين أو التنبؤ ؟ انه لم يعط لنا أن نعرف ماذا سيكون ؟ انتهى الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى من السورة

التفسير اللفظى للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر : ثكلك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرّات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فركت بعيرى حتى ثقنت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فى القرآن ، فإلبت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ، فبئت رسول الله ﷺ ، فسمعت عليه ، فقال : لقد أنزل على الليلة سورة لهى أحبّ إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وروى الترمذي أن ذلك كان وهو راجع من الحديدية ، قوله عز وجل (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أي
 إنا قضينا وحكمنا لك فتحا مبينا ظاهرا ، أي فتح مكة وما قبلها كفتح خيبر وفدك وصلاح الحديدية وما بعدها
 كفتح فارس والروم وسائر البلاد . وهذا التفسير جمع سائر الأقوال ، فإذا قال البراء تعدون أنتم الفتح فتح
 مكة ، وأما كان فتح مكة فتحا ، ونحن نصعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديدية ، وذكر أن الحديدية بئر قد
 نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة ، وكانوا أربع عشرة مائة ، فلما توضأ ﷺ وتضمن ودعا وصبه فيها سقتهم
 وسقت ركبهم ومشيتهم ، وإذا قال مجاهد أنه فتح خيبر ، وإذا قال غيرهما هو فتح فارس والروم وسائر البلاد
 فهذا كله داخل فيما قلناه ، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها ، وما قبله مقدمة له ، وما بعده تابع له ، مرتب
 عليه . واعلم أن لكل عامل في عمله نهاية يبتغيها ، وثمره يجتنيها ، فنهاية الزرع إدراكه ، ونهاية الشجر
 ثماره ونضجه ، وثمره ذلك الانتفاع بحب الزرع وثمر الشجر ، هكذا النبوة لها نهاية مطلوبة في الحياة الدنيا
 وثمره تقع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم وحدة أمة من الأمم ، ويجتمع شملها ، ويتم نظامها ،
 ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد علمي وعلمي و قتال ، وجع المجاهدين على العدو ، ومضى أموا
 عملهم ، وأتقنوا المستضعفين ، وحجوا البيضة ، وأدخلوا رجالا في الدين كرها ، ثم بالتدريج يدخلون طوعا .
 فإذا تم ذلك فقد انتظم أمر النبوة وأدّى واجبها ، وهذا نهاية ما على الرسل ، وأذن يستوجبون ثمراتها وهي :
 (١) مغفرة ما فرط منهم مما يعد ذنوبا بالنسبة لمقامهم .

(٢) واجتماع الملك مع النبوة بعد أن كانت النبوة وحدها .

(٣) والهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .

(٤) والنصر الذي فيه عز ومنعة .

فهذه الثمرات الأربع مرتبة على تمام أمر النبوة والجهاد فيها ، وهكذا كل مجاهد بعد اتمام جهاده
 ينال الثمر على مقتضى المقدمات ، فالفتح المذكور المترتب عليه ما ذكره من الأعمال التي استوجبت من
 أول ما نزل الوحي إلى تمام الأمر ، فهذه ترتب عليها هذه الأربعة ، كأن الله يقول : يا محمد ، لقد بلغت الرسالة
 ونصبت في العمل ، وجاهدت بلسانك ، وبسيفك ، وجعت الرجال والسكران والسلاح ، وتلظفت وأغلظت
 وأخلصت في عملي ، وفعلت كل ما قدرت عليه حتى تم الأمر الذي نذبتك له فلتتل ثمرات ذلك العمل ، فقوله (ليغفرلك
 الله) متعلق بفتحنا ، وقوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أي جميع ما فرط منك مما يصح أن يسمى ذنبا من طبقته
 وإن كان عند غيرك لا يسمى ذنبا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو ما تقدم قبل النبوة وما تأخر عنها
 (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) وينصرك الله نصرا عزيزا) قد عرفت معناها وأنها مرتبة
 على الفتح ، لأن من دانت له الرقاب ، وخضعت له النفوس ، وعزّ فقد تمت له النعمة . ولما كان ذلك في
 رضا الله هدى صراط الرئاسة ، ونصر نصرا فيه عز ومنعة ، لأن أسبابه حاضرة . ولما كان فتح البلاد والنصر
 على الأعداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبجهاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه شرع يذكر
 ما للمؤمنين من منزلة ، فقال : (هو الذي أنزل السكينة) الثبات والطمأنينة والوقار (في قلوب المؤمنين)
 ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء ، وكلما كان الفتح للامور الأربعة المنعم بها على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، هكذا كانت الطمأنينة في قلوب المؤمنين (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أي يقينا مع يقينهم برسوخ
 العقيدة واطمئنان النفس عليها ، ولا جرم أن الله عز وجل هو الذي دبر أمر العالم فسلط الأجناد في الأمم للقتال
 والجهادة ، فهو الذي دبرها بعلمه ونظمها بحكمته ، فهو الذي يجاهدون للحق ، وهؤلاء يقاتلون للباطل ، وإنما
 دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ، ويعذب السكفار والمنافقين لما نبتوا على
 الباطل ، فينال كل نتيجة ما جنه ، وهذا هو قوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها على

بعض كما سلب كل من المؤمنين والكافرين على الآخر (وكان الله عالما) بالمساح واستعداد النفوس (حكما) فيما قضاه ودبره (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم) يفظيها ولا يظهرها (وكان ذلك) الإدخال والتكثير (عند الله فوزا عظيما) لأنه منتهى ما يراد من منفعة مجاورة ومضرة مدفوعة (ويستحب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل (الظانين بالله ظن السوء) ظن السوء فيقولون في أنفسهم : لا ينصر الله رسوله ولا المؤمنين (عليهم دائرة السوء) أي دائرة ما يظنون وبقدر بصوته بأؤمنين لا يتخطاهم (وغضب الله عليهم واهبطهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) أي جهنم ، وأعلم أنه كما كان الفتح قد ترتب عليه أمور أربعة للنبي ﷺ هكذا فاز المؤمنون بأمور أربعة : الوفاء ، وازدياد الإيمان ، ودخول الجنات ، وتكفير السيئات . وهكذا الكفار لهم أربعة : العذاب ، والغضب ، واللغة ، وجهنم . وقوله (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم في جهنم ليلزموا الكفار لتبذيرهم وهم خزنة النار كما أن ذكر الأجناد فيما تقدم يشير للائحة الرحمة الذين يكونون مع المؤمنين لأدخالهم الجنة ، ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والغلبة ، ولما كان سبحانه لا يفعل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة ، ولما أتم الكلام على ما لكل من الأعمال والثمرات المرتبات عليها أعقبه بما يعظم النبي ﷺ والمؤمنين فقال (إنا أرسلناك شاهدا على أممك ومبشرا ونذيرا) لأجل العظمة والعظمة ، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلا منزلة خطابهم خاطبهم قائلا (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه أوصلوا له (بكرة وأصيلا) غدوة وعشيا ، والمعنى دائما ، ثم ذكر بيعة الحديبية وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة ، سميت بئر هناك كما تقدم ذكرها ، وكان المبايعون ألفا وأربعمائة ، بايعوه على أن لا يفرّوا ، ومنهم من بايع على الموت . فقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم (يد الله فوق أيديهم) أي نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ، يقال اليد فلان ، أي الغلبة والنصرة والقوة ، أويد الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي فوق أيديهم كأنها يد الله ، والله منزّه عن الأجسام وصفاتها ، أي أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله عز وجل من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (فن نكث فانما ينكث على نفسه) يعني فن نقض العهد الذي عقده مع النبي ﷺ ونكث البيعة فان وبال ذلك ضرره يرجع إليه ولا يضرك إلا نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أي من البيعة (فسيؤتيه أجرا عظيما) أي في الآخرة وهو الجنة ، وهذه البيعة بيعة الرضوان . انتهى القسم الثاني من السورة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الأعراب) وهم أسلم وجهينة وضينة وغفار ، فهؤلاء لما استقرّهم رسول الله ﷺ عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم ، وفي الحقيقة هم ضعاف العقيدة خائفون من مقاتلة قريش أن صدّوهم ، ومقول القول (شغلنا أموالنا وأهلنا) إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم (فاستغفرنا) من الله على التخلف (يقولون بأسمائهم ما ليس في قلوبهم) أي هم كاذبون في اعتذارهم غير جادين في طلب الاستغفار (قل فن يملك لكم من الله شيئا) أي فن يمنحكم من قضائه (إن أراد بكم ضرا) أي سودا (أو أراد بكم نفعاً) ذلك أن القوم ظنوا أن التخلف يدفع عنهم الضرر ، أو يجلب لهم النفع بالسلامة لهم في أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئا من ذلك لم يقدر أحد على دفعه (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فيعلم أظهركم الاعتذار ، وطالب الاستغفار ، وأخفاكم النفاق (بل ظننتم

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً) أى ظننتم أن العدو وهالكهم فلا يرجعون إلى أهليهم
(وزين ذلك في قلوبكم) فتمكن فيها ، أى زين الشيطان ذلك فيها (وظننتم ظن السوء) أى وظننتم أن الله
يخلف وعده إذ قالوا : ان مجداً وأصحابه أكلة (١) رأس . يريدون بذلك قتلهم فلا يرجعون فأين تذهبون
معههم ! انظروا ما يكون من أمرهم ؟ (وكنتم قوماً بوراً) يعنى وصرتهم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بأثرين
هالكين (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سبيراً) أى فانا أعتدنا لهم فيه وضع الظاهر موضع
المضمر لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول (ولله ملك السموات والأرض)
يدبره كيف يشاء (يعفون يشاء ويهذب من يشاء وكان الله غفورا رحيماً) وذلك لأن رحمته سبقت غضبه ،
فالمغفرة والرحمة من الله بالاصالة ، أما التهذيب كادخال الكافرين السبيل فذلك لأحوال طرأت على النفوس
البشرية ، وهنا لا مجال للاطالة ، ففي المقام ما لا يجوز أن يقال (سيقول المخلفون) وهم المذكورون (إذا انطلقتم
إلى مغانم لتأخذوها) أى مغانم خيبر ، وذلك أنه ﷺ رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ،
وقيل سنة خمس وهو الأصح ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها ،
وغنم أموالاً كثيرة خضها بهم ، ومقول القول (ذرنا نبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله) أى أن يغيروه
لأنه وعد أهل الحديبية أن يهوضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر (قل لن تبعونها) معنى النفي هنا النهي
(كذلك قال الله من قبل) من قبل تهيتهم للخروج إلى خيبر (فسيقولون بل نحسدوننا) أن نشارككم
في الغنائم (بل كانوا لا يفقهون) لا يفهمون (إلا قليلاً) إلا فهماً قليلاً وهو فطنتهم لأمور الدنيا والآصواب
الأول ردّ منهم ، والثاني ردّ الله لاثباتهم الحسد واثباته جهلهم بأمور الدين (قل للمخلفين من الأعراب) وهم
المتقدمون (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وهل هم بنو حنيفة ؟ أو هم أهل
اليامنة أصحاب مسيلمة الكذاب الذين دعا إلى قتلهم أبو بكر ، أو هم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتلهم ، أو
غيرهم ، فإذا كان الأول كان أحد المصريين : إما المقاتلة ، وإما الاسلام ، ولا تقبل الجزية من بنى حنيفة ،
ولامن جميع أهل الردّة ، وإن كان الثاني يكون المراد بالاسلام ما يشمل الانقياد بقبول الجزية منهم ، وهذا
دليل على صحة امامة الشيخين ، ألا ترى إلى قوله تعالى (فان طيعوا) من دعاكم إلى القتال المذكور (يؤنكم
الله أجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) فى الآخرة ، أى وان تتولوا عن التوحيد
والتوبة والاجابة إلى قتال مسيلمة الكذاب أو الفرس الخ ، ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين
يشمل من هم معذورون حقيقة أردفه بقوله (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض
حرج) فهؤلاء لا حرج عليهم فى التخلف عن الغزو ، فهم مستثنون من المتخلفين لعذرهم بعاثاتهم (ومن
يطع الله ورسوله) فى الجهاد وغيره (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً)
فى الآخرة .

بيعة الرضوان وهى بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى حين نزل الحديبية فبعثه إلى
قريش بمكة وحمله على جل يقال له الشعب ليلبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا جل رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وأرادوا قتله فنعتهم الأحابيش ، نفلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فدعا رسول
الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب لبيعه إلى مكة فذكر له أنه ليس من قومه أحد بمكة يدافع عنه ،
فأرسل عثمان بن عفان ، وأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً

لهذا البيت معظمًا حرمة ، فخرج عثمان إلى مكة ، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، فجلس في
 جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان
 قتل ، فقال رسول الله ﷺ : لا تبرح حتى تهاجر القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان
 تحت الشجرة ، وهي سمره ، فبايعه القوم إلا جند ابن فليس الأنصاري ، اختفى تحت بطن بعيره ، وهذه
 الشجرة لما أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يعلموها بعد ذلك كثير اختلافهم ، فلما انتهت عليهم وصار
 كل واحد يشير إلى شجرة ، قال عمر : « سيروا ذهبت الشجرة » ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان
 على الشجرة التي بآبنا تحتها وكانت رحمة من الله تعالى ، وهذا قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ
 يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم) من الاخلاص (فأنزل السكينة عليهم) الطمأنينة وسكون النفس
 (وأنابهم فتحا قريبا) فتح خير غلب النصرافهم (وغنائم كثيرة يأخذونها) هي مغنم خيبر وهي أرض ذات
 عقار وأموال ، فقتلها عليهم (وكان الله عزيزا) منيعا فلا يغلب (حكما) فيما يحكم به فلا يعارض (وعهدكم
 الله مغنم كثيرة تأخذونها) هي ما أصابوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبهذه إلى يوم القيامة (فجعل لكم
 هذه) المغنم أى مغنم خيبر (وكف أيدي الناس عنكم) أي أيدي أهل خيبر ومطافئهم من أسد وغطفان
 حين جاؤا لنصرتهم ، فقتل الله الرعب في قلوبهم فأنصروا ، يقول الله : فجعل لكم هذه المغنم لتقتنروا
 بها (ولتكون) هذه السكة أو الغنمية (آية للمؤمنين) أمانة يعرفون بها (ثلاثة أمور : الأول) صدق
 الرسول صلى الله عليه وسلم (الثاني) أنهم في حياطة الله وحراسته في مشيقتهم ومغيبهم (الثالث) أن
 يعرف المؤمنون الذين بعد العصر الأول أن ما وهب الله للصحابة من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم
 مثله (ويهديكم صراطا مستقيما) وهو الثقة بفضل الله والتوكل عليه بعد اتقان العمل ، ثم عطف على لفظ هذه
 قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) أى وعهدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها (قد أحاط الله بها) أى حفظها
 لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها ، وسيفتحها الله لكم كفارس والروم الذين كان العرب
 خولا لهم ، ثم أقدرهم عليها بجزء الاسلام وغيرهما من كل فتوح في الاسلام (وكان الله على كل شيء قديرا)
 فقدرته شاملة للمكانات جميعها (ولوقاتكم الذين كفروا) من أهل مكة ولم يصلحوا ، أو من حلفاء أهل خيبر
 وهم أسد وغطفان (لولوا الأدبار) أى لانهمزوا (ثم لا يجدون وليا) يعرسمهم (ولا نصيرا) ينصرهم من الله
 (سنة الله التي قد خلت من قبل) أى سن الله غلبة أنبيائه سنة ، وهو قوله : « لأغلبن أنا ورسلي » (ولن
 تجد لسنة الله تبديلا) تغييرا (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ذلك أن عكرمة بن أبي جهل
 خرج في خمسمائة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فوزههم حتى أدخلهم
 حيطان مكة ثم عاد ، فهذا معنى قوله (ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقوله (وكان الله بما تعملون)
 من مقاتلتهم والسكف عنهم (بصيرا) فيجازيهم عليه (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى)
 أى ما يهدي إلى الكعبة ، أى صدوكم وصدتوا الهدى (معكوا أن يبلغ محله) أى حال كونه محبوسا أن
 يبلغ مكانه الذي يحل فيه نحره وهو منى مكانه المعهود . وقال الخنفيه : مكانه الذي يحل فيه نحره أى يجب ،
 فالحصر محل هديه الحرم عندهم في منى . ويتول غيرهم : ينحدر حيث أحصر ، وقد نحر رسول الله صلى الله
 عليه وسلم حيث أحصر (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تهاجمهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم
 بالمشركين (أن تطؤوهم) أى توقعوا بهم وتبيدوهم بالقتل (فتصيبكم منهم مهرة بغير علم) أى إثم وذنب
 وعتب عليكم فيقول المشركون : قتلوا أهل دينهم ، يقول الله : لولا أن قتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات
 لأعلم لكم بهم فيلزمكم العار والإثم لأذناكم في دخول مكة ، ولكن حال بينكم وبين دخولها ذلك السبب
 ولقد كان السكف ومنع التعذيب والقتل عن أهل مكة (ليدخل الله في رحمته من يشاء) أى ليدخل الله في

دين الاسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها ، وليصون المؤمنين منهم عن الأذى (لوتز ياوا) لوتفرتوا وتميز بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون في مكة عن الكافرين (اهد بنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) بالقتل والسبي (إذ جعل) أى حين جعل ، ظرف اهد بنا (الذين كفروا في قلوبهم الحمية) الأثرة (حمية الجاهلية) التي تمنع إذعان الحق (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى الثبات والوقار ، وذلك ما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما همّ بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو ، وحو يطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع في عامه على أن تخلى له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام . فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا لا نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة . فقالوا : لو كننا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال عليه السلام : اكتب ما يريدون ، فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم ، فتوقروا وتحموا (وألزمهم كلمة التقوى) أى الثبات والوفاء بالعهد (وكانوا أحق بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها في علم الله ، إذ اختارهم لدينه ، وصحبه نبيه ، وهم أهل الخير والصلاح (وكان الله بكل شئ عليم) من أمر الكفار والمؤمنين فيجوزى كلا بعمله . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذا القسم

- (١) في قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد .
- (٢) في قوله تعالى : ليس على الأعشى حرج الخ .
- (٣) في قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين .
- (٤) في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل الخ

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد الخ

اعلم أن هؤلاء المخلفين قد حرموا من الفزوة التي فيها غنائم بعد ما تخلفوا ، وقيل لهم تربعوا حرا با مع قوم شداد ، جارية على القاعدة العامة في سنن الله تعالى طبا وتهديا .
انظر إلى علماء الطب ، فانهم اذا رأوا مريضا قد اشتدت به الآلام الناجمة من البرد الزموه تعاطى الأغذية الحارة ، أو من الحر الزموه تعاطى ما هو بارد ، وكذا في الرطوبة واليبوسة ، ويقولون لمن هو كثير النسيان : اجلس في حمام حار ، وخمد في الحفظ والقراءة ، فان رأيت أنك قد أسرع حفظك ، فاعلم أن النسيان من البرودة ، واذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة ، فنى عرفت السبب فاستعمل ما يضاذه فان كان السبب الحرارة فكل الأغذية الباردة ، وان كان السبب البرودة فكل الأغذية الحارة ، وهكذا يقول علماء الأخلاق : « فن رأى نفسه كثير الفضب فليزِم نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى ، وليتعلم الصبر على أذاه ، فان لم يجد من يؤذيه فليسلط هو انسانا بأجر من عنده أن يقوم بشتمه في ملا من الناس ، ثم ليتصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل ويتحمل ، واذا رأى أنه قد أصبح بليدا بحيث لا يؤثر فيه قول من يغضبه ، ولا من يؤذيه فليثر الحمية في نفسه بالأشعار وقراءة كتب الحاسة حتى تقف النفس في الوسط بين التهور والبلادة ، وهكذا من رأى نفسه كثير الكلام فليتعوّد الصمت صرارا حتى يعرف أن نفسه لا تنطق

إلا عند الحاجة .

وبالاجمال هذا هو السنن الذي سنه الله أن يداوى المرضى بضاده - حتى يرجع المريض للاعتدال في الجسم وفي العقل ، وذلك عينه هو الذي نراه في الشمس ، فانها تلقى علينا أشعة الصيف فتكون حرارة ، وأشعة الشتاء فتكون برودة ، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة ، فرجع الأمر إلى الاعتدال ، لأن الحرارة والبارد يتساقطان ولا يبقى إلا الاعتدال . كل هذا يؤخذ من هذه القصة ، إذ أنهم لما تغلبوا عن السفر وحرروا من الضيقة في غزوة خيبر ، وألزموا أن يكونوا في غزوة فيها قوم أولو بأس شديد ، والقتال شاق ، فهم كالمبرودين يلزمون الطعام الحار ، وكالبليد تستثار فيه الطمة والنشاط والحياة . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : ليس على الأعشى حرج الخ

اعلم أن هذه الآية لا يراد بها أن تكون قاصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات ، إذ يستنون من المتخلفين المذمومين ، إن هذا المقام مقام الاستعداد : فلينظر المسلمون في أمر الأمة جميعها ، وليجعلوا كلا فيما استعد له ، جعل الله في زمن النبوة الأمة ثلاثة أقسام : النساء لأعمال المنازل ونحوها ، والأقوياء من الرجال للحرب ، وأصحاب العاهات عفا عنهم فلا يجاهدون ، لماذا ؟ لأنهم لا يصلحون لذلك ، ولهم في إن هذا فتح باب لاشمال نار الرقي والاسعاد في الأمة ، فليفتح الباب على مصراعيه ، وليقل إن الله أنزل في القرآن هذا للنظر نظرة عامة ، ولنقل الأمة كلها في جهاد دائم ، ليس الجهاد قاصرا على ضرب السيوف ، واعداد الجنود ، ورفع البنود . كلا . ثم كلا . فلكل فرد من الأمة منزلة لابد أن يوضع فيها ، فالزارع في مزرعته يجاهد ، لأنه يرسل الحنطة لصقوف المجاهدين ، والتاجر ، وصانع الأسلحة ، والحاكم والقاضي والشرطي والخفير ، كل هؤلاء أعوان المحاربين ، وسائق قطار السكة الحديدية ، وحارس المسيرة (اللفون) ، وصانع الطائرات ، فكل هؤلاء مجاهدون ، فليجعل كل فيما هو أهل له ، وإذا نفي الله الحرج عن الأعشى والأعرج والمرضى فليس معنى هذا أنهم يعافون من كل شيء . كلا . أنهم لم يقدروا على دخول الصف ومقابلة العدو ولكن الأعشى إذا كان من القادرين على الخطابة والحث على الجهاد فليأمر بذلك ، والأعرج إذا كان قادرا على عمل كأن يكون عند آلة البرق (التلغراف) فليأمر بذلك ، والمرضى يجب على الحكومة معالجته ، ومتى شفى يوجه إلى ما خلق له ، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ فيما استعد له ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليما عاما وادخال بعض الصناعات في المدارس الابتدائية حتى تظهر مواهب الاطفال فيوضحوا فيما خلقوا له ، كما نقلته لك في ﴿آل عمران﴾ عن أهل أمريكا ، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « لا تكلف نفسا إلا وسعها » فارجع إلى التفصيل في ﴿سورة البقرة﴾ وقيل للأمة لا تعطوا مواهب الأمة ، بل نبهوا جميع الشعب ، وأيقظوا فيه المواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار النافعة ، وللاستعداد للأمة إلا بهذا ، والله هو الولي الخيد . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين

اعلم أن هذا سر مصون ، وجوهر مكنون ، وحكمة عالية ، ومنهج شريف ، وكبريت أجر ، وماس بهيج ، ودر نصيب ، وكنز مدفون ، أراد الله اظهاره لأمة الاسلام ، حتى تستيقظ من رقدتها ، وتقوم من غفلتها ، وترجع عن حوبتها ، وتنفض غبار الكسل ، وتحيي ما مات من الأمل ، وتحيي عمار الحكمة التي حفظها

الله لم في الكتاب ليفهمها أولو الأبواب بعدنا فيقولون : يا ليت شعري : أي آية للمؤمنين هنا في هذا الزمان اذا كان الله كف أيدي أهل مكة عن المؤمنين ، وكف أيدي المؤمنين عن أهل مكة ، وعجل لهم مقام في خبر ، فأى آية لنا الآن نحن في هذا الزمان ؟ ذلك زمان مضى وانقضى ، وأمر طواه الزمان في سجل النسيان فكيف يكون آية لنا ؟ اللهم إلاما يكون آية على صدق النبوة وصدق النبوة عندنا لا يحتاج إبرهان ، لأننا أخذناه جيلا عن جيل ، وقوما عن قوم ، فلسنا نحتاج إلى براهين جديدة ، على أن صدق النبوة ليس هو كل شيء عندنا في الدين ، بل المهم نتابعه ، فنصدق بالأنبياء والقرآن وبسبب ما كتبنا لا يحررك ساكتا فأى فرق بينه وبين الكافر إلا الاعتقاد ، والاعتقاد بلا عمل شجرة بلا ثمر ، وأرض بلا زرع .

اذا سمعت هنا من أهل زمانك ، أو قرأته في هذا المقام ، فأجب عنه وقل : إن الله عز وجل جعل أهم خواص الانسان أربعين : الأول العلم والشوق إليه ، وحب الحكمة والفرام بها والولوع ، والثاني نفع الناس وإرشادهم ، فهذان هما الخلقان الشريفان اللذان تخلق الله بهما ، فهو عليم ، وهو رحيم وحكيم ، ومن تخلق بأخلاق الله فإن الله عز وجل يكون معه ، وإذا كان مفردا بمنفعة الناس ، وأحب رقبهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلا لذلك ، فإن الله وملائكته يكونون معه ، ويرى العون من الله في غيبه ورواحه ، وبالنفط يري من العناية والمساعدة ما لا يحيط به بيان .

أقول هذا وأذكر كحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » وبما يروى « إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » أو ما معناه ، وبآية : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، فالجهاد يشمل الجهاد العلمي ، والجهاد العملي ، والاحسان يشملهما ، فهو احسان بالعلم واحسان بالعمل .

واعجب أيها الذكي كيف تقول بعض الارواح لما أحضرت وسألوها في أوروبا : أي شيء يرقينا اذا متنا ؟ فأجابت : أمران هما المحبوبان : الأول الفلسفة ، أي حب العلم والحكمة ، والثاني حب الناس ، فن اتصف بهذين الوصفين كان محل نظر الله وملائكته ، وكان الله معه ، وازداد علما على مدى الزمان ، وخزن الله العالمية لانفذ . كل هذا من سر هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » وهو الشقة بفضل الله تعالى ، انظر كيف جعل الله هذه الغنائم الخيرية التي وعد الله المؤمنين بها آية لنا ، وثباتا على الأعمال والعلوم . انظر كيف نام المسلمون ، وجهلوا هذه العلوم . انظر كيف كان العالم كالجاهل في تناسي هذه العلوم القرآنية . انظر كيف ملأ الله الأرض بالعلم وأخلى منه أمة الاسلام الحاضرة لإقليلا . انظر رعاك الله وقل لي غنائم . خيسر يخبرنا الله بها ويقول انها آية لكم ، وهداية للثبات على الأعمال ، ثم يصم المسلمون آذانهم وينامون نوما عميقا ، حتى قل من بينهم من يحب المجموع ، وقل من يحب العلم لذات العلم ، فأما بعد هذا الزمان فسيكثر فيهم العاشقون للعلوم ، ويكثر المحبون لأمة الاسلام ، بل لجميع العالم الانساني الذي نحن جعلنا رجة له ، بل رجة لكل حي من انسان وحيوان ، لأننا قأمون مقام نبينا المرسل رجة للعالمين من الانسان والحيوان والجن الذين لم يتخلقوا بالأخلاق الحيدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا .

جهاد الفرد وجهاد الجيش

لهالك تقول : أي الآيات نراها اليوم في هذا الزمان اذا نحن أخلصنا في أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خيبر ، إن ذلك كان ورسول الله ﷺ بينهم ورجة الله تنزلت عليهم ، وأخبر النبي بذلك ، وتم ما أخبر به ، وصدق الله وعده فعلا ، فأى غزوات الآن نكون فيها ؟ وأي منحة نعطاها ، وعطايا نلقاها ؟

ولأنني بيننا اليوم . والكرامة للأنبياء ومن مع الأنبياء ، أما نحن فلستنا أهلا لذلك .
أقول : إن هذه الآراء هي السبب الأكبر في موت المسلمين موتا أدبيا وحريا وماليا واقتصاديا وسياسيا
وهي الدلالة على الجهل بالله ، ونظامه ، ورجته ، وحكمته الشاملة ، وآياته الواصلة ، وعجائب المدهشة .
إن الله دائم الجود ، واسع المطام ، لم يخص السماء ، ولا الأنبياء ، ولا الحكماء ، ولا الإنسان ، بل عظم
العطاء حتى لأحقذر ذرة من الحيوان النسيئة ميكروبا ، فأعطاهما أشرف الأجسام ، وهي أجسام الإنسان ،
تأكل فيه لحما طريا ، وتشرب شرابا آخر شهيا ، وترتفع وتقلب وهي آمنة مطمئنة ، فإذا أعطى الله أجسام
أشرف مخلوقات وهو الإنسان لأقن الحيوانات قدرا ، وقال لها كئي واشربي وقوي عينا في أشرف مخلوق
على الأرض ، فما بالك بالإنسان وهو أشرف سيران على الأرض ، فهل يذكره الله يتخبط في الدنيا لا يفرق
بين من يريد نفع المموم ومن يريد شهوة نفسه ، كلا والله . فلفه جرحا بنما تقول فرأيا النجب النجب !
ولتعلم أن جهاد الفرد في الحياة الطبيعية والعملية أشق من جهاد الجيش الكبير ، والمعارنة الإلهية تكون
على العمل الفردي أقوى من المعارنة التي تعطى لجيش الكبير العماق ، وبرهانه أن تقول : إن الفرد منا
وهو يجتد في العلم مخصصا فيه ، وفي منافع النوع الانساني إذا كان أهلا لذلك ، يلاق مشاق لا يلاقها الجيش
في غزواته ، أي أنه إذا كانت الصعاب التي يلاقها الجيش توازي في صعوبتها ما يلاقه الفرد المجتد مضاعفة بعدد
أفراده كان الجيش في مشقة لا نطاق ، فإذا رأيت الله عز وجل يساعد أصحاب النبي ﷺ ويعطيهم غنائم
خير ، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيعقبه نشر العلم ، وحفظ الأمن ، وأن ما يملونه مع الكفار أشبه بالسكنى في
جسم الانسانية ، وبعد هذا السكنى سيكون الشقاء التام . وعاملوا هذا كله من طريق النبوة ، فاعلم أن الفرد
الواحد المجاهد يقع في مشقات لا تعد لها إذا كان مجاهدا لجموع ، وتسكون المعاونة له من الله على مقدار
ما يصيبه من المشقات ، فيسكون العالم في سلمه ، والمنظم للأمة الساعى في رقيها ، واقعين في مصاعب ومشاق
عظيمة ، ويكون عون الله لهم مضاعفا على مقدار مشاقهم ، إن شئت فقل فقل قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد
نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله
سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجهل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزير متكيم » .
وأنت تعلم أن نصره وهوى الغار أعجب من نصره وهوى بدر ، أو أحد ، أو اثنين ، يتوحد جيشا عظيما ،
إذا عرفت ذلك فاعلم أن حالك أنت اليوم وأنت تتعلم العلم ، أو تحرص على رقي أمتك الاسلامية لا تخرج عن
هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا ، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونورا ، فإذا نصر نبيه وهو وحيد
ليس معه إلا أبو بكر ، جرتب أنت كما اتفق لي ، لاسيما أثناء هذا التفسير ، فقد رأيت العجائب في هذه
الحياة ، ووقعت في مشا كل مدهمة ، ولكن جاءت ألطاف الله أسرع من البرق ، فأوقفت الشر بل آرائه ،
وتكرر ذلك مرارا أثناء هذا التفسير ، سواء أكان ذلك في الأمور الدنيوية أو المسائل العلمية . وسن عجب
أن بعض المسائل أكون في حاجة إليها ، والآية تتطلبها ، فلا تمضي دقائق حتى أعثر في الطريق على ما يفهمني
المطلوب ، وأذكر مرة أني كنت سائرا في شارع خيرت بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضي الله عنها
وأنا أفكر في آية : « إن في خلق السموات والأرض » إلى آخره ، ووجدت أن الفلك في البحار لابد من استيفاء
الكلام عليها ، فالذي يسيرها إما الطواء واما البخار ، فخطر بيالي أن الكهرباء أيضا لابد من أن يكون لها
في ذلك عمل ، ولكن لا يمكن أن أكتب ذلك إلا إذا اطلعت عليه ، فحدثني نفسي أن عادة الله لابد أن تتم
معي ، وإني قريبا أجد فهمها ، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب ، فوجدت رجلا
معه مجلة لا أتذكر اسمها . فقلت أرنيها ؟ ففحصتها فرأيت في الصفحة التي وقعت تحت نظري في سطر من
أوسطها هذه المسألة بنصها ، بحيث أن نظري لم يقع إلا عليها ، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أول ما تناولتها ،

فاشتريتها منه وقلت الجلة التي في المجلة الخامسة بالكبرياء التي بها تسير السفن ، فانظرها في سورة البقرة ، فانك تجدها في تفسير الآية ، وتجد الجلة منقولة بتروفيها ، لأنني لست من علماء هذا الفن ، هذه مسألة واحدة وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب ، وانما ذكرت لك هذا لتعلم اني اكتب عن يقين ، وأن النور الفائق من الله محيط بنا من كل جانب ، وانما نحن الذين نحرم أنفسنا منه فيشقى الجاهل به ، فاذا أعان الله رسوله وهو في الغار جاد في رقي أمته فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتب أثره . كلا والله ، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك ، يمثل هذا تعرف النبوة وصدقها ، ويمثل هذا فليرتق المسلمون .

فليجد العلماء في تفهيم الناس هذه الحقائق ، فليعلموا كيف يقول الله « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . أليس ذلك ليكون نبراسا لنا فنعلم أن الله مؤيد للمسلمين في أعمالهم الجزئية ونفكر في تلك الانطباعات السرية التي يحس بها الانسان في نفسه ، وتلك المساعدات الوقتية التي تحصل لنا عند جدنا في المنافع المأمة ، وحينئذ لا نحصى لنا عن الثبات في أعمالنا والمثابرة فنفوز كما فاز الأولون ، ونحظى بما حظى به المتقدمون ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

تذكرة

في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الاخرى

فاذا سمعت السادة الحنفية ، والسادة الشافعية ، يدققون النظر ، ويحققون الفكر ، في آية : « حتى يبلغ الهدى محله » فيقول قوم أن الحرم هو الذي يذبح فيه الهدى ، ويقول قوم . كلا . فلينحصر الحديث أحصر كما تقدم مع أن الخطاب فيه سهل ، فما بالك بمثل هذا المقام الذي يقول الله فيه : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . يحصل الله غنائم خبير آية لنا ، وهداية لسبلنا ، وطريقا لوصولنا ، ولم يقل في الهدى شيئا من ذلك ، بل قال : « لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . فانظر كيف أرجع الأمر في الذبائح سواء أكانت في منى ، أم في الخديبية ، أم في غيرها لأمر واحد وهو التقوى ، وانما هذه وسائل لها ، فان بذل المال معناه انتبرى من المال لئلا يعلق بالقلوب فيوقعها في شرك هذه الحياة الدنيا . فاذا كان علمنا هكذا يدققون في الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل ما نحن فيه . لقد كان أئمة الفقه كمالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وزيد رضي الله عنهم وأمثالهم يدققون في الأحوال النفسية عملا ، ولم يكن عندهم الزمن السكاني ليكتبوا هذا للناس ، فتركوه للأجيال المقبلة ، وكأنهم يقولون : هانحن أولاء دققنا في مقدمات الأعمال ، فليحكم النظر فيما لا يحتاج إلى بحث شديد كبعضنا وهي المقاصد ، ولينتم الآخرون ما تركه الأولون ، فاذا نحن أغفمناكم دقيقات الأمور فاعلموا الناس أنتم الأمور التي هي أرفع كقوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » وكقوله : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وكقوله « وإن الله لمع المحسنين » وكقوله « إن الله مع الصابرين » وكقوله هنا « ولتكون آية للمؤمنين » .

إن الله يساعد المؤمن المجاهد في نفسه أكثر مما يساعد الجيوش في الجهاد ، ألم تر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » ، جهاد النفس جعل أشد من جهاد العدو فيكون العون فيه أعظم ، لأن الجندى في الجيش معه اخوانه ، وليس مع الفرد في نفسه إلا الله كما تقدم في آية الفار : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

دفع وهم

إياك أن يمر بخاطرك أن هذا القول ونحوه معناه أنه لن يصيبك هم في الحياة . كلا . إذا جاء هذا الخطر فاعلم أنه خطر كاذب . يقول المسلم إذا حزبه أمر : كيف أقع في هذه الشدائد ؟ أنت مسالم ! « أليس الله بكاف عبده » . أليس الله يساعدني ! لا سيما وأنا أجاهد في تهذيب نفسي ، ورتي أمتي ، وأنا أهل لذلك ، وأنا مخلص ، فمثل هذا يقال : إذا ظننت أنه لن يصيبك أذى ، فأنت واهم ، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم ، وحملها أثقل ، وعملها أشق ، ويكون العون على قدر المشقة ، ولن يرتقي امرؤ قط إلا بما زاول من الأعمال ، وما قلبي من المشاق . وهذه الفكرة في الإسلام هي التي قعدت بالهمم ، وأورثتهم الخمول ، فيقول الرجل : ألسنا مسلمين ؟ فلماذا سخط الله الفرنجة علينا ؟ أليس النبي شفيع لنا ؟ أليس الله مع الصابرين ؟ أليس الله ينصر من ينصره ؟ ونحن ننصر الله فلماذا لا ينصرنا ؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذي عليه المسلمون ؟ فلنجدال بالتي هي أحسن في نقطة الشفاعة ونقول : أيها المسلم : أليس النبي شفيعا ؟ فيقول بلى فنقول أليس العالم شفيعا ؟ يقول بلى ، نقول أليس الشهيد شفيعا ؟ يقول بلى ، نقول : النبي والعالم والشهيد إذا ظهروا في بلد أيكونون سبب كسلها ، أم يكونون سبب نشاطها ؟ فيقول بل سبب نشاطها للأعمال ، نقول لماذا ؟ فيقول لأن العلوم الدينية وعلوم العلماء وتقديس الشهيد نفسه لله كل ذلك يحدث في الناس استعدادا للعمل ، نقول فاذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبي قد كسلوا فما شأنهم ؟ فليس له إلا أن يحجب : ليس لهم حظ من السعادة ، بل هم أ كثر عذابا ممن لم يكن عندهم عالم ولا نبي ولا شهيد لأنهم رأوا طريق الرشد فلم يتبعوه ، وعرفوا الحق ولم ينهجوه .

نقول : هذا المثل منطبق على بعض المسلمين ، يرون نبينا ﷺ وأصحابه يتجشمون المشاق في الحر والبرد ، ويلاقون الأعداء في الجبال ، ويقدمون رقابهم للقتل . كل ذلك والمسلمون نائمون ، ثم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الانسان ويعطى الخبز مجاناً ، فاذن الشفاعة لها معنى غير هذا ، فليعملوا كما رأوا في السلف الصالح ، واذن يلحقون بهم ، فأما كونهم يلاحقون بهم وهم نائمون فهذا غير معقول ولا مقبول ، إذ يصير هكذا : كل عالم في بلده يكون سببا لكسلها ، وكل نبي يكون سببا لكسل أمة ، فتكون الآية معكوسة ، والعقول مقلوبة ضائعة . ومعلوم أن الله لم يخلقنا إلا ليهذبنا ويرقينا ، والتهذيب والترقية أعمال لا كسل ، فاذا قال : « ولينصرن الله من ينصره » فليكن المسلم ناصرا للفضيلة ، مفكرا مطلقا ، حريصا على العلم ، وليكن المسلمون جادين مفكرين .

فرحم الله امرأ أهدي إلى الناس ما كتبناه في هذا التفسير ، وأعطاهم ما يقبلون منه . ورحم الله امرأ نشر هذه الأقوال بين المسلمين . ورحم الله المؤمن النافع للمسلمين . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل

هذا المعنى يقوى المعنى الذي سبق في اللطيفة الثالثة ، وملاحظه تقوية قلبك أن تكون صريحا لنفسك علميا ، ولأمتك ماديا وأديبا ، والله يكون معك ، وأن هذه سنة قديمة في الأنبياء وأتباعهم العلماء ، والله ولي المؤمنين .

فصل في إيضاح الكلام على بيعة الرضوان

روى أن مكرز بن حفص لما أشرف على النبي ﷺ وصحبه كما تقدم قال ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فيبدا هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل لكم من أمركم ، ولما

ولما قال ﷺ صلى الله عليه وسلم : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء : على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه ، وعلى أن يدخلها من قابل ويقم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح السيف والرمح ونحوه ، فقالوا يا رسول الله أنسكت هذا ؟ قال نعم ، أنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجهل الله له ذرجا ونحرجا . انتهى القسم الثالث من السورة .

القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقون رموسهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخوا مكة عامهم ذلك ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم ذلك ، وقال المنافقون : أين رؤياه التي رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل . وهذا روى أن عمر بن الخطاب . قال : أتيت النبي ﷺ فقلت ألسنت نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت أليس قتلتنا في الجنة وقتلناهم في النار ؟ قال بلى . قلت فلم تعطى السنية في ديننا إذن . قال اني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ، قلت أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال بلى ، أفأخبرت أنك تأتيه العام ؟ قلت لا . قال فانك آتية وتطوف به . قال فأنت أبا بكر ، فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم تعطى السنية في ديننا . قال أيها الرجل : انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه ، فوالله انه على الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا انه سيأتي البيت ويطوف به ؟ قال بلى ، أفأخبرت انه آتية العام . قلت لا . قال فانك تأتيه وتطوف به ، وهذا قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق أي بالحكمة البالغة لأن فيه ابتلاء لتمييز المؤمن الخالص من المنافق ، والله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) حال كونكم (آمنين) علق بالمشيئة تعليما للعباد أن يازموا الأدب فلا يحكموا على مستقبل لاعلم لهم به (محلقين رموسكم ومقصرين) أي محلقا بعضكم ومقصر آخرون (لاتخافون) جملة حالية مؤكدة (فاعلم ما لم تعلموا) من الحكمة في تأخير ذلك (فجعل من دون ذلك) أي من دون دخولكم المسجد أوفتح مكة (تشعرا قريبا) هو فتح خير ، يستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود ، وقد تقدم شرح ذلك شرحا وافيا (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي ملتبسا به (ودين الحق) أي ودين الاسلام (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جنس الدين كله بنسخ السيئات وإظهار فساد العقائد الزائغات وبتسليط المسلمين على أهل الأديان في الأزمان الغابرة ، وبالقيام بأمر السكرة الأرضية والحفاظة على نظام الأمم ، والقيام بأمر الموازنة بينهم ، وتعليم الناقصين في الأزمان المستقبلية إذ تصبح الأرض كلها كأُسرة واحدة ، ويكون المسلمون هم الآخذون بيد الأمم ، وذلك في أيام عيسى التي هي رمز للاسلام العام في الأمم ، ويكون المسلمون بيدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه في السورة السابقة إذ يتضام العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الاسلامية المتناخضة الديار كما أوضحته في ﴿ سورة آل عمران ﴾ عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب » وذلك بأن يتعلم أبناء العرب في شمال إفريقيا والشام والعراق والحجاز العلوم الابتدائية والثانوية والعالية ، وبذلك يعرفون قدراتهم ولغتهم ودينهم وعوائدهم فيستعدون ولوطال الزمان ، ثم يتحدثون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والجوار ، وانهم أُم شرقية ، ثم يأخذون بيد المسلمين في سائر الأقطار ، ثم

للعواطف ، وبحث الفضائل ، واستخراج القوى السكينة في النفوس ناسب أن يذكر في مثله الزرع ونماؤه .
ويروى في حديث وصف المؤمنين ما معناه : « إن أناجيلهم قلوبهم »
هذه أوصاف الأمة الإسلامية ، فانظر لها الآن وتأمل في نتائجها وجهلها الفاضح ، حتى أصبحت مثلاً
مضروباً للشعور والجهالة الجماء ، وسيداً للحال ، ويحسب المسائل ، ويخضر الزرع ، ولما كان هذا المثل
المضروب بالزرع في هذه السورة يحدث في نفوسنا بأساً من ارتقاء المسلمين ، لانه يقال : هاتحين أولاء اليوم
أبناء أمة الاسلام وهذا المثل ينطبق على آبائنا الأولين ، أما نحن فأننا أصبحنا زرعاً هشياً تذروه الرياح فكيف
يحتضن عصمه وتبذره ، وقد مضى زمانه ، وذهب ابانه ، ويستبدل القائل بما هو حاصل اليوم ونقروه في الجرائد
من التخاذل والتباذل بين المسلمين ، حتى أصبحوا عند الفرنجة كالخدم والعبيد ، ألم تر إلى ما جاء في
الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ م أي قبل كتابة هذه الأسطر بيوم
واحد مانصه :

« باريس في ٢٢ يونيو — تلقت جريدة الطان تليفرافاً من مراسلها في مدينة فاس قال فيه ان مولاي
يوسف سلطان المغرب الأقمسي أعرب للرشالليوتى عن رغبته في إصدار مرسوم ينسكرفيه أعمال عبد الكريم
الماسية بالوحدة الدينية ويقول ان عبد الكريم لا يملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين ، وبالنظر إلى تحرش
الأمير عبد الكريم الذي أعلن انه يريد الاحتفال بعيد الأنصحي في فاس قرر مولاي يوسف رداً على ذلك أن
يبقى في فاس ليحتفل بالعيد احتفالاً عظيماً » اهـ

هذا هو المصروف المرسل المذاع عن مولاي يوسف ، فانظر أيها الذكي كيف أصبح المسلمون العوبة في
أيدي الفرنجة ، وانظر هذه الخزيات ، الأمير عبد الكريم قام لتحرير بلاد مراکش وطرد الفرنجة منها ،
والفرنجة يصطادون أناساً يجهلونهم ماؤكاً ثم يأمرونهم فيذيعون أراسر لأولئك الذين يناوئون الفرنجة ، هذا
المثل الذي يتصف به بعض المسلمين اليوم وان كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كالترك وانقروا والأفغان
هذان هو المثل السوء الذي يمثله المسلمون اليوم ، لاسيما اخواننا أبناء العرب ، وذلك للجهالة العمياء ،
والنوم والعمى ، فإذا تبدى لك هذا فاعلم أن الله قد علم ذلك قبل أن يخلقك ، وقال : « ولانكونوا كالذين
أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » اعلموا أن الله يحيي الأرض
بعد موتها » فتعقب آية قسوة القلب والفسق بإحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى ما هو مقرر في سنة الله
أن الشيء متى وصل إلى نهايته انقلب إلى ضده ، فالأمة الإسلامية اليوم وصلت إلى ما نراه ، وبعد هذا الموت
الحياة ، فإذا كان المسلمون صاروا اليوم هشياً تذروه الرياح فأن الله يقول : « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد
موتها » فأن ساءت بعض المسلمين اليوم فإن الحياة بعد الموت ، وسيظهرهم الله على الأمم ويدرسون علومها
ويقومون بأسر ربهم ، هذا هو الذي سيكون ، والله هو الأول والآخر وإلى الله ترجع الامور .

اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه اللطائف لم ترد بخاطري إلا عند الطبع ، واللطائف المتقدمة إنما كانت أيام
التأليف منذ بضع سنين ، وهالك بيانها :

- (١) في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً .
- (٢) في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم .
- (٣) في قوله تعالى : والله جنود السموات والأرض وكان الله عظيماً حكماً .
- (٤) في قوله تعالى : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية .

الطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا قمنا لك فتحاً مينا

هذا ما فتح الله به على يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣٦ م : —

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام : أرض سبخة ، وأرض حجرية ، وأرض طيبة صالحة للزراعة . فلاولى يقع عليها المطر فلا تحفظ الماء ولا تنبت ما ينفع الناس ، والثانية تحفظ الماء لغيرها ولا تكن لا تنفع به ، والثالثة ينبت فيها النبات وينفع به الناس . فهذه الثلاثة انتفعت بالماء ونفعت الناس بثمراتها ، فسكانها الحقل والنبات والأشجار والأثمار والأزهار والجمال .

الله أكبر : إن عقول أهل الأرض مقسمة أقساماً تضارع هذه الثلاثة (وترى أصول هذا الموضوع في حديث البخاري : إنما مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم الخ) إذن من شرط النفوس المنتقاة بالعلم الدافعة لغيرها أن لا تشبه الأرض الحجرية ، ولا الأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التي تقتربها النفوس الانسانية ان يتم لها ذلك إلا اذا كانت فيها حتى أنفسها جرائم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكما أن الأرض التي ليست سبخة وليست حجرية ، بل هي أرض طيبة ينبت فيها الشجر والكلأ ويعم نفعها ، لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الانسانية النيرة النضيفة التي لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهي أشبه بشموس والعلوم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب إلا النقائص التي تفسد عليها النفوس في مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التي ظهرت فيها الحقائق والحقول يأتي إليها الناس من كل حدب يصرفونها بجرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخذون ثمراتها ويطوفون بها في البر والبحر لبيع بعد أن يجكرونها وقد انتفعوا بما يستحتاجون منها .

(٤) ولا جرم أن هذه الأرض تختص بأقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض السبخة إذ لا ثمرة فيهما .

إذا فهمت هذا فانظر في آيتنا التي نحن بصددنا واعلم أن الفتح في حقيقته إنما هو فتوح العلم وكشف الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقي ، فإن الأرض ومن عليها والسموات والأرضون كلها فانية ، وكل ما على الأرض لا قيمة له بالنسبة للعلم لأن العلم باق والعوالم فانية ، فالنفوس الشريفة لن تفرح قط إلا بانكشاف الحقائق والوقوف على الأسرار ، أما ما عدا ذلك فلما هي ظواهر ، والظواهر يجتزئ بها الجهال .

ولا جرم أن الفتح العلمي وانكشاف الحقائق للنبي صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وثلاث نتائج ، أما الأصل الذي لا بد منه فهو صفاء النفس وخلوصها من الجرائم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخالصتها من تلك الجرائم المؤهلة للذنوب هو الأهم الأتم والأولى بالعناية الإلهية من التجاني عن اقتراف الذنوب ، فما مثل النفوس في الذنوب إلا كمثل الأجسام في الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمرون المرضى بالمحافظة على الصحة حتى لا يقعوا في الأمراض ، فهؤلاء هم الأطباء الحقيقيون .

ولقد تقدم هذا في ﴿سورة الشعراء﴾ وفي ﴿سورة فاطر﴾ وفي ﴿سورة الحجر﴾ وفي ﴿سورة الأعراف﴾ فقد بينت هناك الطريقة المثلى التي بها يكون الجسم صحيحاً لا يعتمره مرض إلا قليلاً ، فأما أكثر الأطباء في هذه الأرض فانهم في شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يقولوا للأشياء احترسوا من الأمراض بالابتعاد عما يضركم ، فهذا ليس من أعمالهم إلا قليلاً ، إن خير الطب ما كان راجعاً إلى أصل البدية لحفظ صحتها حتى لا يمتورها المرض ، وأكثر الأطباء يعالجون ظواهر الأمراض ، ولا يصلون إلى أصل

الجرائم والاصوال التي كانت سبب المرض ، هكذا النفوس الانسانية لها ذنوب باستعداد لها . وخير ما تعالج به هذه النفوس أن تقضى من أصل فطرتها من جرائم الذنوب ، لا أنها تعالج ذنبا ذنبا ، وكلما وقع ذنب يغفر لها كما يفعل أكثر الأطباء في أرضنا ، إذ يعالجون كل ذنب على حدة ويدرون وراءهم أصل الجسم فلا يعالجونه عنه شيئا .

ولا جرم أن الله عز وجل لا يعامل نبيه في اصناف نفسه معاملة أكثر الأطباء في أرضنا ، بل يعامله معاملة الطبيب الحقيقى الذى يتخلص الجسم من جرائم الامراض ، فيها هنا تجلى لنا وظهور ظهور الشمس في رابعة النهار ، إن غفران الذنوب ليس معناه أنها تقع ثم تمحى ، فهذا ليس كالألغام الكمال أن نفسه صلى الله عليه وسلم خلقت كما خلقت السكرانكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يستريح بالظلام ، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لاكتشاف الحقائق ، فإذا سمعنا الله عز وجل يقول : « ليفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » عرفنا أن هذا معناه استئصال الذنوب بأصل النطرة كالجوهرة في صدفها لا يستريحها قذى .

هذا هو الذى فتح الله به على في معنى : « ليفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فلتخلص المعنى اما كشفنا لك الحقائق كشفا مينا لتصف بأربعة أمور : —

(١) أمر مبدئى وهو صفاء نفسك وجها لها بحيث لا تستعد لذنب متقدم ولا لذنب متأخر ، وكيف تستعد له وهى كالجوهرة ، أو كالشمس لا يقبلان الظلام .

(٣) وثلاثة أمور تكون نتائج (الأول منها) أن تتم النعمة عليك في الدنيا والآخرة ، وذلك بأن تسدون نفسك راضية مرضية في الدنيا والآخرة ، وتلقى الله ونراه ، وتقر عينك باسعاد من اتبعك في الدنيا والآخرة (الثانى منها) أن ينشر نور نبوتك في الأرض في أيامك وبعد مغارتك الأرض ، وهذه النعمة مغايرة للأولى ، فالأولى راجعة لرضا نفسه وبهجتها ولقاء ربها ، واتباعها في الدنيا والآخرة ، وهذه الثانية راجعة لاسعاد الأمم وهدايتهم لأقوم طريق مستمدين من هدايته ﷺ فهذه راجعة للعمل وما قبلها راجعة لبهجة النفس (الثالث) علق هذا الدين على غيره وظهور حقايقه لمن درسه بحيث تطمئن له القلوب ، وهذا هو النصر العزيز .

واعلم أن فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، أو فتوح بلاد الاسلام بعده ﷺ أو غيره كل ذلك آثار للفتح العلمى والكشف الإلهى ، فكشف العالم له صلى الله عليه وسلم أشبه بنهر ولهذا النهر آثار كثيرة ، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم ، فمنها فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم ، والتهاليم الدينية أثر من آثار انكشاف الحقائق له ، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الاسلام شرقا وغربا ، كل ذلك فروع لأصل واحد ، والأصل الواحد هو انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم الذى هو النعمة الكبرى والسكرور الفائض ، وعين الحقيقة ، وما سوى ذلك نتائج له ، وهذا رأى الذى اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الدباغ أصل جميع الأقوال كلها .

آثار الفتح النبوى في زماننا هذا

هل لك أن أحدثك أيها الأخ بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليه عما فتح الله به على أمنا الاسلامية فتعنا مينا ، وذلك الفتح من آثار الفتح النبوى .

اعلم أن أم الاسلام أيام النبوة وبعدها بقليل فتعنت البلاد شرقا وغربا ، وملأت الدنيا نورا وعلمها ، ثم أخذت تضلم وتزوى ، ذلك أنها أولا كان أمرهم شورى بينهم ، ولكن لما اتبعوا أهواءهم ، وجعلوا الملك بحسب الورثة لا بمقتضى الاستعداد نامت الأمم الاسلامية مئات من السنين نوما عميقا عقابا لهم وزجرا

فاما جاء سجيلنا الحاضر وعرف الحقائق ، وأخذ يتأدب بها أدبه الله ، رجع عما فعله الآباء من الغرور والجهالة والظلم شيئا فشيئا ، وأخذ الاسلام يظهر فليان قليلا حتى أثرت أهم الفرنسية بذلك ، فبدأت أن تسمع مقال الاستاذ (لوثرين استودارد) الامريكى مؤلف كتاب « سائر العالم الاسلامى » ، فقد جاء فى الجزء الثانى منه تحت العنوان الآتى مانصه :

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هى القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيرا فى تطور الشرق فى هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقع المؤثرات الغربية ثابت وتنتشر ، لابل تندفق على كل بلاد ، وتطهر على كل رقعة ، حتى غدا الغرب (١) من أكبر عوامل التبدل والانقلاب فى العالم الاسلامى ، حتى وفى الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسماة ، وسنسط الكلام فى موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الاوروبية من التأثير الشديد فى تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسماة ، ولكن الاستمرار ، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الاوروبية هى السبب والعامل فى جميع هذه الاستحداثات والانقلابات الحديثة فى العالم الاسلامى ، فقد سبق لنا الكلام مبسوطا ، مبينا فيه كيف أن عناصر المزاج الاسلامى ما انفكت طيلة القرن الأخير يفعل بعضها ببعض انفعالا شديدا ، فبدت منها ما بدت ، ويستجبت فيها ما يستجبت ، وتتلشى قوى وتولد أخرى ، وذلك يجعد على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، إنما هو يحد ذاته تجدد قائم فى الباطن ، فعليه بالغ كل الباطن من طبائع ذلك المزاج وعناصره مما لا مندرجة لسنة المشوء والتجدد عنده ، وعلى ذلك فما هو واقع مشهود فى العالم الاسلامى اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب أن لا يفتقر بحجج محكاة للغرب وتشبه به فحسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلا مكونا لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذا مفرغا فى بوتقة شرقية وفى قالب اسلامى ، ويجب فوق ذلك أن لا يغيب عن الأذهان أن الشعوب الآسيوية التى يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوب بامتدلية منسطة كزنج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بدية حية منذ القرون الخوالي ، حضارة هى نتاج اسلامى صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم ، ومضى أمانا الخطل بقولنا الآن اننا نستبين خلال هذا القليان الهائل فى العالم الاسلامى تجددا حقيقيا صحيحا رائعا ، ولا غرابة فى ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الفانى وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهده على ما كان عليه الماسمون قبلا من الحضارة والعمران .

إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها فى التاريخ من حيث العظامة والخطورة والمدى والجمال فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم لا يعد بالاضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكورا ، والغريب فى حديث هذه السيطرة الغربية أنها بذت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل

(١) مرادنا بالغرب التفتق بأخلاق الفرنجة ، والتشبه بهم ، وأخذ أخذهم ، فى طراز المعيشة وأساليب الحياة ، ويشمل ذلك المحسوس ، كاستعمال صنوف الأثاث والمستحدثات ، والمعنى كاقباس الافسكار والآراء الاجتماعية والسياسية ، والغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة

— (المغرب)

وسائلها وأسبابها تنفس وتمّ ، ذلك كالسارق والمسالك الحديدية والبرق والسكك والصناعات والمجالات ، وكثيوع جديد الآراء والأفكار المتوالية الاذيات في كل مصر شرق ، وراثت السفن التجارية تنفس عباب بحور الشرق ، وترسو في كل نهر من نهر ، وطافت المتجارة تمتد ناشرة وفر البضاعات والأرزاق الغربية في كل بقعة من بقاء الشرق ، فبالذلك تفسير الحال تغيرا سريرا ، فلاهم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الماضي تعيش حياة الثلاثين قرنا التي كانت من قبل ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار السكك الحديدية في مفاها ومراحها ، وانفسخت الماديات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة اندساخا كاد يكون تاما ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبلا كبيرا ، وسنفصل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوها ، باعطين الكلام في هذا الفصل تمهيدا لما سيحور .

إلى أن قال : « ظلت روح النداء للغرب طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت ، ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام ، فما برح السكره للغرب شائعا عيما . بيد أنه (على توالي الأيام) صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان ، وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول ، وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب : كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساسا للقيام بما أنشؤوه من الإصلاح الاسلامي باعتبار حيثية : الدينية ، والمدنية . فقد جهد ساسة تركية الأحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الأخير من القرن الماضي جهدا كبيرا للقيام بالإصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم في الأقطار الاسلامية الأخرى في سبيل النهاية عينها ، وغير مثال لنا على هذا هو ما بذله الثالث خير الدين باشا في سبيل إصلاح تونس ، وإلى القارئ الكريم لباب الخبر : إن هذا القائد المقدم ، ابركسي الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويتمكن عنده تمكنا كبيرا ، فاستوزره وسلم إليه مقاليد الامور ، وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياحة إلى أوروبا ، فثاف في محاسنها ، وشاهد صور عمراتها وحضارتها ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه وإذ اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمنهاج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد واسعادها ، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قايما يتاوه تجدد تونس في عهد قريب ، ولم يكن خير الدين بغيضا للغرب ، غير أنه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدفقين من الغرب اذا توانت الممالك الاسلامية في الإصلاح الصحيح ، فراح خير الدين يبتغي شديد الابتغاء ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكاه عزم أكيدا أن يسوق أهل بلاده ، وبنى قومه في طريق التجدد والاعلا والارتقاء ، ليبانوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانتها ، وتقوم بالذيادة عن حياض حريتها واستقلالها ، واقتنع الباي كل الاقتناع بأراء خير الدين وخطط مشروعاته ، فمؤرض إليه تنظيم شؤون البلاد ، وأطلق يده لاتعالها يد في القيام بضروب الإصلاح ، فظل خير الدين حقة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل ، مدلا جميع ماله من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين ، غير أن مدينه عاجلته بأكرا ، فانتقل إلى جوارربه ، تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس ، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة بذيلة ، منها أنه ألف كتابا قما موسوما « بأقرب المسالك في معرفة أحوال الأمم والممالك » (١) استنهض فيسه هم أبناء بلاده ، واستقر ههم إلى التجدد والترقي ،

(١) يوجد شيء من النقص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين

وسنبرهم من سوء عقبى التوائى ، فسكان لكتابه هذا أعظم تأثير فى قلوب الاسوار ورجال الاغزاب الوطنية فى الشرق الأدنى عامة ، وافريقية الشمالية خاصة ، حيث كاد الكتاب يقضى عند أهل تونس والجزائر ، إذ كان باعثا قويا على استيقاظ العربية الجلمسية ، فقيه اسنصرخ خير الدين ، بين قومه لتجليم الأفعال القديمة ، وبسط طم ضرورة الافلاج من الافتخار الفارغ ، معجيد الماضى ، انتخارا بالماحد القصور بهسم من استئناف طلب العلا طيقا ، ودعاهم للوقوف على ما فى العالم الغربى من وسائل التقدم وذرائع العمران . وهما أكدته فى كتابه هذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها فى هذا العصر ليسا نازلين عليها عفوا بلانصب ، ولاهما منحة ببادت بها الطبيعة لأسباب ديفية ، بل هما ثمرة التقدم فى الفنون والعلوم ، واكتناه أسرارها اكتناها توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الارض ، واهياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا إنما هو نتيجة استقرار أمسين وسيداتهن فى آفاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامى فى الاجيال الماضية عالم التقدم والافلاج والعمران ، لأنه كان فى محبوحة من الحرية ، سالكا سبل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط فى الدجانات . وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التى كانت فيه من قبل ، روح الحرية والعمل والارتقاء .

ثم قال : « وقد اشتدت روح العداوة للغرب واشتعلت نارها أيمما اشتعال منذ أول القرن الحالى . قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة فى هذا الصدد : « إن هذه السواهى التى دغتنا ، والنوازل التى نزلت بالعالم الاسلامى خلال العشر السنوات الأخيرة ، قد جذدت فى أعماق جميع المسلمين عواطف التآخى والتوائى الاسلامى ، من حيث أشعلت مدورنا مقتا وكرها وعداء للبغاة المعتدين علينا » .

إلى أن قال : « بقيت الحقيقة الثابتة ، يجب أن نقال : إن سيطرة الغرب السياسية على الشرق وإن طال أمدها ما طال ، وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت هى قائمة على أساس متداعى الاركان ، متضعع الجوانب سريع التقوؤ والتزلزل ، وما دام المسلطون الغربيون فى الشرق فهمهم فيه أجنب غريباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، واسكنهم لن يلقوا شيئا من الود والمحبة والاخلاص ، ولاغربة فى الأمر ما ظلت منزلتهم أبدا منزلة السخيل الغربى ، الملقوت المسكروه ، زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربى والسيطرة الغربية يتناقصان ويتقلصان ظلا ، ويخفان وطأة بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها فى الارتقاء . ولايزن عن البال أن الذى كان عند أهل جيل سالف داعية للرضا والارتياح قد غدا عند أهل الجيل التالى سببا للتجهم والنقمة والاضطراب فيقتفون تبدليه والانتقال إلى ما هو خير منه وأفضل ، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع فى الشرق .

الاسلاميين فى القرن الماضى ، وكتابه « أقوم المسالك » هو من خيرة ما ألف لسكسرقبود الجود الضار القاتل ، وحطم سلاسل التقليد الأعمى المنهى عنه فى الشرع ، وايقاظ المسلمين إلى أنهم ان لم يبادروا إلى القلمح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل ، فجاءت دعوة خير الدين متأخرة ، إذ كان تسكالب أوروبا شديدا ، وضربها وحيا ، وسبات الاسلام لا يزال عميقا ، فتم جميع ماتسكهن به خير الدين ، ولما استوات فرنسا على تونس رحل خير الدين إلى الاستانة ، وولاه السلطان عيسى الجيد الصدارة العظمى ، منتدبا إياه لاصلاح المسلكة إلا أنه لم يعمل برأيه ، فانهى الامر بأقالته ، وبقي فى الاستانة إلى أن توفى وذلك فى نحو سنة ١٨٩٠ وخلفه طاهر بك ، وهو من الأدباء الافاضل ، وصالح باشا الداماد الذى شقه الاتحاديون بتهمة انه دهر مؤامرة لقتل المرحوم محمود شوكت باشا ، وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم ، لكونه زوج ابنة أخيه أى صهر الأسرة المسلكة ، فلم تتم شفاعته ، وخير الدين باشا أيضا ولد اسمه محمد بك ، وهو وأخوه طاهر الآن بتونس اه

(شكيب أرسلان)

« عل أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهتس ، وأخذت أوصافها تتشكك ، و بناؤها يتساقط ، وضمها السكامن فيها يبدو مزدا ، وفسادها يظهر . جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية ، فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشاركة قاطبة من التأثير المعنوي الشديد ما لا يستطاع وصفه ، ولا يعلم حده ، وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لا حول له ولا قوة حيال أوروبا المتمدنة عليمه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لأممنا لبنى أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعا مشهورا ، غير أنه لما دحمت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأول ، وخضعت شوكتها ، ودقت عنقها دقا ، كان لذلك دوى هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب المشرق ، ورقة من رقاعها ، فادت آسيا وأفر يقيا من أقصاها إلى أقصاها طربا ، وجرت في هروقهما نشوة الظفر وحميا النصر ، واعتبرا الانتصار الياباني العجيبة العظمى ، والآية الكبرى : وصف مبشر اسكتلندي ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحا وإبتهاجا ، وترنست ترنخ العنل الجذلان ، وبات القرويون فضلا عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم و يرتلون ترنيلا ، طوافين الليل كله حول المعابد وألميا كل ، وقد قال لي أحد شيوخهم في تلك النضون : « لم تلاق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية ، وأخبرني قنصل عثماني أقام طويلا في آسيا الغربية أن الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم ، وجعلوا لا يهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة سحافل الأفراح لها ، أجسل : مادت آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، وانقلبت هجمة القرون استيقاظا ، فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق توافقة لمقامرة الأهوال في سبيل بقائها ، وهبت آسيا هبة أخرى لمسطرها في التاريخ ذكرا جديدا ونبأ حديثا » .

ومما لا يحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها إلى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه إنما كانت وسيلة عارضة لاعلة في تنبه آسيا وإفريقيا تنبه الاعتزاز ، فراحا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الوثائق بنفسه ، الساعى في مطلب أسر لا يولى على شى « دونه » ، وبسبب هذه الحرب طفقت الأفكار التي كانت تتمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضا لم يشعربه من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل ، فدل جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكبرا انكارها على اختصار الأسباب والعوامل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة في الشرق ، هي حركات التجدد الكبير والانتقال العظيم .

أضف إلى ما تقدم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيرا عميقا في قضية الشرق وتطورها إزاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروبي التي استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافا شديدا ، ومن الغريب العجيب أنه بعيد أن ظفر الشرق الأقصى في رد عادية الاعتداء الأوروبي عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الأوروبي تتوالى على الشرقيين الأدنى والأوسط مرقهما بمخالب الوحشية والبربرية شرم مزق ، وقد وصفنا فيما تقدم من الكلام تلك الزارة الهائلة التي زارها العالم الاسلامي متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الأدبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الأوروبية الحديثة تنقلب غاية في الجشع والنهم فلذلك جدير بنا الآن أن نعلم علما صحيحا مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة في جميع الأقطار الشرقية ، من العلوم أن الشأن الخطير الذي مثله الساسة الغربيون الفلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعماري بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ م إنما كان في درر عصب . قال أرمينيوس فامباري بعد غزوة ايطالية طرابلس الغرب قولاً سيديدا : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب

في العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثيقة، وحرية التنافس والمزاولة لكل ما بين الأمم والشعوب المسيحية على اختلافها، ورسخت روح التسليم على أوروبا واليهودية لها، وتوالت عراجل ذلك في قرارات صدور المشاركة فيما توغل، آمن المسلمون والمسيحيون في شيء ياترى ان ترى على اشد تزايد تأريخا وإيقادا بسبب هذه الحملات الصليبية الخمسة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأن مستقبل المسلمين الشرق والغرب في الاشتباك في نضال هائل، ومما كان رائجا، وأن ذنوبنا زعافا في برعم المشاركة المسيحية لابل يدعة، هذا البرعم الذي أخذ ينتشع عن أكنانه في أفق الشرق كافة ؟ .

وقال في صفحة ٥٩ وما بعدها ما نصه : « وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف تهاجم الغرب يستهانون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدنا الأول على أساس الشورى والشرعية الدينية، وأوضحنا أيضا كيف طرأ الاستبداد على الدول، ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامي، وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورية ملكا عشوفا، وسلطنة استبدادية مطلقة، وكيف أخذ العرب (عشاق الحرية والاستقلال) يسودون أدراجهم إلى الصغراء غضا متجهمين، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية، وعفت آثارها، غير أنه على كل هذا بقي معظم ذكريات خلافة الراشدين والمعتلة الحرية، حية في زوايا الأدمغة، والواجح الناكرة، مستعانة استبدادا طبعيا غريبا للظهور ثانيا. بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يزود عنه كل عربي ذياد قريح الأبطال بالسلاح والأرواح والأسماء، وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عربا والاسلام اسلاما، فن ترى يستطيع أن يتعاضى عن القول الذي قاله صاحب الرسالة : « إنما المؤمنون أخوة » و « المسلمون أحرار » وعما هو مذكور في صحف التاريخ الاسلامي في غير أنباء مصدر الاسلام الحبيب المعروف « بزمان السعادة ». أولم يظل المسلمون الأحرار، النازعون نزعة الاستقلال، حتى في أشد الليالي ملكا، يرددون عالما خطبة الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه التي خطبها في العرب بعد مبايعته بالخلافة : « قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإذا استتمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني ». فالاسلام في عهده الأول إنما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة، وديننا تجلت فيه المنازع الحرية الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الاسلامي فيما بعد من الوهن والتدلي بتعجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفاته، فالشرعية الاسلامية كما قال العلامة ليسبار : « إنما هي ديموقراطية شوروية، جوهرها وأصلها، وعدو شديد للاستبداد ». وقد أجل قامباري هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله : « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا العربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعف واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وبكاهم الذين اتوا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي، وتكبدوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين، فأخذوا في انتحال التأويل القرآنية اتحالا منطبقا على أغراضهم الاستبدادية، وتشددوا في الدين تشددا باطلا برى منه الاسلام (١)، وناصبوا المذاهب الشورية

(١) من أكبر المسئولين عن الخطايا الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء، فانهم إلا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدة الدنيا، وجعلوا دينهم الزلف إلى الأشرار بتسوية جميع موبقاتهم بالادلة الشرعية والافتاء عليها من الدين، وقلما أتى أحد الملوك أو الأمراء المستبددين عملا منكرا إلا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يشبهون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها، وتحريف الكلام عن مواضعه، ورواية الضعاف والموضوعات إلى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلف والجاهزة، وما زالوا يتمادون في غيهم هذا (والسمايون غاضون النظر عن لغيمهم هذا) حتى صاروا يتقربون بهذه الاشياء نفسها إلى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها حزاب الاسلام وهلاكه، فكلما سقطت مملكة اسلامية في يد دولة أجنبية، أو منعت أمة اسلامية لمقع دولة عادية عليها من الأجانب، وجدت الدولة

والاصول الحرية المبدأ ، ففقدوا على جميع ذلك قضاء ، فصاروا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية (١) .
وقد أبدأ في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقي ، ثم أخذ يتعاطى حتى بلغ منتهاه
في القرن التاسع عشر ، وبسطنا الكلام على أن القظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصورا على الإصلاح الديني
فحسب ، بل تنارت الإصلاح السياسي أيضا ورأيت تضييق العالم الاسلامي بأسره من استبداد أسرائه وسلاطه
وسلاطينه المسفة الظلمة ، ونقول الآن : انه بينما كان الإصلاح السياسي الحر سائرا مسيره على انبساط في
الحركة والانتشار . فإذا بقيار سياسي جديد قد هب عليه من جو أوروبا ، فاعترض سبيله وقام في وجهه ،
وكان أهل الفكر والرأي من المسلمين وقد أيقنوا بحال تضييق الشرق الاسلامي وتشتت أمره حيال تقدم
أوروبا وشدة حوطلا وأسرها ، طفقوا يسعون وراء الإصلاح ، متسرعين بالتجزئ الدرائع للوصول اليه ، وإذا
راموا صدق المسعى ، وابتغوا التجديد الحقيقي فلم يعرب عن باهم أن يلاؤى الشرق الاسلامي إنما غالبا مستقر
في حكوماته المنحطة الناعسة الراهنة العظم ، وشارك الأمراء الحكام أهل الفكر وطلاب الإصلاح في هذا ،
وكاهم أجروا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية ، واكتناء أساليبها ، والوقوف على
جميع أسرارها ، هذا إذا كان مرادهم حقا انقشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها ، وتنجيتها من شر
المالكة ، ثم سوقها في سبيل التقدم والارتقاء ، وقد كان السلطان العثماني محمود الثاني في تركيا ومحمد علي في
مصر خير مثالين ظهر بالطرز الجديد من سلاطين الشرق وأسرائه ، وكلاهما كان حكمه في أوائل القرن
التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية ، أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم
المطابق فيخرج نفسه إلى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن يثاق الحكم المطلق بحيث يكون فيه
وسطا بين حالة المستبد العادليين الأوروبيين ، والمستبد الشرقيين ، وكان قصد هذين الحاكمين السكبرين
طالبي التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة في الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك ، تنظيما صحيحا خاليا
من المفسدة والعيب : كما يتسنى للحكومة هذه أن تسيير (بنفسها وفعل نظامها) سيرا مطردا كسير الحكومات
الغربية ، لا أن تظل كسائية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون
بواجب الإخشية العقاب .

وثابر محمود الثاني ، ومحمد علي ، ومن عاونهم على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج هذه السياسة

الاجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لأغراضها بالمقتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها ،
وحسبك أن عددا عديدا من علماء سورية أفتوا أثناء الحروب العائمة ببني الشريف حسين أمير مكة تقربا
إلى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء في الحرب ، واحتلوا سورية ، بايعت هذه الفئة
نفسها الشريف حسين الذي كان عندها من قبل باغيا خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيون الشام
نفضت أيديها ثانية من صاحب الحجاز ، وجهات تفتي بحسب هوى فرنسا ، وعددت الملك حسين أجنبيا .
أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا النون ، وكما عاتبهم الإنسان على هذا التذبذب أجابوه : « إنما هذه
تقية نبتقي بها النجاة من الظلام » ، والاصح أن عذرهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع ،
مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم مداراة الظلام هي باطلة ، بل هم باعة ضماير ، ورواد سفاسف وطلاب
وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا ، وذلك مفتيا ، وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة امضاءه نقدا
دراهم معدودة ، ولا نعلم إلى متى يهمل أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المغممين ، وينظرون إلى العزائم
لا إلى العلماء اه

الرشيعة الحديثة ، غير انه على الجلاء كانت ثمرات هذا الإصلاح الذي بدى بجاليه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مبرضية ولا ماضية للارتياح ، ولا يبرم فاته قد كان في استمالة السلطان أو الأمير ابتداء التسليح ، وإنشاء السرائر والملك الحكومية على الطراز الأوربي ، ومشدتها بالبلد ورجال الوظائف والأحكام المترين بأزياء غربية ، غير انه لم يكن المستطاع الاتيان بنقبة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين المظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه ، وأسباب حضارته وعمرائه ، ولذلك كانوا يحجزون عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة لأنه ليس فيهم الكثير الكافي من رويح الاقسام والمضي في العمل ، ولا هم يقبلون من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفتهموها ، ولا ألفوها ، بل كانوا يحماون نفوسهم على موافقة الأعمال الإصلاحية عن فتور وتراخ ، وشيخ ما كانوا يعرفونه ويشومون به هو العنصرية العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم ، هكذا كانت الحالة في بدء الأمر . بيد انه على توالي الأيام أخذت القوى العسكرية تنظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غلبت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثين ، وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الإصلاح الحديث قليلا ، فظل أمرها مقصورا على اكتساب المظاهر الغربية من خارج لانها لم تزل كثيرا من أسرار المعاصرة والمجددة التي هي شرط لازم في حال كل حكومة منظمة راقية .

أضف إلى هذا أنه في غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهبا وطرازا عن من سبق ذكرهم يقومون أحزابا مؤلفة ، وغايتهم إنما هي اقتباس جميع الابتكارات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما كانت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعتها الحال ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازديادا متواليا من المنسوبة الأحرار المتشبعين أفكارا وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهديب في المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربي ، وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركيا نشوءا محسوسا ، وفي سنة ١٨٧٩ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عاليا ، وأكرمت السلطان الضعيف على منحه الدستور . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » هذا أيها الذكي ما قر في صدرى في تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وهذه صورة ملخص هذا المقام : —

(أولا) ونعم نعمته عليك ، وهي رضي الله عنهم ورضوا عنه	(ثانيا) الهداية القلبية للنوبة التي استجبت منها الأمة إلى هذا الزمان ، وهي قوله وبيدك صراط مستقيما	(ثالثا) النصر وعاقب هذا الدين بالجنة على سائر الأديان ، وهو : « ونصرك الله نصرا عزيزا »
--	--	---

انكشاف الحقائق ويتفرع عليه

اشراق النفس وهو
أس انكشاف الحقائق

ينتج منها

« ليغفر لك الله ما تقدم من
ذنوبك وما تأخر »

بهجة هذا المقال

مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم

استيقظت قبيل الفجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م - الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ وقد قدمت « سورة الفتح » للطبع ، وأنا مفكر في عجائبها ، دهش من بدائعها ، إذ صنعت لي سائجة ، من نظرات النجوم ، في حالك الليل البهيم ، فأشرفت نفسي لإشراقها ، وأخذت الخاطر يبدو بعد الخاطر ، ونما الفكر حتى صار قويا ، ويستمرّ ينمو حتى تخيلت أمي بشرا سويا ، جسمه من النور ، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم ، إذ صرت في عالم الخيال ، بعيدا عن الحس ، مصروفا عن عالم الأجسام ، فأخذت يحاورني وهو يقول : لقد لمحتك تنظر الكواكب الآن ، وأنت تفسر القرآن ، فحضرت لمعوتك ، وهملت لأفادتك . لقد فسرت الفتح بالكشف العلمي ، وجعلت ذلك أشبه بشجرة ذات أغصان ، جذورها المغفرة والبراءة من الذنوب ، وصفاء النفوس ، وساقها انكشاف الحقائق ، وفروعها الاستقامة بالأخلاق ، والنصر المبين والرضوان أولا أحدثك الساعة في هذا المقام حديثا ، تكميلا لما لك ، وتعلما للقرآن : إن هذا المشكل الذي ضربته وهي الشجرة ينقصه تبيان أتم ، وتعليم أهم . فقلت في نفسي متحجبا : من أين أقبل هذا الخيال ؟ ولعلّ خواطرنّا اذا نمت وعظمت تجسّمت أمامنا ، والا فهذه الخواطر لا تخرج عن تفكيرى ، ولا تحود عن تقديرى ، فما كاد الخاطر يتردد في نفسي حتى أخذ يقول : إني أتيت إليك من الثريا في السماء ، لأنك في أكثر الليالي تنظر إلى النجوم ، وتجب من محاسنها ، فصار ذلك من أسباب اقترانى منك ، واسهادى لك ، وحديثى معك ، إن انكشاف الحقائق الذى ذكرته وما ترتب عليه من الفروع المذكورة يهوزه من العلم نوعان : أولا تطبيق آراء الأمم الحاضرة عليه ، ليسكون تفسير القرآن في زمانكم ملائما لعلوم أئمتكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للإسلام نفوس الأمم الاسلامية ، وحتى يكون من المعجزات والآيات البينات في زمانكم ، وكما قال علماءكم « ان القرآن لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضى غرائبه ، وتبدل في كل زمان حكم طريقة ، وبدائع حديثه ، تزداد معجزاته ، ويزداد أنس العلماء به » - (ثانيا) تطبيق أحوال الأمم الاسلامية الماضية بعد العصر الأول ، وكيف حصل اختلاطها ، وازداد اختباطها ، وأقبل هزها ، وأدبر شبابها ، وحلك ليلها ، لما عمت عن اكتناه السرّ المسكنون ، وانباع طريقه المرسوم .

فقلت : أيها السيد الجليل الجليل : إن في قولك لنورا ، وفي حديثك انبا ، فأفندني رجلك الله عما وصفت ، وأخبرني عما أفدت . فقال : أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنا أنقله لك مترجما بالحرف مما كتبه الغربيون في التعاليم لتلاميذهم ، إذ يصطفون من العلم زنده ، ويجهلون تلك الخلاصات في كتب المظالم ، وهاهى ذه قطعة لخص فيها القوم مقاصد التعليم في جميع الأمم ، وفي كل زمان ومكان ، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التى يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية ، فهناك قطعة من الكتاب منقولة من كتاب (مان ذى ماستر برس) تأليف الاستاذ (كلوج) وهذه القطعة من مختارات الترجمة ، فهأنا ذا أترجمها لك

مقاصد التعليم

« إن مقاصد التعليم لا تعدو أن تكون معدة المرء أن يستخرج جميع مواهبه في الحياة : يجب أن يكون تعليم الانسان الذى يزاول الأعمال الجسمية معدّ له أن يكون كفتا لها جديرا باستثمار ما هو بصدد من الأعمال الانسانية ومرافق الحياة خبر استثمار . إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهى : دعامة العقل ،

ودعامة الأدب ، ودعامة الجسم . وكل نظام تعليمي مثلاً من أحد هذه الدعائم الثلاث فانه لا مثالة مضمحل لا بقاء له ولا نفع فيه لنوع الانسان ﴿ مثال ذلك ﴾ : اذا علمنا الصبي صناعة كالة جارة ، أوعلمنا كالمهندسة واسكننا لم ننم فيه قوة سب الخير العام ، فيحب الصاق ، والاخلاص ، وطهارة الضمير ، والصالح ، والعدل وصدق القول ، وحب المنفعة للناس ، ومما شرتهم بالحسن ، فاننا إذ ذاك نكون قد أعطينا سلاحاً ماضياً به يصبح ماهراً في إحداث الشغب ، ويكون ختلراً على المجتمع الذي تربى فيه ، وهكذا اذا برع في العلوم ، وتهذبت نفسه وملكها ، وصار من البررة الأخيار ، فان كان في العلم فهم من أعظم الحكماء ، وان كان في الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، واسكننا أغفلنا تربية جسمه ، ولم ننقو عضلاته ، ولم نحسن تقديته بما يناسبه ، ولم نحمله بما يكون ضرراً عليه ، فان هذا يعوزه قوة طبيعية ، وأخرى حيوية ، ليتوصل بهما إلى منافع الحياة والتمتع بها ، ويعوزه جسم حديدي هو بالإصرار في أشد الحاجة إليه ليناطربه ويجاهد في معترك الحياة » انتهى

ثم قال : فهل لك أن أحدثك عن تطبيقها على الآية . فقلت : إني إلى ذلك وامق . فقال : أنت حينما كتبت الجدول الذي رسمته في ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة ، لذلك حضرت إليك ، فالقوة العلمية من القوى الثلاث يشار إليها بانسكشاف الحقائق في الآية ، والقوة البدنية يشار إليها بالصراع على الأعداء : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » . إذ لا يكون إلا بقوة البدن (في الفزوات) ، والقوة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله : « ويهديك صراطاً مستقيماً » . إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هي نفس هذه الآية ، فقوة الجسم ، وقوة العلم ، وقوة الأدب ، هي المعول عليها في زمانكم .

ثم ضرب مثلاً ، فقال : إن الأمم الإسلامية أشبه بجسم واحد رأسه في زمن النبوة ، ورجلاه في الأزمان المتأخرة ، فهذا الجسم الإسلامي قد أعطى القوة الجسمية بدليل غزواتهم ، وأعطى القوة الأدبية بدليل نظام مما سلكهم ، وأعطى القوة العلمية وهي الدين والعلوم فعاشوا إلى حين . ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئاً فشيئاً ، وأخلاقه تنحط ، وعلمه ينقص . وههنا أن أذكر :

تطبيق الآية الثاني على الأمم الإسلامية

إن هذا الجسم الإسلامي أخذ يرجع القهقري شيئاً فشيئاً ، فانظر كيف يقول ابن خلدون في مقدمته ما خلاصته : « ان هنا أصراً أصلياً وله فروع ، أما الأصل فهو الدين ، فاذا رأيت أمة أو أسرة تحب أهل الصلاح والتقوى والدين ، وتفرم بذلك ، فان هذه الخصلة يتبعها فروعها ، وهي الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة المحزنة الضعاف ، والفقراء ، والعدل . ويقع ذلك سياسة الأمم ، وحفظ الدولة ، ونظام البلاد ، وهذا قانون لا ناقض له ، فاذا رأيت قبيلة أخذ يرجع القهقري في سياسته ، فابحث في أخلاقه ، فانك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أفل نجمها ، ثم ارجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت في الانحلال ، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظراً إلى أمور غير محمدية ، فلا يحبون الصالحين ، ولا هم لهم يعظمون . اذا علمت هذا فانظر كيف يقول : « إن المسلمين لما قاموا فاتحين بالدين ، واستمسكوا به ، بقي ملكهم ، فلما خلعوا ربقتهم ، تقلص ملكهم ، وذهبت ريحهم ، وأصبحوا حصيداً خالدين » ، فالكلام على الدين ، ومعه العلم طبعاً هو القوة العلمية ، والكلام على رجة الضعفاء والعدل إلى آخر ما تقدم هو القوة الأدبية ، فأما القوة الجسمية فان لها شأنًا آخر ، وهو كلام النبوة ، وذكرته أنت في ﴿ سورة النمل ﴾ عند الكلام على آية : « إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » مع آية : « فلذلك بيوتهم - خاوية بما ظلموا » إلى آخره .

فهناك أولا حديث : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وذكرنا هناك أن بقية الحديث في ﴿ سورة الأنفال ﴾ إذ صرح ﷺ بأن الفناء وفتوح البلدان وإن كان خيرا للنفس الصالحة فإنه يكون شرا للنفس الفاسدة الجاهلة ، فإن نفس الفناء تكون سببا للترف والنعيم ، ثم يعقبه النذل ﴿ ثانيا ﴾ قال ﷺ : « كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ، ووضعت بين يديه الصنعة ورفعت الأخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر السكينة ، قالوا يا رسول الله : نحن يومئذ خير منا اليوم نكفي المؤونة ونفرغ للعبادة ، فقال بل أتم خير منكم يومئذ » اهـ

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضره فان الأبدان ، والأبدان هي الدعامة الثالثة . إذن الدعائم الثلاث للتعليم في كلام علماء أو وبا نظير الدعائم الثلاث في آية الفتح ، وصدق تطبيقها فعلا على الأمم الإسلامية ، فهم أولا كانوا أقوياء علما وأدبا وجسما ، فدام ملكهم ، فدام وقعوا في الترف ضعفت الأجسام وذهبت الآداب ، وقل الدين ، فذهب الملك .

إذن ظهور هذه المعاني اليوم معجزة القرآن في هذا الزمان ، وقبل أن أختم حديثي معك أيها الجوهري أقول لك : إن قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ نضرب له مثلا بقول القائل : « يا فلان : إن الله أهلك الصلاة لتنظف بدنك ، وتناجي ربك ، ولينشرح صدرك » ، فالوضوء من شروط الصلاة يتقدمها ، والآخرة في نفس الصلاة وبعدها ، هكذا هنا المنفرة أي عسدم وقرع الذنب متقدما على الفتح كالوضوء ، والبقية مصاحبة أو متأخرة عن الفتح كمسألة الصلاة المتقدمة ، فإن المناجاة فيها ، وانشرح الصدر فيها وبعدها ، ثم إن الاستقامة ، والنصر ، وانكشاف الحقائق المقابلات لأعمدة العلم الثلاثة في كلام الأمم المعاصرة لكم تكون نتيجة السعادة في الدنيا والآخرة ، وهو المعبر عنه في الآية بقوله : « وليتم نعمته عليكم » وهي الرضوان ، والرضا هو تمام السعادة اهـ

فما كاد يتم حديثه حتى أفقت من غشيتي ، واستيقظت من سباتي ، وفتحت عيني إذا نورا فجرا مشرقا والمؤذن يقول : « حي على الصلاة ، حي على الفلاح » ، فسكنت ماوعيت ، وقلت : الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٩٣١ م .

تذكرة

ثم بعد ما كتبت ما تقدم ، واسترحت قليلا ، أجلت فيه النظر ، وأخذت أقرأ النقطعة الانجليزية ، إذا بالترجمة هي عنها ، غاية الأمر أنها أوضح من الأصل الانجليزي بضرب بعض الأمثال ، ثم أخذت أفكر في الأعمدة الثلاثة المتقدمة ، وجال فكري في مباني الاسلام الحسن ، فماذا وجدت ؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتحة بالنسبة لمحتمة بالتسليم ، ووجدت أن هذه الأفعال وما مائلها من السبق والرمي ، المشروعين في الاسلام ، المتوابعين للأبدان وعضلاتها ، المتروكين منذقرون ، لجهل الأمم العجمية (التي قامت بدين الاسلام بعد العرب) بمقاصد هذا الدين ، حتى إن أيام دراستنا بالأزهر كنا نقرأ « السبق والرمي » ولا نعمل بهما اتباعا لأسلافنا ، وجهلا بديننا ، ووجدت الحج والصيام كلاهما من مقويات الأبدان كالصلاة ، فالحج فيه كثير من الحركات ، والصيام فيه تصفية الجسم من العفونات ، اقرأ هذا المقام في أول ﴿ سورة العنكبوت ﴾ تجد ما للصيام الطبي من الفوائد ، وهو الذي شرع ما يقرب منه دين الاسلام ، وقد قال رئيس أطبائنا بمصر في خطبته السنوية في الثقافة العلمية في هذه السنة : « إن الحيوانات لها أيام تصوم فيها إذا مرضت » والناس غفلوا عن ذلك ، انظر ذلك في الكتاب السنوي الثاني الذي أصدره المجمع المصري للثقافة العلمية سنة ١٩٣١ م أي هذه السنة .

المسلمون يصلون ، ويصومون ، ويحججون ، ولكن إذا عرفوا فوائد تلك الحركات لم يحصل منها شيء ولم تركبها من أهل العلم في بلادنا تاركين الصلاة جهلاً بما فيها ، وغفلة عن حقايقها .
فهذه مجامع التربية الجسمية في ديننا ، وهي إحدى الدعائم . يقول علماء التربية حديثاً : « ليس المدار في حركات الجسم على رفع الأثقال ، بل المدار على تقدير الحركات ، ويجب تحريك كل عضو مسرات كافية ليحصل المقصود » ولقد جهلوا خيرات الرياضات رياضية المشي ، لأنها تحرك جميع الأعضاء ، ولما طبقتها بعض علماء التربية المسلمين على حركات الصلاة دهشوا وقالوا : قيام ، فرفع يدين عند الاحرام ، فركوع مع رفع اليدين ، فرفع الرأس مع تحريك اليدين ، فسجود ، فجأوس ، فسجود آخر ، فقيام ، ثم جأوس ، للتشهد ، ثم تعاد الحركات فتكبر .

هذا أعظم نموذج للتمرينات الجسمية ، هذا ما سمعته من علماء التربية في زماننا ، ولكن ليس أنامى نص الكتاب ، ومتى وقع في يدي الكتاب بهذا النص أثبتته إن طالت الحياة .

مسامرتان : المسامرة الأولى

حدثني تاجر يبيع الخشب بالرج ، كنا نشتره منه اسواقى منزعجتا بتلك الجهة . قال : لقد جاءني سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية ، فرأيتي أنوضأ وأصلي ، فسألتني ما هذا ؟ فقلت صلاتنا ، وشرحت لها ذلك شرحاً كافياً في الصلوات الخمس ، فأظهرت الدهش وقالت : إذن أنتم لا تعرضون . فلما قصت عليّ القصص . قال : وما السر في قولها ؟ قلت : هذه سيدة متعلمة في بلادها ، وهم يدرسون علم التربية البدنية والحركات المصالحة للأجسام ، فهي متشعبة بذلك ، وبأن غسل الأعضاء في أكثر أوقات النهار ضرورة لازالة ماعلق بالجسم من الذرات المؤذيات الموجبات للأمراض . فلما رأيت ذلك أدهشها اننا قوم جهلاء ، نفعل هذا ونحن عنه غافلون ، وبهذا لانقر بنا الأمراض . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

كنت جالساً في بلدة المرج أيضاً عند الضابط الذي هناك ، وكان هناك بعض أعيان البلاد ، وقد دار الحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضاً ، لأن لها بعض المشاكل القضاية التي أوجبت معرفتهم بها . فهاك حديثها : « قالوا إن فلانا (سموه باسمه) من بلدة كذا في مديرية القليوبية ، وقد سافر إلى ألمانيا ، وتزوج هذه الفتاة ، وحضرت معه ، فامارأت أباه وأمه المجوز بن يتوضئون ويصلون . قالت لهما : ما الخبر ؟ فقصا عليها قصص الاسلام وقواعده ، فأسلمت حالا ، وداومت على الصلاة ، وقالت : هذا خير دين ، هذا دين عجيب ! فأما زوجها فانه بقي على حاله أي هو مسلم لا يصلي .

نظرتي في أمم الاسلام المستقبلية

إن أمم الاسلام المستقبلية سيقروا هذا وأمثاله ، وحتما سيسارعون إلى قراءة تلك العلوم ، وستسكون صلاتهم غير صلاة آبائهم في العصور الأخيرة ، فهم لا يدخلون فيمن قال الله فيهم : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » وانما لا يكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة ، فأدركوا سر الحركات ، فهم إذ ذاك يصلون بمحض المحبة لا بالخوف ، كما يفعل أكثر المسلمين في الأعصر الأخيرة ، ويقولون إذ ذاك : إذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة ، اختياراً منا لا خوفاً ، وذلك لأجل صحتنا ، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات المذكورة في الصلاة أولى ، لأن فيها تقوية الجسم ، وهذه إحدى الدعائم الثلاث في التربية العامة ، وفيها تذكر علم الأخلاق والمحبة العامة (بطلب الهداية والاستقامة) في الفاتحة ، وفيها

الدعاة الثالثة ، وهي ذكرى تثقيف العقول بالحج إلى الله رب العالمين ، وبتذكر المصلي في سجوده وركوعه السمع والبصر وعجايبهما ، وفي ذكره السموات والأرض في أول افتتاح الصلاة وهكذا .
وسيقولون أيضا : إن العلم سيجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لا على الخوف ، والعبادة على سبيل المحبة هي المحبة النافعة ، أما عبادة الخوف فانها أدنى منها مراتب ودرجات . إن الانسان إذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة ، وكل عمل يصحله المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم ، وهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر .

يقول المسلمون بعدنا : إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ونفسوا ما ذكروا به أخذوا يدرسون القرآن بلا عقل ، فلا علم ، ولا تهذيب ، ولا قوة جسمية ، لذلك ذهب ملكهم ، وزال سلطانهم ، وهانحن الآن في مبدأ حياة اسلامية جديدة نتجدد ما عندهم الأولون ، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة :

المسامرة الثالثة

لما اطلع على ما تقدم صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : لقد عوّلت على أن أصل الفتح إنما هو الفتح العلمي ، وجعلت الفتح العلمي بالسيف تابعا ، وهذا حسن : فأرجو أن تزيد المقام أيضا بمثال معروف تنهأ به النفوس وتهش له . فقلت : ألم يكفك أفعال رسول الله ﷺ كما تقدم . ألم يكن قوله وتعليمه قبل نشر سلطان الاسلام ؟ قال بلى : قات : كفاك ذلك . فقال : ولكن أريد مثالا يكون قريب المأثول : لأن النبي ﷺ ينظر إليه الناس نظرة يشتم منها أنهم يقولون نحن اسنا مثله : فهو مؤيد بالوحي والقوة : أما نحن فلا ، فإذا أتيت بمثال غديره يكون ذلك أقوم قبلا ، وأهدى سبيلا ، وأحسن مثالا ، وأقرب مثالا ، فقلت : إن أم الاسلام ما حفظت ملكها الا بالعلم : فلما زاد علمهم زاد ملكهم . فقال : هذا كلام عام . فقلت : ان مسلمي الهند كانوا هم أصحاب الأمر والنهي في البلاد الى نحو القرن الثامن عشر ، ولكنهم كانوا جهلاء : فلما احتل الانجليز البلاد وحاربوهم غلبوهم فأصبحتوا ضعفاء في البلاد لاحول لهم ولا قوة : فلما كان عندهم علم لم يسلب منهم الملك : فعدم الفتح العلمي هو الذي أورث زوال ملكهم . قال : وهذا أيضا كلام اجالي . فقلت : إذن فلا سمعك ماجاء في تاريخ تأسيس كلية عليكره ، فإن ذلك يكفيك . فقال : حدثني رعاك الله حديثها . فقلت : ان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة أخذ يقدم الفتح العلمي لينقل منه الى الفتح العلمي كما فعل ﷺ . فقال : أرجو إيضاح المقام . فقلت :

جامعة عليكره ، وعملها العظيم في الهند

أتق الاستاذ نضر الدين أحمد مسجل جامعة عليكره محاضرة نفيسة في هذا الموضوع على جمع كبير في جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها (١) فيما يأتي :

حضرة الرئيس ، حضرات الاعضاء ، أيها السادة ،

إني أشكر الله على أن أتاح لي فرصة التكلم الليلة الى رجال الحاضر وسادة المستقبل . وآسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتكم العربية التي هي أيضا لغتي : لكن لو كنتم مكاننا في الهند ، وكنت أنا مكانكم لاعتذرتكم الى كما أعتذر اليكم . على أنه لا داعي لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة فقد اخترت موضوعا يحبه المسلمون في الهند ، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه . ذلك الموضوع هو عليكره . وهو اسم أرجو أن يكون معروفا لكم فانا في الهند نعرف الأزهر ، وقد كدنت أقبلي الأزهر حين ذهبت لزيارته . وفي الهند من

(١) مبنية على مذكرات أخذت أثناء اللقاء :

يقبل عليكم :
 ان عقلة عليكم تقوم على شيئين : الأول أنها أعطت الهند مثل العليا في التربة التي لا بد منها لمن

يريد أن يعيش ، والثاني وهو أهمها أنه لولا عليكم لما كان في الهند اليوم من آمون تسمعون عنهم ، ويسمع لهم . كان يكون هناك مسلمون : لكن مسلمون لا يأتوا أحد بهم ولا يقيم لهم في شؤون الهند وزن . أما اليوم فان المسلمين - وان فقدوا في الهند حكما ، وان كانوا أقلية في الهند - فان لهم منزلة فيها لا يستعجي مسلم أن يتركهم أويذكرها . ذلك بفضل جامعة عليكرة التي هي أهم ما يعلل المسلمون في الهند بهذا . أن فقدوا الحكم . وستكونون أقدر على تبين صدق هذا القول اذا عرفتم شيئا عن حال التربة في الهند قبل عليكم :

كان المسلمون حكام الهند قبل أن يذهب الانجليز هناك ، وكانوا يحكمون الهند لما ذهب الانجليز هناك للتجارة . وقد مكث الانجليز في الهند تجارا نحو ٥٠ سنة انقشرت فيها التربة الحديثة ، ولكن بين غير المسلمين ، لأن المسلمين انكسروا على أنهم هم الحكم وظنوا أن لا حاجة بهم الى تعلم العلوم التي تنفع التاجر والنافع وما اليهما من طلاب الرزق أو طلاب القوة : لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم . هذا طبعا خطأ كبير لكنه خطأ وقع فيه المسلمون : فلما فقدوا حكم الهند في القرن الثامن عشر ونزلوا الى مرتبة المحكوم الذي لا بد له من الجهاد في الحياة ، وجدوا أنفسهم لا يحسنون من طرق الجهاد في الحياة شيئا . كانوا يحسنون طريقا واحدا هو طريق الحرب : فلما غلبوا في الحرب وزال الملك عنهم وجدوا أثر ذلك في أنفسهم ، ولا عجب ، وانسدت في وجوههم السبل ، ونزلوا الى درك من الذلة سحيق ، لكن كان لا يزال بأيديهم بقية من ثروة ورثوها من أيام الحكم فهاشوا عليها وان لم يحسنوا نعيمها : حتى قامت فتنة الهند في القرن التاسع عشر ، وهي فتنة كبيرة كان غرضها التخلص من حكم الأجنبي في الهند : لكنها لم تنجح لان الذين أقاموا بها لم يكونوا أكفاء لها ، وكان عاقبة النشل فيها أن أنزل العقاب بكل من كان له فيها يد ، ولم تكن هناك أسرة مسلمة الا وكان لها في تلك الفتنة يد ، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلمة الا ونسكت في نفسها أوفى ما لها ، وزال عن كثير من المسلمين حتى تلك البقية من الثروة التي كانوا من قبل يعيشون بها فأصبحوا في حالة من المذلة والضعف والجهل بأمور الحياة لا يدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهتدين بالفناء الاجتماعي ، عندئذ قبض الله لهم رجلا من أكرمهم بيتا وأكرمهم قلبا وأوسعهم عقلا وأبعدهم همة : هو السيد أحمد خان جاء من بيت محمد ، فقد كان أبوه رئيس وزراء ، وكان جده رئيس وزراء : لكن تلك الاحداث قد نزلت به كما نزلت بغيره ، واضطرته الى العمل فلم يفت ذلك في عضده ولم يذله عن أن ينظر لنفسه ولقومه :

نظر السيد أحمد خان فوجد أن الداء هو أن المسلمين لم يعملوا أنفسهم حين كانوا حكاما ، واذن فالدواء هو أن يتعلموا الآن إذ صاروا سوقة :

شعر السيد أحمد في سنة ١٨٦٥ أن لا بد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية العلمية ان كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم وألا يفنوا في غيرهم ، ولانكفي التربية العلمية وحدها : بل لا بد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الاسلامية وآدابهم ، ومن أين لهم الجمع بين التربية العلمية والثقافة الاسلامية ، ومعاهد التربية الحديثة في الهند كلها معاهد غير اسلامية : عندئذ أيقن أن لا بد للمسلمين من جامعة علمية اسلامية ، وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم ، لكن كيف والصعوبات في سبيله كثيرة ؟ هناك مثالا صعوبة المال فان الجامعة لا تقوم الا على مال كثير ، وهناك صعوبة اللغة ، فان اللغة الأردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم للسبب الذي ذكرت لكم ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير في ترجمة أوفى مصطلحات :

لأن الخطر كان عظيماً قريباً ، وكان لابد للنجاة منه من عمل حاسم سريع . قلب السيد أحمد خان الأمر على وجهه فرأى أن ليس مشكلة المال حل الألتدريج ، يبدأ بمدرسة ولو في كرخ و يترقى بها كلما ترقى وسائله حتى تصبح كلية ، و يترقى بها حتى تصبح جامعة . أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل إلا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة في الهند لغة درسته أيضاً ، ولكي يسهل إذا صارت المدرسة كلية ، والجامعة إذا صارت الكلية جامعة ، إذ عندئذ يمكن أن تتفرغ اليهود لاكتساب العلوم والفنون الميسورة في تلك اللغة ، لكن اتخذه اللغة الإنجليزية لغة للتعليم في مدرسته يرضه لسخط طائفة الملايين المسلمين ، وعامة المسلمين هم طوع هذه الطائفة : أي طائفة شيوخ الدين بين المسلمين في الهند . ومن الطبيعي أن يكره المسلمون شيوخاً وغير شيوخ ، لغة الدين أذلهم وسلبوهم الملك وصيروهم إلى ماصاروا إليه ، وأن يسخطوا على من يريد إدخال تلك اللغة في أي معهد إسلامي ، فضلاً عن جعلها لغة التعليم فيه ، لكن لابد مما ليس منه بد ، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الفناء ، وإذا سخط الشيوخ في الأول فسيديرون إذا تبذرت لهم حقيقة الموقف أن الداء عضال يحتاج إلى دواء قد يكون السكت ، وسيديرون في الآخر من أعد لهم الدواء وإن سخطوا عليه في الأول ، هكذا فذكر ذلك الرجل الفيلسوف السيد أحمد خان ، وهكذا قرر ، فأسس مدرسة في بضعة أكوخ عدد طابقتها نحو اثني عشر ، وميزانيتها حوالي ٤٠٠ جنيه ، ولقبتها الإنجليزية ، واثارت عليه ثائرة الشيوخ ، ثائرة كثير منهم ، فإن هناك شيوخاً وشيوخاً . ففي الشيوخ رجال تغو لهم الجباه إجلالاً عن استحقاق ، ولكن فبهم أيضاً من لا يتجاوز نظرهم حاضرهم ، ولا يحكمون الأعاطفتهم مع غلو في هذا التحكيم ، وهؤلاء اتق منهم السيد أحمد خان أذى كثيراً ، ولكنه كان متوقفاً ذلك ، وموطننا النفس على تحمله ، لأنه كان يعلم أن خيرهم وخيرهم ، ومستقبله ومستقبلهم ، بل مستقبل الإسلام نفسه متوقف على المضي فيما استخار الله فيه وعزم عليه :

هكذا يا حضرات الاخوان : بدأت جامعة عليكرة ، والآن هي من أكبر الجامعات في الهند ميزانيتها ٦٠٠٠٠ جنيه ، وطلبتها ٣٣٠٠ طالب :

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكرة سنة ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٨٢ أي بعد سبع سنوات فقط من تأسيس عليكرة ، ألقت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية في الهند ، فكان رأيها الوارد في تقريرها أنه «إذا اتبع في الهند مثل عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية في الهند» . فعليكرة كانت الرائد الذي شق للهند طريق التربية الوطنية ، والذي أعطى الهند فكرتها عن التربية القومية : قال السيد أحمد خان ، إن مناهج التعليم والسياسة العامة في التعليم والتربية ، يجب أن تكون بيد جامعة أو جامعات أهلية لا بيد الحكومة ، لكن لابد لمثل جامعة عليكرة الأهلية الإسلامية من الانتفاع بتجارب الجامعات التي سبقتها إن كانت تريد أن تحقق الغرض الذي أسست له . وغير المسلمين انتفعوا بتجارب الجامعات الأوروبية فلماذا لا ينتفع المسلمون بذلك أيضاً في تحقيق أغراضهم الإسلامية ؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتي كمبردج وكامبريدج ليرى نظامهما بعينه ويختار منه الصالح . ذهب ومعه ابنه القاضي الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهنود ، ودرس المسألة هناك عن كثب فوجد بعد الدرس والتفكير : أن مجرد مرور الامتحانات لا يستحق أن يكون مثلاً أعلى للطلاب ، وأن مجرد منح الدرجات لا يصح أن يكون غاية عليا للجامعة : لكن تربية الخلق ، تربية الشخصية . تكوين الرجال هو الذي ينبغي أن يكون الغرض والغاية . وقرّر رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكرة تكوين الرجال وتخرج القادة : أي تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم إلى رجال ينهضون بأعباء الأمة الإسلامية في الهند ، ثم تخرج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهنود المسلمين . هذا كان أهم ما ينقص المسلمين في الهند ،

وقرر رأى السيد أحمد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكرة سد هذا القصر . لكن تسكو من الرجال القادة يصعب جدا إذا كان الطالب يشتد خارج الجامعة ما يكسب داخلها ، أو بالأحرى إذا كانت جامعة تلك هي غايتها لا تشرف على الناشئ إلا في جزء من يومه وتترك الباقي الظرف والمصروفات ، فقرر رأى على أن تسكون الجامعة داخلية يعيش الطالب فيها كما يعيش في بيته ، ويعيش بين أساتذتها كما يعيش بين أهله ، واقتبس السيد أحمد من كبردج واكسفورد نظامها في ذلك ، واستعان بطائفة من كبار أهل العلم والتربية أمثال السير إلى (١) والمستر توماس أرنولد (٢) من الأفرنج ، والدكتور نذير أحمد (٣) ، وشبلى النعماني (٤) وخوجه الطاف حسين حالي (٥) فجاء بهم إلى عليكرة ، وتوسس فيها الحياة التعاونية التي يعيش الطالب فيها بين أساتذته في الجامعة كما يعيش بين ذويه يعلمونه في ساعات العمل ويهنّبونه في ساعات اللعب وينصحتونه من قريب ويلحظونه من بعيد قاصدين في ذلك كله إلى أن يجعلوا منه رجلا يحسن الجهاد في الحياة . ومن الطبيعي أن لا يقدر على نفقات هذه التربية اجالا إلا أبناء الخواص من المسلمين أى أبناء الطبقة الوسطى على الأقل ، أما الفقراء فالنابغ منهم يستطيع دائما أن يحصل من الجوائز المالية على ما يمكنه من القيام بنفقة تلك التربية . وليست نفقاتها من الفداحة على ما قد يسبق إلى النفس أول الأمر فانها تباهج خدمة جنهات في الشهر وهو مبلغ ليس في الحقيقة بكثير إذا قيس بمثلها في مثلها من الجامعات

والحياء الرياضية الجامعة كانت أيضا مما اقتبسه مؤسس جامعة عليكرة من الحياة الجامعية في أوروبا . فالألعاب الرياضية المختلفة تلعب فيها . ولا تنسوا ان ذلك كان شيئا جديدا في حياة الجامعات في الهند في القرن التاسع عشر ، وقد تفوقت عليكرة على الخصوص في لعبة السكرات وظل فريقها خبير فريق في الهند لمدة طويلة

فأتم ترون يا حضرات السادة أن جامعة عليكرة لم تهمل ركنا واحدا من أركان التربية ، فهي تقوم على التربية العقلية في أوقات العمل ، وعلى التربية البدنية في أوقات اللعب ، وعلى التربية الخلقية في جميع الاوقات . ترون انها بذلك كله قد أعطت الهند مثلا عاليا في التربية القومية ، ونجحت المسلمين من الاندثار المحقق الذي كان يهددهم بما بصرتهم به من أمور الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكونت لهم من رجال . وليس من رجل مسلم له مقام أو كلمة مسموعة في الهند الا وكان طالبا في عليكرة أو متصلا بها بطريق ما . فالرحوم مولانا محمد علي كان من طلبتها ومولانا شوكت علي من طلبتها ، وهذا المحاضر الفقير من طلبتها وهي لا تجدد بين المسلمين رجلا ذامواهب الاوتعهدته وانتفعت بمواهبه بأن تختاره رفيقا لها مثلا أو تختبئه عضوا في مجلس شيوخها الذي هو مجلس ادارتها أو مشرفا على مالياتها ، فالقاضي السيد محمود ابن السيد أحمد خان ، أو بالأحرى ابن السير السيد أحمد خان ، قد منحه لقب سير اعترافا بخدماته للعلم بتأسيسه تلك الجامعة ، هو من شيوخها والسيد حسين بلجسي عماد الملك هو من المشرفين عليها فبفضل الله ، وبحسن الاخلاص في سبيله نجح ذلك العمل العظيم ولعلكم الآن أقدر على ادراك صدق ما قلت لكم في أول كلامي

(١) كان أستاذ اللغة الانجليزية في اكسفورد (٢) المستشرق المشهور صاحب تاريخ انتشار الاسلام وقد صار بعد سير توماس أرنولد وقد زار مصر منذ عام وأتى فيها محاضراته في الفن الاسلامي ثم توفي بعدها بقليل (٣) كان رحمه الله من أكبر الكتاب في الهند ومن أول من جاهد في سبيل تربية الفتاة الهندية المسلمة كتب كثيرا من الروايات بالأردية

(٤) كان رحمه الله أكبر عمدة في تاريخ المسلمين في الهند ، وهو مؤسس دار المصنفين في الهند وما يتبعها من دور التعليم والثقافة :

(٥) كان رحمه الله أكبر شاعر قومي في القرن التاسع عشر

من انه لولا عليكرة لما كان اليوم في الهند مسلمون . انكم خارج الهند لا تدركون كيف كان يشهر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم . ونحن الآن نعرف أن المسلمين كانوا يعنونون اليوم في الهند خداما أذلة لولم يقبض الله لهم ذلك الرجل الذي أسس تلك الأكواخ التي صارت بهندكليات (١) ثم دارت بهند جامعة (٢) إن المسلمين أقل عددا من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل الله وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم وأن يكون لهم قول مسموع في شؤون الهند وفي شؤون التربية في الهند

لسكن السير سيد أحمد كان يرمي بتلك الجامعة الى ماهي أبعد من ذلك . كان يرجو أن يصير يوما ما منار العلم والتربية في الشرق الاسلامي كله . كان يرجو أن يكون مثلها كمثّل الشجرة الطيبة المذكورة في القرآن « أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » وكان يرمي الى أن تكون رسول العلم والمعرفة والقسط في الشرق تسير فيه وياخذى يديها الفلسفة وبالأخرى العلم الحديث وعلى رأسها تاج لا إله الا الله محمد رسول الله ، تدعو المسلمين الى الجهد وتشق لهم طريق العز وتبصرهم بالحياة ، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لا يرى أن الجامعة بهند طلبتها ولا بما تمنح من درجات ولكن بما توسع من دائرة العلم وتقص من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنشر من ثقافة حقة فذلك الرجل الذي لقبته صحافة لندن لما توفي سنة ١٨٩٨ بنبي التربية كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزا عاما تنتشر منه الثقافة العلمية الاسلامية في الشرق الاسلامي كله . وقد تحقق من حلم السير سيد أحمد شيء كثير ، فان الكوخ قد صار الآن جامعة ثابتة لكن بقيت مسألة التوسع أي التوسع في الجامعة حتى تصير ذلك المركز الثقافي الاسلامي العام ، والعقبة القائمة اليوم في سبيل هذا التوسع هي المال ، فقد كانت جامعة عليكرة في صميمها جامعة فنون الى الآن يدرس فيها من العلوم ما لا يحتاج الى مال كثير مثل الرياضة . وليس معنى ذلك أن العلوم لا تدرس فيها ففيها يدرس من العلوم الطبيعية والكيمياء والرياضة والنبات والحيوان لكن جامعة عليكرة ممتازة في الفنون وتريد أيضا أن تمتاز في العلوم ، وهذا يحتاج الى توسيع كبير في المعامل والمعامل كبيرة النفقة تحتاج الى المال والمسلمون اليوم ليسوا من أهل الغنى الذي يجملهم يستطيعون أن يمدوا عليكرة بالست مائة ألف التي تحتاجها من الجنيئات لهذه الغاية (٣) لكن على رأس عليكرة اليوم رجل من خير المسلمين وأبعدهم همة (٤) هو الدكتور سيد راس مسعود (٥) أو نواب مسعود يار جنك كما يلقبونه تسكر بما وهو حفيد السير سيد أحمد خان وابن السيد محمود وقد استطاع في سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكا من الرويات أو نحو ٤٠٠٠ ر ٤٠٠ جنية

لكن عليكرة على ماهي عليه ورغم حاجتها هذه الى التوسع شيء عظيم . هي على ماهي عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين طلاب الفنون الادبية على الأقل فلماذا لا تؤمونها ؟ ليس في هذا دعوة خطيرة الى الجامعة الاسلامية انما هذا كلام بسيط يصح أن يقوله أي مسلم فان المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم . وإذا كان الهنود يأتون الى مصر الى الأزهر ؟ فلماذا لا يأتي المصريون الى الهند الى عليكره ، انكم اذا أتيتم عليكره ستجدون شيئا لا تجدونه في مصر . ان في مصر جامعة حقا ، واسكن اسم حوالى أن أقول انها جامعة حديثة والجامعة لا تنفع نفعها الا اذا كان لها تقاليد صحيحة

(١) أسست أول كلية هوالى سنة ١٨٨٠

(٢) في سنة ١٩٢٠

(٣) هذا مبلغ كبير ولكنه يناسب ما يرمى اليه الرجال الكبار القائمون بامر جامعة عليكرة

(٤) هو وكيل الجامعة اما مديرها فهو نواب بهوبال

(٥) حامل درجة الشرف في التاريخ وخرج لندن في المحاماة ودكتور في القانون

ثابتة والتقاليد الصحيحة الثابتة لا تتسكون ولا تقوم الا في سنين كثيرة وقد سرت على جماعة عليته كره هذه السنون الكثيرة وقام فيها كل ما ينفع المسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة تقاليد تجمع بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية التي قامت على القرون والثقافة الحديثة التي جاء بها العلم الحديث ؟ فلماذا لا يأتي اليها المسلمون من مصر بدلا من أن يذهبوا الى أوروبا في طاب ما يستطيع عليه كره أن تمدهم به ؟ اني أرجو أن يفعاوا بعهد اليوم . وأرجو على كل حال أن لا تنسوا عليه كره وأن تسكبوا ذكرى عليه كره فهي التي نجت الاسلام في الهند وهي التي جعلت من المسلمين في الهند قوما أعزة وأمة مهيبة بعد أن كانوا يكونون أسلاطا عبيدا ولست أجد أولي في وقد فرغت من المحاضرة في عليه كره وعملها العظيم في الهند من أن أسألكم أن تقرروا الفاتحة لروح مؤسسها وأن تسألوا الله المعونة والتوفيق لحفيده القائم على رأسها اليوم . تمت اللطيفة الأولى في قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا »

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أنوار نبوية ، واشراق نور النبوة عليهم كان يلقي الظمأنينة في قلوبهم ، وفي كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية ، ظاهرة على يد حضرة الرسول ﷺ ولا جرم أن الله عز وجل معنا أينما كننا « وهو معكم أينما كنتم » وهو الذي ملأ السموات والأرض بجنود تقاوم الجباب على أيديها ، وفي كل يوم تظهر للمفسكين في هذه الدنيا أنوار وأنوار ، فالسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوة الموروث ، وبجباب أهم الاسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد الفترق وانتشار الدين في أقطار المسكونة بالحرب والاضرب ، ولادولة تحميها ، ولا خوف من أحد ، فهذه كلها تزيد المؤمن إيمانا ، بل إن حال انتشار الاسلام اليوم يضاهي حال انتشاره أيام النبوة ، فهذا وحده يزيد الإيمان ، فأما المفسكرون والحكماء فانهم يزدون فوق ذلك إيمانا بما يدرسون من الجباب كالتي جاءت في هذا التفسير ، وإذا كانت سكينة بني اسرائيل وطمأنينتهم أيام طالوت ، إذ التابوت الذي انتهبه منهم أعداؤهم ، وكان فيه بعض مخلقات موسى عليه السلام ، قد رجع إليهم فكانت هذه من أمارات صدق النبوة والوحي الموحى الذي وصل إليهم عن علمائهم ، فهذه لانورث إلا النصصديق المبني على الظواهر من خوارق العادات وما يشبهها ، وهذه مقدمة للباحث الحكيم التي هي أرسخ قديما ، وأعلى في السكينة كلها ، فهكذا معنا كانت السكينة في قلوب المؤمنين أولا بما يرون من عجائب النبوة وغرائبها في كل زمان بالمشاهدة ، أو بقراءة الآثار ، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بجباب الحكم الإلهية التي لاحد لها ولا نهاية كالتي في هذا التفسير .

مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذي لا علم عنده بهذه الدنيا كمثل الطبيب الذي أكب على التطبيب والجراحة ومداواة المرضى ، ونسى المسكين صحة جسمه ، فانتابته الأمراض ، وأحاطت به مهلكات القوى ، وقواطع الحياة ، وانهاك أعضائه ، فتراه مصفر الوجه ، خائر القوى ، ضعيفا ، هز يلا ، خامدا .

وسبب ذلك أن علم الطب قسمان : قسم هو علم صحة الأبدان وتديرها ، والمحافظة عليها ، وانعاش قواها ، بأسقشاق الهواء النقي ، والتمرين العضلي ، وأفضله باجماع أطباء زماننا المشي في الهواء النقي مع كثرة استنشاق الهواء في الخلاء ، والجلوس في الشمس ، معرى الجسد في بعض الأوقات ، سائر العورة والرأس ، محافظة عليها ، وأكل كل ما لم يطبخ من الخضار ، وأكل الفاكهة ، وهكذا مما سبق في هذا التفسير ، وما يأتي قريبا ،

وهذا أفضل القسمين .

القسم الثاني : هو قسم المداواة ، وهذا يقوم به الطبيب ، فإذا أهمل الإنسان صحته ، وترك جسمه ، وترك علم تلك القوانين فإنه يقع في المرض ، فيتلذذ الطبيب العالم بالأمراض الباطنية ، أو بالجراحة ، أو بمرض العين ، أو الأذن ، أو الأنف وهكذا . فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثاني ، يذنون القسم الأول ويهيمون بالثاني ، لأنه هو الذي به يكون الربح والسكسب والثروة والفنى ، فيذنون أنفسهم وهضم غافلون ، ومثل هؤلاء علماء الدين في كل أمة من أمم الأرض ، فهم غالباً كالقسم الثاني من الأطباء في زماننا ، فهم دائماً لا يعرفون إلا ما كان من الأحكام الظاهرة المقابلة للأدوية ، فكما أن الطبيب في القسم الثاني يقول للمريض : خذ الملح الإنجليزي ، أو الصودا ، أو الفينيسيا ، أو ملح الفواكه ، لاسهال المعدة ، ولا يذكرك قط باهواء النقي ، ولا بنوع الماء كل التي يجب أن يتعاطاها ولا يتخطار بياله ذلك : فهو كالمرضع والنائحة المأجورتين ، فهما ترضع ولا تبالي بالرضيع ، وهذه تبكي وليس في قلبها أدنى حزن على الفقيد ، هكذا عالم الدين غالباً لا هم له إلا أن يحصر أقواله في نواقض الوضوء وأحوال الحيض والنفس ، وما أشبه ذلك ، ولا يرفع عينه العامة إلى السماء ، ولا يشرح لهم شيئاً من عجائب الطبيعة ، لأنه هكذا يعلم ، فهو عن العلم بالله محجوب ، وعلى الأعمال الظاهرة مكب ، وأمة تعيش بالسمل وتفغل عن العلم أى العلم بالله وبجائبات صنعته ، مثلها كمثل النمل في مساكنها طائسات عاملات ناصبات جاهلات ، إن دين الاسلام علم وعمل : المسلم هو الذي يقرأ في افتتاح كل صلاة : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين بآية لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » فهو يقرؤها ، فإن كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والفهم أنه يكون ممن قل الله فيهم : « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما » والامامة الحقة لا تكون للمقلد الغافل ، وإنما الامامة تكون للمفكر الذي يدرس النبوة وهادها ، وعجائب الحكمة الإلهية ، دارسة محقق ، فيزداد إيمانه كل صباح ، وكل مساء ، إذ يوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض ، حتى يرى ما يدهش عقله ، ويجب من هذه الدنيا التي تظهر لنا عابسة وهي في الحقيقة بأسمة ، وينظر في آثار الله فيجد ظواهرها مملوءة بشوك القناد ، وعند التحقيق لا شوك ولا قناد ، ورحمة الله تتجلى ، والجمال يهر عقولا وعقولا ، وإن أبيت إلا الافصاح ، لتسكن نفسك أيها الأخ ، فأعجب مما تراه قريباً في اللطيفة التي بعد هذه من دماءيل وقروح في أجسامنا وحى ، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذي أصابه الضر ، ولكن علم الطب (كما سيتضح لك قريباً بأجلى بيان) يقول لك : كلا . وهل العدل إلا قلعة بناها جنود الله القائمة في جسمك ؟ وهي ذوات حياة حقيقية وعقل ، ولما بنت هذه القلعة المحروطة الشكل حصرت فيها المكروبات الداخلة فأهلكتهم وأفتتهم ، فكان القبح والصدید رحم الأموات من الفريقين : الفريق الوطنى ، والفريق المهاجم ، ويقول : إن الحى تقرب من هذا ، فإن الناس لما جهلوا الحام الشمسى ، والحام البخارى ، وأوجام الماء الساخن والمشى والقرينات العضلية (وكل واحد من هذه يذهب بالمفونات من الجسم) .

أقول لما جهلوا ذلك ، وهو دواؤهم الوحيد ، قال الله لهم : أنا رحيم بكرم يا عبادى ، أرحمكم بالحى فأسلط جنودى التي في أجسامكم وهي الكرات البيضاء على جنودى المهاجمة ، وهي الحيوانات النورية التي تحمل في أجسامها السم وتفرغه في أجسامكم فيحمى الوطيس والقنا تفرع القنا وموج المنايا متلاطم ، فيقع كثير من الفريقين صرعى وتكون الاشلاء منهما هو الصدید كما تقدم ، وهذه جنود الله في أجسامنا المقابلات لجنوده في خارجها ، سأشرحها شرحاً وافياً في اللطيفة الآتية ، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتى واجبالا له ، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والنمر ونحوهما ، فهذا الأسد من جنود الله التي أعدها لاحداث الحياة تارة ولإحداث اطلاق أخرى ، فهي لذريتها سبب الحياة ، وللفرسة سبب الهلاك ، ولن ترضع اللبوة

شبهائها ، أو تقصص على فرستها إلا بما وقر في نفسها من رحمة في الأول وأما في الثاني . إذن هنا ثل ما سأذكره هناك بهذا المثال ، فهنا جيش منقوص قوتهم وظلالتي : أي الرحمة والعتاب ، فهذان الجيشان المعنويان مقدمتان للجيشين الحسيين وهما جيش الأعداء بين الاثنين على ذريعتها ، وجن اقتباسها للطباء والأرانب ، فهذا مثل جنود الله في الأرض والسماوات .

جسم الأمة بجسم الانسان

أعلم أنه لا فرق بين جسم الانسان وجسم الأمة ، فإذا بهل المسلمون عاموم الأمم ، ونسوا الوحدة العاقلة كما عصى الجاهل الغافل عن اصلاح جسمه ، وترك قرآنين الصحة ، فإن الله عز وجل هو الرحيم بهم ، فسلط عليهم الأمم من بين أيديهم ومن خلفهم إذ قال لهم : « أيتها الأمم هبوا من رذلتكم ، وطاربوا المسلمين ، وادخلوا خلال ديارهم ، لأنني أريد إيقاظهم من طريق الشدة ، لأنهم نسوا ، ونسوا أنفسهم بطريق اللين كما نسي الغافل عن جسمه باستعمال الجسم الشمسي ، والشمس في أطواء الملوك ، وأكل الفراكة ، والخصير ، فرجته بالحمى ورجته بالأورام ، لأنني أنا رحيم ، ورحمتي وسعت كل شيء ، فأنا أرسهم الأشخاص ، وأرحم الأمم وإن كانوا جميعا يجهلون أنني أرحمهم حين تنابهم الآلام .

خطاب المؤلف لأئمة الاسلام

أيها المسلمون : هذه راحة هي ازدياد الايمان ، بل هذه هي السعادة ، هذا زمان الحكمة والعلم ، هذا هو الزمان الذي قال الله فيه : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهو الذي قال الله فيه أيضا : « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » وقال فيه : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعترفونها » وبهذا وأشله فهم قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكيف نوقن بهذه الرحمة إلا بالراحة ! درسنا ياربنا وفهمنا ، فهمنا أن إبلاكم لنا لمنفعتنا ، رحم الله أستاذي (الشيخ حسن الطويل) ، فهو أول من لفت نظري إلى هذه المعاني ، فانه لما عرض في الدرس اسم الله الجبار المنتقم الخ ، قال يا فلان : هذه الألفاظ بحسب الظاهر فقط والافلا انتقام ولا غيره ، لأنه منزه عن الغضب كذا هو معلوم ، ولكن هذه أفعال رحمة سميت بأسماء مما نعرفها .

وأقول الآن : الله أكبر : بهذا نفهم سرا من أسرار القرآن ، ألا وهو قوله تعالى : « إني أخاف أن يسبك عذاب من الرحمن » فهذا عجب أن يكون رجلا وهو معذب ! فبالعلوم اليوم ظهرت بعض أسرار القرآن ومجائبه . اللهم لك الحمد على نعمة العلم .

فلما اطلع صاحبي على هذا . قال : هذا جمال وكمال وحكمة وعلم ، ولكنني أريد أن تنهني عنوان هذه المقالة ، فانك سميت « مسامرة » ، فأين المسامرة ؟ فقلت : إن ما تقدم إنما هو مقدمة لتلك المسامرة وإن هي إلا نبراس لهذا المقام . فقال : إذن حدثني حتى يتم المقام . فقلت : أعرف طبيباً نظامياً شهيراً ببلادنا المصرية ، فهو في الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين ، وله في منزله عيادة خاصة ، وهذا الطبيب لي به علاقة ، وهو أنه كان تلميذي بالمدرسة الخديوية في اللغة العربية قبل أن يدرس علم الطب ، وهذا الطبيب قابلته منذ ستة أشهر في عيادته ، فرأيت ضِعْفاً من يلا نحيفاً ، فأزججني ماريت ! ووجهت إليه اللوم الكثير على ترك صحته التي بها يقدر على مداواة المرضى ، فأخذ يقول لي إن أصدقائي يأتونني في وقت فراغي فأتأقدر على ردّهم وترك إجابتهم ، فشددت عليه التذكير ، وقلت له : لا بد من النظام ، ولا بد من مراعاة صحتك مراعاة تامة ، وقلت له انني بعد مدة لا بد سألتك عن ذلك كله ، فهجبت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام في هذا الشهر أكتوبر

سنة ١٩٣٩ م وهو قريّ البدن نشط ، فسلم علىّ وبادرنى بقوله : هذه نصيبك ، وأشهاد على ذلك طبيبا كان معه ، وقال : ألسنت ترى أرفض العمل في وقت رياضي ؟ فقال نعم ، فسررت من ذلك كثيرا وانشرح صدرى ، وليس هذا بأول من تصابيت له من الطبقة المتعلمة من اخوانى المصريين . وهذا قلته له في هذه المكالمة : إذن سجلت « بالمايحين » كما قت « بالميرسن » والأولى كلمة معناها علم الصحة ، والثانية كلمة تدل على علم المداواة . فقال نعم .

وهذه المسامرة هى المنطبقة تمام المطابقة كما قدمنا آنفا على حال المسلمين الذين لا يعرفون إلا علم الفقه فهو لاء الآن يقينا قد قاموا من رقبتهم ، واستيقظوا من غفلتهم ، وقرءوا العلوم ، وأنا أجد الله عز وجل إذ أن الأزهر الذى تسامت فيه خطاخطوات فى هذه السبيل ، وهكذا بقية بلاد الاسلام ، وهذا التفسير من منويات تلك الحركة فى عالم الاسلام ، والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبي : حسن هذا المثال ، وجميل هذا الظاهر ، ولكنى أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فهل فى هذه السكينة فتح ؟ وأى أنواع الفتح هو ؟ فقلت : حياك الله : أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام : « منوية وحسية » ، وكل منهما جنود للإهلاك وجنود للإحياء ، ولا جرم أنه صلى الله عليه وسلم قد فتح الله عليه فتحا عليها باظهار الحقائق له ، فأفاض على الناس بما يحتاجون فهذا جيش معنوى نورانى تبعه جيش حسى وهم الفزاة المجاهدون . ثم إن ما فتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الاسلامية مثل ما اتضح فى هذا التفسير وفى غيره من بواهر الجائبات إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تنلمن قلوب وقلوب وتسكن للحقائق كمسألة الأمراض التى جعلت لمصالحنا لا لإيذائنا ، فهذه حقائق واضحة لم تكن لتعلم للموم إلا فى زماننا ، أما قبل ذلك فانها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله ولم يبدعوا للناس بهمهم لأن الناس لم يكونوا مستعدين ، وهنالك جيوش علمية نورية تتبعها جيوش اسلامية حقيقية بقيادة أهل هذه الأرض من أمم الاسلام ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ومتى كان اجتماعهم مبينا على ظهور الحقائق لهم كالشمس فى رابعة النهار ، فانهم لا جرم تكون قيادتهم لأنفسهم وللأمم أكل وأثم ، وإذن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . إذن الفتح العلمى فى زماننا كالذى ظهر فى هذا التفسير من مضمون قوله تعالى فى أول السورة : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، « والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله علما حكما اللهم إني أجدك جدا يوافى نعمك ، ويكافى مزيدك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، جل وجهك ، وعز جاهك ، لا إله إلا أنت ، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن ننظر فترى كلامك فى كتابك كفضلك فى خلقتك ، ونراك خلقت من كل شيء زوجين : الذكر والأنثى ، والسالب والموجب ، والغالب والمغلوب ، والعالم والجاهل ، والحي والميت ، والذكرى والفبي ، وهكذا ، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة ، بل هى مطردة أوليس من العجب أن غزوات النبوة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات ، وجميع حروب هذا العالم الانسانى لها نظائر فى أجسامنا .

يا سبحان الله : إن الله يقول هنا : ليس جنودكم فى غزوة الفتح وغيرها هم جنودى وحدهم . كلا . بل لى جنود فى السموات وجنود فى الأرض ، أدبرهم بعلمى ، وأنظمهم بحكمتى ، وكل هؤلاء قائمون بما عليهم وعملهم نافع لحياتكم وحياة غيركم ، فكما أنكم جئتم إلى هذه الأرض ومعكم نبيكم ، تحاربون الكفار الجهال

المفسدين في الأرض ، الذين لم تكن لهم جامعة تربيهم ، ولا رابطة تربوهم ، بل هم قوم مشتتون ، فبعثهم تبع بلاد الفرس والأكرسة ، وبعثهم تبع بلاد الروم والقيصرية ، فخر بهم هذه الأمم بأرشاد نبينهم وتيدون ادخالهم في جامعكم الاسلامية ، فتصبح الأمم كلها بعينها وأساكنهم بها ، فهكذا كان قبل في أجناسكم ، إن جسم الانسان مقياس للجسم العام للانسانية كلها ، فالسكرات البيضاء في الجسم راعها من جنود الجسم كلها قتال وتجارب أعداء هذا الجسم ، وتقتصر عليها وتقتلها ، والا فلا جسم للبشر ، ولا حياة له ولا بقاء . وما كبدت أصل لهذا المقام حتى مغير صاحبي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال هذا حسن جدا ، ولكنه كلام غامض ، إن الحارين في الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال عجيبة ، وأن السكرات البيضاء المذكورة ، وأن الحرب المشهورة بين الأمم ؟ فقلت له : حيالك الله وبيالك ، إن الحرب في جسم الانسان تشابه الحرب التي نراها بين الأمم سواء بسواء ، والنوع الانساني لا يزال في حرب وضرب حتى يصبح أمة واحدة ، ويصبح كله كتلة واحدة ، يحارب الطبيعة المحيطة به ، لينال منفعتها ، فالغزوات الحميدية فتج باب لرقى الأمم ، والناس الآن يحاربون حريين : حرب مع أنفسهم ، وحرب مع الطبيعة ، والغزوات الاسلامية مبدءا لازالة العناصر الضارة بالجسم الانساني كما تفوز السكرات البيضاء والافارية وغيرهما الحيوانات الطارئة على الجسم الضارة به ، حتى اذا لم يبق في الانسان شئ ولا أنهم أصبحت الانسانية كلها جسما واحدا تحارب الطبيعة حولها باذن ربها ، فكأنها إذ ذاك في زمن السلم العام الذي بشر به القرآن في سورة القتال المتقدمة ، بأمة واحدة تبطل غيرها ، ولكن هذا الغير ليس من جنسها .

حينئذ قل صاحبي : أنا الآن أصبحت في عجب ! كلامك جميل ، وبيانك بديع ، به عرفنا أن الله جنودا بطريق السمع ، وأنت فعلت بعضها وهي التي في الجسم البشري ، ولكن القرآن كتاب عربي مبين وكلامك وإن كان حسنا فيه التباس من وجهين : الأول أن هذه الجنود التي في جسم الانسان لم تتبين بالتفصيل حركات كرها وفرها ، وغدوها ورواحها ، وأسلحتها ومحاربتها ، وقلاعها وثكناتها ، وانزاعها وانتصارها ، وخنادقها ، وسمومها القتالة . الثاني : انك ذكرت البلعمة والافارية ، فهذه كلمات ليست عربية والقرآن سهل فاذا لم يكن التفسير أسهل من القرآن فانه لا يكون تفسيراً ، بل تعسيرا ، وقد عهدناك فيما سبق من هذا التفسير تذكرة ماسهل على الناس فهمه ، وعظم ففهمه ، فقلت له : أيها العزيز ، اني لم أذكر الحرب والضرب والجهاد ، ولا البلعمة والافارية إلا وقد أعددت لها عدتها ، وأحضرت ممي مقالا أذكره في هذا المقام . فقال : ان كان من مثالك فأنت لست من علماء التشرية ، وإن كان من مقال غيرك من علماء التشرية فانهم لا يقدرون أن يصفوا الحرب المكرويات والسكرات البيضاء وصفا ينطبق على الحروب المعلومة لنا حتى يخرج قارئ التفسير من المقال وقد أيقن بأن الله جنودا غير جنود الانسان ، يشاهد كرها وفرها . فقلت : انك حصرت الكلام في مقامين ، وهذا الحصر مقوض بمقام ثالث . فقال بينه لي ؟ فقلت : إن الكلام لطبيب مصري ، وهو الذي وصف تلك الأوصاف التي ذكرتها بعينها في الجمع المصري للثقافة العامة سنة ١٩٣١ أي سنة طبع هذه السورة ، وهذا عجب ! وهو مجزأة جديدة للقرآن ، وكيف لا يكون مجزأة والناس عاشوا وماتوا وهم يقرءون : « ولله جنود السموات والأرض » ولكن أكثرهم لا يعرفون كيف تكون تلك الجنود ، وكيف غزواتها ؟ حتى ظهرت الآن فما ستره من قول ذلك الطبيب . فقال : إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضا مساعدة على فهمهم : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ومساعدة على فهم قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ففي النفس الواحدة يحصل ما يحصل في جميع نوع الانسان ، فأرجو أن أسمع أولا خلاصة المحاضرة التي ألقاها الطبيب . ثانيا نفس المحاضرة . قلت : أما الخلاصة فهي أننا نرى الجسم الانساني عبارة عن مدينة حصينة ، يحيط بها سور متين ، وهذا السور تحاصره جيوش أعداء

بالآلاف من الأعداء ، تريد دخوله لتعيش عيشة هنيئة كما يريد الأوروبيون أن يعيشوا عيشة هنيئة في بلاد الاسلام بظلمها وارهقتها واذلالها ، ولا تجد لها تلك الجيوش بابا تدخل منه إلا المنافذ المفتوحة كالنم فتدخل منه ، وهناك تصل إلى المعدة ، والمعدة فيها عصير معد لاهلاك تلك الحشرات ، وهذا العصير يهضم الطعام ، ويقتل تلك الميكروبات ، ولكن اذا أسرع الغذاء في الانزلاق من المعدة وجري إلى الامعاء فان تلك الميكروبات لا تموت ، ولكن تسير إلى الامعاء ، لأن مدة إقامتها في المعدة لا تكفي لابطائها ، وقطع جراثيمها ، وهذه ما نكاد تصل إلى الامعاء حتى تلاقى هفتها ، لأنها لا تجد هناك الاكسوجين الذي لا تعيش إلا به ، ولأن الجنود المجنبة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء ، فهذه ناخط دفاع أول وهو الجلد ، وخط دفاع ثان وهو العصير المعدى ، وخط دفاع ثالث وهو الامعاء المهلكة لهذه الأعداء ، فهذه الأعداء الداخلات في الجسم أشبه بالأمم الأوروبية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها ، وتبديد شملها ، وقطع دابرها ، وكنتم أنفسها وإبائها من الوجود ، فلم تعتمد السواحل ، ولكن لما أرادت التوغل في البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحاً وتقطيعاً شنيعاً ، ورجعوا بخفي حنين هكذا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها العصير المعدى أهلكتها الامعاء بقلعة الميرة الواصلة إليها وبجسها في مكان مظلم لاهواء فيه فقطع أنفاسها فهلكت ولات حين مناص .

هذا ما كان من جهة الجيوش الجرارة الواصلة من الفم ، فاذا وصلت من طريق آخر وتسكثرت كأن وصلت بطريق جرح أو نحوه وتسكثرت بأي طريق كان فانها تتوغل في الجسم ، وتفتك بالخلايا الجسمية ، وتقطعها تقطيعاً ، وتتغذى بالمواد الغذائية التي في الجسم ، فهناك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم ، فتأتي الجيوش من أطراف المملكة ، وتحاصر المساكن ، وتقتل ما فيه من الميكروبات ، وهنا تكون القتلى من الجيوش المهاجمة ، والجيوش المدافعة ، والخلايا التي وقعت في ساحة القتال ، فهذه كلها تصبح مادة سائلة صفراء يذبها الجسم إلى الخارج ، وهذه العملية نراها في أمثال الدمل ، فهو في أثناء حصار الجنود الجسمية للجنود المهاجمة من الميكروبات يبدأ نموه ، فاذا وقعت الواقعة ، وانتهت المعركة ، فهناك تكون المادة السائلة ، وهو القيح ، وهذالك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تخفيف الجرح وتنظيم المساكن بعد أن تفتح الجلد بأن تأكل منه جزءاً فيخرج القيح ، وهو رم الأعداء ومن معهم ، هذه حال هذه المواقع الحربية .

ومن عجب أن الانسان اذا شاكته شوكة في يده مثلاً أحسّ بعد مدة قصيرة أن هناك تحت إبطه وربما فما هو ذلك الورم ؟ وهل ذلك الورم إلا ثكنة من ثكنات الجنود الوطنية في الجسم التي اجتمعت لتهاجم الجيوش الجرارة التي اجتمعت لتطارد الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح ، وقد يحصل للمريض حتى بسبب تعفن الأخلط في الجسم ، وهذه الحمى إنما جعلت في الجسم لأن الأخلط المتعفن يعوزها حرارة ترتفع لتخلص منها ودفع شرّها ، ولو أن المريض كان من ذوى الارادة القوية فلم يكثر من الطعام ، أو أكثر منه ولكنه جعل الجسم متزن بما يفعله من التمرينات العضلية ، أو المشى في الجلاء ، أو الجلوس في ضوء الشمس مع الاحتباس ، كما هو موضح في أول سورة يونس ، أو استحم بالبخار ، أو بالماء الساخن أو بالسكهر باء .

أقول : لو فعل المريض أحد هذه الأعمال لم يقع في الحمى ، فهذهنا حمى ودمل وقروح وأورام غيرها ، فهذه كلها لم تكن في الجسم لابتداء الانسان ، بل لاصلاح جسمه ، وما هذه الآلام إلا مذكرات ، فهي سعادة لاشقاء ، ونعمة لانتقام .

فلما سمع ذلك صاحي . قال : أهذا نوع الكلام الذي يقوله ذلك الطبيب المصري في خطبته الآتي ذكرها ؟ فقلت نعم ، ولكن الذي له إنما هي عناصر الموضوع ، فأما بناؤه فأنما هو من هيئة سبيل التفسير

ونظامه . فقال : أحسب أن أسمع خطبته إذن بنفسها . فقلت : سيأتى ذكرها قريباً إن شاء الله

إيضاح مختصر لجنود الله فى الأرض

من قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض

وذلك ما قرأته فى كتاب الترجمة فى المدارس الثانوية ، ذلك أن الدم عبارة عن سائل لالون له ، وهذا السائل يحتوى على جراثيم صغيرة كثيرة يسمونها الخلايا ، وهذه الخلايا قسمان : قسم أحمر وقسم أبيض ، وكلا القسمين فى غاية الصغر ، حتى أننا لو أخذنا قطرة دم صغيرة (وهى لا تكون أكثر من جزء من ٢٠ ألفاً من البوصة المربعة) وسللناها لوجدنا ما فيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية ، وما فيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية ، ولا جرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لا تعدو أن تكون قدر سنّ الابرة لأخيراً ، فإذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكيف فى تلك الأبطال الكثيرة من أعداد هذه الخلايا ، ثم إن وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين : قسم هو جلب المصالح ، وقسم هو دواء المفاسد ، فهى من الجهة الأولى أشبه بالمتولين والشيالين ، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة ، وينقلونها إلى أطراف المملكة ، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والسكناسين ورجال مصلحة المجارى بمصر أولئك الذين يصرفون ما ينزل من البراز والمواد الضارة فى مواسير تدفعه إلى الخارج دفعا للضرر عن السكان ، فهذه الخلايا الحمراء هكذا تصنع فهى تستقبل مادة الحياة السارية فى الهواء السماء بالكسوجين فتحمّلها من الرتين وتجري بها اتصالاتها ، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء ، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاصلة من الأنسجة بعد تفاعلها ضارّ بقاؤها بالجسم ، فهذه الخلايا الحمراء تحملها وترجع بها جارية جرياً حيناً حتى توصلها إلى الرئة وتعطيها للهواء الجوى ، فيقبلها ويفسدها خارج الجسم ، فنرى أثر ذلك فى المرأة إذا تنفسنا أمامها ، فيكون هناك مادة خفية على الزجاج تمنع رؤية صورنا ، وهذه المادة الفعّمية هى التى نشأت من احتراق المواد الغذائية فى الأنسجة ، فهذا كله أشبه بما نفعل فى مدننا من استقبال النافع ونبد الضار . هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء ، وهى أيضاً تعطى الدم لون الحرة أما الخلايا البيضاء فإن منفتحها أشبه بالجنود المجندة فى المدن ، المدافعين عن البلاد ، الشاكي السلاح ، الشجعان الجحاجيح ، الأمائل العظاماء . فهؤلاء إذا وردت جيوش قتالة من الخارج ، وما أكثرها فى الجوّ ، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا ، فإن هذه الجيوش البيضاء تقاها ، وتحشى حى الديار ، وتحشى عن السكان ، وتحفظ البيضة ، وتقارع الأبطال ، وبيان ذلك أنها تصطبغ صفوفاً ، وتهجم على الجيوش القادمة ، وتخترق أجسامها ، وتسكن أنفاسها ، فتختنق أو تلقى عليها السم وتموت ، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء .

فلما اطلع صاحبى على ذلك . قال : هذا قول جميل ، لاسيما أنه يقينى لأنك ترجمته من كتاب محترم فى المدارس ، فليس يعقل أن يكون فيه خطأ ما ، واسكنى أريد أن أرى ذلك بعينى فليس الخبر كالعيان ، لأنى لو رأيت ذلك بعينى لكان ذلك من مضمون قوله تعالى : «سأوريكم آياتى فلا تستعجلون» وقوله أيضاً : «ولتعلمن نبأه بعد حين» وقوله : «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» . فقلت أما إذا أردت ذلك فهناك نص ما قاله الدكتور ، وهو ما جاء فى الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرى للثقافة العلمية ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالى ما يأتى : —

المركبة اليومية في الجسم البشري

الوقاية الطبيعية للجسم

مقدمة . العدوى والمرض . المناعة . الميكروب وقوة أمراضه . العداء بين الجسم والميكروب . الميكروب في داخل الجسم . الخلايا البالغة . الحرب بين الميكروب والخلايا . الوقاية النوعية . الخلاصة

سادتي : لانزع في أن الأمراض المعدية من أهم الأخطار التي يتعرض لها جسم الانسان في حياته ، وتأثر بها صحته وهي كما يعرفها كلكم تنشأ عن فعل كائنات حية دنيئة من مملكة الحيوان والنبات ، ويطلق عليها الأطباء اسم الميكروبات ، وهذه الكائنات موجودة في كل مكان ، وفي جميع الأوساط التي تحيط بنا ، انها تعيش في الأرض ، وفي الماء ، وفي الهواء ، وعلى الأغشية المخاطية المبطنة لتجاويف البدن ، وخصوصا في الامعاء التي تعج بمختلف أنواعها ، وكذلك خارج الجسم على سطح الجلد .

ولست كل الميكروبات خطرة على الانسان ، فبعضها لا يدخل إلى الجسم وهو على قيد الحياة ولكنه يتخطى حواجزه الطبيعية بعد الوفاة ، ويتكاثر في رفاقته حتى يحوله إلى تراب ، ولكن بعضا منها يكرن خطرا على الانسان ، وهو على قيد الحياة ، إذ يمكنه أن يخترق ، وانه الجسم وينفذ إلى داخله فينمو ويتكاثر على حساب المواد المفيدة الموجودة فيه ، على أنه ليس من الصعب أن نجتنب تلك الضيوف الثقيلة بالابتعاد عن مواطنها ، أو بإداتها بواسطة التطهير أو التبخير ، أو بعزل الأصحاء عن المرضى ، ومهما يكن من أمر بعضها الذي لا يمكن تجنبه نظرا إلى وجوده في داخلنا أو حولنا ، فإن لدينا من ظاهرات الوقاية الطبيعية ما يحول دون العدوى .

العدوى والمرض

ولكي يمكننا الوقوف على سر هذه الوقاية الطبيعية يجب علينا أن نعرف أولا ماهي العدوى ؟ فالعدوى هي عبارة عن الظاهرة التي تنشأ عن دخول الكائنات الحية الدنيئة في الجسم ، أما المرض نفسه أي إصابة الجسم بالعدوى فهو ما ينشأ عن وجود هذه الكائنات بذاتها ، وما تحدثه من نفث سموها فيه ، سواء أكانت هذه السموم نتيجة إفراز هذه الكائنات مدة حياتها في الجسم ، أم نتيجة انحلال مادتها بعد موتها ، لذلك يجب أن نفرق بين العدوى في حد ذاتها وبين المرض ، أي بين دخول الميكروبات في أنسجة الجسم وبين إصابة الجسم من تأثير سموم هذه الميكروبات ، وتختلف الميكروبات باختلاف درجة سميتها ، فالميكروبات القليلة السموم يجب عليها أولا أن تتكاثر وتوالد بدرجة كبيرة حتى يمكنها أن تؤثر على الجسم البشري ، أما الميكروبات السامة جدا ، فإن القليل منها يكفي للتأثير على الجسم ، ففي العدوى بالمرض الفحوى مثلا كثيرا ما نرى أن دماء الحيوانات المصابة بالحجى ملأى بميكروبات المرض دون أن يظهر على الحيوان أي أعراض ، كذلك في ملاريا الطيور ، فكثيرا ما نلاحظ أن أغلب كريات الدم تحمل طفيليات المرض ، في حين أن الطير لا تبدو عليها أعراض المرض ، غير أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن في مرض الكزاز ، أو التيتانوس الناشئ عن عدوى الجروح يكون عدد الميكروبات التي يمكن العثور عليها في بؤرة الإصابة قليلا جدا ، مع أن أعراض المرض تكون شديدة وقاسية لأبلغ حد .

أعود فألخص هذه الحقائق ، وهي أنه لا يكفي دخول الميكروبات في الجسم ، بل يجب أن تكون للميكروبات درجة سمية مخصوصة حتى يمكن للعدوى إحداث المرض ، أما الميكروبات القليلة السمية فانها تعاض عن هذا النقص بشدة توالدها في الجسم ، أو بما نسميه فوعتها .

أما الجسم البشري فإنه لكي يتمكن أن يتقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يبقى نفسه بأحدى الطريقتين الآتيتين : — (١) أولاً أن يقاوم دخول الميكروبات فيه (ثانياً) أن يبقى نفسه سميماً ، أو يبطل مفعولها ، أو يجعل نموها عسيراً ، إذا تعجز عن مقاومة دخولها .
فالعنصر وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات ، والمقاومة ، وإبطال سميومها من جانب الجسم هي العوامل التي يترتب عليها ظهور المرض ، أو عدم ظهوره ، وقد تكفي مقاومة الجسم للعنصر إلا أن هناك ما يساعدها في مهمتها ألا وهي المناعة .

المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية ، أو جنسية ، أو مناعية فردية . فالحيوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة ، فمثلاً الأمراض الطاعنات التي تصيب الإنسان كالجدية والحمى القرمزية لا تصيب باقي الحيوانات كذلك بعض أمراض الحيوان كالطاعون البقري ، أو كوابير الخنازير ، فإنها لا تصيب الإنسان ولكنها تصيب الحيوان ، وذلك لأن أنواع الحيوانات تمتاز بمناعة خاصة ، وهذا النوع هو الذي يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثة ضد بعض الأمراض ، وكذلك هناك ما يسمى بمناعة الأجناس ، فمثلاً الحمى القرمزية لا تصيب الأجناس ذى البشرة السوداء إلا نادراً بخلاف الجنس الأبيض فهو شديد الاستعداد للعنصر بهذا المرض ، وكما أن للأجناس والأجناس أحياناً مناعة ، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض وكلنا نعرفها ونشاهدها يومياً ، فمن منكم لا يذكر سنة ١٩١٩ م لما انتشرت الإنفلونزا الخبيثة التي أطلق عليها اسم « الحمى الإسبانية » وكيف أنها كانت تصيب بعض أفراد في بيت واحد ، وتترك البعض الآخر رغمًا عن تعرضهم للمرض واتصالهم المباشر بالمصابين به ، ومن منكم لا يشاهد في أولاده أو أقربائه أن بعضاً من الأطفال يصاب بالسعال الديكي ، أو الجدري الكاذب ، والبعض الآخر يبقى سليماً رغم تعرضه للعنصر بميكروبات هذه الأنواع .

بيد أن هذه المناعة للأفراد ، والتي نسميها المناعة الفردية ليست مناعة مطلقة كما هو الحال في مناعة الأنواع والأجناس ، بل هي مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ ، أو بعبارة أخرى أنها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصي للمرض ، أو قوة مقاومته له ، تلك المقاومة التي تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالتهرض لدرجة الحرارة ، أو لتأثير الجوع ، أو التعب . هذا في الجسم البشري ، ولننهد بعدئذ إلى ناحية الميكروب :

الميكروب وقوة أمراضه

وكما أن الجسم له استعداد ومقاومة كذلك الميكروب له أيضاً استعداد ومقاومة ، فبعض الميكروبات لا يمكنها أن تتكاثر في جسم الحيوان لعدم ملائمة حرارته الطبيعية لنموها مثلاً كميكروبات المرض الفمعي ، فإنها لا تتكاثر في جسم الدجاج ، أو الضفادع ، لارتفاع درجة الحرارة في جسم الأولى وانخفاضها في جسم الثانية ، ولكنها تنمو وتتكاثر إذا خفضت درجة الحرارة في الأولى بغمس أرجلها في الماء البارد ، وازدهت الحرارة في الثانية بوضعها في أفران التفرج ، كذلك سلالات الميكروبات تختلف فيما بينها من حيث قوة أمراضها ، فهي قد تضعف في سلتها إذا عاشت في ظروف غير مناسبة لها ، وقد تزيد إذا لاءمها الوسط الذي تعيش فيه إلى غير ذلك مما لا يزيد أن نتعرض له في كلامنا الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبتعد عن موضوعنا ، وإنما أردت فقط أن أبين لكم ماهية العنصر وما يتبعها من عوامل ومؤثرات . ودعوني الآن أن أنتقل بكم إلى موضوع محاضرتي هذه وهو شرح تلك العداوة الكامنة بين الجسم والميكروب :

المدواة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب يحكم تنازع البقاء مدوّان لدودان ، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره ، مهما كان ذلك من عناء أو تضحية ، وهو لا يتعب في سبيل ذلك أن يفرغ مافي جعبته من قوّة لآبادة الآخر ، كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل الفتك أو المقاومة لكي يفوز بالنصر في آخر الأمر ، تلك سنة حياتهما كما هو الحال مع باقي أمم العالم سواء بسواء .

والجسم الانساني يشبه في تكوينه وترتيبه ونظامه إحدى ممالك العالم ، لأنه مكون من خلايا أشبه بالسكانات الحية ، فلا حرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشري » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى ، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعبأ ، ووسائل متنوعة لصد العدو ، أو الفتك به ، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التي تفصلها عن عالم السكانات الأخرى ، ولها وسائلها في السكّاح والقتال ، فالحدود الطبيعية في مملكة الجسم هي الجلد مع ما يتبعه من البشرة القرنية ، والغدد الشعرية ، والغشاء المخاطي الذي يبطن التجاويف الأنفية والحلقية ، والمساالك الرئوية ، والقناة الهضمية .

فالجلد هو ذلك السور الذي يشبه في أهميته ما كان لسور « بكين » بالصين من أهمية في صد غارات الأعداء عليها ، بل هو الدرع الذي تنساقط تحته قنابل العدو عاجزة عن تخطيه ، ونحن إذا خصنا تلك الطبقة التي تغطي وتحمي كل جزء في جسم الانسان ، وجدنا على سطحها أنواعا لا تحصى من الميكروبات . منها العاطلة . ومنها المرضية كـميكروبات التقيح الصديدي ، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة (كـميكروب الدرن أو السكراز) لا يمكنها أن تنفذ من ذلك الدرع القوي طالما لا يوجد فيه أية ثغرة تنسرب منها إلى داخل البدن ، وهذه القوّة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوّة ميكانيكية خسب ، بل هي تتوقف أيضا على بعض عوامل أخرى تتصل بها ، فهناك مثلا العرق المعروف بحوضته التي لا تلأم حياة الميكروبات وخصوصا الميكروبات المرضية ، وهناك حركة التجديد المستمر في الطبقات السطحية للجلد حيث يقذف هذه الأجزاء أولا بأول ، فيزيل باستمرار ما تجمع عليه من كائنات حية ، خصوصا اذا ساعدناه في أداء مهمته باتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل ، فأعطينا حقه من الغسيل والاستحمام .

الميكروب في داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإن جسم الانسان أو الحيوان وهو يتنفس أو يأكل أو يشرب يحتنب إلى داخله هذه الأعداء ، عند ما تكون معلقة في الهواء ، أو منبثة في الغذاء ، أو سابحة في المشروبات . (وبعبارة أخرى) تتصل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطي للفم والحلق والمعده والامعاء وأعضاء التنفس ، ولو أن الغشاء المخاطي بطبيعته أقل مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد إلا أنه يمتاز عنه بأن به مادة مخاطية يفرزها ، وهذه المادة اللازمة التي كثيرا ما تعافيا أنفسنا لها مهمة جليلة في قصف الميكروبات كما يقنص ورق الصمغ الزباب ، ثم بعد قنصها تطردها إلى خارج الجسم بواسطة العطس ، أو البصق ، أو السعال ، أو الحظ ، ولكي آيين لكم شأن هذه المواد المخاطية في طرد الأجسام الغريبة إلى الخارج أذكر لكم أن العلامة (هيس) لاحظ أن العامل الذي يستعمل عشر ساعات يوميا في الأسمنت يستنشق في السنة ما يقدر بـ ٣٠٠ جرام من هذا التراب ، فاذا استمر في عمله هذا عشرين عاما يجب أن يكون قد استنشق نحو

سنة كيلوجرامات من الأسمنت أودعت في جوفها كلها ، اللهم إلا إذا تخاف منها بواسطة الهطس أو البق كما ذكرنا ، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تذكروا المقدار الكبير من الأجسام الضرية التي يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أغشيتها المخاطية وعملها العجيب . رايست وظيفة الغشاء المخاطي وظيفة ميكانيكية ، بل إن له أيضا قوة خاصة في إبادة الميكروبات ، فقد دللتنا الاختبارات على أن مخاط الأنف ، ودموع العينين ، لها هذه القوة ، لاحتوائها على نوع من الخثائر ، تسمى الخثائر الحاملة « ليزوزيمات » تذيب وتحلل الميكروبات فتقتلها إذا ما اختلطت بها ، ورغم ما من وجود هذين المادتين : المخاط والخثائر ، فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القصبة الهوائية وشعبها ، ولكنها لا تبلغ إلى الرئة نظرا لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلا في طريقها ، ذلك المخاطل هو الأهداب الموجودة على سطح الغشاء المخاطي لهذا الجزء من الجهاز التنفسي ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أي إلى جهة الفم ، طاردة بذلك كل ما يكون قد بانها من أجسام غريبة ، أو كائنات مؤذية . أما إذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة فانها تلتقي هناك بالعصير المعدى الذي يحتوي حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ في الألف ، وتلك النسبة كافية غالبا لقتل الميكروبات المرضية ، غير أنه يعوق عمل هذا الحامض « أولا » إن الميكروبات تكون غالبا مغطاة بجزيئات الطعام التي تحول بينها وبينه « وثانيا » إن الحموضة قد تكون سريعة العمل في اخراج ما بها إلى الامعاء ، فتهمر الميكروبات بها سراعا قبل أن تقع تحت تأثير عصيرها المظهر ، واسكن أثبت حضراتكم قوة العصير المعدى في قتل الميكروبات أذكر تلك الشجيرة المشهورة في تاريخ علم البكتريا التي قام بها العلامة (بيتينكوفر) وتلميذه (إيرنج) التي أرادا بها أن يثبتا تأثير جراثيم الكوليرا على معدة سليمة وأخرى مريضة ، فتناول أولهما عدة سنتيمترات مكعبة من مزرعة الميكروبات في المرق ، أي أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات ومع ذلك لم تظهر عليه أي أعراض مرضية مطلقا ، أما تلميذه الذي لم تكن معدته صحيحة كمعدة أستاذه فانه أصيب بكوليرا حقيقية ، وكاد يلقى حتفه ، وهذا يدل على أهمية الخطيرة لهذا العصير .

بقي أن نعرف ما يحدث إذا ما وصلت ميكروبات الأمراض إلى الامعاء ؟ وهنا أيضا تجد نفسها أمام عقبات وتهدد حياتها عدة أخطار ، فأولا عدم ملائمة الجو هناك لمعيشتها ، ففي الامعاء لا يوجد غاز الأكسجين ، وهو ذلك العنصر الحيوي لفاليسة الميكروبات المرضية والتي لا يمكنها أن تعيش بدونه ، وثانيا التلاحم الذي تلاقيه من الميكروبات الحيدة التي تحيا وتعيش في هذا الجزء من الجسم ، ففي الامعاء يعيش دائما ميكروب هادى ودع سالم يسمى (ميكروب القولون) يعيش من فضلات التغذية كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل في عملية الهضم ، وهذا الميكروب يحكم حيويته يحرم الميكروبات المرضية من غذائها ، فيسحرمها بالتالى سبيل الحياة . بل هو يعمل أكثر من ذلك ، لأنه يمنعها من النمو والتكاثر بما يفرزه من مستحضات وفضلات . إن هذه الحقائق التي ذكرتها إن هي إلا صورة من الموانع الطبيعية التي تقي مملكة الجسم البشرى ، ولكن الخطر الحقيقي يحدث إذا ما اخترق العدو الحدود ووطأت قدماء أرض هذه المملكة ، هل يسلم أهل البلاد ويلقون سلاحهم أمامه ياترى ؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كيانهم وحياتهم ؟ ذلك ما سأوضحه لحضراتكم فيما يحىء من الكلام :

الخلايا البالغة

إن الجسم البشرى كمثل الكائنات الحية ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وكل كائن حي يعمل لحل وهضم كل ما يدخل إليه من مواد عضوية أو غير عضوية ، وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أخرى تدخل في تركيبه أو بنيانه ، هذه العملية تشاهد في أبسط صورها في الحيوانات المركبة من خلية

واحدة ، وهي التي نسميها « الاميبا » فهذه الاميبات تزحف بواسطة أرجل تطلق عليها « الأرجل الكاذبة » لتجد في البحث عن غذائها المكوّن من الميكروبات والطحالب ، فتأخذها في دانها وتمضغها . ولما كانت عملية الاغتذاء هذه قاصرة على الانعام فالباع ، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة ، أو البلعمات ، كما اننا أطلقنا على هذه العملية اسم « البلعمة » .

ولست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة ، بل يكاد يكون في كل حيوان بعض من الخلايا مازال محافظا على هذه الخاصية ، فمثلا توجد في جسم الانسان خلايا الدم البيضاء ، والخلايا المبطنة لتجاويف البطن والصدر والأوعية الدموية والليفانية ، وهي خلايا لها قدرة على التهام وبلع الأجسام الغريبة وهضمها . أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوّة بلع المواد الغريبة عنه ، فلنعد الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم .

دعونا إذن نتصور أن واحدا منا قد وسخته إبرة ، فإذا كانت الإبرة نظيفة فإن الانسان يشعر فقط بالألم الوقتي ، ومن ثم يلتئم الجرح ، وينتهي الأمر ، ولكن الحال تختلف إذا كانت ملوثة تحمل بعض الميكروبات التي قدر لها أن تنفذ من الجلد داخل البدن ، فلو كانت هذه من الميكروبات العاطلة الرمامة التي تتغذى على التخلّفات النباتية ، أو الحيوانية فإن الأمر ، لأنها تموت أو تنحل بواسطة خلايا الجسم الحية ، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التي تسبّب الدم وتسمّمه ، وتعرفت حلاوة ما يحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستطاعت ، وتنفذت عن غيره من الطعام ، تقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر ، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة ، لأنها تميز عن تلك بسمومها التي تهاجم بها الخلايا فتعطّلها وتشلّها عن القيام بواجبها .

الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات ، وهي أعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار في الجسم ، ولم يبق أمام قوّة الدفاع وهي الخلايا إلا أن تمتشق حسامها ، وتخوض غمار حرب ضروس لا رجعة فيها ولا شفقة ، حرب للحياة أو للموت ، لا تختلف في معادتها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية كما أن جنودها لانقصهم آيات البطولة والتضحية ، والآل اسمعوا لي أن أروي لكم قصتها كما نراها تحت الميكروسكوب :

تدخل الميكروبات مملكة الجسم ، فتجد نفسها في أرض جديدة غريبة عنها ، فتجتمع أمورها ، وتلم شملها ، ثم تسطو على الخلايا المجاورة لها تبتز منها غذاءها ، ثم تسكّثر على طريقها بالانفلاق إلى اثنتين ثم أربع وهلمّ جرا ، وبعد ذلك الاستعداد بتبديد في هجوها ، فتنفث من أجسامها سمّا قاتلا ترمي به أفراد المنطقة التي احتلتها ، وإذا ذلك لا تستطيع الخلايا أن تقف مكتوفة اليدين ، بل تعتمد على الفور إلى الدفاع عن نفسها ، فتقذف عليها سيلان من المصل السوي ، يهون من فعل هذا السم ، ويخفف من حدته ، ثم تدبى المعركة الأولى عن قتلى وأشلء من خلايا الجسم ، ثم تتعطل هذه الأشياء إلى عناصرها الأولية كما يتحلل كل شيء عند مماته ، وتعملها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذي يتهدده ، وبالكارثة التي حلت به ، ولانلبث أن نرى الحماة تخرج من معانقها ، وما تلك الحماة ؟ وما هؤلاء الجنود ؟ إلا الخلايا البيضاء ، أو البلعمات التي ذكرناها ، والتي يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن ، إذ لا يمضي زمن طويل حتى تمتد الأوردة الشعرية فتزيد كمية الدم صوب المنطقة المصابة ، وعند ما تصل البلعمات السابحة في مجرى الدم إلى تلك المنطقة تنقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما تزحف الاميبا ، فرادى في أول الأمر ، ثم

جاءت بالثبات وبالالوف ، وعندئذ أصبح الحرب سجالا ، فالميكروبات تنفذ سمومها ، والجسم يعرقل عملها بميل من المصل ، فتنتفخ المنطقة المصابة وتحمى ، وذلك ما تعرفونه بالالتهاب ، ثم تقترب البلعيمات رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، ثم يأتيها المدد من آن لآخر ، فترداد عددا ، وتستند مصارا عليه ، ثم تبني سوراً منيما حوله يفصله عن باقي الجسم ، وإلى هنا تكون قد انتهت المناوشات والمناورات ، وتبتدىء بعدئذ المجزرة البشرية ، فتتقدم كل باسمة إلى الميكروب الذي أمامها تطبق عليه بجسدها حتى تنبذه في جوفها لقتله ، وقد ينجح السكين من هذه البلعيمات في قتاله وقد يموت البعض شهيداً الواجب ، ولكن العدو لا يستسلم اليأس ، ولا يسلم بسهولة ، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يملأها بمحاربين آخرين ، بدل العشرة مائة ، وبديل المائة ألفا ، هذا من ناحية الميكروب ، أما من ناحية الخلايا فانها أيضا تسلمها النجاسة والمدمر ، وتستأنف المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة ، ولكن إلى متى تستمر فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتقاتل : بل إلى متى تتحمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن أن تستمر الحال طويلا ، وأذن لاندوحة عن النجاسة العاتية لكل محارب ، وكل من يمكنه حل السلاح .

الآن نهرع كل بلعيمات الدم إلى القتال على جناح السرعة ، ويخرج الرديف منهم والخزون في مستودعات الطحال ونخاع العظام إلى ميدان القتال ، وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر « الجسم في حنى » لقد حشد الجسم الآن آخر رجل في ثكناته للقيام بأخر مجهود ، فلما نصر ، وأما هزيمة ، وهل يتم له النصر ؟ من يدري ربما كان كذلك ، لأن العدو وإن كان قد زاد عددا إلا أنه لم يتوغل كثيرا في أرض الوطن ، بل أصبح محاصرا في مكانه ، وإذا كانت المملكة الجسم قد جرت حرب الخنادق ولم تفاج فيها كثيرا فلم يبق بد من تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر في مثل هذه الأحوال .

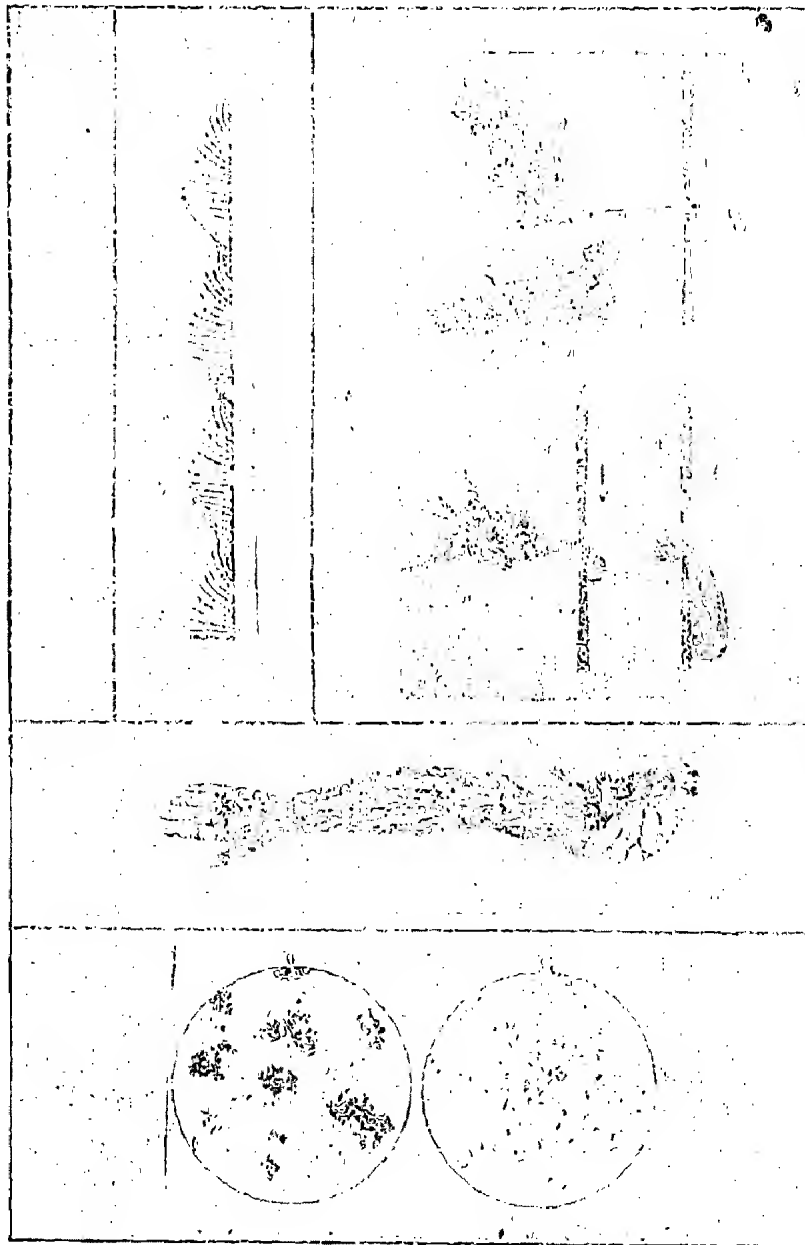
الآن تبتدىء المملكة في تضحية جزء منها لكي يسلم المجموع ، ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق البلعيمات أيضا ، فهي تبتدىء في اتلاف النسيج المصاب أولا بقتل الخلايا وثانيا بضمها وتحويلها إلى عصيدة سائلة ، فينشأ عنه تجويف مملوء بهذا السائل ، أو تعلمون ماهو هذا التجويف ؟ هو الخراج الذي يظهر في موضع حصار الميكروبات ، والسائل هو ذلك الصديد الأصفر المسكون من أنسجة مهضومة ، وآلاف من البلعيمات وملايين من الميكروبات ، ثم يأخذ هذا الخراج في الازدياد ، وكلما ازداد حجما كلما صار ألين وأميع حتى إذا لمس أحسن الإنسان بترجيع السائل فيه ، وليت عمل البلعيمات يقف عند هذا الحد بل انها تتجه صوب الجلد فتتلفه وتمضغه من أسفل حتى ترق طبقة وتحدث ثمة فيه فيندفع الصديد إلى الخارج ومعه الميكروبات .

الآن والآن فقط قد طرد العدو خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غالبا ، لقد كفها ثمنا غالبا وتضحيات في أفرادها ، ولكن يهون كل ذلك مادامت المملكة قد أُنقذت ، وهنا يهدأ بال الجسم على مصيره وكيانه ولكن البلعيمات هؤلاء الحماة الأشداء لا يهدأ طوق بال وفي الجسم جراح فيعمدن إلى عملية الاندمال لأنهن أبناء المملكة البررة وعدتهن في الحوادث والملمات ، ويجب عليهن أن يظهرن ميدان القتال من جثث أعدائهن ، ومن أشلاء مواطنيها ، حتى يمكن للجلد أن يتجدد ويسد الثغرة ، ويكون ذلك بأحداث ندبة تبقى على ممر السنين والأعوام كمنصب تذكارى يبنى بمكان المعركة والنصر الذي فاز به الجسم ضد أعدائه المغيرين ،

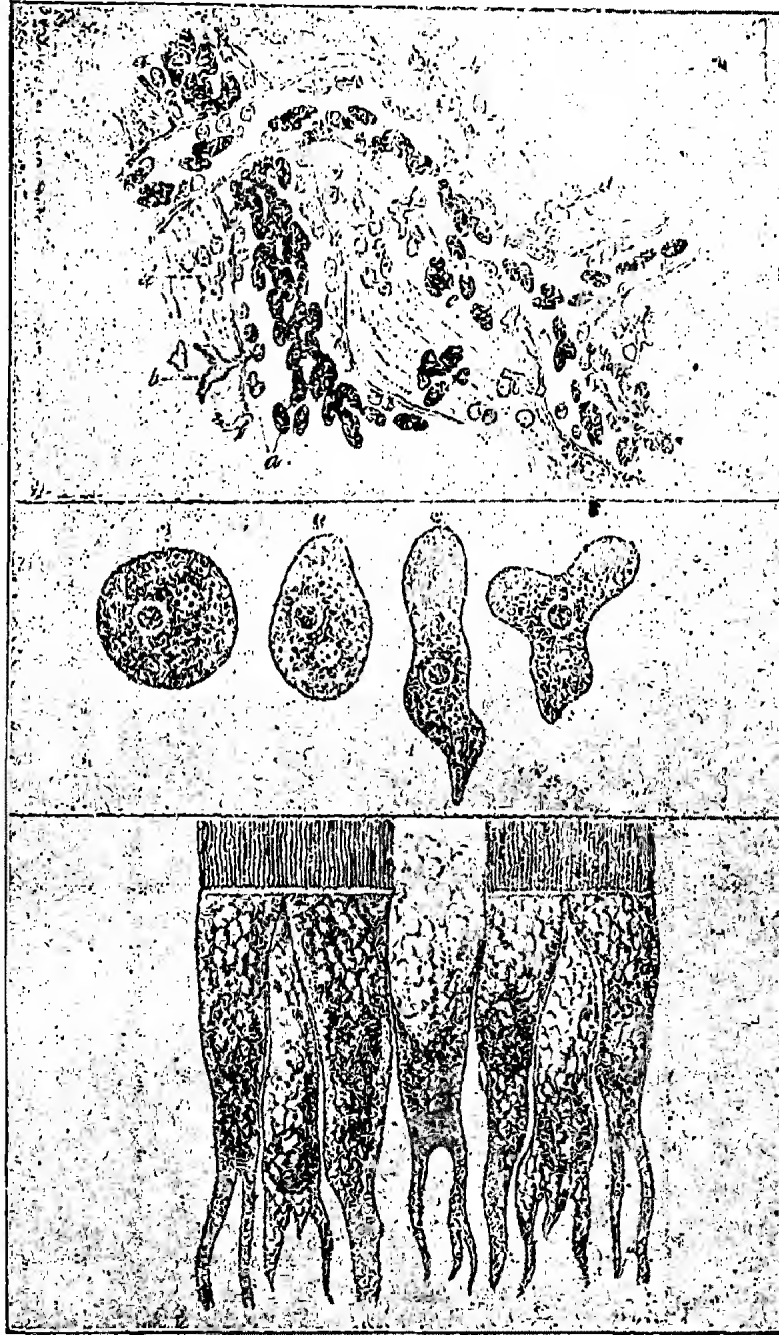
سادق : عند ما وصفت لكم المعركة الأولى قلت لكم : ان البلعيمات تقترب رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، وتحاصره إلى أن تبني من نفسها

سورا منيما - حوله ، يفصله عن باقى الجسم ، ولكنه قد يحدث أن يكون العدو من شدة البأس والقوة ما يمكنه من أن يحطم جزءا من هذا السور وتفسد بعض جنوده داخل المملكة ، فما العمل إذن ؟ هل تتركه المملكة ينساب فى أحشائها فبعث فى البلاد فسادا يودى بهيمة كل من يتأمله فى طريقه من الأحياء ؟ أم هل اتخذت المملكة أهبتها لمثل تلك الكوارث ؟ نعم انها لم تكن غافلة عن ذلك ، منذ نشأتها ، لأن فى داخلها حصونا وقلاعاً ملاءى بالجيش على أنتم استعداد لمثل هذا اليوم الصعب ، وتلك الحصون والقلاع هى الغدد الليمفاوية ، فإذا ما اخترق العدو جدرانها الليمفية ، وتنشط خط الدفاع الأول فان مجارى الليمفا تحمله إليها فيلاقى حتفه فيها ، وذلك لأنها عبارة عن ثكنات ملاءى بالبايعات المقاتلة .

ويوضح لك أيها الذكى ما تقدم ما تراه فى هذه الانفجعة فى (شكل ١ و ٢) فانظره ترى العجب العجيب !
وهاك صورته :



يمين — — — (شقوق) : حركة الأهداب المتوجية . (نحت) : شكل الباعجات لدى خروجها من الأوعية الشعرية
وسط : الغدد والجارى الليمفاوية — يسار : تجمع الميكروبات بواسطة اللزقات
(شكل ١)



(شكل ٢)

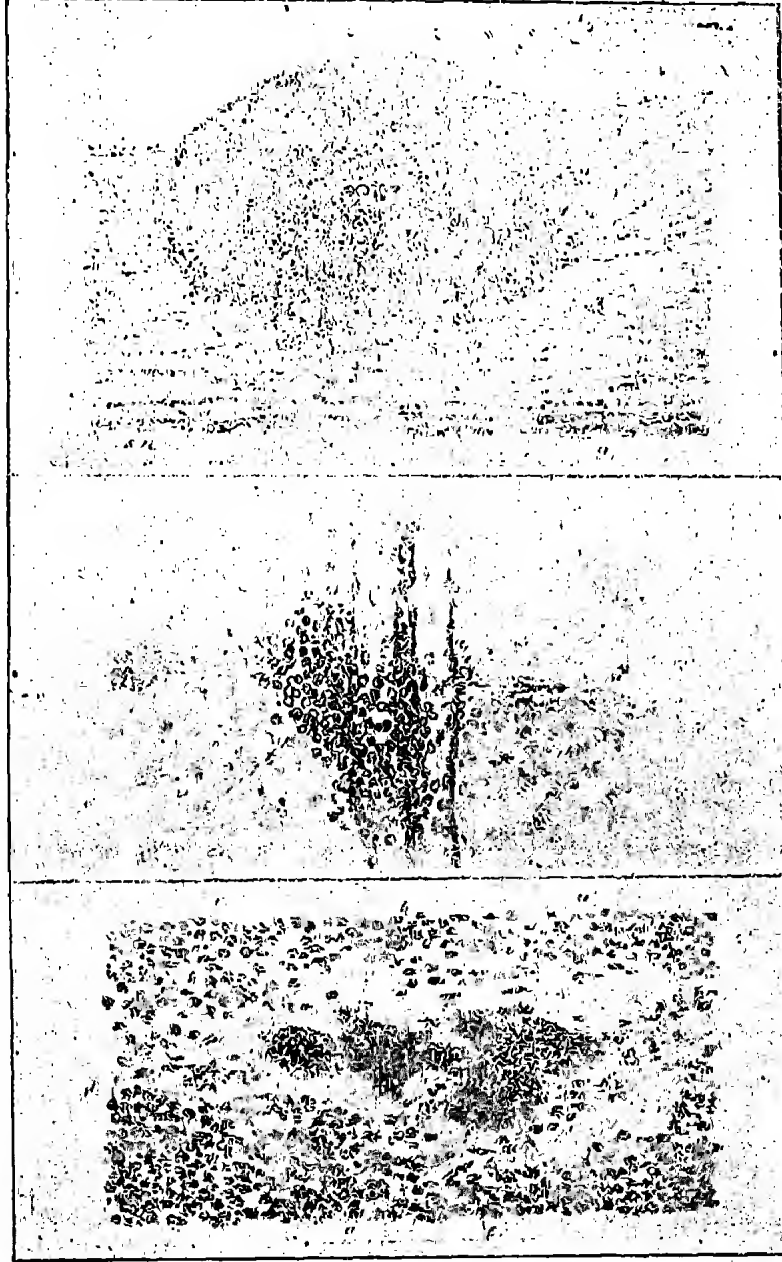
- فوق : تمتد الأوعية وابتداء انتقال البلعومات إلى المنطقة المطلوبة .
 وسط : شكل الاميبا .
 تحت : الخلايا الهدبية المبطننة للقنطرة الهوائية .

ولكن أقرب ذلك إلى الفهم أقول : إن أغلبكم يعلم أنه عند حدوث بعض الجروح في اليد ، أو الذراع ، ينشأ عن ذلك ورم صغير مؤلم تحت الجلد ، وما ذلك الورم الصغير إلا عبارة عن غدد لمفاوية تهيئ نفسها للدفاع عن الجسم فتملأه بالبلعيمات التي تقف في سبيل الميكروبات المغيرة عليه .

ولكن قد يحدث أن العدو بفضل قوته وضعف مقاوميه قد يتخطى أيضا خط الدفاع الثاني كما يحدث أحيانا في الحروب العادية ، أي أن القلاع (أي الغدد الليمفاوية) لا تقوى على صد غارات الأعداء المهاجمة فإذا يكون العمل بعد أن أصبح العدو الآن حرا طليقا في حركاته ، لا جنود أمامه تقاؤه ، ولا حصون تعوقه ؟ بل هو ينساب في البلاد ، سائرا في طرقها الرئيسية ، أي في الأوعية الدموية ، ملتصقا بالغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها ، إذن الوبيل ثم الوبيل لهذه المملكة البائسة التي تصبح فتري أن في كل زاوية من زواياها ، وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنبا يذيقها الهلاك والردى .

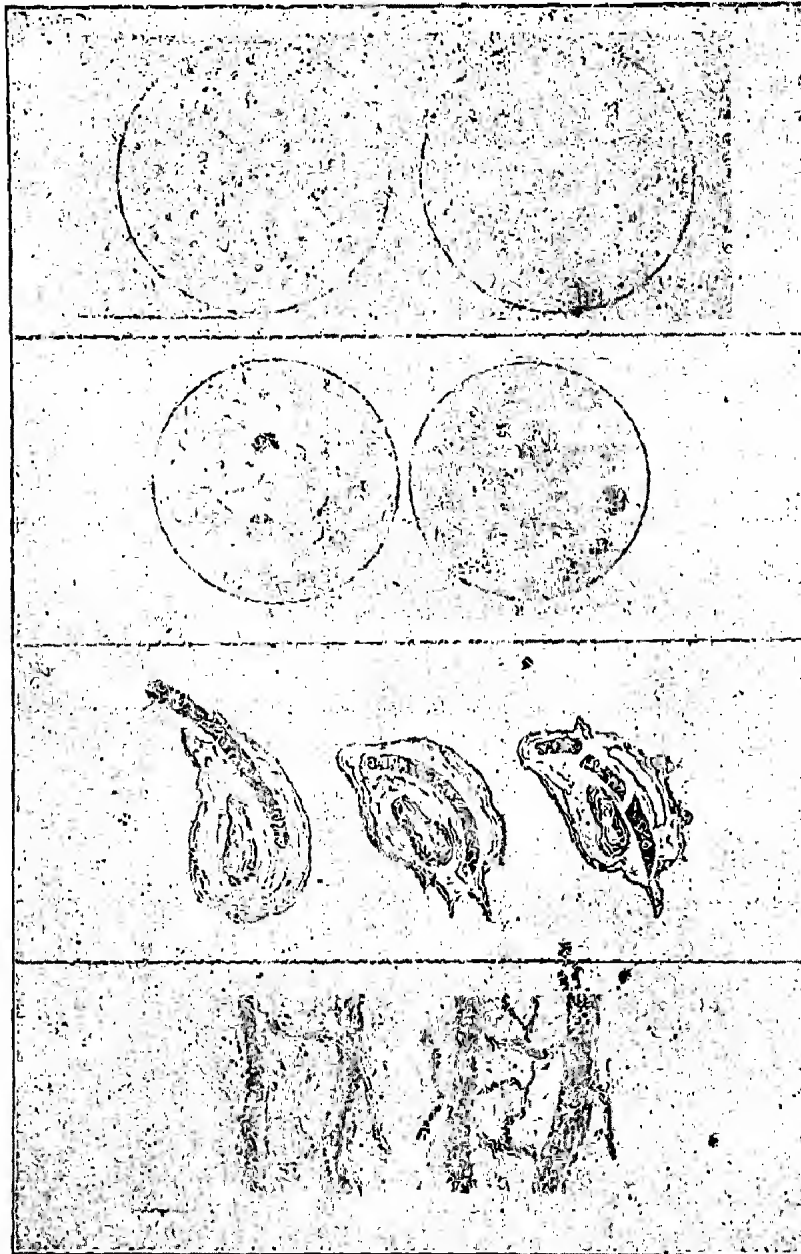
وإذا كان هذا هو الحال في ممالك الأمم فليس هو كذلك في مملكة الجسم البشري القوية المنظمة ، وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها ، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع ، إن في دماغها الذي يجري من قبة رأسها إلى أخمص قدمها ، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر من الوسائل ما هو أشد قوة وأكثر فعلا من الوسائل الأخرى التي شاهدناها إلى الآن ، وهذه الوسائل المتخزة للأيام العصبية أي عندما يتسمم الدم وتنتشر النيران فيه . قلت الدم ، والأخرى بنا أن نقول مصل الدم أي ذلك الجزء المانع منه الذي يمكن فصله بعد تحنثره من الجلطة الدموية ، إن هذا المصل الذي يحتوي على مواد مهلكة تبعد الميكروبات سماها العلامة (بوشنر) الذي كان أول مكتشف لها ، والتي يمكن أن يعبر عنها بالعربية « بالمواد الداحرة » وبالطبع لا يمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما نشاهد ظاهرة البلعيمات تحت الميكروسكوب ، ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة ، وذلك أنه إذا أخذنا جزءا من المصل الدموي ، وأضفنا إليه قليلا من الميكروبات الحية ، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج في فترات متعددة وزرعناها على البيئات الملائمة لنموها الميكروبات رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المسنبت يقل شيئا فشيئا حتى ينتهي الأمر إلى عدم العثور عليها ، لأنها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل عليها ، كذلك توجد في المصل مواد أخرى أقل فعلا من المواد الداحرة ، فهي لا تمهلك الميكروبات وتقتلها ، ولكنها تشل حركتها فقط ، وتجمدها على بعضها كتلاكتلا مانعة إياها من المرح داخل البدن ، وفي الوقت نفسه تسهل للبلعيمات إلتها مها وتدميرها ، هذه المواد هي التي اكتشفها كل من « جرور » و « درهلم » ويطلق عليها اسم « الاجلوتينات » أو « الملزقات » سادتي : إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هي وقاية خلوية خلطية ، أي أنها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكالة ، أو البلعيمات ، وإلى أخلاط البدن ، أو المصل الدموي . (وترى في الشكاين الآتين في الصفحتين التاليتين وهما شكل ٣ و ٤ ما يوضح لك هذا المقام) . بقي أن نتحدث قليلا عن الوقاية النوعية .





(شكل ٣)

- فوق : اتجاه البلعمات نحو الجبل هضمه .
 وسط : خروج البلعمات إلى ميدان القتال .
 تحت : البلعمات تحاصر الميكروبات .



(شكل ٤)

- فوق : إبادة الميكروبات بالمواد الداحرة .
- تحت : إلتهاام البلعومات للميكروبات .
- تحت : إلتهاام البلعومات للميكروبات .
- تحت : البلعومات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

الوقاية النوعية

إن البدن لا يقف حيال العدوى عند حد الاستعانة بوسائله الطبيعية في مكافحتها ، بل هو قادر أيضا على تجديد ما فقده من المواد الواقية ومن البلغمات المسكفة التي تسكون قد سقطت في ساحة القتال أثناء الدفاع ولكن عملية التجديد هذه لا تقف عند حد الاستعاضة خصب ، بل انها تنزع في العادة إلى التعويض المفرط ، وانه لمن أعجب النظم في الكائنات الحية ما نشاهد فيه عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى ، فمثلا اذا كانت العدوى حمى ، فيفودية وجه البدن كل قراه إلى تحضير المواد الراقية ضد ميكروب التيفود ، وان كانت العدوى كوليرا مثلا قلم البدن بتحضير المواد الواقية ضد ضحات الهيضة الأسيرية وهكذا دواليك أي أن الوقاية تصبح كما يعبر عنها وقاية نوعية .

سادنى : لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على كميته من غارات الميكروبات وسمومها ، ولست أخفي عنكم انها محاولة ناقصة ، إذ يضيق في المجال لو ذكرت لكم كل الحقائق التي أظهرتها الأبحاث العويصة ، والتجارب العلمية ، التي أجريت في السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض ، ولكن يكفي أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه .

الخلاصة

والخلاصة أننا حقاً مدينون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم ، وبالجزء إلى الخلايا الأكلة (البلغمات) في الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة ، وهذه الخلايا لا تقوم بعملها الجليل الذي وصفناه إلا لأن تلك هي وظيفتها التي اختصت بها بين أفراد مملكة الجسم البشرية ، ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل .

واقدر عرفتم الآن كيف أن الجسم يبذل في حياته اليومية الملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك ودون أن يعلن عن نفسه ، أو يفتخر بعمله ، انه في حرب صباح مساء مع أعدائه ، مضحيا بالآلاف من أفراد في سبيل الحياة ، ولكنني أشعر أنكم تتساءلون فيما بينكم قائلين : اذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة ؟ ولماذا ننتاب الانسان الأورثة بين حين وآخر ؟ والجواب على ذلك هو أنه في بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدة وقسوة بحيث يخر الجسم فريسة أمامها قبل أن تأتية النجدة من جنوده ، على أنه اذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتتخذوا الحطة له فذلك السبب هو تقصير الجنود ، ونقص مهمات الدفاع والكفاح ، والمعروف أن نقص وسائل الدفاع يكون عادة في الممالك الضعيفة . وكذلك الحال في مملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تسكون أيضا ناقصة ، أولا تلاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء ، ولم ذلك ؟ أليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف في تركيب بنيتهم ، ضعاف في أجسامهم ، لسكاهم في المنازل الضيقة التي لا تهملها الشمس ولا الهواء ، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل ، ضعاف بتعبهم ونصبهم في الأعمال الشاقة المضنية التي يجب أن يقوموا بها لكسب معاشهم ، فاذا عرفنا ذلك ، أصبح لزاما علينا أن نقوى أجسامنا ، ونزيد في مكانة أبداننا كي نعطي جنوده القوة والنشاط للكفاح والدفاع .

فالى العمل بنظام ، والى الراحة بقسط وافر ، والى الخلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج .

إننا بهذه الوسائل نكون حقا قد قمنا بالواجب علينا نحو أجسامنا ، وهيأناها للدفاع عن أعضائها . انتهى ما أردته من المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب ١ وقال : لله درّ هذا الطبيب الخطيب ، لقد أجاد وأفاد وأبدع في تصوير هيئة الجسم والجنود المجنّدة فيه مما لم يسبق له فيما أعلم نظيره ، ولكن لما كانت آية : « ولله جنود السموات والأرض » غسيرة خاصة بجسم الانسان ، بل أن الآية عامة ، وقد فتح الله الباب بهذا القول أحببت أن تسمعني قولاً عاماً به نفهم كيف تكون تلك الجنود المجنّدة في السموات والأرض بقدر الامكان . فقلت :

فصل في جنود الإحياء والامانة * أو الظلمة والنور

- (١) كجنود السكرباء السالبة والموجبة .
- (٢) وجند الجوامد ، والسوائل ، والغازات ، والنيران ، والمياه .
- (٣) وجند الميكروبات التي للإحياء ، والتي للامانة .
- (٤) وجند الأغذية والسموم للإحياء والامانة .
- (٥) وجند الحشرات ، والطيور ، والهوام ، والبهائم ، والأنعام ، إحياء وإمانة .
- (٦) وجند النوع الانساني إحياء وإمانة .
- (٧) وتبين أن نوعي الجنود المذكورين يكونان ماديين ومعنويين ، فهنا أربعة أنواع من الجنود
- (٨) تبين جنود الامانة في أمم الاسلام التي مزقت شملهم مادية ومعنوية قبل زماننا .
- (٩) وجنود إحيائها في هذا الزمان بقسميها : معنوية ومادية .

مصارفة

فقال : حدثني رعاك الله عن هذه الجنود كلها ، فإن هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة ، ولم يكن ليخطر لي أن الأمر يقسع حتى يصل إلى هذا الحد ، وأن في الأضواء والنيران والمياه جنوداً ، فعمل في الأمر أسراراً وأنواراً .

السكرباء السالبة والموجبة

فقلت : اعلم أيديك الله بنصره ، وأعزك باعزازه ، ان هذه المادة التي نعيش فيها (كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) لا وجود لها : فهذه الشمس والأقمار والسيارات والثوابت والأرضون وما عليها من الأحياء والجمادات ، كل هذه لا وجود لها ، وما هي إلا ذرات ضوئية ، أبدعتها الحكمة الالهية ، فكان منها السالبة ، ومنها الموجبة ، هذا خبر هذه الدنيا ، وهذا أول الوجود المادي وآخره ، وليس لعالم عصرنا علم فوق هذا ، فهذه العوالم كلها ظواهر لهذه الأنوار سالبتها وموجبها (انظر معني السالب والموجب في « سورة الرعد » فهناك شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً عند آية : هو الذي يريكم البرق الخ) ولا يقرب هذا لنا إلا مانعه في نفوسنا .

الله أكبر : نحن نحس في أنفسنا بصور ، وهذه الصور لامادة لها ، وهي تظهر فيها ولا يطاع عليها أحد إلا نحن في مخيلاتنا (وأنت قرأت هذا المقام في « سورة القتال » عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » في رسالة « مرآة الفلسفة » وهذا المقام هو الذي به أمكن الخروج من الورطة التي وقع فيها أمم وأمم من قبلنا من أيام سقراط وأفلاطون إلى الآن ، وهذا هو المخرج الذي فتحه الله للانسانية للخروج من مأزقها الفلسفي) فهذه الصور التي نحس بها في نفوسنا بلا مادة تصوّر فيها تسهل لنا تصوّر ما يقوله علماء عصرنا : « إن أصل المادة إنما هو السكرباء السالبة والموجبة ، فإذا كان الانسان يحس في نفسه بصور لامادة لها

فليس عجيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها تكونت من كهرباء كشتل على سابلة وموجبة ، وبالكهرباء السالبة وبالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها ، فإضافة لهذا الزجور العظيم الذى اخترعه صانع الكون كما لامادة للصورتى نحن بها فى نورسنا ، وإلى عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقايتنا فى حياتنا .

خطاب الله عز وجل للعالم

ولم أجد قولاً جامعاً لما أريد فى هذا المقام مما ألقاه الله بطريق الإلهام على أحد الصالحين الملازمين لقراءة هذا التفسير ولذكر الله ليلاً ونهاراً ، حضره بنى سند أيام وقال لى : بينما أنا أذكر الله ليلاً إذ خيل لى كأن الله عز وجل يخاطب العالم مبتدئاً بالكهرباء الأولى وهو يقول : أيتها الكهرباء ، أنت من آثار نورى فلقسرى فى حركاتك اسراعاً حثيثاً ، ولتكن حركاتك فى الثانية الواحدة من ٧٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة ، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأحمر إلى البنفسجى ، ولتكن هناك سبعة ألوان ، ولتكن منها باءاً واحداً ، وهيئة واحدة ، فقطهر للحيوان نوراً للشمس ظاهراً للعالمين .

إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدارت الكهرباء كما أمرها الله ، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والكوكبية .

خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال : هأنت ذه قد أتيت طائفة وامتلأت أخرى ، فهذه أول خطوة من خطوات مخلوقاتى ، ألقاسمى : جدى السير مسرعة ، ولتكن لك فى الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة ، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأشجار وكل نبات وكل حيوان ، ستظهرين أيتها الكهرباء لعون الناس والحيوان بهيئات مختلفات ، يحسونها فيقولون : هذا غاز ، وهذا سائل ، وهذا صلب ، وفى الحقيقة لا غاز ولا سائل ولا صلب ، ماهذه إلا أضواء كهربائية مختلفة سرعة حركاتها ، فاختلفت أفعالها فسميت بحجراً وشجراً وماء وهواء ، هذا أول الأسمى وأتسره ، وفى الحقيقة لأشياء ولا مادة ، وماهى إلا الحركات فى عالم لانورته ، وهذه الحركات متنوعة ، ولهذا التنوع نتائج عجيبة . أيتها الهواء : ليكن فيك جند الأحياء وجند الامانة فاذا اشتدت عواصفك وقواصفك فأنت إذن جند الطللك ، تهدم القصور والدور ، ونقتلع الأشجار ، وإذا كنت خالصة من الأعراض المؤذية من البرد الشديد ، والحر الشديد ، فأنت راحة للعالمين . وأنت أيتها الماء : قم بمنافع عبادى ، وكن حياة كل شئ ، وإذا أصابك عارض مما ذكرناه فأنت من جند الابداء والاهلاك ، وهكذا قال الله لكل حجر وشجر ونبات وحيوان : إن كنتم جميعاً تكونون جنودى فى حصول الحياة كما تكونون جنودى فى إحداث الممات ، أيتها المخلوقات اسمى .

هناك صرخت تلك المخلوقات صرعة واحدة وقالت : رباه . رآهم لم تكن جند الحياة فحسب ؟ ولم جعلتنا للضدين ؟ فقال لها : أيتها المخلوقات : إن كنتم لاتعلمن ما أعلم ، أنتم من المادة ، والمادة ضيقة العطن ، قليلة الفطن ، لاتسع كل ما أعلم من الصور والأجيال والأحوال ، فعلمى يسع من الصور مالا تحتمله مادتكم كما تفهمه عقولكم ، فأنا اذا جعلتكم جند الرحمة والحياة فقط لم يكن موت ، فيكون بخل فى العطية ، ويكون العالم المادى جيلاً واحداً يبقى آلاف الآلاف من السنين ، ولايين الملايين من القرون والأحقاب ، فأى بخل أقطع من هذا ؟ فلما عجزت مادتكم عن أن تسع هذه الصور كلها ، ولم تعمل إلا صورة بعد صورة

تألفت فيها وقدرت الموت والحياة ، وأنفذت جندين : جنود الأحياء ، وجنود الإبادات ، لتسحق المادة ماتحتمله من صور الأحياء بقدر الامكان ، فهاكم أولاه بإعجابي :

(١) هذه الذرات المصفريات اللزجة تعيش وتتكاثر في الأرض وتتوالد بلا حسد ولا عدد ، وتفتت

المواد الأرضية التي تجميع غذاء للنبات ، فهذه المادة نبات فطري يعمل حياة النبات المعالوم فهذه جنود نباتية أعدتها للحياة .

(٢) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر في المواد المتضجرة فعندها للفساد وللهلاك (وهذا تقدم شرحه في بعض أجزاء هذا التفسير)

(٣) ثم انه لا طير ولا دابة ولا شجرة إلا رطبا عطف على أبنائها ، فهي تبني العش ، وتطعم الفرخ ، أو ترضعه اللبن إلى آخر ما هنالك ، فهذه بهذا الاعتبار جنود الحياة .

(٤) ولا أسد ، ولا غر ، ولا فهد ، ولا وحش ، ولا صقر ، ولا شاهين ، إلا وجعلت حياتها موقوفة على أكل الأرانب ، والفزلان ، وجميع آكلات الحشائش من الحيوان . فهذه من هذه الناحية جنود الإهلاك .

(٥) ومن جنود الإهلاك الجراد الذي يسطو على المزارع فيأكلها فيجوع الانسان ويموت .

(٦) ومنها الخمل المحاربة لنمل آخر فتهلكه بلاشفقة ولا رحمة في جميع الأزمان .

(٧) أنا سلطت العنكبوت على الذباب إذ تصطاده بشبكاتها اللطيفات .

(٨) وسلطت طيور (العنز) على الجراد فيكون لها طعاما سائغا نافعا لآكلات (مذكور في سورة آل عمران عند قوله تعالى : بدك الخيل الخ)

(٩) وألهمت بني آدم أن يأكلوا السمك ، والطيور ، والأنعام ، وكل هؤلاء جيوش الامانة والاعدام .

(١٠) كل هذه القائنات المهلكات عاطفات على أبنائها ، وفلذة أكبادها ، فهي جنود السموات والأرض ، جنود الأحياء ، وجنود الإهلاك .

(١١) وهناك جنود لي في نوع الانسان ، وهذه منها الخير ومنها الشر .

(١٢) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يسلموا عبادي المسلم والدين ، وأصرت بعضهم أن يستعمل السيف أحيانا ، وأصرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية ، وجنود حسية ، فالأولى هي المواعظ والحكم ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، والثانية هي الجنود المجندة بالسيف والسنان ، والضرب والطعان ، وأصرت أن لا يستعمل الجنود الحسية المادية الجرمانية إلا بعد أن يرسل الجنود المعنوية النورية ، فتكون تلك الجنود لاهلاك العاصيين ، ولحماية المطيعين ، فالجنود النورية العلمية ، والجنود الحسية المادية الانسانية تكون لاحافة الضالين ، واطمئنان المهتدين .

(١٣) هنالك ظهر في الوجود أمة اسلامية عظيمة ، لها كيان خاص ، وحياة منتظمة ، كأنها هيكل إنسان حي ، هي أمة كفر ، هم كالجسد الواحد .

(١٤) ولكنني عدل رحيم حكيم ، وقد سبق أني قلت لكم : ان حكمتي قضت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة ، فاذا أقيمت هذا الطيف الإسلامي بالتغير مستمر فيه كان ذلك خطا في النظام ، فلا بد من التغير والتبدل ، لتعتمد المادة الأرضية جميع الأوضاع الممكنة .

(١٥) هنالك سلطت الشياطين على قلوب الملوك الأمويين ، والعباسيين ، والانشيديين ، والطولونيين والسلاجوقيين ، والأندلسيين ، والزياريين ، والغزنويين ، والجلديين ، والفاطميين ، والمماليك البرية والبحرية ، والتمانيين وغيرهم ، فوسوسوا إلى كثير منهم بالاسراف في الطعام والملابس

والفساد والظلم والقتل ، وسلبت منهم أيضا على رجال من أهل العلم ، تأخذوا بتدفق في الأمم الإسلامية مقالات تحض على افتراق الكلمة ، وتشعب الرأي ، وذلك بتأويل الآيات ، ووضع الأحاديث ، والجدل والمناظرة ، فكانت (٧٣) فرقة ، وكل فرقة أصبحت فرقا ، كل يدعى أنه هو الحق بالدين وسواه في ضلال مبين ، هأنذا يا عبادي صنعت في هيكل الأمم الإسلامية ما فعلته في هيكل الحيوان ، هيكل الحيوان تنحل أجزاؤه ، وتتفرق أعضاؤه ، ولكن عناصر جسمه باقيات في الهواء والماء والتراب ، هكذا أمة الإسلام باقيات ولكنها متفرقات ، فلا زالت تتبع أثر وتقتدر قليلا قليلا ، فزالَت الدولة الأموية ، ثم العباسية ، ثم الدول الأخرى ، واستقل كل جزء حتى صغرنا الخاضر إذ أصبح الإسلام قطعا متناثرا ، وأجزاء منبوذة ، وقد التهمت الأمم التهاما ، كما هي شأن الفريسة في الصحراء (قبل سنين أما الآن فانها آخذة في الانثام)

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كونى سيجر عثرة في طريق الشمانيين ، وحاربى الصين ، واقعدى لبلاد الشرق بالرصاد ، فتوغلت فرنسا وانكشترت في بلاد الإسلام ، ومنعتها بمزقا شاملا ترجع إلى عناصرها الأولية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه .

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى ، فقلت لأوروبا كفى عن الشرق والشرقيين ، فقد جاء دورهم ، وهم سيكونون أنفع للعالم منكم أجمعين .

(١٨) فياروسيا دعى النصرانية التي خنقت الإسلام خنقا ، وكونى شيوعية بلشفية ، ولتقم بجانبك تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان وإيران ، فقم بالشرق ، وكف يا غرب ، واستيقظ يا أمة الإسلام : هذا دوركم أيها المسلمون ، قوموا من رقدة نكم ، رقدتم قرونا فاستيقظوا قرونا ، أتم اليوم جيوش الأحياء واللاهلوك ، وفيكم جيوش المعنوية النورية والحسية الجرمانية ، وكفى يا انكشتر ، ويا فرنسا ، ويا إيطاليا عن ظلم عبادى المسلمين ، قد انتهى دوركم أجمعين .

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين في الهند والصين والأفغان وبلاد جاوه والملايو وشمال إفريقيا وجميع آسيا وأوروبا أن انحدوا وكونوا يدا واحدة ، وكونوا خير الأمم أجمعين ، وفي نفس الوقت قالت : أيها الفرنسيون : اعجموا عود المسلمين في مراكش ، وابلهم بالشر ، وأتم ياطليان اصنعوا شرا في طرابلس ، لأنى أريد بشركم ارتقاء واتحاد أمة الإسلام (وهنا قال الاستاذ الصالح لى : فا كادت الأمان تفعلان بعض الشر في زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم في سوريا والهند وبلاد جاوه يقاطعون بضائع الأمتين ، ويحرمون مدارسهم ، وهنا ظهر في الإسلام عالم جديد لم يكن معروفا من قبل ، وهنا ظهرت أمتة وهي التي ستكون كما قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلا ، أمة كانت متقاطعة متدبرة (إلا في العصر النبوى وما يقرب منه) ، أمة هاجها الصليبيون أيام صلاح الدين ، فلم يقم في وجوههم إلا بعضها ، أما الباقون فانهم تخلفوا عنها في شمال إفريقيا وفي غيرها ، أما اليوم فان الحوادث المزعجات جمعت كلتهم ، وسيكون لهذا في القريب العاجل شأن عجيب) . انتهى كلام الصالح المتدخل خطاب الله الخيالى له .

(٢٠) ثم يقول سبحانه : وأهملت رجلا ورجالا في بلاد الإسلام أن ينصحوا بلم الشعب ، وجهلتهم جنودا معنوية نورية ، تفتح معاقل القلوب ، وتحتل النفوس ، وتهزم جنود الشياطين وتطارد هدم ، وتفل عروشهم ، وتهزم جوعهم ، فتقضى على النعرات القديمة ، المفترقات للكلمة ، فلا تبقى تلك السفساف ، ولا تلك السموم الفتاكة الممزقة لهيكل هذه الأمة بأنواع المثبطات المؤسات ،

والبدع ، والاختياز للفرق المتشعبة ، والطوائف المتفرقة ، فإن يصير هذه الأمة بعد اليوم اختلاف المذاهب والشيخ ، وتفرق الأهواء بطارق الصوفية ، وتنازع الرئاسات ، فإن نور العلم سيذهب أجمعين ويرون أن هذا التنوع والاختلاف ليسا في أصل الدين ، بل هما في عوارض عرضت عليه من خارجه لا من داخله ، فيلتمون ويتحدرون اتحادا جوهريا ، وإن اختلفوا اختلافا عرضيا ، وهم يتقون .

(٣١) ومن جنود الأنوار تلك العلوم التي بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس في الأرض وفي السماء فهي هي الرباط الجامع للأمم على وجه الأرض ، ولأمة الإسلام ، وبها لا يغيرها يدرك المسلمون سرّ التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفهمون سرّ الأحاديث الواردة في فضائلها ، والأقوال الواردة عن الأنبياء في محاسنها ، وكيف تكون سبحانه الله ملء الميزان ومنتهى العلم ؟ وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة ؟ وما هذه الرموز والأعاجيب ؟ لن يعرف المسلمون تنزيله الله في أفئدة الذين يقتضيه التسبيح إلا بإدراك بعض أسرار الطبيعة ، فإذا علم المسلم علما ليس بالظن أن القروح والدمامل (فيما تقدم قريبا) وأن الحبي وأمثاله لم تخلق في الإنسان إلا لاسعاده ، ولولم تكن تلك الآلام قضى عليه ، فانه هناك يفهم ماهو التسبيح ، وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة ، لأنه لاسعاده في دنيا ، ولا في آخرة ، إلا بالاطمئنان وإدراك الحكمة في خلق هذا العالم ، فإذا رأى الإنسان أنه محوط بعالم كله تنازع ، وكاه مصادمات وأمراض وبلاء وموت وذلل وهلاك ، فانه لا يهنا له بال ، ولا تستقر له حال ، بل هو في عالم مزعزع الأمن ، لا ثقة فيه ، بل عالم كله نقص وشين ، فلا أناس فيه ولا طمئنان ، وهنا قال ذلك الصالح : (فلا تكن أنا صبيح الجسم ، كثير الخبرات ، تهدي على النعم من كل جانب ، ولكنني أجد الناس حولي يموتون ويمرضون ، والحشرات تموت ، والبهائم والطيور ، وكل لكل عدو ، فاني إذ ذاك لا يستقر لي قرار . فإذا أدرك العقل أمثال هذه الأسرار التي ظهرت في هذا الكتاب وفي أمثاله ، فانه يصبح في نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته ، واليه الإشارة بقوله تعالى : «دعواهم فيها سبحانه لك اللهم» وصرح بالحقيقة الناصصة فقال : «وتخيتهم فيها سلام» وفي آية أخرى قال : «إن المتقين في مقام أمين» وفي أخرى : «سلام قولاً من رب رحيم» .

هذه هي الأسرار التي في الاسلام ، وفي آية أخرى يقول : «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» .

لاسلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتى في هذا التفسير ، ولن يكون سلام في بلاد الاسلام إلا بجنود الله المجندة النورية التي تفكك بجنود الجهل الخيمة على عقول القرون الاسلامية المنشاكسة فتقطع دابرها ، وتقلّ جوعها ، وتلك الجنود إنما هي الحكمة التي يقذفها الله في قلوب المصلحين شرقا وغربا ومنهم قراء هذا التفسير الذين سيكون منهم ما همون وهم مفلحون ناصحون اه

فلما سمع صاحبى ما قصصه عليه من تلك الخطرات المخاطر لذلك الصالح . قال : هذا كلام حسن ، ولكن من ذا الذي يدعى أن الله يخاطبه في زماننا ؟ وكيف تنقل خطابه عن صالح يدعى ذلك ؟ فقلت : انه لم يقل إلا أنه خيال ، ولكن هذا الخيال مبنى على العقل . فقال : ولكن فيه مبالغة في أمر المسلمين وانهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيما . هذا ما يفيد هذا المقال . فقلت : سترى في اللطائف الآتية في كلام (لوثروب استودارد) ان الأمم الاسلامية ارتقت اليوم طفرة ، وقد نفقت غبار الكسل واستتعت نفل ، وضرب الأمثال ، وأتى بما لا حد له من ضروب الحجج في مقالات متتابعات ستتضح انصاحا تاما فيما ستراه إن شاء الله تعالى كما

فلته لك . فقال : ولكن ما بالنا نرى بعض الأمم الأوروبية تضغط مضطداً شديداً على المسلمين . فقلت : ألم يتضح لك في هذا المقال اتضاحاً تاماً أن ذلك الضغط إنما هو لابقاط الأمم الإسلامية كما تقدم في ذلك الخطاب الخيالي ، ألم تعلم أن الجيوش المعنوية النورية العنصرية هجمت على قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومقاربها فهذبت وتفتحت ، ونبتت الشرور وملاؤها بالخيرات .

جيوش النور عمت بلاد الاسلام الآن ، وستفتحهم ما بقي من حصون الجهالة ، وتفتح المعامل والقلاع ، وستحتل كل ثكنة ، وكل حصن ، وكل عقل في بلاد الاسلام ، وماضفط الأوروبيين على أمثال مراكش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تتكاثر الميكروبات في الجسم ، فيكون دمل فقيح فيصح الجسم أركباً تكون حتى وهي لم تخلق إلا لصحة الجسم وعلافته وسعادته ، لا لإضعافه وإهانتة ، لاشر في الأرض إلا لخير كما لم تكن الحلي إلا لصحة البدن (كما تقدم قريماً) وهاهي هذه جيوش النور تغزو القلوب الإسلامية فتصلحها ، وتبعها جيوش الدول فتغزو الأمم الظالمة أولاً بالاعراض عن المعاملة ، ثم تستقل وتغظم بين الأمم أجمعين ، فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الإسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها باباً للشفاء كما جعل الحلي والأورام أبواباً لإصلاح الجسم ، إن العلم اليوم كشف الحقائق ، إن هذا هو الزمان الذي ظهر فيه معنى : « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

إذا أيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لا معنى لبقائها إلا أن تذل وتخضع كما يموت الانسان إذا لم يصلح للبقاء في الحياة ، وإذا أذلها الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها .

إن العلوم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعها « لاظم اليوم إن الله سريع الحساب » وما عرفناه من الحقائق القليلة دلنا على بقية ، فأى فرق بين الموت وبين الجرح والحلي ، فإذا كان الجرح لإصلاح البدن فهكذا الموت لإصلاح الروح وخلصها من أدران البدن كما خلص البدن من المؤذيات ، وشفائها بزوالها كما شفى المريض بخروج الحديد والدم من بدنه بالقرح لأن البدن الضعيف قرح النفس ، وكشفاء الأمة من تفرق شملها ، وتشتت جمعها ، بدخول الأعداء بلادها ، فيكون الرقي باسم الجراحها ، وظلمهم فيها ، وعسفهم لها ، ماهي إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للإصلاح ، وهذه كلها جنود الله عز وجل : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عالماً حكماً » .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : صف لي جنود النور إتماماً لتفسير الآية ؟ فقلت : جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة ، فكل مخلوق في أرض أو سماء له صورة تراها العيون ، فتكون في الخيال ، فيفهمها العقل فتكون عالماً لأولى الأبواب ، وهذه الصور المخلوقة في السموات والأرض أبدعت بعلم وإرادة وقسرة كما هو معلوم ، وللإنسان لسان وشفتان وحلق والصوت يتردد بينها ، وله عقل وإرادة ومعان في نفسه ، فهو يخرج تلك المعاني بهيئة أصوات تكون حروفاً فسكلمات ، فهذه السكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسمعها الأذن كما رأت العين صور الموجودات ، والعقل يتقبلها على علاتها ، ويبحثها كما يبحث المبصرات ، فهذان جيشان من جيوش النور وهي جيوش الاسماع والابصار ، فكما أخذ النور الصور من الجامد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون هكذا أخذ الهواء الألفاظ التي فيه الواردة من ضغط اللسان والشفقين والحلق وأوصلها إلى الآذان ، وهناك جنود عقلية وهي المعلومات المستنتجات في العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية ، فسلكها جنود عقلية لاحسية ، منيرة ، جميلة ، لاتدع شيئاً من الجهالة إلا جعلته كالريم ، وقد كثرت اليوم في بلاد الاسلام وكما رأينا أن المادة تختلف اختلافًا في صورها لاحتد لمراء ، هكذا الصور اللفظية التي أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لاحتد لمداها ، تنوع في المادة وتنوع في الكلام ، المادة الجميلة برعت وأبدعت في الافصاح عن مكنون الجمال الالهي وكلامه النفسي الذي لاحرف له ولاصوت ، فالأشجار تحدثنا ، والأزهار تؤنسنا ،

والشجر يوم تدهشنا ، والجبال تنفشنا ، وكل ذلك آثار تلك الجمال والكمال ، ما العالم إلا حركات ، فان كان في الأثير فهو المادة ، وان كان في الهواء فهو الكلام ، الصور المادية لا تكون إلا بدوران الأفلاك والليل والنهار والصور اللفظية لن تكون إلا بلسان وشفة وحلق ، ويتردد الصوت بالشهيق والزفير بين الحلق والشفتين ، فهنا تنوع ، حروف ، فكمالات ، فجمل ، فأمثال وخطب ومواعظ على مقتضى تصور القول .

تفنن في صور المادة وتفنن في صور الألفاظ

أحدث الناس بصفاء نفوسهم قصصا وروايات ، وأودعوا فيها حكما وعلمًا ، تقليدا لتلك الحكمة العالية المبدعة في المادة جمالا وجبالا ، جمال المادة حياة التعللين ، وجمال الكلام هداية الانسان ، للصور المنظورة ما لا يتناهى من المنفعة والجمال ، أوالسطوة والاذلال ، وللصور اللفظية ملاحقه من الهداية والاضلال جنود سيرة : تتردد الشمس في أبراجها ، والفرس والكوكب في منازلها ، فتكون صور الموجودات ، ويتردد الصوت بين الخارج كالحاء في الرحمن الرحيم والجد ، والعين في العالمين في ﴿ سورة الفاتحة ﴾ ، والغين في المنضوب عليهم ، والهمزة في إياك ، والهاء في الله ، (وهذه حروف حلقية) وبين اللام والداد والميم وغيرها من حروف شفوية أو نحرية فتكون تلك الحروف ، وتكون تلك الكمالات : كما يتردد النهار والليل ، والصفيف والشتاء ، فتكون تلك المخلوقات .

عجب ! جنود لفظية ، وأخرى نورية ، وثالثة عقلية ، وكأها بالحركات ، واختلافها باختلاف أفعالها ، واتفقت أفعالها ، إن للصوت لدولة وصوله كما أن الطبيعة دولة وصوله .

ها هو ذا الزمان الذي ظهرت فيه صولة اللسان وجنود الرحمة لأمم الاسلام ، ناموا أجيالا وأجيالا ، وكانوا في القرون الأخيرة أطفالا وجهالا ، إلا سكاكهم وعلماءهم العظماء الذين كانوا غير آمنين ، أما اليوم فانهم أخذوا يصولون ويجولون ، ويؤلفون وينصحون ، ولقد امتدت صولة القلم النائب عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب ، وأسرع المسامون للترحيب بجنود العلم ، وخذ المصلحون يضربون لهم الأمثال ، فهبوا من رقتهم وبعثوا بشا جديدا من أجدانهم وهم يجتدون .

فقال صاحبي : إن هذه المعاني غريبة عن هذا الموضوع ، ولكنها دخلت فيه بهيئة أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لي كيف خطرت لك هذه المعاني ؟ وفي أي وقت ؟ فقلت : هذه المعاني خطرت لي أمس (يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣٩ م) فاني كنت في منزلة بناج بالرج ، وبينما أنا راجع وقد سجت عادتني أن أكون في ذهاني وإياي ماشيا على قدمي ، وذلك ربما يبلغ ١٢ كيلو أو أكثر . ويكون الذهاب والاياب في يوم واحد غالبا ، أوفي يومين إذا بت هناك ، فبينما أنا راجع إذ نظرت منبرعة (ذرة شامية) ضحى وألفيت تحتها حشائش تبلغ الذراع ارتفاعا ، لها زهر جيل ، وقرون طويلة دقيقة ، وذلك الزهر ذولون أبيض ، يميل للزرقة ، ولها قليل من الرائحة العظرية ، وتلك الحشائش تنزع ذات اليمين وذات الشمال ، تحت أعواد الذرة المائسات القدود ، الحرا شعور ، اللاتي تتدلى على « المطر » وهو الذي يسميه العامة الكوز ، وهو الذي فيه الحب ، فأعجبني ذلك المنظر ، وكأني لم أر هذه الحشائش إلا ذلك الوقت ، وبينما هذه المناظر آخذة بعجامع عقلي من طريق البصر ، إذا طنين الدباب ، وغوير الأعشاب ، يطر بنى من قبل السمع ، فهناك طرب فوقه طرب ، والفلاحون يغدون ويروحون حولي ولا هم يفكرون ، فأخسنت بعض تلك الحشائش ، وسألت الفلاحين عن اسمها ؟ فقالوا : هذه لم نرها إلا منذ سنتين اثنتين ، ولا نعرف لها اسما ، وهنالك تذكرت حادثة حدثت لي أيام أن دخلت مدرسة « دارالعلوم » ، فبينما أنا مع التلامذة في السنة الأولى ، ولا عهد لي

إلا بالأزهر والحقول ، وقد أنست بها ربهما طنا ، إذا بالمدرسة تصطبغ من الملازمة ثلاثة وأنا منهم لسكون مع المرحوم أستاذنا (الشيخ حسن الطويل) في الأوبرا الطيرية ، لأن الطيرى توفى بأشياء سيكون فيها تلك الليلة ، وهذه أول مرة رأيت فيها الخيل ، فرأيت إذذاك عجبا ما فوقه عجب ! غير أنى لأتصوره ، ولكن لما قدشت في نفسى عن الجمال الذى كنت أحس به فى الحقول ، وطنين الحشرات ، وعماليل الأغصان ، ومنظر النجوم ، أليت أن ذلك التثيل الطبيعى فى الحقول كان أهدى عند نفسى وأجمل ، وخيل لى أن هذا رتبته عند نفسى كرتبة الجمال الصناعى بالنسبة للجمال الطبيعى ، وصرت أتعجب من نفسى كيف كان ذلك حكمها ، فهذه هى الفكرة التى خطرت لى عند شاهدته ذلك النبات فى الذرة أمس ففى ، ثم خطرت أيضا ما تقدم من صور المادّة وصور الألفاظ وجنودهما ، وأن الأسم التى لا تهب عقول مصلحيها لإحداث الصور اللفظية لإصلاح شأنها لأصاها لها ، فعندت الله على ذلك ، وقلت : ها هوذا هذا الكتاب جند من الجنود النورية والجدّة رب العالمين .

فقال صاحبى : الموضوع طال فهل تسمح لى بتلخيصه ليصوّره الأذكى . فقلت نعم :

(١) نحن فى (سورة الفتح) والله قد فتح للنبي صلى الله عليه وسلم فتحا مبينا .

(٢) هذا الفتح بجنود انسانية مسامة .

(٣) ومعلوم أن زمن النبوة ينتضى والباقى إنما هو الدرس والفهم ، فأخذ الله سبحانه يفهم المسلمين ماهى الجنود ؟

(٤) فذكر أن الجند ليس خاصا بالجنود التى ترونها . كلا .

(٥) فى السموات جنود وفى الأرض جنود .

(٦) ومن جنود الأرض الميكروبات التى تستخدم جسم الانسان فتمرضه أو تهلكه ، وجنود أخرى فى نفس الجسم تطاردها فى كل أطراف مملكة الجسم .

(٧) وهناك تكوين قلاع ، وحصون ، وحرب ، وخنادق ، وتبعية الجنود ، إذن هذه من جنود الله المذكورة ، إذن هذا درس عام لخاص بزمان النبوة يدرس على مدى الزمان .

(٨) وهناك قسمت الجنود أربعة أقسام : حسية ومعنوية ، فالحسية لإهلاك الأعداء تارة ، ولإبقاء الأولياء تارة أخرى ، وهذا ظاهر فى النمل والجراد والاسود والخور والسباع والانسان ، ومن الجيوش المعنوية أيضا إصلاح وفساد ، فالإصلاح بالأقوال الجيدة ، والافساد بالقاء الفتن والفضال والافتراء ، فالأولى جنود نورانية ، والثانية جنود ظلمانية .

(٩) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تخدمها أضواء الكواكب فتنتطع فى الأبصار ، فتدركها البصائر فتعقلها وتحدث لها نتائج ، أو من ألفاظ تخدمها الشفتان واللسان والخلق والخلق إلى آخر ما فى علم التجويد وفن القراءات ، أو من نفس العقل واستنتاجه ، فهذه كلها جنود مبصرات أو مسموعات أو معقولات .

(١٠) وأن الأمم الاسلامية اليوم قد أمدها الله بجنود نورية ، منشؤها العقل ، ومصوّرها اللسان والشفقتان الخ .

(١١) وينوب عنها الكتب المنشورة اليوم فى بلاد الاسلام التى أقسم الله بها فقال : « ورق منشور »

(١٢) وهذه الجنود النورية بعثها الله فى بلاد الاسلام لتظهرها بما يشبه العمليات الجراحية فى أجسام الانسان ، وذلك بضبط الأمم عليهم واذلالهم ، فهذه الجنود العالمية أشبه بالميكروبات فى جسم الانسان الواحد الذى إذ تسطو على الميكروبات القاتلة فتغلبها وتطردها من الجسم على هيئة

قيح وحديد ، وذلك هو الحاصل الآن في بلاد الاسلام ، فان العلم النقيض اليوم فيها يطرد عدوين :
عدوا منقوريا ظاهريا وهي الخرافات والجهالات ، وعدوا منسيا جهرانيا ماديا وهم الأمم
الاروبية ، وهذه الأمم لن تبقي في أمة ظهر فيها نور انرفان .

(١٣) ولما سألتك عن هذه المعاني الأخيرة متي خذت لك ؟ ذكرت لي أنها خطرت لك لما كنت
راجعا من مزديعتكم وأنت متوجه إلى المرح ، وأنت إذ ذاك أبهجك بنظر الخشاش التي لم تعرف
لها اسم تحت النرة ، ووافقت بين ابتهاجك بمناظر الطبيعة ومناظر الصور المتحركة ، وذكرت
حادثتك في ذلك أيام دخول « دار العالم » .

هذا مجمل ما تقدم . فقلت : لله درك ، لقد خلصت فأجبت وأحسنت . فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم قال
لي : ولكن لا يزال هذا المقام بقايا . فقلت : وما هي . فقال : إن الجنود النورية يعوزها إيضاح أتم ، وعلم
أجل ، وحكمة أعم . فقلت : إن الجنود النورية على قسمين : أولهما الجنود النورية الحسية ، وثانيهما
الجنود النورية العقلية ، والقسم الثاني أحق باسم الجنود من القسم الأول . فقال : حدثني رعاك الله عنهما ؟
فقلت : لأقدم مقدمة فأقول :

الناس أضياف ربهم في هذه المسادة يحرسهم بجنوده

فقال : إن هذا العنوان غريب جمع بين الضيافة والحراسة بالجنود . فقلت إن لهذا سببا ، إلى أمس
في ليلة السبت التي هي آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٣٩ كنت في مزديعتنا وقد جرى حديث الضيافة وبقاء
حديث حاتم الطائي مع مخلوطته (ماريه بنت عفزر) وهي من بنات مارك الدين ومعه النبيق والابنسة ،
فهؤلاء الثلاثة لما خابوها لأنفسهم قالت لهم : سأزوج أكرمكم وأشعركم ، فأنصرفوا ثم لبست ملابس عجوز
ومررت عليهم في ديارهم ، وكل منهم قد ذبح ناقة له ، وأخذت تستعجلهم ، فأعطاهم حاتم أحسن ما في الناقة
وأعطاهم الآخرين ذبلي الناقين ، فلما حضر الثلاثة عندها بعد ثلاثة أيام ، وأتوا لها بالهدايا ، ووضعت الطعام
أمامهم ، وجد كل منهم أن ما أمامه هو الذي أعطاه لاهرة شمطاء (هي نفسها) فخبيل الرجلان من فعلهما
فأما حاتم فإنه رمى ما أمامهما من الطعام وأعطاهما ما أمامه ، وقال كل منهما شعره قبل الطعام ، وكان
شعر حاتم الأبيات المشهورة وهي :

أماوى ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إني لا أقول لسائل * اذا جاء يوما حلة في مالي النذر
أماوى ان يصبح صدأ بقفرة * من الأرض لأماء لدى ولاخر
ترى أنما أنفقت لم يك ضررتي * وأن يدي مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لو أن حاتما * أراد ثراء المال كان له وفر

فأما أشعار الآخرين فانها كانت كلها نغرا على هذا السعوى ، وما فرغا من الطعام حتى قام الرجلان وبقى
حاتم وتزوجها . انتهت الحكاية في المسامرة ليلة أمس .

انتقال نفسي بعد ذلك إلى الضيافة الإلهية

وما أتممت هذه المسامرة حتى أخذت نفسي تفكر في هذه الدنيا : الله أكبر : نظرت المنهل ليلا أمام
النورية عند مزديعتنا والقمر في السماء ، وهالك طارلي وقلت في نفسي : عجايب بنا ! الناس يفرعون ويمجدون
ويحبون رب الله إذا قدم لهم طعاما ، وأوقد لهم مصابعا ، ومنعهم فراشا ، ويفضون أعينهم عن كل جمال

في الأرض وبهاء ونعمة ، ويفسون الجمال العام في الأرض والسموات ، وهم غافلون ساهون لاهون من رب دارهم الكبرى ، وقناديله المعلقة في السماء ، وأنصاف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات ، حقا « إن الإنسان لظالم كفار » .

يملح رجلا أجاسه في دارضيقة محصورة ، وأعطاه بعض طعام وغطاء ، وقد جهل الدار الواسعة ، وهي الأرض والغطاء الأكبر وهو السماء ، والمائدة الواسعة ، وهي هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرية الجميلة المنظر ، والأنعام ، والقناديل المضيئة ، المشرقة ليلا ونهارا ، فياليت شعري أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة ، اللهم إنك جبت هذه الأرواح في الأجسام فغفلت عن جبالك .

الجنود صنفان ، ولا يحصر لأفرادها

وإن كان ربّ الدار خدم وحشم وحرّاس ، فهم قوم محصورون ، واسكن للدار الواسعة ، وهي هذه الدنيا حرّاس لا يحصر لهم ، وهم قسمان : قسم هي الأنوار المشرقات المحسوسات ، ذات البهجة والأنوار ، وقسم هي العقول الكبيرة والصغيرة ، وأنواع الالهام والفرائز .

عجبا ياربنا ! أرضنا فيها أنوار جزئية : في شمع العسل ، والبتول ، والغاز المستخرج من الفجح ، وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون ، وبذرة القطن ، والسمسم ، والقرطم وأضرابها ، وأنوار السكرباء . سبحانه اللهم وبحمدك : ما هذه الأنوار ؟ هي لنا هداية ، لولاها لسكننا في الأرض عميانا لا نرى شيئا ، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمساعدة أبصارنا لطرقنا وأعمالنا ، وهذه الجنود لا يحصر لها ولها قائد أعظم وهي الشمس ، لولا الشمس لم يكن شمع العسل ، إذ لولاها لم يكن مطر ولا سحب ولا رياح ، فلانبات يحمل زهرا ، ولا نحل يشتر منه العسل فيأكله فيصير عسلا ، ولولاها لم يكن زيت يستخرج منه القرطم والسمسم والزيتون ، إذ لا شجر فلا زيت ، ولولاها لم يكن غاز الاستصباح الذي خزن منذ مئات الألوف من السنين ، خزنته الشمس في الأشجار بأشعتها فاستخرجه الناس الآن .

الله أكبر : الشمس قائد ، وجميع الأنوار على الأرض جنود ، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء : وهي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنيلي والبنفسجي ، وهذه كلها تصبح لونا واحدا ، وهو النور المعروف ، وهذه الألوان بهينها نراها في جميع أنوارنا التي نوقدها .

الله أكبر : الجنود الحسية التي تكفل هدايتنا في الحياة الدنيا وهي الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهي الشمس ، وهذا الصنف من الجنود مثال لما هو أعلى منه وهي :

الجنود المعنوية العقلية

جلّ الله : أبان لنا جنودا نراها بأعيننا ، وأظهر لنا أنها مشتقات من قائدها الأعظم ، ثم وهب لنا عقولا وهي الجديرة باسم الجنود ، هي التي تستحق الاحترام والاحترام ، فلئن هدتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا بواسطة عيوننا ، وهل لعيوننا عمل إذا لم تسكن لنا نفوس وعقول ؟ كل إنسان ، وكل حيوان لهن عقول تدبرها ، وتقوم بأودها ، وتصون حياتها ، وتحفظ كيائها . فللملة عقل ، وللماموسة ، وللصرصار ، بل للخلية الواحدة من خلايا الجسم ، وللخلايا الأولية التي تعيش في الماء الأسن ، ولا يفهمها إلا أن ينقطع عنها الغذاء ، أو يأكلها الأعداء ، فشكل هذه لها عقول على مقدار ما تحتاجه . قال الشاعر :

سقى الله أرضا يعلم الضبّ أنها * بعيد عن الآفات طيبة البقل

بنى بيته فيها على رأس قنّة * وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل

هذا قول السري الجاهلي ، وهو نفس ما قرره علماء النفس في عصرنا الحاضر إذ قالوا : « كل قوة إدراكية في حيوان أيا كان فهي عقل ، سواء أكان ذلك الحيوان انساناً أم حشرات ، أم طيراً ، أم ميكروباً » كل ذلك يسمى عقلاً ، وهذا الإطلاق نفسه قاله الشيخ الخواص ، وندد على الناس في جهلهم أن للحيوان عقولاً ، إذن الصوفية المسلمون نطقوا قديماً بما أتى به العلم الحديث .

الله أكبر : ههنا العقول الانسانية ، والعقول الحيوانية ، التي لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها حد ، هي جنود الله في أرضنا ، جنود وأى جنود ، جنود مهندسين المباني والمساكن والقلاع والحصون ، جنود مهندسين أقراص العسل ، وتظهر نسج العنكبوت ، وآجام الآساد ، وأعشاش الطيور ، وحييل الثعالب ، وكترها وفرها ، وحيالها في جاب قوتها ، وتدير الحرب والضرب ، في حرب الغل ، وترتيب الجيوش الخفية ، وبناء المدائن المتقنة لحشرة الأرض .

الله أكبر : هذه جنود الله ، اللهم أنت الحكيم ، أنت العليم ، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بني آدم وحيواناتنا ودوابنا .

جنود العقول الانسانية والحيوانية

وما يوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا الله جنود عقولنا ، وعقول الحيوانات في أرضنا ، أنت هديتها بإدراكها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب ، وأضواء السرج الأرضية ، عقول جزئية ، أوجنود أرضية ، استخرجت الأنوار الأرضية فاستعملتها ، استخرج الانسان من الشمع نوراً ، ومن الغاز المستخرج من الفحم ضوءاً ، وهكذا من البترول والكهرباء . جنود عاقلة استخانت بجنود محبوسة وهي التي استخرجتها . يا الله عجب لنا ! تحيط بنا أنوار الشمس ونحن لانحمد عليها ، فهي مفسية ، فأخذت تذكرنا بالظلام ؟ وتحكم علينا أن نستخرج من الأرض نوراً نستضيء به ، عقولنا اضطررت لاستخراج النور من مواد الأرض ، جزئي استخرج جزئياً ، وهذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس ، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة ، وهذه مثلها ، لولا الشمس لم تكن أنوار هذه المواد الأرضية ، لأنها سببها .

الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية عَلَى العقول الكلية السماوية

وهل يجوز في العقول الانسانية أن يستند الضوء الجزئي إلى ضوء كلي ويكون مشتقاً منه ؟ (أي ان أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس في السماء) ثم يكون الضوء المعنوي العقلي مستقلاً غير مشتق من عقل أكبر منه ، وهل تكون هناك شمس هي أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحبوسة ، ثم لاتكون هناك عقول كلية منها تستمد هذه العقول الصغيرة علومها وإلهاماتها ، هذا لا يكون ، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وانسانية عقولاً أكبر منها هي مناط استمدادها ، ومباعدة آرائها ، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس ، ونسبة آراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضياء الشمعة إلى ضياء الشمس .

هذا برهان صادق لاخطأ فيه ، يرجع للقضايا البديهية ، والمعلومات الأولية ، غاية الامر أن النوع الانساني اليوم نوع حيواني ، غافل عن هذه الامور العالية ، جاهل بما حوله ، اللهم إلا انه غارق في الامور العملية ، كأن يطير في الحق ، ويهلك المدن ، ويخرب البلاد ، الناس اليوم في أرضنا أطفال جهال ، عيونهم مقفلة ، لا يحسون بما حولهم ، إن عناصر عقولنا هي عناصر العقول الكبيرة ، كما أن عناصر الضوء في الكهرومغناطيسية هي نفس عناصر ضوء الشمس ، وهي الألوان السبعة . وإذا كان في ضوء البترول السبعة الألوان

المعروفة ، ونظيره ضوء الشمس الذي هو أصلي ، فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ونفكير ونفيل وحس مشترك وهكذا ، فهذه كلها عناصر عقولنا تنحل إليها وترجع لها بعد تمليلها ، فكذلك تلك العقول الكبيرة ، لابد أن تكون لها ذاكرة وحافظة الخ منها استمدت عقولنا هذه العناصر ، ويختلف الأكر والأصغرى عناصرهما بحسب صغرهما وكبرهما ونوع علمهما وأحوالهما ، وما هذا إلا مجرد تشبيه لا يطبق تطبيقاً تاماً ، لأننا نجهل أحوال الأرواح المجرّدة .

النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة ، ضوء الشمس ، وضوء نوري البترول نراهما ونشاهداهما ، وعقولنا وعناصرها التي منها تكونت نحس بها ، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة معقولة بالوجدان ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة ، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة ، فإذا كانت عقولنا لا تنتفع بضوء أرضي إلا إذا استخرجته بفطنها ، وما استخرجته تفتتح به ، هكذا تلك العقول الكبيرة التي منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشمس في عالم الأثير حتى تستكمل وتقوى وتضيء وهي التي تسخرها بأذن الله في إيجاد ما أراده الله في هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمة ، كما أننا نحن نصنع طعامنا مثلاً على ضوء الكهرباء والبترول الخ .

عقول كبيرة تنشئ شمساً كبيرة ، وعقول صغيرة تصنع منازل وما كل وشمعا وعملا ونسيج عنكبوت ، عقول كبيرة تنتج عقولا صغيرة ، فالأولى للسماوات ، والثانية لأهل الأرض ، شمس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة تنشق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية ، أضواء الشمس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية المضئئة ، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها ومم ركب ، فهكذا يجب أن نقول في العقول الكبيرة التي تدبر الشمس ، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالباً يكون بالسك ، كما أن الاختلاف كذلك في ضوء الشمس وضوء البترول .

نتيجة هذا القول تفسير آية : ولله جنود السموات والأرض

وآيات كثيرة في القرآن

بهذا وبهذا وحده فهم : « ولله جنود السموات والأرض » . الله أكبر : عطف جنود الأرض على جنود السموات ، لأن الثواني مشتقات من الأوائل ، وثالثه إني في أثناء هذه المباحث العقلية ما كان ليخيل لي أن في هذا العطف سرّ الحبيب ، قدّم الله جنود السموات على جنود الأرض ليفتح لنا بذلك باباً كان مغلقاً على أكثر الناس : ولسكن أكثر الناس لا يعلمون .

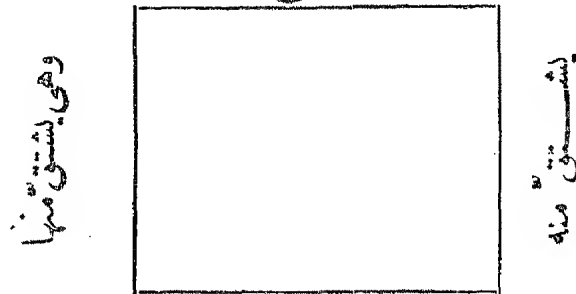
جنود الأرض مشتقات من جنود السماء ، لذلك قدّم المشتق منه على المشتق ، وهذا عجائب من أسرار القرآن : فله جنود في السموات ، وهي التي نسميها ملائكة ، نعم علماء الأرواح قالوا نفس هذا القول ، وتقدّم ما نقلته في هذا التفسير مراراً أن الاسناد (أوليفرلودج) يقول : « إن هنا عوالم روحية تحيط بنا فسبتنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا ، وهي تهتم بأمرنا ، وهي تحافظ علينا » .

إيه أيها المسلمون ، إيه أيها المسلمون ، هذا هو كتاب ربكم ، كتاب ربكم نفس العلم الحديث ، إذن هذا القرآن جاء لأمر بعدنا ، نعم هو كلام الله ، وكلام الله أنزل لعباده المساكين في الأرض ، أليس من عجب أن يقول هذا القول علماء الأرواح في زماننا ، هم يقوم البرهان الحسي الذي ذكرناه عليه ، نراه في نفس

القرآن ، نسمع الله يقول لنا : أنا لى جنود فى السموات ولى جنود فى الأرض ، فأتخذها أكثر من قبلنا أخذنا حجر دامن البحث ، ومن عرف من آبائنا منها شيئا كتبه خوفا من العاقبة .

هاهوذا أيها المسلمون وضع الدين ، القرآن نزل لفهم ما حولنا وما يحيط بنا والحمد لله رب العالمين .
فقال صاحبي : إن أصل سؤالك إنما كان موجها لايضاح الأنواع الحميمة والمعنوية ، فكيف حضرت هذه البراهين فى ذهنك ، وهل كانت هذه فى ذاكرتك ؟ فقلت نعم . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن أمرنا لعجب ! لم تسألنى سؤالا إلا كان جوابه منظما فى نفسى قبل أن تسألنى ، فكأن هناك بين روى وروحك وسائل أو رسائل بهاتلم روى مستوجهة أنت إليها ، فترتب السؤال والجواب أولا ، حتى إذا سألتنى كان العلم حاضرا فى النفس . قل : أنا لا أفهم هذا ؟ فقلت : أريد بهذا القول انك قبل أن تسألنى مثلا فى هذه المرة كنت متوجها إلى ناحية الأزهر ، ونفس هذا السؤال كنت كأنى أطلعها أمامى فى صحيفة وكأنى أقرأها فيها ، أنا أمشى والناس حولى ، واسكن هذه المعانى وأنا فى شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتى ، وهذه صورتها :

(عقل) سماوى يصنع ويدبر (الشمس)



(عقل) أرضى به يستخرج سراج ينتفع به

هذا ملخص ماضى كله ، كنت كأنى أطلعها فى صحيفة أمامى ، فلما سألتنى أخذت أكتب لك ما طالعته هذه هى الحقيقة ، وليست هذه الصحيفة أمام عيني ، بل هى فى مخيلتى ، وهى كتبت ما طالعته ووضعت فى الورق تذهب تلك الصحيفة من خيالى ولارجعة لها بل أنساها ، وإذا أردت استرجاعها صعب على ذلك .
فيا ليت شعرى : ما هذه المعانى ، وما هذه الصحيفة إلا أنها من عوالم تحيط بنا ونفوسنا متصلة بها وهى التى رسمت لنا هذه الخطوط ، غاية الأمر أنها لا تعطى العلوم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأمم ، وما تعطيه لنا من العلم الآن قد استعملت له أئمة الحالية ، وعقولنا الانسانية ، وبها فهمنا آية : « ولله جنود السموات والأرض » وقد قسمنا الجنود إلى مهلكة وحماية ، ولا جرم أن قوله فى الآية الأولى : « وكان الله عليهما حكيمًا » إنما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين ، واسكن لما قال : « ولله جنود السموات والأرض » وكان الله عزيزا حكيمًا » كما قدمنا كانت العزة مناسبة لجنود النار التى أعدت للتعذيب ، إذن التقسيم الذى قسمناه للجنود من مقاصد القرآن ، فنفس الآية لوحت لتسمى الجنود ، جنود ذكرت معها العزة ، وجنود لم تذكر معها بل ذكر العلم ، وهذا المقام به نفهم : « والمديرات أصرا » ونفهم : « وأن عليكم لحافظين » كراما كاتبين يعلمون ما تعملون » ، ونفهم : « أن كل نفس لما عليها حافظ » ، ونفهم : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، ونفهم : « فالتسميات أصرا » ، ونفهم كيف أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته إلى آخره ، ونفهم : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » ، ونفهم : « شهد الله أنه لا إله إلا هو

والملائكة وأولوا العلم» فمما في العلم على الملائكة لأنهم كالتقصرين منهم ، وهذا عجب ! أن يكون ما ذكرناه هنا (من العقول الكبيرة السماوية والعقول الصغيرة الأرضية) إنما هي آثار العناية الربانية والله معلم الملائكة وهؤلاء يفيضون الاطعام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم ، فالله عالم العلم ، والملاك يتلقى منه (الح) هو الذي جعله الآية في ثلاث كلمات .

ملخص ما تقدم وما يبنى عليه

- (١) الله أكبر : في الجسم جنود هي الميكروبات السامة الداخلة فيه ، والخلايا التي في الجسم المدافعة عنه ، فهذان صفان من الجنود : جناء مهاجم ، وجند مدافع .
 - (٢) وفي العالم المشاهد مثل ما في الجسم جنود مسلحة تحارب جنودا كافرة .
 - (٣) في العالم كله عوامل الحدوث ، وعوامل الفناء ، فهما جندان بجندى الجسم وجندى الانسان .
 - (٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبع الرحمن ، وأن ما يصل إلى القلب إمالة من الشيطان واما إلهام من الملك . إذن هما جيشان أيضا مرسلان للنشور كالجيشين المرسلين للأجسام ، فإذا جاء الشرع بالنوع الأول فقد جاء علم الطب بالثاني أشبه بضرب مثل للأول .
 - (٥) جيشا النور والظلمة ، والحر والبرد ، كل يعقب الآخر وينظره كجوش الجسم المحسوسة وما تبعها
 - (٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النور الصغرى التي يصنعها الانسان فيما تقدم كجنود العقول الكبرى وهي الملائكة وجنود عقول الانسان والحيوان في الأرض .
- هذا ما فتح الله به في فهم قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيما » .
وقوله : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما . كتب بعد فجر يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

لما اطلع على ما تقدم صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : لقد اطلعت على حديث للهاشمي غاندي ، فوجدت به ما يشبه أن يكون ذيل هذا المقام ، فانه ذكر أمرين : حبا وخوفا ، ولينا وشدة ، وجعلهما محور كلامه ، أفلا نلحق هذه الصفات بالجنود . فقلت : - حدثني بما قاله غاندي . فقال هالك ماجاء في جريدة الاهرام بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣١ م وهذا نصه :

غاندي يصف رحلته

في المياه المصرية

المقاومة بالعنف

قال المهاتما غاندي في مقالة نشرتها له جريدة الهند الفتاة ما يأتي : « من محاسن الصدف أن الحديث بعد صلاة المساء دار على مسألة « المقاومة من غير عنف » وأتيح لأصدقائنا المصريين الذين ركبوا الباخرة من السويس فرصة سماع شيء عن هذا الموضوع ، ولا أرى بأسا في إعادة بعض ما قلته بهذه المناسبة : اننا بأعمالنا اليومية نتأزم بعضنا بعضا من غير عنف ، وقد نفعل ذلك بعلم منا أو بغير علم ، وكل الجمعيات الصالحة قائمة على قاعدة اجتناب العنف ، وقد تبين لي أن الحياة معارضة الوجدان على الرغم من انها محوطة بسواحل الهدم والهلاك ، وهذا دليل على وجود ناموس أسمى من ناموس الهدم والتدمير ، ولا يمكن لجمعية حسنة النظام أن تكون قريبة من الفهم إلا اذا كانت تحت ذلك الناموس ومن غيره لقيمة للحياة ، فان كان هذا هو ناموس الحياة كان حتما علينا أن نطبقه على حياتنا اليومية ، فحيثما تقع الاحتكاكات ، وحيثما نلتقي

بخصم ، علينا أن نقبله بالتي هي أحسن ، وهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا الناموس على حياتي ، ولست أعني أن جميع مشا كل قد حلت ، ولكنني وجدت أن ناموس المحبة قد أدنى إلى تحقيق الغاية بطريقتي لن تتاح بناموس الهدم والبناء . وقد قنا في الهند بتطبيق هذا الناموس عيانا في أعظم مجال مستطاع ، ولست أدعي أن روج اجتتاب العنف قد دبت في قلوب ثلثمائة مليون نفس من سكان الهند ، ولكنني أدعي أنها تفلقت في النفوس أكثر من أية رسالة أو دعوة وفي وقت وجيز لا يكاد يصدق ، ولم نكن نحن الهنود سواسية في اعتناق هذا المذهب ، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة ، ومع هذا أود منكم أن تبينوا هل لم تتقدم الهند تقدما عجيبا ظاهرا تحت حماية « المقاومة من غير عنف » ونفوذها العظيم الشأن ؟ »

وقلت ردًا على سؤال آخر : « إن الحصول على حالة عقلية للتمسك بمذهب المقاومة من غير عنف يتطلب الشيء الكثير من العناء والتدريب ، ويجب أن يكون بمثابة نظام نسير عليه في حياتنا اليومية وإن كنا لا نجد من نفسنا رغبة فيه فنقتضى حياة كحياة الجندي ، ولكنني أوافق على رأي القائلين : أنه إن لم يكن اعتناق هذا المذهب من صميم القلب والعقيدة التامة كان أشبه بقناع خارجي يضرب بصاحبه وبالآخرين أيضا ، ولا يصل المرء إلى مرحلة السكال في هذا المبدأ إلا متى خضع له جسما وعقلا ، وسار بموجبه قولاً وفعلًا ، ولكن المسألة هي دائما مسألة كفاح عقلي عظيم ، ليس لأنني غير مطبوع على الغضب ولكنني أنجح في كل مرة تقريرا أن أملك نفسي وأضبط عواطفني ، وهما تسكن النتيجة فاني أشعر على الدوام بكفاح يتنازعني لاتباع مبدأ اجتتاب العنف بمحض إرادتي وبلا انقطاع ، وهذا النضال يزيد المرء قوة للظفر ، فالمقاومة من غير عنف سلاح القوي ، أما الضعيف إذا لجأ إليها كانت لديه بمثابة رياء ، فالخوف والمحبة على طرفي نقيض فالمحبة لا تبالي عند ما تعطى ، ولا تدقق فيما تأخذ بدلا من العطاء ، المحبة تكافح العالم كما تكافح نفسها وفي النهاية تصير صاحبة السيادة على كل شعور ، وقد داني الاختبار اليومي كما دل المشتغلين معي أن كل مسألة يمكن أن تحل إذا اعتزمنا أن نجعل ناموس الحق واجتتاب العنف همتا في نظري وجها عملة واحدة (كذا) أما إذا كان الجنس البشري يتبع ناموس المحبة من حيث يدرى فلست أدرى ، ولكن هذا لا يجب أن يشغل بالنا ، فهذا الناموس يسرى كنناموس الجاذبية ، سواء أقبلناه أم لم تقبله ، ومثلما يستطيع المتبحر في العلوم أن يأتي بالبحائب بتطبيق الناموس الطبيعي من عتة وجوه ، كذلك الرجل الذي يطبق ناموس المحبة بدقة علمية يمكنه أن يأتي ببجائب أعظم ، لأن قوى المحبة واجتتاب العنف هي أعجب كثيرا وأدهى من قوى الطبيعة كالكهرباء مثلا ، فالرجل الذي اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو في مذهبي أعظم من أعظم السلاء . على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافي ليتسنى للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها ، هذا على كل حال هو الهنديان ، وأهلوس الذي أعمل مدفوعا به ، ولكنني أصرح أنني كلما توغلت في تطبيق هذا الناموس ازداد شعوري بمباهج الحياة ، ومباهج مشروع هذا الكون الأعظم ، وهو يعطيني سلاما وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة بكيفية لا يسعني وصفها . انتهى

فلما أتم حديثه . قلت له : أما الشدة واللين ، والحب والخوف ، فانها من جنود الله ، لأنها من الجنود المعنوية وهي داخلة فيما تقدم . فقال : أنا إلى الآن لم أفهم مامعنى قول غاندى :

(١) إن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من أنها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، ثم يقول : إن الجمعيات يجب عليها أن تسعى لنيل هذه الغاية ، فكيف يكون هدم مجنود الاهلاك ، ثم يكون الحب سائدا ، فأين هذا الحب إذن في هذه الدنيا ؟

(٢) وكيف يقول إن الحب له السيادة في العالم مع أن العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ .

(٣) ثم كيف يقول : إن ناموس المحبة يعطي سلاحاً وطمأنينة ويفسر لنا الطبيعة ، فما هذا التسديد والطبيعة كلها شرّ وبلاء . وأنا إذا سألتك عن هذا فما خرجت عن منطوق الآية ، لأن الآية فيها أن الله جنود السموات والأرض ، ومن جنوده هذه الجنود الملائكة التي يقولها غاندي ، فأين الحب السائد إذن في الأرض ؟ ولا حب ولا سلام ولا أمان في الأرض .

فقلت : قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح نقطة هامة : وهي الحب والخوف ، وهذا عجب أن ينطق بها عالم بوذي لم يدرس الاسلام حقّ دراسته ، ورد في الآثار : « نعم العبد صهيبي ، ولم يخف الله لم يعصه » أي أن صهيبياً رجل يحبّ الله ، فهو يعبده بحاله ، لا خوفاً منه ، والعبادة الصادقة عن محبة للسود هي الجديرة أن تسمى عبادة ، والمحبون أرقى من الخائفين ، قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » ، فالحب هو السعادة الحقيقية ، أما الخوف فأتينا بجاء به لمن لا يفقهون الجمال في هذا الوجود ، فهم يخوفون من العقاب والأثم إن لم يكن فيها حكماء عاشقون لسانع العالم ، مغرمون برقى عباده ، فانها تكون آيلة للسقوط ، فالحب الذي يشرحه غاندي هو أصل من الاصول العالية في الاسلام . هذا ما أردت ذكره أولاً :

(١) أما الجواب عن السؤال الأوّل فأقول : إن الانسان بنظره إلى هذا العالم نظراً سطحيّاً يراه كله هداماً واهلاً كما وتبديداً وقتلاً وحرباً وخسفاً وزلزلة الخ . هذا بحسب ما يظهر لنا ، ولكن المفكرون هم الذين يعقلون الحب العام ، ولن يقتضى لامرئ أن يعرف الحب العام إلا بدراسة الطبيعة دراسة تامة ، فهناك هناك يعرف أن هذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لا يحسرها العتد ، وهي كلها في تغير مستمر وحركة متصلة ، تدار بجنود لانزاه كما تدار أجسامنا بأرواحنا ، فالاحتراق في أجسامنا وتبدل صفاتها رقى لأرواحنا كما أن تقلب عوامل العوالم كلها رقى لنفوس تديرها ، ونفس الاهلاك والتدمير مقدسة للتجديد ، وكل ذلك ارتقاء للنفوس المديرات للعاملات بالحب والعشق لا بالخوف وحده ، وهذا العالم كله تتخلله جاذبية من أقصاه إلى أقصاه ، فهي أشبه برسول المحبة ، أو عامل من عواملها

(٢) أما جواب السؤال الثاني ، وهو أن الحب له السيادة في العالم مع أن العالم كله تدمير فانه مترتب على جواب السؤال الأوّل وظاهر منه .

(٣) أما الجواب عن سؤالك الثالث ، وهو أن ناموس المحبة يعطي سلاماً وطمأنينة ويفسر لنا خفايا الطبيعة ، فهل بعد ما بينته لك بيان ، أليس ما ذكرته من الاجمال في الحب العام ينطبق على جميع الطبيعة : شمس يتبعها سيارات تجرى وراءها أقمار ، أليس ذلك كله محبة ؟ هل الأرض تجري حول الشمس إلا بما نسميه جاذبية ؟ أليست أشبه بأثر من آثار المحبة ، فالعوالم والكواكب متجاذبة مرتبطة ، وأى حب بعد هذا ! فإذا اضمحل نبات أو حيوان فإن ذلك للمحبة أيضاً ، فإذا كان نبات ينفع بورقه أو ثمره الخ ثم يحلل إلى عناصره ويرجع إلى المعمل العام في الأرض فيسكون خلقاً آخر ينتفع به الانسان والحيوان ، فانه لولا المحبة الدائمة السائدة في العالم لبق الطشم على حاله لم يحلل فلم يكن خلقاً آخر فلا تكون الفائدة ، فتكرار الهدم والتجديد تكرار للنافع ، والهدم والتخريب تابعان للحركة العامة ، والحركة لا تكون إلا بالشوق ، والشوق مصاحب للحب ، فالعالم كله في حركة ، والحركة للجاذبية ، والجاذبية محبة ، وبالحركات تنبعث الثمرات ، فالحب هو نظام العالم والحمد لله رب العالمين . كتب ظهر يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

فقال صاحبي ، هذا حسن وواضح ، وبقى عندي سؤال واحد ، وهو انه اذا كانت المحبة من جنود الله التي في السموات والأرض وتطوف تقيضها وهما يتسميان القلوب ، ففان الحب السائد للخوف ، والخاصة للمحبة ، وهذان الجنان بهما انتظام العالم ، فهذا صار واضحاً ، ولست أريد أن أغهم موازنة الملائكة غاندي بين المحبة في النوع الانساني وبين الجاذبية في الذرات ، وأن الذرات المادية أطاعت ربها ، وأن الانسان

قد عجب ، فكيف يكون هذا ؟ فقلت : إن النوع الانساني مفعول على صفات كثيرة ، ومنها صفة المحبة والفرام بالاجتماع ، والعطف العام غريزة كائنة فيه ، انك ترى النرة الواحدة التي لانراها قد أجمع العلماء قاطبة على أنها مركبة من نقط كهر بائية بعدد معلوم (تقدم شرحه في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) سألها دورجل موجبها في الثانية الواحدة (٦) آلاف مليون مليون صرة ، ولا جرم أن سرعة الحركة وانطلاقها ، وصدم توقفها ، ودوام ذلك النظام أبدا وأما سرمدنا ، وراءه قوة معنوية عقلية أعطته هذه الصفات ودوامها ، فلنقسم تلك القوة محبة ، لأن الحركات عند الحيوان جميعها لا تكون إلا لمحبة ، فخرى صفار الحيوان لأتهاتها ، وأسراع الأتهات بالعطف نحو آبائنا ، والسير في القلوات للبحث عن الغذاء ، والجرى هربا من عدو مفاجئ ، كل ذلك حركات ناشأت عن :

(١) سبب الصفار لأتهاتها .

(٢) أوجب الأتهات لصفارها .

(٣) أوجب الغذاء الذي أوجب الجوع .

(٤) أوجب البقاء ، ودوام الحياة الذي تعرض للمفاجأة باهلاك بسبب العدو المفاجئ .

فاذا كانت الحركات التي نعرفها كلها صادرات لأجل محبة ، هكذا فلنقسم ما لانعلم على مانعلم ونقسمها حبا ، وهذا الحب يوجب ما يضارع حب عطف الانسان على الانسان بفطرته ، فانك لن ترى شرقيا ولا غربيا على أي دين كان ، أو أمة ، أو نحلة ، إلا وله شفقة ورحمة وعطف على الأطفال الباكين ، أو الفقراء الشاكين ، أو المساكين البائسين ، بل عطفه على الانسان تجاوزه إلى الحيوان ، فله عطف عليه عظيم .

الحركات المنتظمة في كهارب النترات المسرعات جريا ، المنبعثات المتعدات على قيام هيكل النرة الواحدة اللواتي منها أنتجت هذه العوالم كلها فصارت شموسا وأرضين لانعرف عددها كلها : قد أنتجت حيوانات لاحصرها تعيش بالمحبة ، وحفظ النرية ، والألفة العامة ، فهذه الحركات المنتظمة في النرة رأينا من نتائجها الأولى حركات الكواكب والشموس المنتظمة انتظام حركات النرات ، ثم انتهى الأمر بهطف وغرام في الحيوان ، فإذا نقول في الحركات الأولى إلا ان جملها ونظامها ، وأنوارها المشرقات ، المكظومات المضغوطة المتداخلات لم تنتج إلا عن حب عظيم وراءها : أي ان هناك عقولا عظيمة تتقد محبة وغراما لاحد له وعظما ، وهذه المحبات كانت نتائجها في آخر الأمر محبات عرفناها في الحيوان ، فهي كما تكون الشجرة من حبة فنتج حبة أيضا ، أما هذا الانسان الذي هو أرقى من الحيوان فانه خلق من هذه المحبة أيضا ولكن اعترضتها عوائق ، وأحيطت بموانع ، وغشت عليها غواش ، فهو أرواح تعد بالملايين ، أرادت أن تنقسم الأرزاق والمنافع والأرض ، ففشلت في العدل ، ووقعت في الخيرة ، فحدث التحاسد والتباغض ، أصل العقول الانسانية أنها مفعولة على المحبة ، وهذا شائع ذائع ، يفسره عطف الأم والأب على النرية ، وعطف كل انسان على كل طفل وكل ضعيف ، ولكن العقبات الكثيرات غشت على تلك المحبة فسترتها وغطتها فكان التحاسد والحقد ، وغلب الشر وخيم على العقول فنامت المحبة تتر بص الفرس ، ومتى رأتها وفقش الانسان عليها واستخرجها من قلبه ظهرت فأنارت وجه الأرض ، كما ان العلماء في ألمانيا وغيرها يبحثون عن مكنون النرة ومخبوء ما فيها من القوى المكنونة فيها حتى اذا ظهرت أراحت الناس في أعمالهم الدينية ، ولكن هذه النرة وقواها وان كانت هي أصل خلقنا ليس استخراج ما فيها من القوى كافيا لرقى الانسانية بل هذا رقى مادي لا غير ، وبعده ظهور هذه القوى يبقى الانسان على ما هو عليه ، فهو طماع حسود حقود جهول طفل غبي بعضه لبعض عدو (وهذا قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا »

فالعالم كلها من الذرة إلى الأرض إلى الشمس تجري بنظام وتعملوا متفقين ، فهي لم تخلق الأمانة ولم تكن فيها ، فأما هذا الإنسان فإنه خان الأمانة ولم يحم بحقوقها لتمام وجهها ، انظر تفسير الآية في « سورة الأعراف » والمعنى الثاني المذكور هناك .

فأما كشف ما في النفوس الانسانية من المحبات فإن هذا إذا انبث منها ونزجت كرة أخرى بعد غيوبها عنه تصبح الانسانية كلها أشبه بشمس واحدة ، أو ذرة واحدة ، وكل نفس من النفوس الانسانية تكون أشبه بكهرب واحد من كهارب تلك الذرة المسرعات في جريهن ، وهذا الاسراع في الجري أنتج ذرة كاملة هكذا هذه النفوس الانسانية الأرضية متى أسرعت في حركاتها العقلية والعامية إلى غرض واحد ، وهدف واحد ، ومتقصد واحد ، وهي المصلحة العامة ، فإنها لا تجرم تأتى إذ ذاك بنتائجها الحقة ، ويكون عالم الإنسان إذ ذاك عظيماً ، وقوته لا تضارعها قوة ، وتكون نتائج هذه النفوس في انتظام حركاتها أبعد مدى ، وأرفع مقاماً ، وأكثر منافع من انتظام حركات كهارب تلك الواحدة ، وفرق ما بين حركات كهارب وحركات أرواح ، لأن حركات الأرواح الانسانية المنتظمة التي تسرع إلى غرض واحد وهي الخير العام للانسانية ترجع إلى مقاصد العلل الأولى وهي عالم الملائكة « المدبرات أمراً » لا إلى نتائجها المادية البحتة . هذا هو السر في قول المهاتما غاندى : « إن الذى يكشف سرّ المحبة العامة أجدر بالجلال من كل مخترع ومبتدع » وذلك لأن كل اختراع وابتداع في عصرنا فهو راجع لنفس المادة والنفوس باقية على ما هي عليه ، عليها غواشى التحاسد والطمع الذى يغطى المحبة كما تغطى غواشى المادة من صلابة وبرودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التي منها تركبت بحركات وراءها .

إن النفوس الانسانية يجب أن تكون كنفس واحدة ، وهذا هو تفسير ما يقوله المهاتما غاندى ، وهذا القول نفسه تفسير لقوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » . ألم نر أن عدد الإنسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأولين والآخزين فإنه كله بالنسبة للعالم من شعوس وشجرات أقل من جزء لا يتجزأ ، فإذا جعلناه كله أشبه بذرة واحدة مركبة من كهارب لم يك تشبيهاً بعيداً ، وهو نفسه تفسير لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » لأن هذه فطرتهم وهي « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وإذا كان خلق الله لا يغير فالما يكون التفسير في الظواهر فحصل هناك التحاسد والتخاصم كما حصل في الأرض بعد انفصالها من الشمس اختلاف أجزائها سيولة وصلابة وأحوالاً لا يحصر لها ، فلما اختصم الناس أرسل لهم علماء وأنبياء وحكاماً ليعلموهم ، لأنهم لم يبقوا على فطرتهم ، فلما علموهم أخذ تابعو الأنبياء يختلفون ، فكل أتباع نبي يختلفون فيما بينهم ، وبين أتباع كل نبي والآخر اختلاف أشد وأوسع مدى ، وهذا قوله تعالى بعد ما تقدم « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وقصارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف والاختلاف عارض على المحبة ، وعقلاء الأرض يرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الانسانى أن يرجع إلى فطرته ، وفطرته هي المحبة العامة ، وهذه هي الغاية من خلقنا في هذه الأرض ، فغاية هذه التربية الأرضية التي أرسل لها الأنبياء وخلق الحكماء أن يصل هذا الإنسان إلى فطرته الأولى ، وكل محاولة حاولها أنبيائنا وحكامنا إنما كان القصد منها أن يصل إلى هذه الغاية ، وما دمنال وصل إليها فنحن نعيش على هذه الأرض في غاية الذلة في أنفسنا وفي دولنا سواء أ كنا أقوياء أم كنا ضعفاء .

فليجئ المسامون بعد في قراءة جميع العلوم ، وحوز جميع الصناعات ، وليضارعوا الأمم ، ثم ليتوددهم

إلى السلام العام بتوحيدهم وعلمهم ، ولهذا الفتح العلمى العام أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلئن فتحت مكة وفتحت فارس والروم ، ولئن رجع المسلمون الآن يجتدون قواهم لازالة الخطار عن أنفسهم فهذا مبادئ ولكن غايتها ماذا كونه وهو الحب العام .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الاسلام ، فاول آباؤنا الأولون ذلك ففشلوا أخيرا ، لان النوع الانسانى لم يكن يشمل ذلك ، فلنقم نحن الآن بما علينا ، ولنفسكر في إسعاد الأمم كلها ، ولكن لن يقضى لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل عاوم الأمم وندرسهم هم أنفسهم ، وبعد ذلك نقوم بدورنا ، ولكن هذا الدور ليس معناه أننا نحارب الأمم . كلا . بل نكون أقوياء نقدر على مدافعهم ونكون أقوى منهم ثم نهطف عليهم ونجعل الانسانية كلها أمة واحدة رجوعا إلى قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » .

فعلينا نحن المسلمين أن نكشف السر المصون المخوف في عقول الانسانية وهى المحبة العامة ، إن حالنا الآن أشبه بحال النبي ﷺ وأصحابه وهم في مكة يتقودون أنفسهم أولا ، وستأتى حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة وهى آتية لا ريب فيها .

إذن ظهر الآن معنى كلام « الماهاتما غاندى » وتعلقى عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السر ، فهو يقول : « إن كشف هذا السر أحسن من كل مخترع » وإنما كان كشف هذا السر علينا لأننا أهل له ، أولا لأن نبينا ﷺ رجة للعالمين ، ثانيا لأننا وسط بين الشرق والغرب في ديارنا ، فكشف أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أوعينا ، ونكشف الشرق الأقصى أن يهجم علينا أوعلى أوروبا . إذن علينا كشف سر المحبة لاعلى غيرنا . إذن يجب على المسلمين أن ينشطوا من الآن لهذا الكشف ، فليجتدوا في العلوم كلها من الآن .

إن جنكيزخان منذ بضعة قرون هو والمترا الذين معه أوغلاوا في بلادنا أولا وفي بلاد أوروبا ثانيا ، فهذا هجوم من الشرق على الغرب وماعنه أخيرا إلا المصريون عند حلب ، وهام أولاء رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأمم الهمجية التى كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها وأنتجت أخيرا هؤلاء الأوروبيين الحاليين ، فنحن اليوم نريد أن نكشف سر المحبة لنزيل هذه الهجمات عن الانسانية ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العام ، نحن جنود الله ، بل أعظم جنوده في الأرض ، فلنقم للعمل كما قام آباؤنا له ، ولنسكن خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف ونهوى عن المنكر وهذا هو المقصود من قراءة ﴿ سورة الفتح ﴾ وفهمها وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، وقد ألفت كتاب « أين الانسان » وستقرأ ملخصه قريبا في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وفيه مبادئ الطرق التى بها انتظام الانسانية كلها ، وقد أحبه حكماء أوروبا ، وارتاحوا له ، وهذا من مبادئ اكتشاف سر المحبة العامة في النوع الانسانى ، فليقرأه المسلمون بعدنا ، وليتمموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس ، وحتى نكون نحن الذين نكشف السر الذى طاب الماهاتما غاندى كشفه .

والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض » والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٩ م



اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً ساجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات عنهم مغفرة وأجراً عظيماً

في هذه اللطيفة أربع جواهر

الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم .

الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركعاً ساجداً .

الجوهرة الرابعة في قوله تعالى : كزرع أخرج شطأه الخ .

الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله

مساخرة بنى وبين صديق العلامة الذي اعتاد مناقشتى في هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال : لقد مضى أشال هذا في سور كثيرة ، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحاً وافياً . فقلت نعم ، ولكنى الآن اطلعت على ما لم يكن لي بدور بخلدى . فما أجل أن أذكره ليطلع عليه المساهون بهدنا . فقال وما هو ؟ قلت لأقدم لك مقدمة فأقول : إن العلم الجزئى ضارٌّ ولكن العلم الكلى هو النافع . فقال : أنا لأدرى ماذا تريد ؟ فقلت : إذا رأينا عالماً نبغ في الفلك ، أوفى الهندسة ، أوفى جميع الرياضيات ، أوفى العلوم الطبيعية ، أوفى فرع منها كعلم الحيوان ، أوفى العلوم اللسانية ، أوفى فرع منها مثل علم البديع ، هل نقبل شهادته في نظام هذه الدنيا وعماؤها ؟ ونقبل حكمه ، ونعده حكماً ؟ قال . كلا . قلت حسن فما تقول أيها الحبيب في أمر أمم الاسلام ؟ أنقبل قول أى قائل كان ؟ أم نبحث عمن يعتد بقوله ، من أحاط بالأمم الاسلامية عالماً من حيث أخبارها . فقال : أما أنا فلم أفهم ما تريدون ؟ فقلت : هاهوذا الاستاذ (لوتروب استودارد) العالم الأرميني الذى لم يعتنق دين الاسلام قد نشر كتابه « حاضر العالم الاسلامى » وقرأه أهل الغرب والشرق ، أفليس يكون هذا حجة إذا وصف الاسلام من حيث أن الرجل محيط عالماً بجلائل المسائل ودقائقها . فقال : أما هذا فكلامه مقبول إذا كان على هذا النمط لأنه إذا صح هذا كان حائزاً لشرطين : أحدهما أنه عالم بالحوادث . الثانى أنه غير متهم ، لأنه غير مسلم . فقلت حسن ، إذن أسمعه الآن قوله الذى يفيد معنى هذه الآية وهاهوذا قال في صفحة ١٣ وما بعدها في الجزء الأول من الكتاب المذكور مانصه :

« إن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ، ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذ من هذا أنه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الخمر في سبيل الدعوة الاسلامية ، فعدد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان ، بل أى دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الجنس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعدّون بالآلاف المؤلفة ،

وما انفكوا يحويون كل بلاد وقلية ، مبشرين بالوحدانية ، داعمين إلى الاسلام ، وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غرب افريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لهجبة من الهجائب الكبرى وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر . فقد قال أحد الانجليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة : « إن الاسلام ليفوز في أواسط افريقية فوزا عظيما ، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » .

وقال مبشر بروتستنتي فرنسي : « ما ربح الاسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يثر في سبيله إلا القليل ، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية ، مذلا أشق الصعاب ، ومجتازا أشد الصعاب ، غير واهن الهمم ، فالاسلام حقا لا يرهب في سبيله شيئا ، وهو لا ينظر إلى النصرانية منازعته الشديدة نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، إذ بينما كان النصراني يحلمون بفتح افريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم ، وأما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوبا في افريقية فهو من الرائع القريب ، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية على غير متوقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » ذعاة إلى الرسالة المحمدية ، وبعد البحث والاستقصاء ، وإذكاء العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين إنما هم من عرب زنجبار ، وقد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ م وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروعاتهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، ومع أن هذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرين وسيطرتهم فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الأقطار الأخرى » .

ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر : « انه لا يمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاح (زمباري) وانتشر في جنوب افريقية انتشارا عاما فيطبق القارة بأسرها ، وليس ظفر الاسلام في افريقية مقصورا على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، إذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عددا تناقصا فاحشا ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، إنما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سدا منيعا في وجه الاسلام ، والغريب في هذا كل القرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية ، بل فتوح سلمية دينية » .

وقال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية » . وربما كان ظفر الاسلام في افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثا ، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامي ، بل هناك غيره مثله في سائر أنحاء العالم ، وقد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية في بلاد التتر الروسية ، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية الهجبة التي رافقت تلك اليقظة التترية ، كان التتر ما برحوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسي ، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، واصل ما وصل منها إلى بلاد التتر في أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون إخوانهم المتنصرين إلى الاسلام . فلم يمض غير يسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فاتتحوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الأرثوذكسية من العناء الأشق : ولجأت إليه من

مختلف الذرائع والوسائل لتحويل دون ذلك ، فلم تبق شيئا من المصالح الرغيم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكرام ، على أن البشريين المسلمين التترام يقتسروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية الفنلندية الآتية القيمة في الشمال من بلاد التتر ، غير مباينين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لا قرا من وراء ذلك من الطول ما لاقوا . انتهى

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : حسن والله ، هذا معنى ظهوره على الدين كله ، وهذا أمر عجب كيف ينشر الاسلام في تلك البلاد التي يتكلمها الفرنجة وهم أخوف الناس وأكثرهم عدواة للإسلام . انتهى الكلام على الجوهرية الأولى في قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرية الثانية في قوله تعالى : أشداء على الكفار رحماء بينهم

في هذه الجوهرية فصول

الفصل الأول في قوله تعالى : أشداء على الكفار

وبين أن هذه الشدة أحسن بها أهل أوروبا في زماننا بعد الحرب الكبرى

فانظر ماجاء في هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان ، إذ أبان أن الدول الأوروبية التي ترمعد خوفا من البلشفيك ، خافت ان هي استعانت بالمسلمين عليهم أن يملكوها مصادقا لهذه الآية ، وهذا نصه بالحرف الواحد :

« قد نشر العالم الاجتماعي الكبير (غوفيليهو فريدو) مقالة في جريدة (الايلاوستراسيون) عنوانها « أوروبا وآسيا » بين فيها أن الحرب الساسة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات ، وأنه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة طاغرة من حزب من الحروب ، ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها عن ذي قبل ، والحال أنه بعد أن خرجت انكشارا طاغرة من أكبر حزب في الدنيا ، ثارت في وجهها أفغانستان والهند ثم مصر ، وبعد أن كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فنهضت وردت انكشارا وحليفاتها على أعقابهن ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق أحشاءها ، تطلب استرداد البلاد التي احتلت منها وعدم مس شيء من استقلالها ، فآسيا تقوم على أوروبا على حين هي آخذة بمبادئ أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة فحسب ، بل مبادئ وأفكارا تقائلها بها . قال : وسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية فإن أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متماسكة بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت بين أجزائها ، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكشارية متناظرتين في آسيا ، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شاذة إزرا الأخرى ، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذي تنقيه الروسية في قلب آسيا ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدءا خلاص آسيا ، وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ (٨) خريزان سنة ١٩٢٣ إلى مقالة (فريدو) هذه وأيدت رأيها من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدءا تحرير آسيا ، وهذا عين ماورد في مقالة (روجرلابون) التي هو بنائها عن مجلة باريز ، وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين ، فخررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس والشرقيين وتلون سياسة الروسية الماضية التي كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية لقائدة الدول الغربية ، فكان جعل الحسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكشارا وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا نقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين ، وكونهم أصبحوا من عدواة الروس ، بحالة لا يملكون معها قبضا ولا بسطا ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على

فرنس ، ولا إيطاليا دخول طرابلس ، ولا انكلترا احتلال مصر والسودان ، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان لاسيما في بداية الأمر ، فالروسيا هي التي كانت سبب سقوط الشرق بواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحول الحكومة القيصريّة إلى البلشفية هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتدأ الكتاب الأوروبيون ينفخون إليه .

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة (فريدو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألا وهو قوله : « إن الروسية وانكلترا مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شاذة إزرا الأخرى » ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الأتراك والفرس والصيفيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يتقدرون على إغاثة الطنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدت يدها إليهم انكلترا بالبطش والغصب ، وكذلك انكلترا باستيلائها على هؤلاء قد سطت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لا يتقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشيء ، فكانت كل من الروسية وانكلترا قد شدت إحدهما إزر الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وان لم يكن جري عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل ، ومن الامور التي تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصريّة لحسب ، بل بين أوروبا والروسيا البولشفية نفسها مع شدة العداوة التي بين الفريقين ، فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الألمان كوالفشان والجنرال دنيكين والجنرال بودينيش والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البولشفية التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأوروبية ، وقد بذلت انكلترا وفرنسا في تسليح هذه الأقوام وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولاتزالان إلى هذه الساعة تعرصان الفرص وتربصان بالبولشفيك الدوائر . لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والترك ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلا ، ولأراق لهم أن تسليح العجم ، ولا الأفغان ، ولا بخاري ولا خيوة ، ولا فرغانة ، ولا غيرها من تركستان ، ولا رمي البولشفيك بهذه القوات كلها ، وماذا إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم من الخطر البولوشفي مهما كان الخطر البولوشفي عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نبي المرحوم أنور باشا من البولشفيكين ، وبرح موسكو سنة ١٩٢١ إلى باطوم ، ومنها انسل إلى بخاري ، وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكين فياقت جراحة لقمعها ، لم يفسر أحد بأوروبا في إمداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيدا في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فوج بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوروبا بأزاء الشرق . انتهى الكلام على الفصل الأول والجوهرة الثانية فيه والحمد لله رب العالمين

شكيب أرسلان

الفصل الثاني في تحف المسامحين لتلك الشدة

وظهور المصلحين منهم لا يقاد نارها

ولأذكر مصلحا منهم على سبيل المثال وهو الاستاذ المرحوم جمال الدين الأفغاني الذي نشر مبادئ الحرية وكان حرا على الملوكة المستبدتين ، ولأجعل الكلام فيه في مبحثين :
المبحث الأول في عدائهم للمستبدتين

جاء في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم نفس الأمير شكيب أرسلان ما نصه :
 في أحد الأيام قدم على جمال الدين الأفندي رجل من الحجج ، بابي المذهب ، اسمه رضا آقا خان ،
 صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عند ما اعتقله الشاه ، حفصات بينهما صلبة أكيدة ،
 ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى إلى بغداد ، ثم أسلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجيء
 السيد إلى الاستانة جاء يزوره فيها ، فمر به السيد كثيرا ، وكان دائما يسأله ، ويتكلمان على شقاء الأمة
 الإيرانية بسوء إدارة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوما أنه هو مستعد أن يضع نفسه لتخليص
 أمته . فقال له جمال الدين : ان كان كذلك فذهب وانسل ، فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهر بينما
 ناصر الدين شاه في جامع عبدالعظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : بدى از جمال الدين
 أى خذها من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار إلى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد
 جمال الدين حميد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم
 تقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها ، لا
 تكون قد فقدت جرائم الحياة » .

وكلاما من هذا القبيل كان يردده ، ثم لما ورده عدد من مجلة « الاياواستراسيون » التصويرية الفرنسية
 وفيها صورة القاتل رضا آقا خان مصلوبا مطلقا والناس ينظرون من حوله مهتف : عاق في الحياة وفي الممات .
 وقال : انظروا كيف علقوه عاليا عليهم حتى يكون ذلك رضا إلى أنهم كلهم كانوا من دونه ، وكان الجواسيس
 ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين
 وانه مازال وراء الشاه حتى أنزله في قبره كما قال : ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ،
 وذهب هذا إلى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى في تدبير مكيدة مع بعض الإيرانيين لخلع الشاه وأقتله
 فندم جدا على افلاته ، ويقال انه هو الذي بعث إلى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين إليه
 ووضعه تحت المراقبة أمانا من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى ، ولما بلغ الاستانة
 أمر بالمباغعة في برته وإكرامه ، ليلهي عن عداوة شاه الحجج ، فكان من ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من
 قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا ، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع
 أى أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوسا ، وكانت الحكومة الإيرانية
 شرعت في تحقيق حادثة القتل ، فثبت لديها إغراء جمال الدين لرضا آقا خان بالاشتراك مع شخص فارسي
 آخر اسمه رضا آقا خان أيضا ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ ابراهيم ، فطلبت الدولة الإيرانية من الباب العالي
 تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه
 جرى تسليمهما ، وقتلا في إيران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة ، ثم ان التضييق بلغ حدده على المترجم حتى
 أرسل إلى « فيس مورييس » مستشار سفارة إنجلترا يلتمس منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الاستانة ،
 فحضر « فيس مورييس » إليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل إليه أحد حجاجه
 يستطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية دولة أجنبية ،
 فنارت في أنفه حمية الاسلام ، وبعد أن كان زم حقائقه للسفر . قال لفيس مورييس : انه عدل عن السفر ،
 ومهما كان فليكن ، ولدى المراقبة كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من إذن خاص ،
 وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، وصدرت الارادة السنية بإجراء
 عملية جراحية ، يتولاها قبور زاده اسكندر باشا ، كبير جراحي القصر السلطاني ، وكان هذا مقربا جدا إلى
 الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياما فلائلا حتى فاضت روحه ، رحمه الله

وعنى عنه . وإلى هنا تم الكلام على المبحث الأول من الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين .
المبحث الثانى من الفصل الثانى فى صفاته وتعاليمه

وهناك ملجاء بقلم الأمير شكيب أرسلان فى هامش الكتاب المذكور أيضا وهذا نصه : —
ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى مطلع القرن التاسع عشر فى « أسد آباد » بالقرب من همدان فى بلاد فارس ، وهو أفغانى الأرومة لافارسى ، يتحدر نسبا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من الهجرة النبوية الطاهرة ، ويجرى فى عروقه الدم العربى المبعث الكريم .
كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلقاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجج ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد الهزم ، شديد المهابة ، كيان فى ناسوته أسرار المغناطيسية ، فلهذا كان المنهج الذى نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواء ، وكان سائحا جواريا ، طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربا أوروبا بلدا بلدا ، فاكسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق . والتبهر الواسع ، فى سير العالم والأمم ، علما راسخا ، واكتنه أسرار خفية ، واستنبط غوامض كمشيرة ، فأعانه ذلك هونا كبيرا على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها ، وكان جمال الدين بهامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسالما كبيرا ، فسكنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة حسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ، ولا يبتدد أنوارها ، وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجمال انكب على السياسة وشؤونها وذلك على علوم الدين وترقيتها ، غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما إذا طال عهدنا ، وامتدت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق وأدرك شؤم المستقبل ، وباسينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النابضة الكبرى ، إذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ، فهب جمال يضرب بنفسه ، ويفنى حياته ، فى سبيل إيقاظ العالم الاسلامى وإثاره بسوء العقبي ، ويدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصبح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ، وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جالا وتضطهده مثل ماخافته واضطهده الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه ، فجاء إلى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد فى الثورة العربية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جالا للبحال ، فزائل مصر وأنشأ يسبح فى مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فلتاقه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامة ، وقربه منه ، ورفع منزلته ، فسمي جمال السلطان الداهية بتوقد ذكرائه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رئاسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية ، ويفلب أن ماناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية إنما كان على يد جمال الدين ، المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحقى جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه ، وهناك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« السالم الافرنجى على اختلاف أئمة وشعوبه عرقا وبغسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، بجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى ككون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب

مستقرًا في عناصرها ، متنفلا في أحشائها ، ومتشبا في كل عرق من عروقها ، وهي أبدا نازرة إلى الاسلام نظرة العدا ، والحد ، والتعصب الديني المقيت . وحقيقة هذا الأمر وتبعاته واقعتان في كثير من الشؤون الخلية والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية ، فتسجل الدول النصرانية أعذارا ملأني كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية وأزلاها وأكراها بقرها : « إن الممالك الاسلامية هذه إنما هي من الانحطاط والتدلي بحيث لا يستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها » . و فرق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفعل هذا من ناحية وتندرع بألوف الشرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار . للقضاء على كل حركة حارها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عدا الاسلام ، وروح هذا العدا متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب ، جهدا خفيا مستترا متواليا يستحق الاسلام سعقا ، تأخذ النصرانية شوارع كل مسلم ، وآماله ، ورغباته ، التي تجول في صدره ، ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء ، فإن ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة ، والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وأن ما يدعونه عندهم في الغرب إباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يستدون في الشرق غلوا مكروها ، وافراطا في حب الوطن ضارًا ، ومقتا ، وشناعة للأجنبي الغربي .

جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذايد عن كيانه ، ووقاية نفسه من الغناء المقبل . وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب ، والوقوف على تفوقه وقدرته » انتهى الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

في شدة المسلمين على الكفار في زماننا هذا وبعض آثاره

في هذا الفصل مبحثان

المبحث الأول في بيان نازر المسلمين فعلا

جاء في كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور مانصه : « في سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار ، وفي سنة ١٩١٢ م تألبت الدول البلقانية النصرانية ، وأوقدت نار الحرب على تركيا ، خسرت تركيا في هذه الحرب جميع أملاكها الاوروبية ، فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرّضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد ، وفي تلك الغضون انفتحت انكسارا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة « أغادير » تحرق الأرّم ، فعضت على صرا كش بالنواجذ ، وأنفذت فيها الخالب ، وهكذا في خلال سنتين توات الحلات الاوروبية تترى على العالم الاسلامي ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فزقت ما كان باقيا منه حتى ذلك العهد سلما شرمزق ، فنزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة ، يهزم الآذان دويها ، فأخذ العالم الاسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضبا وحنقا ، فعادت الجامعة الاسلامية إلى سابق حالها تجري مجرى سريها ، وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبغي به على انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة . الحرب الصليبية الجديدة لذلك الممالك الاسلامية دكا ، وصدق جميع ما كن يذيعه جمال الدين الأفغاني الحكيم العظيم ، وأخذت نتائج الجامعة الاسلامية تبتدى ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنبا إلى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال

من الأتراك والنفوذ شديدة ، فخلق المستبدون الطغيان أمامهم مقالة مستبسلين ، مثل صدورهم ضرم من التعصب لايطاغ ، ضرم يريده العالم الاسلامي وقبسا مما جعل سياسة الغرب على الجرح والارتباك شديدا ، فأخذوا يقسمون في الخطب الكبير ، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجارا عاما في مشرق العالم الاسلامي ومغربه .

فقال غبريال هانوتو ، وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت إيطاليا طرابلس غير المحصنة كوكب الزباير الاساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامي أجمع ، فأيطاليا جنت على نفسها وعليها جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاتها » . ولم يكن خنق انكسارا وروسيا لثورة إيران ومحق فرنسا لاستقلال سراكش بأقست استشارة للعالم الاسلامي من حرب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتداما ، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقي ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو يرقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقالوا بهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبا الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامي للغضب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه إلى بني قومه : « بوقد ملا اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأثم وزراء روسيا في بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فالיום هم يأثمرون ويتشاورون في هذا الخطب ، وغدا يفصلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب (المسجد الأقصى في بيت المقدس) . أيها المؤمنون الاخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين »

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطبا الدولة البريطانية : « اننا ننادى الحكومة البريطانية بمثل أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركيا ، إنقاء لانفجار بركان الميث من ملايين المسلمين ، انفجار يجرى البلاء عظما » ، وأعجب ما بدا أن أخذ المسلمون يوجهون النداء نداء لغير المسلمين من شعوب آسيا ، يدعونها إلى التنازل والاتحاد لإزاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريبا في بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام ، فان محمدا وقد جاء بالقرآن مصداقا للتوراة والانجيل وقال انه خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمي المرسلين باحترام النصارى واليهود ، وسماهم « أهل الكتاب » تميزا لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوما مبغضين النصارى بعضهم للوثنيين من البراهمة والبرذيين والكنعوشيين سببين أهل المشرق الأقصى .

بيد أن هذه الحال شمرت تمقلب وتدهول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية (الكافرة) على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنتها دقا ، فهبت غالب المسلمين يتهيجون لانتصار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر الشرف والجماسة الاسلامية ، وتقى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعائها لو يتحل أبطال اليابان الاسلام وشرع في تمهيق هذا الأمر العظيم ، والتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامي الكبير ، فوفد السلطان وفدا إلى اليابان على باوجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامي بسبب ذلك يلحج بحديث إسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ، ويحبذه أشد التحبذ .

قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « إن بريطانيا العظمى وفي حكمها ستون مليونا من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كان تغير مجرى السياسة العالمية تغيرا كليا » .

وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « إذا شاهدت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن القارات فلا يتم لها ذلك بته إلا بانتماعها الاسلام دينا » .

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، واسلمت على الرعاية والاكرام . بيد انهما لم تكشف عن رغبة في السخول في دين الرسالة ، وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحسنة بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسيا ، ومما زاد في ذلك القرب أن أخذت عرى الولاة تتوثق بسبب الحرب البلقانية وما تجلى فيها وما حوّلها من المطامع الاستعمارية الهائلة ، ويمكن المسلم بحالة شمر المسلمين ومبلغ ما آلت إليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ بالوقوف على الهزات المتتالية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) .

ومثل من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم برسالة الشرف جاء فيه ما يأتي : « ياروج الشرق : الألهي من مرقدك ، وادفعني عن الشرق هذا الطوفان الغري ، طوفان عدوان الفرنجة وبقيهم واعتدائهم ، يا أبناء هندستان : كونوا لنا عوناً ونصراً بتكلمتكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بقوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم ، دعوا قوة الأرواح السكينة في قمم جبال هملايا تذيق فقد حان لها وحق من أوجدنا الانبثاق ، املوا الجؤ بصلواتكم إلى إله الحرب لينصر الحق على القوة الفاشية ، ويزهق الباطل : إن الباطل كان زهوقاً ، وارفخوا أصوات دعواتكم ، وفي هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين » .

فن تدبر هذا المسأل الذي آلت إليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقرّبهم من الكفرة ، وتوثيق عرى الولاة بينهم وبينهم ، لا يسعه إلا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستعجاب ! ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصوراً على مسلمي الهند وحدهم ، بل شمل أيضاً مسلمي الصين ، فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف في وجه الغرب المعتدي ما يأتي : « إن أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حد له ، فهي لا تفك تنازعنا على حريتنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبا ضرر بقنا الضرر به الفاضية إذا لم يستنصر بهدنا بعضاً ، ونهب في يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفي الدور الأول من أدوار الثورة الصينية ، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واضطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاثلون معهم مستبشرين في سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور (عن - بات - سن) الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله : « إن الصينيين ان ينسوا أبداً نصراخوانهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها » فلما نشبت الحرب السكونية العظمى كان العالم الاسلامي أجمع مضطرباً اضطراباً عميقاً ، ومحتتماً حثقاً على الغرب المعتدي ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعي لعقد التحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسيوية ليتسنى له بذلك القيام بجهاذه النوى في سبيل التحرر من ربة الغرب . انتهى الكلام على الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثاني في أن أوروبا نفسها بايفارها صدور المسلمين جمعت كلهم على الشدة عليهم جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي أيضاً ما يأتي : « قام سياسة الحلفاء خلال الحرب ، ثبات المرات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المخوفة الغمار إنما هو إنشاء نظام عالمي حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة ، والقواعد الشريفة ، كراية حقوق الأمم المستضعفة ، وإطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وإمتلاك مقدراتها فذاعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذبوع ، واختارتها الأمم الشرقية ، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها ، وأخذت ترتلها ترتيلاً ، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى ثبات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرّاً

وخفاء مبادئ الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، أخذ يحتدم غضبا ، ويكبر نوازل الجور والبغي ، ويعظم
سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراحل الهداء تشتت غليانا في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهرت
الجو ، وقصغت الرعود ، منذرة بأهوال الصواعق ، ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ! إذ قد سبق للكثيرين
الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علماء بالأمور الشرقية ، فأذروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انقضاء
« مؤتمر فرساي » بسوء العتي الواقعة في الشرق ، وانفجار عظيم لا بد منه . من هؤلاء المنذرين (ايون
كايتاي دوق سرمونيتيه) وهوثقة من ثقاة الطليان في شئون العالم الاسلامي ، فقد قال في سنة ١٩١٩ في
جلة حديث له ذكر في نتيجة الحرب العائمة في الشرق : « إن الحرب السكونية العظمى قد هزت شجرة
الحضارة الشرقية ، فاهتزت اهتزازا بلغ أقصى الجذور في التربة ، وبعثت فيها روحا عجيبة ، إن الشرق أجمع
من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميدانا عنيفا ، ففي كل رقعة وبلد ترى نار الهداء للغرب
مشبوبة ، ففي مراكش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهباج ،
وفي مصر ، وبلاد المغرب ، وليبيا ، وسائر الأقطار الاسلامية ، الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها
متماثلة الصفة العائمة ، وموحدة الغاية ، بتماثل العالم الشرق الاسلامي بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة
الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا » انتهى الكلام على المبحث الثاني من الفصل الثالث

الفصل الرابع

في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وهل الشدة المذكورة في الآية لاتزال محتملة في هذا

الزمان بعد أن أذاع السلطان عبدالجيد الجهاد العام فلم يفلح

وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس نداء السلطان
المذكور شرعيا في نظر المسلمين :

جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي مانعه : « قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجا هائلا ، وثار ثوران
عجيبا في هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنما هو الارهاق الغربي ، المتوالي الشدة والزيادة منذ الزمن
البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستمر من قبل ، ثم ولي الصلح الحرب
وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعده ، وأركانه الفاسدة ، وما دهي العالم الاسلامي بسببه من النوازل
والفواجع ، ولا يعزبن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها يجب أن لاتعتبر أنها
حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ، ردًا لاعتدائه ، ودفعًا لجوره فحسب ، بل إن منشأها الأصلي هو
المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة
التي قلنا فيها قبل أنهما بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقا بين النصراني والنصراني ، فإن هذه الجامعة ليست
دينية فقط ، بل إنها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية ، وأن القوانين والقواعد التي تتألف منها
وتقوم عليها حياة الأسرة الاسلامية على مختلف العادات والأقاليم لاتتغير في موضع عنها في سرض آخر في
جميع المعمور الاسلامي . قال السير موريسون : « إن الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد
ديني ، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فاسقتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى
ما انقضى من العهد الذي مابرح فيه الاسلام والنصرانية على تضال وزراع ، فما عرى ومن جانبنا من جوانب
الاسلام قط ، بل ما أفلك على الدوام يشتد بعضه مع بعض ، متماسكا متعاضدا ، حتى صار وحدة جامعة نامية
نمو الجسم العضوي سائرا سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه » . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه
الحضارة رباطا وثيقا لا انفصام له ، وباعتبار هذا المعنى فإن الجامعة الاسلامية إنما هي عامة قائمة البناء في جميع
العالم الاسلامي حتى ان المسلمين الأحرار على ما يحبذون من الآراء الغربية التي يردون شرعها من حيث

لا يراخون إلى دعوة الجماعة الإسلامية السياسية لتلقيها على النافذ الرجولية يقدرون كل الاستعداد في رجوب الوحدة الإسلامية الشاملة المبنية على أصول إنسانية وثقافة إسلامية . قال إمام ستر من أكثر زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغاخان ما يأتى : « إن هناك جماعة إسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحية الرجولية ، والوحدة الجماعية بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية ، فهذه الوحدة الإسلامية الروحية الهندية ، يجب أن تقود قنمو أبدا ، لأنها عند أتباع النبي "أس" الحياة وجوهر النفس » . فإذا كان هذا شعور المسلمين الأحرار الواقفين بحق الوقوف على حضارة الغرب وتقدمه ورفقه وعمرانه ، والقائلين يوجب الاقتباس منه والأخذ منه ، فما أشد شعور سواد المسلمين وهم الجماعة الرجيمون المتعصبون ؟ أحنف إلى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشناعة لاستبداء الغرب وحضارته ، الشناعة التي ليس منشؤها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الأفراد والفاوق في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية في العالم الإسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الإفراط والقلو ، فالتعب والتعصب انتهبا بالغا الملق ، تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجهده حنة واحدة منهالة متمكنة في نفس كل مسلم ، فباتت السلم العامة في العمور الانساني مهددة من ناحية العالم الإسلامي ، وهذا هو الواقع الذي يجب علينا أن نعترف به ، وأن لا نتخبط نفوسنا فنستعمر شأن هذه الحالة النحسية اليوم ، وما يشتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الهند القريب ، وعلى ذلك ليس من إصابة الحقيقة في شيء أن يقال إن تركيا قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم إلى حرب عامة ، وحاولت جهدها اقتداح زحف الجهاد المقدس سنة ١٩١٤ نزولا على أمر ألمانيا ، فلم يكن هناك الابراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحق في العالم الإسلامي بات ضريبا من الخيال ، إن من حمله الوهم على هذا فهو على خطا شديده ، إذ أن الجهاد لم يكن أبدا كل الامكان . قال ضابط ألماني ، كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولا صريحا ، وهو : « إن الجهاد الذي أعلنته تركيا قد حبط حبوطا ، لأنه في الواقع لم يكن جهادا بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق انما فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركيا ، فأخذوا يستهجنون دغولها في المغرب ووسطها ما ذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال ، فبالسلة الاعتمادات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى اتهام الحرب العامة وتقرر الصاع على الأسس والأركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريرا كان من شأنه أن بات العالم الإسلامي أجمع خاضعا منضوع الذل والخضوع للسيطرة الغربية ، جميع هذا أثار قلوب المسلمين ، فهبوا بهبوب العاصفة ، وتقاتل كل شيء في سبيلها ، أضف إلى ما تقدم أن الأهب المادية ما برحت تزداد وتستوفي . وقد سبق للشرق الكبير العلامة أرمنيوس قباري التحير حق الخبرة بشؤون العالم الإسلامي ، فأندرت قرب انذارا منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه : « إن السياسة الاستعمارية النهمة إنما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق » واليك بعض ما جاء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ - : « إن الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازديادا عظيما على توالي الأيام ، ولا يغيب عن البال أن ربيع العداء والمقاومة قد اشتدت ، والصدور وغرت ، والحفاظات اتقدت ، أعنى بذلك أن الشعور بالوحدة العامة والجماعة الرابطة قد صار شعورا عاما ناميا منتشرا في جميع الشعوب الإسلامية ، وقد كان من الساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غير ما منذ عشرين إلى عشرين سنة . وليس من المستغرب أن تقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر إلى الميزة العالية التي أدركتها الصحافة الإسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، وإلى عام انتشارها في آسيا وأفريقيا ، وما عظمتها البليغات ، وانذاراتها الموقظات ، من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين ، فللصحف الوطنية السيرة والدورية في تركيا والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوه ومصر والجزائر مفعول عظيم

إذ كل ما تنسكرفيه أوروبا ، وتقرره ، وتقوم على إنفاذه على ما ينال الصلحة الإسلامية ، تنشر أنباءه في جميع هذه الأقطار بسرعة البرق ، وتحمل الزايف هباء الأنباء إلى كل جهة شامخة ، وصوب سحيق في الرقاع الإسلامية ، حتى إلى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يرب المسلمون المتأق مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين فالسرارة التي تستلير من جمع من مجامعنا ، أو ناد من أنديةنا ، أو لمة من ولائنا ، فما زال في مستطارها ومسبحها في النضاء حتى تنجوب أقاصى العالم الإسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف وما تنشره صحيفة « ترهان » في القريم مثلاً تردده صحيفة « اقام » في القسطنطينية ويرين صداه عظمها في صحيفة « الحوادث الإسلامية » في كالكتا في الهند ، فالجامعة الإسلامية اليوم مسترخية العرى بنض الاسترخاء ، غير أن اعتماد الغرب على غير انقطاع ، وعصفه المتوالى يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحصلان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتماسك وترتبط فتصير الجامعة الإسلامية كالبنان المرصوص منبع الأركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في أنحاء المعمور لا تبق ولا تذر .

منذ نشر قائمبارى إنذاره هذا حتى اليوم ، مابرج الأمر بتفانم والنصرة الإسلامية تشور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضة القومية والحركات الوطنية الإسلامية التي كانت تكاد لا تعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب النيوح والدعاية ، ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الإسلامية وهي التي أشار إليها قائمبارى ، فقد تعاضت تعاضماً غير مسبوق المثل ، ففي سنة ١٩٠٠ م لم يكن في العالم الإسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ هذه الخمسة صحيفة ، وأرى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون في بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرق والقطارات الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الأنباء ونقل الأخبار ، وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الإسلامية إما توا على يد الرسل والسعاة والخجيج والسياح والتجار والبعد ، وإما على يد الصحف الإسلامية والكتب والمنشورات والمجلات ، ففي القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشوار ، وفي البصرة وبومباى ترى صحف القسطنطينية ، وفي المحمرة وكر بلاه وبورت سميد ترى صحف كالكتا ، وأما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الإسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها ، وهي حقاً كالسيل الطامى فانها مأكروك أمة مسلمة إلا استوائت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد إلى تعاليمها ، وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتسكرة تجاراً ووعاظاً ومشردين وعلماء ، وطلبة وأطباء ، وعجلة ومقسولين ، وفقراء ومساكين ، حتى ومشهودين ودجالين ، وحينما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية .

زد على جميع هذا أن ساد اليوم في العالم الإسلامي سيادة عامة الاعتقاد الذي يؤيد الأحرار والغلاة والمخافون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم في دور النهضة والانتقال والتجدد يستردون مجدهم الإسلامي الفائق ، ويستعيدون عزهم النليد . قال السريثودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الإسلامية فانية ، أو غير متجددة مترقصة ، إنما يعتقد أن قد عرمتها قهقري قصيرة لحسب ، فقصر المسلمون أمرهم على التطويع في الاشادة بمجد الجدود ، وتعصبوا في ذلك ، وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختاف في صفته عن الحال التي كانت سائدة أوروبا في خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقة جميع البلاد النصرانية ، يعتقد المسلم اليوم أن العالم الإسلامي سائر في طريق استئناف الارتقاء يأخذ عن الغرب ما يزيد في استحداثه ، ويبحث فيه عزماً واقديماً ونشاطاً ، فتطورت الحياة تطوراً تبتدت

دلّاه في كل قطار اسلامي» (١) .

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ، ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقا لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوّه واندفعا ، أضف إلى هذا أن الغرب قد انقلب بعهد الحرب العظمى ضيف المنه ، واهن القوّه المادّية وهنا كبيرا ، ثم جاء الصلح مبني على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف بين الغالبين بعضهم مع بعض انشوبا قوض مكاينهم تقويضا وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين ، وقصد كان من شأن النزاع والمجادلة بين كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في الشرق أن ساعد المسلمين ، ساعدة جائلة على زيادة ثباتهم وتماسك بعضهم مع بعض . فاشتد إيمانهم بأدراك المبتغي ، ثم إن هذا التعادى الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطرابا سياسيا عظيما في الغرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف .

قال أحد كتاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذارا شديدا : « إن العالم الاسلامي بات لا يسترزف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والمناقل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يجهن من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جمال الدين في المسلمين تسير سيرا دراك » .
وأى شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مصراجل حقدته من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليونا من المسلمين في الهند ، احتجاجا على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر أن هذا الثوران الاسلامي ليس مقصورا على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يقال (السرثودر موريسون) بانذاره :

« لقد كان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ما هو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي أجمع ليضع غضبا ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركيا ، وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة إلا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق الزلزلة ، إني قد أقت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشر عتي هذا الثوران الاسلامي الناشئ عن تجزئة تركيا التجزئة المنوية ، فان سياسة مؤتمر فرساي قد خلوا تركيا في الأماضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تقارع عليها في أسوأ هذا الخيال الباطل ، والوهم القاتل ! فن شاء البرهان فليتنظر إلى هذه الوفود الاسلامية العديدة الحائلة بين ظهرانينا في لندن كأنها الاله لا يطلى به ، فالمسلمون قاطبة في الهند من بشوار حتى أركوت قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركيا والمسلمين ، حتى باتت النساء المسلمات يعولن احوالا شديدا ، ويكدين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفافن ، وترى التجار وهسم أهد طبقات الأمة عن مزاوله الشؤون السياسية يفرّون من حوائثهم ومتاجرهم خفافا إلى حيث ينظمون رقائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المنقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جاري الحوادث في العالم يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتروا في القيام بالتظاهرات والاحتجاجات »
وأغرب ما في الحالة أن الأحرار قد أخذوا ينظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوّه والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهبا مخالفا لغلاة الجامعة الاسلامية ، وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل

(١) ذكر المؤلف في هذا الموضع كلاما متبسا من كتاب « يقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع

عشر للهجرة » مؤلفه يحيى صديق ، أضربنا عن ترجمته . شكيب أرسلان

الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الأوروبي ، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون في رده
بمؤالات الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولو إلى حين مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة
الإسلامية إذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فن شأن هذه الحرب أن تفجّر غورا بعيد المهوى بين الشرق
والغرب ، وتقضي على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذلك وهي التي ترى اليوم دابة في كل عرق
من عروق العالم الإسلامي ، باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضا أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب
الرجوعية في المعمور الإسلامي ، ذلك التعصب الذي إذا عاد فاقم أوهن حركة الإصلاح الحديث في الإسلام
إيماناً شديداً فأخرها مدة مديدة . ولعلّ الذي عرف حتى اليوم من ثوران لإسلام لا يبدأ أكثر من مقدمة
لما سيحدث في السنين المقبلة ، ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للإصلاح الديني في الإسلام
اصلاحاً ضارباً إلى التعصب ، أما الأولى فهي دعوة الإخوان التي نشأت منذ نحو عشرين سنة في نجد قلب
بلاد العرب وهي الوهابية عينها التي كانت نشأت منذ مئة سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة ما برحت تنتشر
انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير ، أعني به ابن السعود ،
خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة الوهابية منذ مئة سنة ، وأما الإخوان الجدد فعلى تعصب شديد منقطع
النظير ، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الإسلامي ، وأما الأخرى فهي
الدعوة السلفية التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة الإخوان في نجد ، غير أنها قد انتشرت في هذه السنين
الأخيرة انتشاراً عمّ كل رقعة إسلامية ، وغرضها كغرض الوهابية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب
وغالب أتباعها من حلقات الدراويش . هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل المبسطة
الذكر تنخر نخرًا متغلغلاً في سلم الشرق » انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » والحمد لله
رب العالمين .

نور على نور

انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا

وذكر حادثتين اثنتين

من ذلك حادثتي أمريكيا أسلم ، وحادثة فرنسي عظيم أسلم أيضا ، وهالك قصتهما ، فأما الحادثة الأولى فهي
ما جاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » سنة ١٣٤٩ هجرية وهذا نصه :

كيف أسلم ؟

ترجمة المحاضرة القيمة التي ألقاها بالانكليزية الاستاذ محمد أفندي عز الدين لوما كس الأمريكي الذي
أسلم ، بدار جمعية الشبان المسلمين في ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هجرية — ترجمها عبد الحليم سامي بيومي
بكلية الحقوق .

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر الإسلام

الإسلام في جوهره قوة وقدرة من الخالق ، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو
الموجود أزلا ، والموجد لكل موجود : « لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي
يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات
والأرض ولا يشوده حفظهما وهو العلي العظيم » .

بين روح الاسلام والاله الواحد الأحد صلاة وثيقة العرى لا انفصام لها ، فهو الذي يخرج الانسان من الظلمات إلى النور حيث يجد في ضياء الاسلام أول قبس يشع نور من القرآن الكريم .
 بسم الله الرحمن الرحيم : في كلمة الرحمن يشع نور المؤمن أن الله تعالى هو الاله الواحد الذي يسبح على عباده النعم في الحياة الدنيا والآخرة ، وأن المسلم اسلاما راسخا يعترف لحقيقته في صلاته الخمس بالرضا والنعمة ، وأما كلمة الرحيم فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلق ، سواء في ذلك المؤمن والكافر ، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يخلق الكافر أنه سيكفر ، وأنه لولا لفظ الرحيم لما سمح للكافر أن يكون حيا يرزق في الوجوه الانسانية ، فمن هنا نرى حقيقة لا يدانيها الشك أن هذا النور الأعظم وهو نور الاله إنما هو الشفقة والرحمة ، ولذا نجد أن الله الرحيم لا يمت عيسى ابن مريم من مجراء خطايا هذا العالم الذي .
 إن روح الدين الاسلامي الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئا عظيم النفع بنيل القدر لأجل أن يرد إليه تارة أخرى ، وأن تقرب إليه الترابين على سبيل التضحية مقابل اقتراف الانسان للمسكرات والآثام ومثل هذا كما يأخذ الانسان من أحد جيوبه سلبا من المال ثم يضعه في أحد جيوبه الأخرى .

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهي : « الحمد لله رب العالمين » فتعلمنا أن الحمد في مجموعها وكلياتها موجهة إلى الله مالك الملك ، والمحيط علمه بكل شيء . وأما الآية الرابعة فتدلنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين ، لأنه هو المستثنى من الحساب : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ روح الاسلام الذي جعله يتجهر بالقول في تعاليم الشريعة السمعة للذين يقرءون ويكتبون من المسلمين ، ومن هنا نعلم أن من يوحى إليه الله تعالى وأحكامه لا بد وأن يكون منزها ومفضلا عن الناس كافة ، فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعلى بركات الایمان والیقین .

ولقد نفذت روح الاسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والمصلحين أمثال عمرو بن العاص ، وخالد ابن الوليد ، وأن هذه الروح القوية الأثر هي التي حدثت النبي ﷺ إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجتهدون في البحث عنه ليذيقوه ريب المذون ، ومن القريب أن أعداء النبي صلى الله عليه وسلم لم يقنعوا بأنفسهم بترك مكة ، بل تعقبوه في هجرته ، وهناك ضى بوا على نزله سيلجا من الحيلة لأجل القبض عليه ، ولكن روح الاسلام الدفينة في الأنفاق أطمته بأن يتناول قبضة من تراب ويذوقها عليهم ، فأخذتهم سنة من النوم تمكن النبي ﷺ من النجاة منهم في الصحراء حيث اختفى في غار هناك ، ولا تقل إن اختفائه في الغار يحول دون هلاكه وحرقه ، ولكن الاسلام وما في ثنائه من روحانية وقوة جعل الحمام يبيض على باب الغار ، ولما أفاق أعداء النبي ﷺ من غشايبهم تعقبوا أثره إلى الغار مدهوشين وأخذتهم هواجس الظن اعلمهم أن النبي ﷺ لا يمكن بأى حال أن يكون في الغار ! فمن يريد أن يؤمن بوحداية الله فعليه أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة ، وبخاصة عندما أحيطت حياة النبي ﷺ من يد العدوان برعاية الطير الذي اندفع إلى حماية محمد ﷺ بيد الاله الخافية عن الأبصار .

متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهداني سواء السبيل ؟

ولدت مسيحية ، ومسقط رأسي الولايات المتحدة ، حيث لادين هناك خلاف المسيحية ، وحيث لا يعثر في تلك الجهة على أى نوع من أنواع الأدب التي تقود إلى الدين الاسلامي القيم ، بل إلى هذا الضوء الاعم ، والضياء الساطع ، إلى القوة التي يرمز إليها بروح الاسلام ، وهناك لا يزالون يسلّمون الناس أن المسلمين عبدة أوثان ، ولكن (ولله الحمد) في عام ١٩١٧ ميلادية اعترفت مشاعر نفسانية دخيلة ، حركت قلبي ، ودفعت

إرادتي إلى اجتياز خمسمائة ميل ، لأفقات من فضلات مرائد المسلمين ، ولأفهام من أديان روح الدين الاسلامي بنصيب .

لقد كنت قبل الدخول في الاسلام والمشيح من هذا الدين : مدمنًا على تساطع الخمر ، لاهيا بالألعاب الاجتماعية ، أما اليوم فتركت هذه الامور ظهرياً ، ولا أعلم بالذافع الذي حركني لتترك هذه العافليات ، ولمسكني أقول وأبزم القول بأنني (أنا) وأنسكهم هنا بأفهمة الاسلام ان الروح القدينية الاسلامية هي التي أوحى إليّ بهذا الخير ، ولقد شعرت في نفسي بأنني على استعداد للخدمة في الكنيسة ، ولمسكني إزاء ذلك وجدت أن ما استقر في نفسي كان يتنافر مع أوضاع الدين المسيحي وتعاليمه ، فانتظرت خارج الكنيسة ولم أندج في سادتها ريثما ينبثق دين أحسن من هذا الدين الذي كانت الكنائس في الولايات المتحدة سائرة على منواله ، سالكة سبله وخطاه .

عام ١٩٢٦ في مدينة شيكاغو انتشع انشاء عن عيني عند ما ابتدأت في مطالعات آداب الاسلام الحقة ، وأن جوهر هذا الدين حرك دكتوراً هندياً يدعى ميليك بمدينة لاهور بمقاطعة البنجاب بالهند أن يكتب في مجلته قواعد الدين الاسلامي الخمس التي تعتبر الأركان الأولية الأساسية الجوهرية للاسلام ، وهما : —

﴿ أولاً ﴾ : كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

﴿ ثانياً ﴾ : الصلاة : على كل مسلم عريق في إيمانه أن يؤدي الصلوات الخمس يومياً بعد الطهارة والوضوء بالماء النقي الطاهر كي تبقى أرواحنا ، وأجسامنا ، وقلوبنا نقية طاهرة قبل الوقوف أمام الله

﴿ ثالثاً ﴾ : الصوم : وهي فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة حتى تقف بأنفسنا على ألم الحرمان من الغذاء ، وتألمنا قسرة الشقة ، ونحساسة الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل والفقراء ممن يتضورون جوعاً ، وبذلك نحني من قوة الاسلام ونفوزه على الأرواح إيماناً ثابت الدعائم لا تحركه هزات الأباطيل .

﴿ رابعاً ﴾ : الحج : وهو فرض على كل مسلم يملك القيام بأداء مناسك الحج في مكة ، وحيث يستشعر المؤمن بالنظمة الربانية ، ويشاهد البيت ، ومقام إبراهيم ، وكل الأعمال الجليلة التي أودعها الله بمكة .

﴿ خامساً ﴾ : الزكاة : وهي فريضة من اليسر بكان ، فإذا كان المسلم مولعاً باقتناء المال وكنزه ، أي أنه كان حائزاً للنصاب الشرعي الذي فرضه الله على المسلم ، ومع هذا لم يدفع حق الله المفروض عليه سنوياً فقد باء بخسران من الله عظيم ، وحات عليه الضلالة من بارئه .

هذه الأركان الخمسة التي انطبعت في شعوري الضعيف ، واسترجمت بنفسى امتزاجاً قوياً شديد الالتصام من روح الاسلام جعلتني أدين بالعبودية لإله واحد لا شريك له كما يقول دعاة المسيحية . انتهى

محمد عز الدين : الخادم المطيع للاسلام

المعرب : عبد الحميد سامي بيومي

هذه هي الحادثة الأولى ، وأما الحادثة الثانية فهي أيضاً ماجاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » تحت العنوان الآتي في الصفحة التالية ونصه :



« لكم دينكم ولي دين »

من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصر الدين دينه والحاج سليمان بن ابراهيم

الحاج ناصر الدين دينه هو المستشرق الفرنسي . المشهور المشهور ، أول من قدمه لقراء العربية في مصر وعرف المسلمين الشرقيين به الاستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة « أشعة خاصة بنور الاسلام » التي وضعها ذلك الفرنسي المسلم الكبير . وفي سنة ١٣٤٧ هجرية وسنة ١٩٢٩ م لم يقد به كبر سنه عن تأدية فريضة الحج برفقة صديقه الحاج سليمان بن ابراهيم الجزائري ، وبعد عودتهما وضعها مذكراتهما التي دونتا فيها رحلتهم إلى الأقطار الحجازية المباركة ، وبعد وفاة ناصر الدين في ديسمبر سنة ١٩٢٩ م تولت مكتبة (هاشيت) الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات فجاءت كتابا وافيا ، يشتمل على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذي فصلين ، تقع جميعا في أكثر من مائتي صفحة ، وقد سلاها السيد ناصر الدين بثمان صور من صنع يده ، مثل صورة الكعبة المكرمة ، والرم الشريف ، ومنظر الحج بعرفت ، وصلاة المغرب حول الكعبة ، وجبل النور الذي تلقى عنده الرسول الأمين الوحي عند نزوله أول مرة ، وجبهها آية في فن التصوير . وقد رأيت أن أعرب لحضرات قراء مجلتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمور حيوية جدير بالمسلمين أن ينهوها إليها لعل لهم فيها عظة وذكرة .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمور ثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهي :
﴿ أولا ﴾ قوة الحياة السكمانية في اللغة العربية ﴿ وثانيا ﴾ قوة العقيدة الاسلامية ﴿ وثالثا ﴾ إصرار أوروبا في عداوتها للإسلام إصراروا ظاهرا أو مستترا :

أولاً : قوة الحياة السكمانية في اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدنا لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهر لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب ، أما لغة الكلام فهي في نظرهؤلاء اللاتينيين عبارة عن لهجات عامية لا ارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل : ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى الشرق ، إلى مصر ، أو سوريا ، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التي وئدت قبل أن يحين أجلها هي على عكس ما يذهبون إليه لغة حية بكل ما في الحياة من قوة ، لدرجة أن جميع الأجانب المقيمين في هذه الأصقاع لا يجدون مفرا من تعلمها ، والاحيل بينهم وبين القيام بتصرف أمورهم ، وفي مكة على وجه التخصيص يشاهد الانسان أكبر مظهر من مظاهر حياة اللغة العربية ، فإن لغة الكلام هناك تكاد تكون الفصحى بعينها ، ومن السهل أن يفهمها جميع الناطقين بالضاد في جميع الأقطار . أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعددة فعديم الأهمية لأنه لا يحول دون تفاهم المرء كشيين والسوريين واليمنيين وغيرهم فيما بينهم إذا جهتهم الظروف في مكان واحد والعناء الوحيد الذي يلاقيه المتكلم ينحصر في اللهجة المصرية بسبب اختلاف النطق بحرفي الجيم والقاف ، وهناك الألوف من الحجاج الأعاجم (غير العرب) الذين يقبلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه ، والكثيرون منهم يقدرّون على التعبير بها من غير ما خطأ بالرغم من سقم نطقهم ، ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين ، والهنود ، والفارسيين ، والخراسانيين ، وأهل البوسنة والأتراك ، والالبانيين ، وأهل القوقاز ، والسنغال ، والسودان ، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر .

أما العرب والبدو من سكان الحجاز ونجد فقد تولتوا الدهشة من الشبه الكبير بينهم وبين بدو صحراء

أفريقيا الشمالية في سميراتهم ونفساتهم وأفكارهم . واللغة العربية الفصحى تشابه في الواقع اللغة الفرنسية ، وهي مثلها لغة حية ، وتتفق وأياها في طريق التمييز والادلاء ، أما اللغة السامية فلا تختلف طبعاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحي شمال فرنسا عن لغة فلاحي جنوبها ، ويوجد الانسان في دراسة تلك اللغة الخفية ميزة خاصة بها ، فانها (من بين جميع اللغات القديمة) اللغة الوحيدة التي لا تزال حية الآن ، ولوعد اليوم أحد معاصري النبي ﷺ لما وجد أية صعوبة في الفاهم مع جميع الناطقين بالحداد ، على حين أنه لو عاد أحد معاصري قيصر لما تأق له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرسين ، ومع ذلك فن المشكوك فيه أن يتسنى له أن يفهمهم كل الفهم ، كما أن أحد معاصري (فرنسوا الأول) لو عاد لوجد صعوبة تامة في التخاطب مع فرنسي اليوم .

وآداب اللغة العربية (دون آداب اللغات الحية) أقلها انتشاراً ، لأنها أدق على الفهم ، ولأن الموجود منها بين أيدينا مترجماً إلى اللغات الأوروبية منظمه مشحون بالأخطاء وعلى جانب من السخافة المزرية ، وفي الواقع لأجل الاسلام بآداب اللغة العربية وتفهمها لا يجب أن لا يكون المترجم لها من درسوا اللغة العربية حق دراستها فحسب ، بل يجب أن يكون شاعراً ، وأن يتكلم من عاشوا بين ظهرائي العرب المسلمين وعاشروهم مدة طويلة ، فأمثال هؤلاء يهتمون في آداب العربية كنوزاً ثمينة قل أن يوجد لها نظير في جبالها ونوعها ، واللغة العربية ميزة أخرى ، وهي انها منتشرة في أقطار واسعة تمتد من شواطئ الاطلس إلى بلاد فارس وخليج الحبحم ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد السودان ، وكثيراً ما يقابل الانسان جامعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية في الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادي ، وان في دراسة اللغة العربية فوائد لا تنكر لاسيما للفرنسيين ، بل هي أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية ، وتبادل دراسة اللغتين : الانكليزية والألمانية ، ويجب أن تدرس في جميع المدارس الثانوية في فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى .

ثانياً : قوة العقيدة الاسلامية

وقف المرء فيما أوردناه في هذا الكتاب على مقدار قوة العقيدة الاسلامية الهائلة ، ولذلك لاجابة بنا إلى تسكروا ما رأينا من المجزآت التي تجلت لنا من جراء قبل هذه العقيدة بالنفوس ولكن من باب التدليل على عظمة هذه القوة تقتطع فيما يلي بعض الفقرات الواردة في الكتاب الذي وضعه القس (زويمر) والذي أتى فيه على شرح انتشار الاسلام أيقظته المحن التي نزلت به منذ الحرب الكبرى . قال : « منذ سنة ١٩٠٥ عاد خمسون ألفاً من الروسيين الذين كانوا يتسمون بأسماء مسيحية إلى حضيرة الاسلام (صفحة ٢١٠) وأن السودان الواسع الأرجاء يسكنه بالملايين ٥٠ مليوناً من النفوس ، و قبيلة هاوسا الكبيرة ، وقبائل بلاد النيجر ، والشاطئ الذهبي ، أسلم الكثيرون منهم ، بل هم على وشك أن يصيروا جميعاً مسلمين ، ولا ريب أن المرح يرتفع قهراً دون أن يلقى مقاومة (صفحة ٢٣٥) وفي البنغال (مقاطعة من مقاطعات الهند) أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس ، وكذلك في برمانيا (بحوار الهند) زاد عدد المسلمين بنسبة الثلث في نحو عشرين سنوات (١) وأخيراً ثبت هنا ما فات زويمر أن يذكره ، وهو أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ، وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية بالنظر لقلّة عدد المعتنقين (وان كان عددهم لا بأس به) فانه ذو أهمية كبرى نظراً لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ، ونذكر منهم على سبيل المثال (اللورد هيدلي) الانكليزي ، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم كريستيان شرفيس أحد تلاميذ

(١) انظر كتاب « الاسلام » تأليف س . و . زويمر

أوغست كومت ، وأديب من أدباء فرنسا المحدثين ، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين .
ولو كان الاسلام الحقيقي معروفاً في أوروبا لسكان من المحتمل أن ينال (أكثر من أى دين آخر) من
العطف والتأييد من جراء روح الدين التي نجمت عن الحرب الكبرى ، فانه والحق يقال يلائم جميع ميول
معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو (ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة ، وباشتماله على روح التصوف
كما يذهب إليه أهل الصوفية) يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويتحدون فيه تهزية وسوى
من غير أن يقول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم ، كما أنه هدى وتهزية لزوج السودان الذين
ينتزعهم من أحضان أهواءهم الوثنية ، ويرقى بروح ذلك التاجر الانكيزى وجبل العمل الذي يعتبر الوقت
من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف المدين ، ويسمو بنفس الشرقى المفكر ذى التأملات والخيال ، كما يسمو
بنفس الغربى الشفوف بالفن والشعر ، بل هو يسحر أب الطيبى العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر
كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة ، تفيد الجسم والروح معا ، وفى وسع حرر الفكر (وهو
ليس ملجدا حتما) أن يعتبر أن الوحي الاسلامى عمل من أعمال تلك القوة الخفية التي نسميها (الالهام)
وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيدها العقل .

ثالثاً : عداوة أوروبا للإسلام

إن الكثيرين من القراء يعترضون على ملاحظتنا الخاصة بعداوة أوروبا للإسلام ، فإن هذا الشعور
السيئ لا وجود له فى الحقيقة عند عامة الأوروبيين ، بل هناك الكثيرون من غواة الفن وعشاق السياحة
يشعرون بعطف خالص على الاسلام وأعجاب كبير بذلك الدين الجذاب الذى أتى بآيات الإعجاز .
ولكن مما يؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى هذه الحروب الصليبية ولم تحدد
عنها الآن ، وكما همت بنسيانها قام فى الحال أعداء الاسلام أمثال (غلادستون) و (كرومر) و (بلفور)
ومطران كنزبرورى والمبشرين من جميع المذاهب فى وجهها ، لصدها والعودة بها إلى تلك التقاليد العداوية
(وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لا يجهله القراء وهما يخرج بنا عن الخطة التي ارتسمتها
المجلة لنفسها ، ولذلك لم نبدأ من إغفال ما ذكرناه فى هذا الصدد) .

كراهية الاسلام تحت ستار العلم

جرت العادة عند ما يدرس أحد العلماء موضوعاً من المواضيع أن يشغف به كل الشغف ، ويرى جميع
المحاسن مجتمعة فيه ، وما يزال عاقلاً بأذهاننا ما كان يديه أحد أساتذتنا من الحماسة والأعجاب بأشعار فرجيل
التي كان يحتم علينا استظهارها ، وكذا الحماسة التي كان يظهرها أحد علماء التاريخ الطبيعى عند ما يقع نظره
على الدينان الموجودة فى أحشاء كلب ميت .

ولا يوجد لهذه القاعدة سوى استثناء واحد ، والاسلام هو فى هذه المرة أيضاً محور هذا الاستثناء ، وفى
الواقع توجد اليوم جماعة من المستشرقين لا غرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث فى الدين الاسلامى
سوى تشويهها والظعن فيها . انتهى ماجاء فى « مجلة جمعية الشبان المسلمين » وبهذا تم الكلام على
الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم

مع قوله تعالى في سورة الحجرات الآية بعد هذه : إنما المؤمنون إخوة

وفيها فصلان : الفصل الأول

جاء في مقدمة كتاب « حاضر العالم الاسلامي » للعالم الأمريكي (لوثر ستودارد) ملخص ما يوضح معنى : « رحماء بينهم » ومعنى : « إنما المؤمنون إخوة » وذلك بتدوين تاريخ الرسالة المحمدية ، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرقتهم ، والنصارى وخرافاتهم ، والقيصرية وظلمهم ، والأكاسرة واستبدادهم ، وكيف جاء الاسلام فجمع هذه الأمم على الاخوة الاسلامية ، ثم أبان أيضا كيف أصاب هذه الاخوة ما شئت شملها ، وفترق جمعها ، وذلك بحسب الاستبداد بالخلافة والرجوع إلى العصبية الجاهلية في الأمم العربية ، فتبع ذلك أن استبدت الترك الحفافة الغلاظ بالأمم الاسلامية فتفرق الجمع ورجع الاسلام القهقري ، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الاسلامية ، ولما كثرت الظلم ، واشتد الحيف وازداد ، وبلغ السيل الزبي ، امتدت نيرانه إلى المنصرانية ، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق ، في غدوها ورواحها للحجج ، فكانت الحروب الصليبية ، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب .

ولقد أصيب الاسلام في الشرق بالغول وعلى رأسهم جنكيزخان ، وأصيب في الغرب في بلاد الأندلس بتفرق كلمة العرب ، فزالت الدولتان الشرقية والغربية ، وهنالك ظهر الترك العثمانيون فلكوا أقطار الاسلام كلها بعد أن أقفرت أعظم ديار الاسلام أيام المغول ، وخربت بغداد ، وبلاد العراق ، ثم إن أوروبا أخذت تستيقظ إذ ذاك فهجمت على بلاد الاسلام واقسمتها ، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق ، فاستيقظوا من سباتهم العميق ورجعوا الآن إلى آية : « رحماء بينهم » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » .

هذا ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » الأمريكي ، كل ذلك قصصه على صاحبي العلامة الذي يحادثني في هذا التفسير . فقال : هذا كلام جميل في الرحمة والاخوة الاسلامية ، والله انه نور على نور ، وكيف لا يكون ذلك والكتاب « أولا » حديث العهد « ثانيا » ان كاتبه أمريكي نصراني « ثالثا » إن فيه ملخص تاريخ النبوة وملوك الاسلام « رابعا » ان الاخوة الاسلامية التي جاءت في هذه الآية ظهرت في أول تاريخ الاسلام ورجعت تظهر الآن ككرة أخرى لاسعاد أهل الأرض ، والله إن هذا التفسير لو لم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى ، بل لو لم يكن للنبي العربي معجزة سوى هذه لكفت ، بل لو لم يكن للمسلمين الحاليين نبراس وسلاوة ومنعة وعزة سوى هذه الآراء لكفتهم في رقيبهم ، فإذا أنت نقلت نفس هذه المقالة لتسمعها الأمم الاسلامية المنبثة في أقطار المسكونة ، فانك حقا تلهب في قلوبهم نار الجاسة الأخوية والمحبة الاسلامية ، وتسرع في رقيبهم بها ، ويعلمون ما هم عليه من اليقظة والقوة ، وتذهب تلك الوسواس والخوف والتشاؤم واليأس ، ويحل في القلوب نور التفاؤل والتفؤم والسعادة والفلاح . فقلت : جاء في الكتاب المذكور في المجلد الأول تحت عنوان « تمهيد للمؤلف » مانعه :

إن العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، قد تغلغل فيه عوامل الانقلاب أبعد متغلغل ، وانبثت في عروقه فواعل التبديل أوسع منبث ، حتى كمل اختباره ، وتم استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحول ، ثوار القوى إلى ملاحته ، فاذا ما سرحت ببصرك نحو العالم الاسلامي رقعة رقعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان إلى الكونغو ، رأيت الـ ٣٥٠٠٠ من المسلمين قد ثارت نفوسهم مشتعلة الحركة والانفعال ، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال ، وأن عبي هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جدا ، وستأثر بنتائجها العميمة أمم الأرض جمعاء ، والله الأمر من قبل

ومن بعد .

على أن العامل الأكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة ، وأمكن منشاء يراه المستضيء أقدم عهدا وأبعد أصلا ، إذ أن بذوره قد أقيمت في ترب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور نموها وزيادة الاستعداد والقوة الحيوية ، نموها مستسر المنهج ، بطرق الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي صار أوضح سبيلا وأوسع انتشارا ، وهزال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعض منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجأة في الممور الاسلامي فطفق يشور ويهتاج منتقلا من حال إلى حال ، سرى الجور بقائم الشعب ، لا يسمع فيه السامع إلا القواصف . وان وصف هذا الانقلاب الجحيب ، ودور الدعوى العظيم ، وما لإيهما من مختلف الأسباب والمطل والناتج هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس ، وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملا تاما ، فأتيانا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتهديمية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوينها ، ونشوتها وتفرقها ، وعمومها وانتشارها ، وسفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل ، أضف إلى هذا أننا لم نغفل ليضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث أننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مناسب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ماهناك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الاسلامي .

إن موضوع الكتاب وإن كان مختصا بالعالم الاسلامي في المقام الأول ، غير انه تناول الكلام على غير المسلمين كالفنصر الهندوسية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاء للغرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع ، لذلك جعل الكلام كافيا وافيا في شأن الشرقيين الأدنى والأوسط ، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشيرنا إلى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامي في المناجيات العامة إشارة ينبغي للقارئ أن يقيم لها وزنا اه
ولنشرع الآن في ذكر مقدمة الكتاب المذكور ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانصه : —

نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفا ، لينخرج الدهر تاريخا من الرمم

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضة الكيان ، وبلاد منحطة الشأن ، فلم يحض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ، مزقا عمالك عالية الذرى ، مترامية الأطراف ، وهادما أديانا قديمة كبرت عليها الخقب والأجيال ، ومغيرا ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانيا عالما حديثا متراص الأركان ، هو عالم الاسلام .
كما زدنا استقصاء باحثين في سرّ تسلّم الاسلام وتعاليمه ، زادنا ذلك العجب العجيب بهرا ، فارتدنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئا ، ملازمة كل صعب ، حتى كان أن قبض الله لسكل دين منها ما أراد له من ملائكة ناصر وساطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ في تأييده والنّيب عنه ، حتى رسخت أركانه ، ومنعت جواربه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية اسوكا ، والمزدكية قبا كسرو ، كل منهم بجبار أيد دينه الذي انتحل بهما استطاع من القوة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيها شتى التباثل الرحالة التي لم تكن من قبل ربيعة المسكنة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الأرض ، مجتازا أفدح الخطوب وأصعب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أثر

مشدد ، وعلى شدة هذه المسكاره فقد نصر الاسلام نصرا عجيبا ! إذ لم يكذب مفسى على ظهوره أكثر من ثورين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البيرينيس » حتى « جلاليه » ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه ، أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد ، إن العرب وإن كان ماضيهم مابرج منذ عهد متطاول في القدام حتى عصر الرسالة ماضيا غري مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة هجيبة ، تلك القوة السكينة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر بعلية إلى عالم الوجود ، فقد ظلت بلاد العرب أجيالا طوالا من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها ترخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية ، كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إقبالا في الشرك الوثنية ، واتقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استجالت عناصر أرض جنتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم ، وتبديل شأنهم ، هكذا كانت حالهم العقلية والنفسانية حالة الاستحالة الكبرى والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نبي الاسلام ، إن محمدا وهو عربي من العرب ، وروح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع وهو يبشر بالوحدةانية تبثيرا عاريا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الفيرة الدينية ، وهى الفيرة السكينة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السادية ، وإذهب العرب لنصرة دهرية ابن عبد الله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الإحن الزمنة ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل التهاج بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم إلى بعض كالبنيان الموصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ليفتحموا بلاد الإله الأحد الفرد القمء .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزرع ، فلاقى في سبيله جؤا روحانيا خالما ، في ذلك العهد كانت كاتنا ملكتى فارس ويزنطية بايتين للهيان كأنهما اللحاء الخاف فارق عوده لاعتو فيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صاردينا يزرى عليه ويسخر منه ، أماني فارس فقد كان دين المزدكية القديم قد الخط انحطاطا كبيرا حتى أصبح مجوسية باطلة ومسناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكبره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديدا ، ومقتوه مقتا عظيما .

وأما في القسم الشرقى من المملكة الرومانية ، وهو ملكة يزنطية فقد ألبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحال إلى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذور العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، ففسدت النصرانية عبثا وسخرية ، وعلى الجلة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شرت ممزقة ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهيجية ، والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نموا هائلا ، ولا يهز بن عن البال أنه كان على رأس كل من يزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر . وملك عات أرهق الرعية إرهابا لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والإخلاص للدولة ، زد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة ، التظت نيرانها بينهما ، خرجت كلاهما منها مفتوتا في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار فإن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجميع ماني الأوس أن كتاب المملكة الرومانية الشرقية ومتدوعة

فارس ، كانت من قبل خواضة حرب فتاة ، لم تقو الآن على صمد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المنعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم جسداً أبطل ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يهللون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين الممقوتين ، ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجا ، إيثارا له بجدته وسنابته على دينك السنين الذين صاروا غاية في الانحطاط والتسدى ، وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم ، فالعرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة السماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك ، أمة موهوبة بجليل الأخلاق والمسجيات ، توافقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، الحضارة العربية وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحا جديدة ، فنضروا زهره ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعنصرية العربية والروح الاسلامية ، فانحد وتماسك بعضه ببعض فاشرق وعلا علوا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا ، وتقدما وعمرانا ، مرسعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والخواضر العاصرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعا باهرا ، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته ليليه السوداء ، وأجياله المظلمة ، لم يكده يستهل القرن العاشر حتى تبتت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربية في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر تكذب فيما دلت عليه ، غير أن تلك الحضارة إنما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركة دركة ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر فقد دامت الحضارة العربية جلدة قمتزح حياتها من مخالب الفناء انتزاعا ، وسابقة للغرب النصراني حتى حاول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر ، وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الاسلامية حجة أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التي كانت على السوام آفة سياسية تنعثر في جسم الدولة عادت فظهرت إذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى إلى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الاول ، مثل أبي بكر وعمر ، حاملي لواء الاسلام الأولين ، أصراء دنيويون ، اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهى بمتاع الدنيا وأعواضها ، وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت إلى دمشق في سورية ، ثم إلى بغداد في العراق ، أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعا ، لان عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ، ولا الانقياد لأمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى فقال لهم قولوا مينا : « إنما المؤمنون إخوة » وقد كانت الخلافة في الحجاز شورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانه ، فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر ووات كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها إلى نبيه محمد وهي القرآن الكريم . وأما في دمشق ، ولاسيما في بغداد ، فقد تحولت الأحوال ، وتبدلت الامور ، ولا يجبن من ذلك والعرب الصرخاء الأقحاح ، الجارى في عروقهم الدم العربي البهت ،

الدم المنتعش إليهم من أعصاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا فئة قليلة في أفراج الناس ، وطوائف الخلق الذين لأعداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغاويين المنتعشين الاسلام حديثا ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنسب المتنوعة ، ولما كانت جميع هذه الشعوب المغاوية قد سئمت النذل من ماوكها السابقين ، فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الارهاق والصبر على المجنة ، لحدثان مادانت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالي جنسدا لحراسة سياج الملك والذنب عن حياض الدولة ، ومازال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم يتقلص إلى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي ، ولما نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس (٧٥٠ م) ازدادت كرامة الفرس نفوذا ، وامتد شأنهم وسلطانهم إلى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قيا كسرو وكسرى أنوشروان ، خلافا كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر ، وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقبوضا لأركان الدولة أيما تقويض ، ففسدوا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، وألاعيب بين أيدي الخطايا ، لا يستطيعون القيام بعد بهب من أعباء السلطان ، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية .

ما انفكت المملكة تهبط وتقهقر حتى تقطعت أوصالها ، وتفككت أجزاؤها ، وسلبت منها ، فصارت الوحدة السياسية مما لا استطاع دوامه لافتقار الدولة إلى قواد محنكين ، ولغفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجاياء عرب الصحراء الاول ، وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أكايرة الفرس وقياصرة الروم ، ينزعون منزعا قوميا ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامي طاميا قاضيا على جميع هذه المنازع ، أما الآن والمملكة الاسلامية محتضرة في النزاع فأني استطاع المجيء بمثل ما جئ به في صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأصنافهم ومعتقداتهم يفتخرون الرسالة المحمدية دينا ، واسكنه لم يستطع أن يجعل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدراء شجعا ، وساء الهضم فسادات نديجته ، دها محمد العرب فلبوا دعوته حقا ، لأنه إنما أتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالقبول أحسن قبول ، وناداهم مستغزا لفرتهم وحميتهم ، وهم اخوان نخوة سحجية وخلقا ، فاستجابوا نداه طائعين ، فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر نوحى غريزته رسالة النبي على ما يلائم منازعه الشعبية ، وميوله التقليدية الخاصة ، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه ، فنتج عن جميع ذلك أن الاسلام الحقيقي الذي شاهدته العالم في أول منشئه قد اعوجج والتوى ، ولنا أجلي دليل على هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استعجالت الوحدة التي نادى بها محمد إلى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تسكاد لارتبطهم بعالم السنة الاسلامي ، واستعجالت الوحدة أيضا عند البربر سكان البلاد المغربية الافريقية وغيرهم إلى حال عبيدت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين في الهند ، على أن جميع ذلك لما شدد النبي في تحريمه والنهي عنه نهيا قاطعا .

وما كفى ما حدث من الاختلافات الدينية ، وما أصاب صورة الرسالة النبوية ، حتى عمت البلوى بأن منى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية ، والانشقاقات الزمنية ، فأول ما حدث من هذا النوع كان في أوائل عهد الدولة إذ فر أحد المضطهدين من بني أمية إلى الأندلس حيث أنشأ في قرطبة خلافة منافسة لتلك التي في بغداد ، فاعتزف مساهم الأندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبربرة شمال افريقية ، ومن بعد ذلك بعهد أنشأت

خلافة أخرى في مصر هي الخلافة الفاطمية وخلقها مستبدون على ما نرى من فاطمة بنت الرسول ، أما
الخلفاء العباسيون في بغداد فابرحوا بطون دركار الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا
بعد مدة من الزمن عبيدا مطاوعين بين أيدي الترك ، المنصور والفرج والداخل عليهم .
وقبل أن نشرع في بيان كيفية انتقال السلطة من أيدي العرب الطغمة ذوي السم المزيج إلى أيدي الترك
وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الاسلام نؤثر أن نقول كلمة في أسباب انحطاط التهذيب والعارك العقلية عند
العرب ، ذلك الانحطاط الذي رافقه تمزق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من النصف العربي .
كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأطلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجيا ، مقادير يركبون كل
صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبحث فيهم نزوا شديدا وغيرة متوقدة ، كانوا أشداء العصبية
الدينية ، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الأجيال السلية ، وعلى شدة هذه العصبية فاتهم لم يكونوا
فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبصرين يستنبطون بنور العقل ، وهداية ، ومتمسكين بشكا شديدا بمعتقدات
دينهم وأركانهم وأصوله ، فغير أن دينهم هذا إنما كان دينا سهلا لا كتمان والمأخذ والفحاحيا ، كان جوهر
تعاليم محمد الوحدانية مع السنة المعروفة ، فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وبأن محمدا رسوله من
لذنه كما أنزل في القرآن ، والقيام بالفرائض السنوية الحسنة ، كالصلاة والصوم والحج ، إنما هذا فحسب هو
جدة الأركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصبوا في الأرض يقتسمون العالم الشرقي .
فالاسلام وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقتد عقل العربي وبلقى عليه سجون فوق سجون والعربي
كان قد أدرك حالا ثارا فيه جدته ، واشتهت نصيرته ، فبات نواجا إلى اقتباس العلوم واجتماع ثمراتها والتبسط
في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتسكين على حسيث مقتضياتها والخروج بها عما ألفه أزمانا في غياي
الصحراء وكشباتها ، لهذا لما نشر العرب فتوحهم ، ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم
على التمتع بالتمع المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم
والآداب وآراء الحضارات القديمة ، فنشأ عن جميع هذا الجهد والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام
فأضاءت العقول وازدهرت ازدهارا كان نفع الحضارة العربية ، وبواسطة قلاذتها ، وحرية تاجها ، وكان ربح
من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشمس ، يانة النصار ، وروعة الظلال ، فسادت الحرية العقلية ،
وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والاصول واستقبطت الأحكام ، بيد أن هذا لم يكن
من صنع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير من كانوا متغلبين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس
الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي يذوقون الأملين ويسامرون سيفا شديدا في سبيل آرائهم
ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصارى البرنطية والجوسية الفارسية . على أنه كان لهذا العصر
الزاهر حد وقف عنده ، ثم عرا شمس كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فبا برحت تستقوى
وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها ، ثم أثلثت تسوق بسيادة عمدة ، وانقضت الأيام
التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العلوم بالمعتزلة مستمكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذهابة
إلى أن العقل إنما هو مقياس كل شيء ، وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل
والسنة إنما هما مقياس كل شيء ، وأخذ من على هذا المذهب وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في
الاسلام وكانت أمزجتهم مبرحت مشربة بروح دينهم البرنطي القديم يفسرون القرآن التكريم ويؤولونه ثم
يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا في ذلك إغالا بعيدا
فتشج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصارى في الأجيال المنطمة من تلبس الدين عقائد
غير عقائده ، ونسب الآراء الدينية الجافة إليه وهو براء منها ، فلا غرو إذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال

عهد بنين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاموا عليها وبين الذين جعلوا النقل نفسه عقيدة لكل شيء ، واذ قد انتهى الحال بالاسلام إلى مثل هذا الفلجية الأخيرة إنما بات متوقعة رهي غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل ، وفي الواقع فإن تاريخ السنة والتقاليد في كل بلد من بلاد الشرق إنما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤمة ، كانت قد تبلدت في سماء الشرق سحب سوداء قائمة ، فلما أشرفت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء محقة من الزمن عن قننها وبتدتها ، وكيف لا تضيء تلك السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادتها القباوة والفتائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه ، وبما ساعد على ذلك استعانة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة إلى الاستئثار بالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة وجاوز أفاقها بعيدا أخذت آثار ذلك تبدد جليلة في موضع موضع والاستبداد بطابعه هو عدو الحرية وقائلها أينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل ، وكان بعض الخلفاء من بني أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون إليها ، ولم يكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجفأوا منها أيما اجفأوا وأضروا لها انقضاء عليها ، فالمعتزلة حقاً لم تنصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع مقبرتها منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للإمامة انتخباً ولا يرثها وراثته وهو منقاد لرأي الأمة ، ونازل على حكمها وشوراها ، وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء وينادون عنه وينادون بتوسيع نطاقه غير مهترفين بسلطة الخليفة ، ولما بالين مهية أمير المؤمنين ، وذاعبين في السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه ، فنشأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستندون أتباع الفرق المحافظة ويقرّبونهم منهم ويعتصمون بهم ويقصرون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها التكبر ويستعصمون بالمشايخين لهم من العرب الهجاء ويستنون بهم أزهرهم ، مؤثرينهم على العرب الصرخاء من شبه الجزيرة ، حتى باقت الحكومات في الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة فوسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا انقيلاً وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى أمتحت كل معالم الحضارة العربية وقوّضت أركانها ، وجفت كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع ، وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وجمع العقل الاسلامي هيجته الطويلة ، وبازال هرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته السكبري مذهباً .

في أوائل القرن الحادي عشر م تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً ، وبعد أن اختفت الروح العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجاء يرون ملكهم السياسي يذهب من أيديهم إلى أيدي غيرهم من السخلاء ، وكان هؤلاء السخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك ، والترك هم العرق الغربي من الجبل الطوراني ، جيل القبائل الرحالة التي كانت عند عهد لا يعرف أوله تجوب انجاد أواسط آسيا وشرقها ، ولما كان العرب يفتحون فارس تحاكت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يهوجون المفاز محاولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وبهم في إبان سلطانهم يخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ما كانوا يرهبوا الترك أو يهجموا لهم حساباً ، بل رأوا في الترك نفعا لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحبسون شيئاً أكثر من طاعة أمرهم والقتال كالجائنين ، فلهم ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر ، بل أخذوا يستأجرون منهم جنوداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والحدود عن دمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا يرهبوا الترك في أول الأُسُر ، ولكن لما وهن عظم الحضارة وذهبت ريحتها تحولت الحال فالت غدير مال ، إذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ولا سيما في الجيش العربي ، فأنشأوا يتصرفون تصرف السيد الأسي والحاكم المطاع ، ففتحو أبواب الترحوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيدا لأبناء جندهم ، فأخذ هؤلاء يتدقرون كاللج وعلى رموس طوائفهم قواد أسراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أمرا أنى شاءوا ، ويقسمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجسون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعا على الدخول في الاسلام أيضا . بيد أن الاسلام لم يدمع من جفائهم ، ولم يقوم من أودهم كثيرا ، ومتى ما جثنا فاعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى ، فان الترك العثمانيين اليوم إنما يجري في عروقهم دم مزيج بعضه أوروبي وبعضه الآخر اسيوي غربي ، ويخالط مزاجهم عنصر غربي وعنصر شرقي عربي ، فهم والحالة هذه يختلفون اختلافا كبيرا ، تمهيدا وخلقا ، عن آبائهم وأجدادهم الأولين وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التي تميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربي آسية ، فتكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ترى ؟ إنما كان في المقام الأول جنديا مجرما ، ومقاتلا بأسلا ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكرواقب ، وعقل مبتكر بل كان فيه شيء من حسب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال فحسب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربي المضعف الواهن العظم .

حقا مادهي الاسلام وسائر العالم معا مثل هذه الساهية ، وما نزل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقي مستطابا في ظل دولتها ، فبات ضرابا من ضرور المستحيل . أجل : لا ينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية كبيرة جديدة ، ولكن قد ساء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائيات هائلة ، وجرحته جروحا كبيرة ، فبات نزيفا ينقهقر سريعا ، وأول عمل قام به الترك الزاحفون هوا كبت ساحهم آسية الصغرى واستيلائهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادي عشر م . غير أن جانبا من آسية الصغرى ما برح حتى اليوم قسما من العالم النصراني ، ولما أخذ سيل الفتح العربي يتدفق في القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فإيزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك إذ استجمعت الأمبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربي عند حد عند تلك الجبال على عناء وتعب شديدين ، أما الآن فاجتاز الترك الحدود البيزنطية ودوخوا آسية الصغرى تدويحا ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهي الحصن الشرقي الحريز للنصرانية ، وكان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربي (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرمي حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلاضيقوا على النصراني ، ولانالوا بمساة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من أفاف العالم النصراني . بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ويمتهنون حرمة النصراني ويحولون دون الحج فبات مستحيلا .

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معا إنما نزل نزول الصاعقة على النصرانية فقامت لهذا الخطب وفهدت ، وطفقت أوروبا تميد من أقصاها إلى أقصاها مشتغلة بغضا دينيا ومحتدمة غضبا وحنقا ،

وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا دنيئة ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح حتى جنّ الغرب النصراني جنونه الكبير، والتهبت الفيرة الدينية في كل جوارحه وعروق من عروقه، وغشى التعصب على أبصاره، فهبّ يبعث البعوث الصليبية، والمجافل الجرارة ذرا كالقتال الشرق الاسلامي في سبيل الصليب.

فداهية الترك ونازلة الحروب المقدسة الصليبية كانتا شمرّ طعنة طعن بها صدر العالم وسببا دائما في سوء العلاقات بين الشرق والغرب. ففي سنة ١٠٠٥ م كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبثاً بالكف عن العداء ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير، وكانت الأحقاد التي ثارت على أثر تدفق الاسلام على حال التلاشي والاضمحلال، وظهر عهدئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقرّ فليس أي الفريقين يطمع بعهد في الخروج على الآخر، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الأندلس، حيث كان هناك مصطلم الاسلام والنصرانية المصطلم الأخير، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تصدّ صدّاً فاصلاً بين العالمين، وعلى الجلة فمهد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متعجلية واضحة، وناحية منحي جيداً، فلو قدر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم إلى أخيه لسكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية، فالعالم الاسلامي كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقاً لأوروبا الغربية سبقاً بعيداً، وفائقاً عليها علماً وتهذيباً. بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ السكند والسكف يبدوان عليها في الحين الذي طفقت فيه نفس الغرب النصراني تبحش ونهمته تشتد للآفلات من ربق جهله، والخروج من ظلمته وبربريته، فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذي كان يرجى من الودّ الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشر م، بين الشرق والغرب فيما لوقض له الحق أمداً بعيداً؟ بل ترى أي نفع كان أجلّ من تقارض العالمين ببعضهما البعض العون واقتسام السمراء والضراء؟

أجل: لو كان ذلك لسكان به نجاة كبيرة ولسكانت الحضارة العربية الاندلسية وفيها علوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتها من مرقدتها قبل استيقاظها بعهد طويل، ولسكانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة هبت فتناولات الشرق وتغلغلّت في أحشائه متغلغلها في الغرب، فنجحت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداجي الذي طال عهده.

غير انه ما كان ذلك ليكون فقد اغتفى الهربي الدمث الخلق، اللين العريكة، وجاء من بعده التركي المتعصب الحشن القاسي، فهاد الاسلام يشب ويحتاج، واسكن شستان بين احتياجاته الأول بالأمس واحتياجاته اليوم، أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا، وأما اليوم فما يحرك الترك إنما هو روح الطمع والفتك وحافر الاستيلاء والغصب، ومن ذلك الحين بدأ الهراك يشدّ، وناره تنقد بين الدولة التركية والحضارة الغربية التي كان نشوءها صرّجوا لها عهدئذ، ودام هذا الهراك قروناً، وما كانت الحروب الصليبية سوى ردّ الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٢٨٣ م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداء، واستحكمت الشئنة، واستقرّ التعصب بين الاسلام والنصرانية مما مابرحت جرائحه حية، وسموم نماره نامية حتى الآن، وهذا النضال الذي تتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتله الوطنيين وبين اليونان في آسية الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية، حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأنجادها.

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبين في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصاراة إيعا
ما يجب حفظه في البال أن تلك الحروب ظلمت إلى اليوم عداء منبعا وعلّة دائمة بين الشرق والغرب .
أما الشرق الإسلامي فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بحضارته الغربية وحنا عنقه للنير التركي الثقيل أن
يلاقى فوق ذلك أهوالا أشد وأفدح ، منهالة عليه كغيرها من الجبل الطوراني ، ففي أواخر القرن الثاني عشر
هبت العروق الشرقية من الجبل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضا ، مكونة وحدة دامت مدة ،
وعلى رأسها زعيم بجارتات هو « جنكيزخان » . اتخذ هذا الطاغية (الطاغية الذي لا يهاب) لئلا به وطفق
يزحف ناهبا العالم نهبا ، فأكتسح في أول أسبوعه الصين الشمالية وأزل بها هولا شديدا ، ثم اتجه غربا زاحفا
مدمرا ، وناهبا محرقا ، فرأى العالم من بلائه ما لم ير مثله من مات قبله ، وهذا هو النهوض الذي نهض المغول
في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم إذا ما جرى على الألسنة وحدث له القلوب واقترعت منه
الأبدان ، زحف جنكيزخان بكثائب من الجند لا تحصى ، مستعصبا مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود
في تخريب المدن والحصون ، فسكان وقرى سلا جافا ، ونارا آكلة ، وأعظم بلاء حمل بالبشرية ، لم تكن
غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى ولا الغنم ولا الاستلاب لحطب ، بل هراقة السماء ، وتعذيب الأرواح ،
ودرس البلاد وملاشاة العمران ، فذبخوا الشعوب تذيبها ، ودكوا المدن دكا ، بحيث لم تنج بلاد حسلت فيها
المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات « جنكيزخان » بعد بضع سنوات من زعمته هذا فقام خلفاؤه من بعده واتجهوا منهجه في الزحف
وإعصم النازلة ، فالمغول حقا طعنوا الإسلام والنصرانية معا طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطار شرق أوروبا مثل
ماحق بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسيا ما برحت شاعرة على بربرية المغول
وهمجيتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الإسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على
روسيا لم يجاوزوا تخوم بولندا قط فنجحت بذلك أوروبا الغربية ، لكن ما أريد لأوروبا الغربية من النجاة
لم يرد مثله لجاناب من العالم الإسلامي ، إن العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقي في آسيا استطاعت أن
تطبق العالم طرا من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارقة كل شيء في سبيلها ، وقد كانت فارس وهي إذ ذاك
ما برحت منهب الكفائب التركية تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماسقة ،
فتلاشت قوة فارس واضعضع كيائها أيما تضعضع ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليحيطوا ببغداد مدينة الحضارة
والتهذيب نصيبها من الهول ، وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزّها ومجدها ، فدوت نضارتها
من بعد هرون الرشيد ، وتنسكر الدهور لذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد على كل هذا كانت ما برحت
مدينة عظيمة من أمتهات المدن الكبرى ، فيها كرسى الخلافة ، ومركز الحضارة العربية ، فانقض عليها المغول
سنة ١٢٥٨ م وأعموا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبخوا أهلها تذيبها وكادوا يحسونها محوا من على
وجه الأرض ، على أن هذا لم يكن جميع البلاء ، كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت ما برحت في العراق
سدود الري العجيبة من فجر التاريخ تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقى البلاد من مهاجمة أعاصير
الصحراء ، فكانت العراق على السواحل وفيها هذه السدود الكبرى حجة الأرض دهرى العالم ، وقد تعاقب
الفتاحون الكثر في البلاد دورا بعد دور ، وعصرا بعد عصر ، فسكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه
السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعتها وخيرها للبلايا ، فلما غشى المغول
العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقوينا بحيث لم يبقوا منها حجرا على آخر ، ففقت أقدم حضارة عرفها
العالم ، وخرّب مهد التهذيب البشري ، ومحيت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة
على الأقل ، وغوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم ، وبانت سر تديرة حلة من الجفاف المحرق ومنشأ

لأوبئة الجحش المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراها الخنيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابها رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضا كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب ، فالنازلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولاسيما في الشرق ، وكانت هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المغول بضربة أخرى في الغرب وهي نازلة الأندلس العربية ، وعوض ذلك أن الاسلام بعد انتشاره في جميع افريقية الشمالية جاز البحر وطبق اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، غفقت فيها أعلامه ، وأشرقت شمسوه ، وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهارا كاد لا يرى مثله في أي قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، وفيها كرسى الخلافة العربية ، فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغا كبيرا ، حتى ابلها كانت تفوق بغداد عينا رقيما وحضارة ، وقد عاش ملك العرب في الأندلس قرونا عديدة ملكا زاهرا آمنا والعرب حاصرون للنصارى في السكور الجبلية الشمالية من البلاد ، فلما بدأ سلطان العرب يذهب وبني وقوتهم تنهت أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوبا مستردين منهم البلاد كورة فسكورة ، وكانت معركة (لانا فادي طولوزة) سنة ١٢١٣ م فضدت فيها شوكة العرب ، وفنت في عضدهم فتنا كبيرا ، ثم من بعد ذلك صارت تنوال انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانيا المنتهسين ، فبادر هؤلاء إلى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق ، فذهبت الأندلس من أيدي المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذي كان زاهرا سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة التي بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشف كولبوس اماركة ، ثم بعد ذلك طردوا منها ، فاخفت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب .

وكان الشرق الاسلامي مازال يشقى وتوالي عليه فجاج المغول وأهوالهم ، وأمامنا الآن آخر ذاهية من داهيمهم ، وهي زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر ، ففي هذا العهد كان المغول الاول الغربيون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم ، واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان في تضييع الخلائق وتدمير البلاد ، فلما كانت نفسه تقتبط بشيء اغتياطها بمنظر الازهرام من حجاجم البشر ، وأي هرم أكبر من ذلك الذي شيده تيمورلنك من سبعين ألف جعجعة بعد تخريبه مدينة أصبهان في بلاد فارس وانقضى عهد المغول الطوائف في الشرق الاسلامي ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية الجديدة التي جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية ، وغالب الفضل في تشييد الجند الذي شيده ، وعزتهم الذي بنوه ، إنما هو عائد إلى العديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طوقت فتوحاتهم تمتد شرقا وغربا ، وفي سنة ١٤٥٣ م ذلك الترك صرح الأمبراطورية البيزنطية دكا ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى صراكش ، ودونخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها ، وتغلغلو في أحشاء هنغاريا حتى بلغوا أسوار (فيينا) واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم ، فبنوا ملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية ، وذلك إنما كان لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يعرفوا في شيء براعهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدها قوة وبأسا ومراسا ، ولما كانوا في إبان مجدهم وساطتهم كانت خيالتهم ورجالهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدتها العالم ، فأرهبوا بها أوروبا رعبا شديدا ، وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تسقيظ وتسير سير انتقام الصحح وتفتي حضارة متدرجة مدارج الرقي والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية كان الغرب

النصراني يشعل مصابيح النهضة ، ويهدد أسباب استكشاف امركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ، وما يزيد خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولمبوس وفاسكادي غاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى وهي إذ ذاك في أكرم يوم من أيام نضالها وجلاذها مع البربرية الطورانية ، كانت روسيا تمزقها سنابل خيول التتار والمغول وكان الترك وهم ثمانون بشوكتهم الحربية ، يغيرون مستعمرين من الجنوب الشرقي ، مهددين قلب أوروبا شر تهديد ، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمال أفريقيا وشرقي أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في الهند تستقبل حكم القضاء النازل إياها وأما عليها ، وعلى الجلة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أشد منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم (سورالوقيانوس) فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الالوقيانوس ، وشرعوا يخرون عبابه في تلك الليلة الظلماء ، والفترة العصيبة من الأجيال الوسطى ، لاجرم ، كانت أوروبا في تلك الحقبة إنما تدود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس ، وترد عنها غاشية البربرية الآسيوية ، وماهي إلا ليلة ونحناها فاذا بليل الخطر الآسيوي وقد انجلي ، وبالأوقيانوس بات طريقا آمنة ، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار صارت تستهزئ بجبابرة آسيا وعتاتها ، وكانت من قبل يروح ترى النصر عليهم أبعد منلا من الجوزاء ثم أخذت مراردا الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار ، فأنقد نشاط القارة واشتعلت قوتها ، ولايجب من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن اباكر بلدان ، فأخذت تستورد منها خيرات لا تقاد لها ، غذاء طيبا لحياتها وصناعاتها ، فبات والشرق شتان ماهما ، فأى موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المهشم إزاء امركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دب الحياة ديبها الهائل في الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدتها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيا ، وقابضة على طلسم العالم ، جادة نحو العصور الحديثة .

وعلى كل هذا فقد ظل الشرق الاسلامي جامدا ساكنا ، ملتقا بخلقان الحضارة العربية التي طال على خوائها الأمد ، ومتسكها في ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعفت قوته الحربية وبلغت حد انتلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستفرقوا في انحطاطهم فصاروا لا يستطيعون مجاراة أوروبا اختراعا وارتقاء ، ولاتحسين فن من فنون القتال ، وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضا قتالا عنيفا ، فلم يستطع الجلة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علوا كبيرا ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار فينا سنة ١٦٨٣ م فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك انما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذت العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل ، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية الكثرة بعد الأخرى ، منتاشا منها ما استطاع ، ولولم تورث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضا فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة لمزقت الأمبراطورية العثمانية شرا ممزق منذ عهد عهده .

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ حتى كان القرن التاسع عشر ، فتامل في مهجعه مستقلا وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي وتخضع لها الأقطار في شرقي أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامي ومعظمه من مراكز حتى

أواسط آسيا فقد ترك شأنه ، فما كان ليته قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظلّ مستغرقاً في هيجته مستهزئاً بكفرة أوروبا ، راضياً بما أن شقاء إنمائها عيشة من الله ، لا يقيم لرقّ أوروبا وزناً ، ولا يحسب استنباطاتها حساباً ، هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فإذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وبجباب الاختراع ، وبين يديها الفاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلا من قبل ، فسكان النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تقضى الشرق الاسلامي أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر في أيدي الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس وبسات سلطانها على أواسط آسيا ، وفتحت فرنسا شمالي أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الفتيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فسكانت شاهداً على آخر دور من أدوار إذلال الشرق الغرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العائمة أوزارها قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامي ، ولكن على القرطاس !

أجل ، تمّ ذلك على القرطاس فحسب ، والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر اسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلا من قبل ، كان الشرق الاسلامي طيلة هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنقه للغرب تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً حتى آن الأوان فانفجرت البركان فسكان منفجرة هائلة .

وهذا الماد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى قد غالى في إيلاام الشرق مغالاة شديدة ، فتجرك الشرق الجامد الساكن أخيراً ، ودار الشرق الاسلامي حول نفسه ، فرأى تهامة حاله وما هو حالّ بساحته ، فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه ثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهبّ الـ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ من أتباع النبي محمد من صراكش حتى الصين . ومن تركستان حتى السكونفو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها قذح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ثم أخذ الثمر يرتطير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي ، إذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر وهي دعوة الإصلاح الاسلامي ، ثم كان من أمرها أن ترقّت واتسعت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالي بالجامعة الاسلامية ، ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات في العالم الاسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبثقة عنه فحسب ، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبتث في الشرق الاسلامي روح الاساقية والثوران : من ذلك عقائد الحكومة النيابية والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك حقوق المرأة ، والاشتركية والبلشفية .

فتوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضيق الأوروبي الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حد يزيدان في هيجانه فيسهلان فيه روح الحركة والعمل ، إن الحرب الكونية العظمى قد أتت بجباب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام عييداً ويضطرب ويتمخض تمخضاً شديداً ، متقللاً من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم اسلامي حديث ، ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجديد اللذين سترى ثمارهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . انتهى ما أردته من كتاب «حاضر

العالم الاسلامي» وبهذا تم الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في قوله تعالى : « رجاء بينهم » أيضا

اعلم أن الرجاء بين الأمم الاسلامية اليوم قد تجأت بأجلى مظاهرها ، ولكننا نحن في ديارنا لا نقدر أن نصفها ، ولكن القادر على وصفها رجس قد أعطى صفتين : أولا التفرغ للاطلاع . ثانيا عدم التحيز ، وهاتان الصفتان قد ثبتتا في صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ولأنقل لك من الجزء الثاني من كتابه فصولا :

الفصل الأول

في أن انكلترا وفرنسا كانتا جاهلتين حال تركيا والعالم الاسلامي إبان الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة فتركتهما . وهذا نص ما جاء في الكتاب المذكور :

« جرت الاثارة في تركيا بحاريتها التي سبق لنتي رئيس الوزارة الإيطالية فتغلبت عليها ، فأكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مسافية ، ففعل السلطان ذلك ، فشجعت الوزارة حركة « مصطفى كمال » ورجاله العصاة ، وأوفدت وفدا اختير أعضاؤه اختيارا إلى مؤتمر « سان ريمو » في فرنسا حيث وقعوا بالرضا والتسليم المعاهدة التي أعدتها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك « تأييد صراهم » على قصاصات الورق لا غير ، وما كان ذلك الأمر الغريب ! لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها إنما هي ضرب من الخبل والجنون وأن كل فرد من أفراد الحكومة « المسافية » من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو إلا كهمطي كمال يتلهب غيرة ووطنية ، وأن المعاهدة التركية الحقيقية إنما باتت أنقره لا القسطنطينية ، وأن قوة الحلفاء لا تتجاوز في الواقع غاية صراحي مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر (معاهدة صالح تلك) : « اني مستعد لقتال العالم بأسره مشرقا ومغربا ، فباتت الحلفاء في مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لا غير ، أما ايطاليا فلم تشترك في إلقاء دولها في السلاء ، بل فعلت كما قال (نيق) : ولم ترسل جنديا واحدا ولم تدفع ليرة واحدة » لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجنود الكافية لسحق مصطفى كمال في الحين الذي تسكبدان فيه نفقة مائتي ألف جندي (٢٠٠.٠٠٠) لتسكين الحال في الأقطار العربية الهائجة وغيرها ، وما كان سحق القوة السكالية بالأمر السهل ، إذ قدر أركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك (٣٠٠.٠٠٠) مقاتل تام العدة ، على أنه قد بقي في أيدي الحلفاء سلاح آخر هو اليونان ، فتقدم فنزيلاوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسيا الصغرى ، فقبل ذلك منه ، وبعد حين نزل جيش يوناني إلى برز أزمير عدده (١٠٠.٠٠٠) مقاتل ، غير أن هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل إذ أن المائة ألف مقاتل هلى كثيرتها كانت أشبه بالغشاء ، واجتنب مصطفى كمال الاشتباك في معارك فاصلة ولكنه نابرع على مضايقتهم ، وإيقاع الحيف بهم ، بالحرب غير النظامية كما كان شأنه مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان ، فتوغل اليونانيون في البلاد توغلا فاحشا ، وتورطوا تورطاً شديدا ، كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا واشكالا ، وعلى ماظهر أن فنزيلاوس ظل يبتغي نزال الترك والمضى معهم في الحرب ، وذلك بصفة كونه المتدب الثاني من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليوناني أبقى عليه ذلك لأن اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميسدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشد النهك ، فرأوا الاستراحة ولو قليلا ، فلما كانت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) أسقطوا فنزيلاوس

بنحو ٩٩٠٠٠٠ صوت إزاء ١٠٠٠٠٠ صوت ، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذي كان الحلفاء قد دخلوه منذ ثلاث سنوات ليعود فينبوا العرش ، فكانت النتيجة الصافية أن اليونان باتت كإيطاليا خارجة عن أرباب الصفة ، أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه . فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضا لذلك الموقف الذي رفقوه في عهد فنريوس ، وعلى الجبهة فان الحلفاء باءوا بالخسران ، فردّ كيدهم في نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التي حسبوها من الهبات الهيئات .

في ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوّته وسلطته في آسيا الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج ، ففي المقام الأول كان يفتش علاقات وثيقة مع العرب الأصمى الذي قد يبدو لأوّل وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوّان بعضهم لبعض ينقلب من العداوة المرة إلى الصداقة الخولة ، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب ألبتة ، لأن السياسة الفرنسية البريطانية هي التي قد خلقت هذه الأعجوبة ، وأنت بهذه الحارقة ، والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلا لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » - حقّ الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية في بيان نشره في الصحف البريطانية : « إن العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العامة ، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فسادا شديدا ، بل أنهم ابتغوا نيل الحرية ، وراموا إدراك الاستقلال فلم يخوضوا المهمة السكي يستبدلوا سادة بسادة كأن يخوضوا لبريطانيا أو فرنسا . كلا . بل السكي ينشئوا لهم دولة عربية ، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية في قالب أبين عن القصد ، وأفصح عن الغرض ، وذلك في مقال نشره في صحيفة فرنسية راديكالية جاء فيه ما يأتي .

« ينبغي لفرنسا وبريطانيا أن تعلمتا علم اليقين أن العرب إنما هم للترك اخوان في الدين توحدوا وياهم توحدوا سياسيا قرونا عديدة بحيث هم لا يرغبون ألبتة في الانشقاق عن أخوانهم المؤمنين ، وشركائهم المسلمين ، الذين هم وياهم كانوا في الحروب الحالية يقاتلون العدو جنبا لجنب وصفا إلى صف انشقاقا ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم ليدولة أوروبية مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تتقلده هذه الدولة فلذلك أيّ جدوى ياترى من القول الذي يقوله المسيو ميلران : لم يدر في خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية ، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التويه وأخذنه بمثل هذا الخداع ان الهدنة وقعت على حسب الشروط والمبادئ التي أعلنها الرئيس ولسن ، ولكن لما تضعفت ألمانيا وتضعفت أحلافها معها ديت شروط الهدنة وعهودها كما ديت الأربع عشرة مادة بالأقدام ، على أن النكث الذي أصاب اليهود المقطوعة للعرب قطعاً جزماً لازماً في منحهم الاستقلال التام ، تلك اليهود المكررة المؤكدة عشرات من المرات قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الإخاء بحيث لم تمض إلا أشهر معدودات حتى تمّ ذلك بين الأمتين ، فلم تستطع فرنسا بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠٠ ألف جندي في سورية ، وتسكبه اتفاق البسلايين من الفرنسيات أن تخضع عرب سورية إلى ميقات ، بيد أن ذلك ليس جميع مافي الأمر ، ولا الضامن لسلامة العقبي ، فحدود سورية ترامية إلى ما يليها من البلاد التي قطينها عرب وكرد وترك ، وممتدة إلى الصحراء الكبيرة ، فإذا ما شرعت فرنسا في قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء حسب بل يناول قتال عدوّ عدده أكثر من ١٥٠٠٠٠٠ مليون عربي منتشرين في جميع الأقطار الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة الشكيمة ، الصلبة القناة ، هذا ماعدا الأمم الاسلامية الأخرى المجتمعة معهم في الوحدة المتراسة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك إنما هو ارهاق الحلفاء وتوالي ضرباتهم الساحقة على غير رجعة ، فان قال قائل : إن في هذا غلوا فما عليه إلا أن يواقع الحقائق الواقعة ويراهها عن كذب مستبصر مستقصيا ، ولكن

أهمى أى نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى الدماء فى الأقطار العربية أنهارا وغدراناً .
وفى الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركى العربى مشهودة جليلة فى مواضع عديدة ، غير أن هذا الوفاق
المقاضى بمعاونة هؤلاء هؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أزل
من عرشه ، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى إيطاليا حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا
فقد اصطفت العرب مع الترك جنباً إلى جنب فى كيليكية وقاقلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك
والكرد مع العرب السوريين فى إبعاد الفتن السورية التى ظلت تشب فى موضع موضع ، وأما ما كان لمصطفى
كمال من اليد فى إشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً ينفى عن البيان . انتهى

الفصل الثانى فيما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها

من أن الاسلام دين الحرية ، وأن المسلمين أول الأمم فى الحرية من أى صنف كانوا
قال الحجة الثقة أرمينيوس فامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى
وديموقراطية ، الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء ، فان كان العالم قد
شهد حقاً منذ أول عهد العمران البشرى إلى اليوم حكومة شورى دستورية فهى أهمى حكومة الخلفاء
الراشدين » اهـ

وقال محقق انكليزى كبير خبر فى شؤون الشرق الأدنى : « إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو
الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فاهرب فيها أبداً سادة ، حريتهم
يتردون عن سياجها بشفارس وفهم ، وهج أكبدهم ، وشبه الجزيرة هومنت الحرية ، فلا تعيش فيها نبتة
الاستبداد » انتهى

وقال العلامة ليبار فى شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على
استعداد لنجى الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة ، إنما ذلك وهم شديد ، فقد كان لتركيا صران سابق
على الحياة الدستورية وكانت توافقة إلى إنشاء الحكومة النيابية ، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك .
أجل ثم أجل ، إن النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركيا إنما هى أفضل أسس يشيد عليها الحكم
النيابى ، كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته ، وقد جرى العلماء
المسلمون وهم أقطاب الدين ، وقادة الشريع الشريفة على هذا النهج ، وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون
ويسنئون بعضهم بعضاً فى شؤون مصالح المسلمين ، فالشرعية الاسلامية هى ديموقراطية وشورى بطبائعها
وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد ، وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذن أن تمكن الشعوب
الاسلامية كافة حتى أبعدها إغراقاً فى التبدل من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابى » .

ثم بين العلامة ليبار فى موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان
الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة
لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة وامداده بالمشورة الحكيمة ، وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلاً حتى أنشئ
فى العهد الأخير مجلسان : الأول يعرف بمجلس الدولة ، والآخر بمجلس الوزراء ، زد على هذا فقد أنشئ
مجلس نواب مرتين : الأولى فى سنة ١٨٧٧ م والأخرى فى ١٨٧٨ م ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا
طويلاً إذ قضى عليهما الاستبداد الجيدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المراتن القانونى والمراس الشرعى
على نظام الدستور والحكم النيابى .

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب أن لا يعتبر إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م

أمرا مستحدا مما لم يسبق له مثيل في بلاد اسلامية ، بل يجب اعتباره من النظام الاسلامي المؤلف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب » انتهى

الفصل الثالث

في أن أوروبا شورية في بلادها مستبدة في غير بلادها
وأهل الشرق والمسلمون لابد فائزون

جاء في كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ما يأتي : « وقد أجاد (ليونل كرتس) الكاتب الانكليزي الذائع الصيت أيما إجادة في جلاء هذا القول وتبسيطه في كلام له في شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهذيب والثمرات والخيرات التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعدادا صحيحا للقيام بأعباء الحكومة النيابية ، بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطرا كبيرا وبلية إيجابية ما لم يقترنا بمنهج الهندو أزمة شؤونهم السياسية وتبعثها شيئا فشيئا ، إن الشعب مهما كان مهذبا راقيا لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حين الخبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لافي حيز النظر والتصور والخيال . قد يقول بعضهم إنى خروج في طلبى الذى بينت فيه أنه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئا فشيئا نقلا صحيحا لا غش فيه من عائق الحكومة البريطانية إلى عائق حكومة الشعب ، وأنه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطالب منهم هذا بحق ، نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية ، وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا عطف الظاهر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات ، وإذا ما أريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي ، وجب أن تكون حرة من كل جانب لا مطلقا من ناحية ومصدقة بالأغلال من ناحية أخرى ، فإن لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعوب بأنها مسؤولة لدى الشعب الذى هو من وراءها ، حتى ولا الشعب يستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن أنه هو المالك لنفسه من ضرر ونفع ، هذا ليجلبه وذلك ليدرأ عنه ، نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يعتنى بمل إرادته حكما ذاتيا لا يتسنى له الوصول إلى غرضه السامى وغايته الكبيرة إلا في الجهاد قائما أبدا ، واجتياز طريق الصعاب التي تسقى عندها الأنفس وتركب الأهوال ، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ، ويعلم ماهيته ، فيطلب منه المزيد ، وكما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه . إنى لأنفر نفرا كبيرا بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام وتبذيره ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكائدها في عمران البلاد ، غير أنى على كل هذا لا أعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتشيناه عليه حتى اليوم يظل صالحا بعد دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع في تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد من بعد ما حملناها على عواقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص . يجب أن يكثر سواد الهند في دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدتهم ، ونزيد حوصلهم ، ونعلى من منزلاتهم ، وذلك لا يتم إلا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التي تنقل إلى نطاقهم نقلا منقادا ، لأن صران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد . لا وصول إلى الغاية التي بينها حديثا وزير الهند إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب في سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا

الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا في الهند بعد البناء الكبير . الانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملتجأ كل الالتئام مع ما هو معروف لنا من التقاليد ، ومابقى أماننا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لآرائنا ولو كان في ذلك بذل لسكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا .

إن كلمات المستركرس الأخيرة يقين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية ، أن الحرب العمة قد ألطبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظن شديد من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شرّ زلزال ، فقدما مقبض أوروبا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال ، وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيرا أم شرا ، فتقلص الظنّ أصرا واقع لا سبر له ولا مدافع ، مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يفقد غالب الدول الإسلامية في الشرقيين : الأدنى والأوسطا متمتعاً بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لا عيب فيه ، أما التساؤل أنسى هذه الشعوب التى ستصبح حرة اغتنام الفرصة فتعود تنشر معائر الاستبداد والفوضى ، أو تصبح حقا عالية الجبينى فى إنشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه فى طريق التقدم والارتقاء ، فذلك أصرا سيكشفه المستقبل ، وإذ قد بينا لغاية الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق تطوّر السياسة ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقفة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين قلبها المستمرّ فى هذا الدور التحول ، وننقل للكلام على العصبية الجنسية .

الفصل الرابع

فى هياج العالم الإسلامى

قال المؤلف المذكور فى صفحة ٨٩ وما بعدها مانصه : « كان العالم الإسلامى (قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر) هاجما هججته التى قد تقدّم الكلام عليها بعيدا من التنبه القومى وثورة العصبية الجنسية ، وكان غالبه منقسما إلى امارات متناثرة ، ولمكنها قومية المراس شديدة الشكيمة ، وأن ما كان فى نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية إنما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التى كان عليها سلاطين الترك العثمانيين ، غير أنه كانت مظاهر العزة القومية ومبادئ الشمم والإباء جلية فى غالب العناصر كالأمة العربية (أمة الرسالة) إذ فى العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان فى الظهور وقوة فى الانفعال والنمو ولسكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيما كافلا لا تتلاف المزاج الذى تعدد به العصبية عاملة فعالة ، أما الشعب الإسلامى الذى كان حقا يمتشى فى عروقه ما ينبغى له اسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة ، فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده ، وعاشق موطنه القديم ، وأما سائر الشعوب الإسلامية فقد كانت على شىء من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية والروح النزاعة إلى الوحدة والنظام ، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والانساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة . على أن فى الأمر اعتبارا آخر ، أن الإسلام قد نهى فى مواضع عديدة عن العصبية ، فلما انتهت الشعوب الإسلامية إلى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الإسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لا فرق بين عربهم وبين عجمهم ، وأنصح الغاية السياسية المقصودة فى الإسلام من وحدته الامامة الكبرى ، أو الشورى الشرعية العامة أصرا مقاوما بطبيعة الدور والزمن بسبب إنشاء القوميات المستقلة والعصبية المتميزة فى الملة الإسلامية كما كانت الحال فى مبدأ عصر النهضة فى أوروبا إذ كانت النهضة القومية فى مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداما عنيفا بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية والمملكة الرومانية المقدسة . »

وقال أيضا في صفحة ١٣١ وما بعدها من الجزء الثاني مانصه : « غدت الحياة السياسية في أقطار شمال أفريقيا المختلفة العناصر والاصول حياة اضطراب تستر بها الانشقاقات والانقسامات ، وكانت صرا كش ومبارحت أكثر الأقطار الأفريقية الشمالية وحدة والتماسا ، وثباتا في مجموعها السياسي ، مع أن سلطة السلطان النافذة حقّ النفاذ لم تمتد قط يوما إلى الجبال التي دنطها القبائل المختلفة ، وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية تمتد على طول السواحل ، وأما البلاد الوراثة فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام ، على هذه البلاد المتبدلة طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غاصرا الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم ، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سكينه ، وكل منها نظاما ونجحا ماديا ، غير أن هذه المنافع والفوائد التي أتت بها السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الأفريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل في الاجماع على شناعة افتاح الأوروبي ، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون إليه وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بمزل عن السيادة الأجنبية بنة ، لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس الفتاة » وفيهما الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتي والحرية . أما النتيجة التي تتجهه هذه الأقوام في نهضتها فهو بغايتة أميل إلى إنشاء الوحدة الأفريقية الشمالية الكبرى ثم إلى الجامعة الإسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا منه إلى إنشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الإسلامية ، ولا يعزبن عن البال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنما هي على صلات شديدة وروابط متوافقة توائفا كبيرا مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الإسلامية . »

معجزة جديدة لم تعرف من قبل

مقالا بديها يظهر لنا بوضوح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »
 ويفهمنا حقا معنى : « رجاء بينهم » والحق يقال ان هذه أجل معجزة اسلامية ،
 قالو بل لأوروبا اذا جهلت هذا

قال أيضا في صفحة ١٥٠ وما بعدها مانصه : « مما لا ريب فيه أن الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هاجا شديدا ، وبشت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مسئلة في الحجاز ، مدلية بحقوق لها في سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الطياح والاضطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك ، وثار تطاب الاستقلال ، متطلعة نحو إسقاط السيادة الأجنبية ومحوها محو تاما ، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والاباطالية المنتشرة في مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الأقطار العربية ، وقد استغرق الطياح هذه البلدان جميعها استغراقا جعل تلك العاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وإن كانت لم تبرح عاملا شديدا غير ظاهرة كما كانت من قبل في صدر البرامح التي في أيدي رجال العرب القاميين بالنهضات القومية الوطنية ، اللذين عن عرض العصبية الجنسية العربية . زد على ذلك أن الجامعة العربية مشتبكة التسيج (كما قلنا قبلا) بمبادئ عامين شاملين ، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الإسلامية وجامعة العصبية الجنسية الإسلامية ، ولعل هذا المبدأ الأخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين ، إن الشرق وإن استمسك جهده بمبادئ وأفكارنا في الجنسية والوطنية ، وانتحل ما انتحل من عقائدنا فيها ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد اذا انتقلت إلى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملائي بصنف آخر

من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الإسلامية وتآخى جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التماس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التآلف المختلف إلى سدد غداً عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التي نستعملها نحن مثل « الجندية » و « الجند » ذهبوا في فهم معنيهما مذهبا محظا لمذهبا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التي بيننا وبين الشرقيين ما هو شائع في أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية ، وكذلك مثلاً كلمة « الدولة » فإن الدولة الإسلامية التي يسميها اتخاذها مثلاً لا تارة ليست كاللولة الغربية المشتغل بتحديداتها على وحدة معينة من الناس وأرض يسكنونها مقررّة الحدود وساطان ممارس نافذ تمام النفاذ في كل مكان داخل حدود الدولة ، بل إن الدولة في الشرق الإسلامي إنما هي كناية عن كناية قلت أم كثرت ، غير مستقرّة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبثقة منها انبعاثاً مشتملاً على معنى الاستقلال المهم التعديد ، تعثره آفات الفوضى ويشوبه الاختلال ، ومن المعلوم أن غالب الدول الإسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجتهد في تنظيم حكوماتها ، وإصلاح شؤونها ، وسائر أحوالها ، ناسجة في ذلك على منوال الدول الغربية ، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما في أفغانستان حيث إن القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهي قبائل أفغانية متملكة استقلالاً عملياً صحيحاً ، كانت تقوم من تلقاء نفسها في المدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانكيز ، غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يذمّل من تبعها تنصلاً انقطع عنده دهاء الانكيز ، والأمر كذلك في الجندية عند المسلمين ليست الولادة في البلاد ، ولا التعديس على الأصول الرسمية شرطاً لمن يريد أن يكون فرداً من أفراد الأمة الإسلامية في قطر من الأقطار متمتعاً بحق التمتع بحقوق الجندية الإسلامية ، فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، لذلك يستطيع الهاياطية بلاداً إسلامية أن ينال للعدل أي وقت شاء حقوق الوطنى المكرّم ذى المقام والمنزلة بين ظهراني القوم ، فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلاً لا تعنى ذلك المعنى بعينه الذى تصوّره نحن في الجارى المعتاد ، فإذا ما أقام مسلم جزائريّ أو دمشقيّ في القاهرة فلمس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره « مصرياً وطنياً حراً » بصحيح المعنى والعبارة ، والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية ، جميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الإسلام » (وضدها دار الحرب) وهى المواطن التي قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة النب عن سياجها والذيد عن حياضها ، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كما أصاب اعتداء أجنبيّ طرفاً من العالم الإسلامي هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك كأنما المعمور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء ، ترانا بعد جميع ما تقدّم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين من المسلمين .

وقال في صفحة ١٥٤ وما بعدها مانعه : « ولعمري الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق وقد ارتوت نفوس شعوبه وأمه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب السكونية أعظم هياج فسيرتها نارا ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التي زلت عليه ويلا عيها وبلاء شاملاً ، مرجلاً شديداً الفليان قوّاراً ، وبركاناً ثائراً : من المعلوم البين أنه قد كان من المستطاع عقد مصالحت سليمة من النقائص والمشائين ، وذلك بالجرى على السياسة العنصرية الشريفة المسيحية ، السوية النهج ، لكن مؤتمر فرسايل السلمي كان وبالأسف الشديد متعجّداً عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة في الرأى ، ونظر بالعواقب ، فنجم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شرّ جبوط ، ليس في ضمان السلم لأورويا بحسب بل كان من شأنه إمالة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب

الحقيقي إزاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذي عاد فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت قبل الحرب ، روح التوسع الإمبراطوري والجشع الاستعماري ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، واتباع ما بين أيديها وما خلفها واستنزاف دماؤها ، وشدة الأخفة على ماحول رقباتها ، زد على هذا أن الخلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشد العمة ، غير مهترين شيئا من التطورات النفسانية الهائلة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب فلم يلجئوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، وإلى اتباع نهج سياسي خير من ذلك الذي اتبعوه قبلا ، بل ظلوا على المضي في معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التي أن من فدح عيها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكبوسها هذه السيرة الأرضية ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسيا ما برحت ذلك الجبار المستغرق في هجته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الخلفاء يستهزئون بما كانوا قد اشعروا خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى في تقرير المصير خلال المجمعان الأكبر ، وطفقوا يفشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض منهم في الحين الذي كانوا فيه يصرون بالنياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، إشباعا لشههم الكلي ونهمهم الوحشية ، عتئين شر امتهان إرادة أهالي البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة ، وكان مؤتمر فرساي كشافا عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التي انطوى عليها الخلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التي ألزم جانبها المؤتمر في رفضه قبول وفد إيران الذي أوفدته حكومته لبسط القضية الإيرانية (وإيران كانت ما برحت مستقلة استقلال اسميا ظاهرا) فكان من الأمر أن حل المؤتمر الوفد على البقاء في باريس مدة جعل يعمله خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الخناق على عتق حكومة الشاه في طهران إلى أن أكرهتها إكراها على إبرام اتفاق بانت إيران كلها بمقتضاه بلادا محمية في كنف الإمبراطورية البريطانية ، وأما المصريون (الذين كان دأبهم وديندهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التي أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها في مصر سنة ١٩١٤) فقد أوفدوا إلى باريس وفدا لبسط قضيتهم ، فرفض مؤتمر فرساي الاصاحة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر إنما يعتبر الحماية البريطانية في مصر أمرا قضى وحكما أبرم ، فنجم عن جميع ذلك مائة نتيجة ، من نتائج الحرب وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين : الأدنى والأوسط قد شدت أطناها ، وتوطدت عمدها ، واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

بيان أن فرنسا وانكلترا بعثتا الحمية في نفوس العرب

فأحرق الأممين نار ثورتهم

وقال في صفحة ١٧٣ وما بعدها من الكتاب المذكور مانعه : « من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التي قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المسكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها ، ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم من حيث أن بريطانيا جهدت كبر الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لطيح الآمال الاستقلالية في صدور العرب رائرة العصبية والمطامح القومية في نفوسهم ، فكان ذلك خير وسيلة ، وأنجع ذريعة ، لاستثارة نخوتهم في الثورة فجعلوا يتسارعون إلى مجل الحرب ، وينبهشون إلى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم وأنفذت الحكومة البريطانية إلى العرب عددا من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأميرالاي لورانس الذي

الفتى المودعي النابه الشأن ، الذى ما أسرع ما نال من نفاذ السكامة والساطة على أسراء العرب وزعمائهم مما لا حد له ولا غاية حتى دعى « ربح الثورة العربية » لكن هؤلاء الضباط الأكفاء العارفون بشؤون العرب والمعروفون بميلهم إليهم وعطفهم عليهم ، إنما قدماختياروا ليقوموا بما اتدبروا إليه من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولا اطلعوا على المعاهدات السرية التى عقدت خفية عن العرب ، وكان القصد من ذلك فى الواقع أن لا يعرف هؤلاء المستشرقون فتور ولا انكسار ، ولا يتم وفاؤهم للعرب بينما هم يستثيرونهم همهم ويستوقدونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لا ينفكون عن تزجيسة الوعود للعرب مودعة فى المنشورات والتصريحات التى كانوا يذيعونها آخذا بعضها بقراب بعض ، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركتين معا منشورا أذاعته فى جميع الأقطار العربية جاء فيه ما يأتى : « إن الغاية التى من أجلها خاضت فرنسا وبريطانيا فى معان الحرب فى الشرق ، الحرب التى أثارتهما على العالم المطامع الألمانية هي أن تضمنا لجميع الشعوب التى طال عليها عهد الجور من الترك تحريرهم من الاستعباد تحريرا تاما باقيا ، وأن تنشأ حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب وأرادته المطلقة دون منازع » فلم يلبث أن برح الحلفاء ، وانجلى المستور ، وبان الصبح لدى عيني ، فتبدلت الحال غير الحال ، عند ما وضعت الحرب أوزارها ، ورجعت السيف إلى أغصانها ، وصنق العدوس مزق وانتهت الرواية ، وأرخى الستار ، الستار الذى تباينت حقائق نيابة الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشا جليلا ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ، ووقفوا على بواطن الأمور ، بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتل شاطئ سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف سددوا وسئلوا ، وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هاشجات الثورة فى نفوسهم . ولولا أهل الصحافة والرواية من زعمائهم ، ولا سيما الأمير فيصل بنجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذى برهن حق البرهان على فائق كفايته قيادة الرجال والقتال فى الحروب ، والذى استطاع الآن أن ينزل من بني قومه منزلة لا ينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان لربما انفجر بركان العرب وتطاير من حمله ما ألهب البلاد جميعها ، لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو مركب خشن ، وغاية فى الاستهداف والمخاطرة ولا سيما فى آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حق الإدراك قوة العرب المعنوية والأدبية فى ذلك الموقف الذى كانوا فيه طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوموا فى بسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذى كان على وشك الانعقاد ، فقام بهذا الأمر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب ، والنار تحت الرماد ، والأمير فيصل بسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق يحف بموقفه الوقار ، سكنته لقي خيبة فى المسمى ، إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الرفق والعطف وذلك أن الأقوام المملومة التى كانت من قبل فى الحكم التركى ، وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطيع عنده الاعتراف بكيانها أمما مستقلة استقلال معلما عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتى يوم تصبح فيه هذه الأقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها إذ ذاك على غاربها . ثم فقه العرب معنى الانتداب واكتسبوا ماهيته وسره ، وقد كان من شأن لويد جورج أن يحود ببعض العبارات المنمقة والجل الرائقة مثل قوله : « إن العرب قد ونوا حقا بعهودهم ، وبروا بوعودهم ، لبريطانيا العظمى ، فيجب علينا إذن أن نقابل الاحسان بمثله فنتى بعهودنا ونبر بوعودنا لهم » غير أن العرب كانوا قد قرءوا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحاييل مرة أخرى ، إذ عاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى الخداع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالى علم العرب علما مكينا أنه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة

سواعدهم ، ومساعدتهم ومجاهديهم ، وذلك إما في مجال السياسة ، وإما في مجال الحرب . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

نظرة عامة في هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب الذي حرره رجل عالم أمريكي نظر نظرة عامة في الاسلام : « إن أكثر المسلمين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرهم ، يعيش المسلم غالبا وهو يجهل تركيب أعضائه وجاهاها ونظام العالم المحيط به ويجهل تركيب جسم الأمة الاسلامية التي هو عضو منها وأن كاتب هذه السطور أحد المسلمين الساكنين الذين يجهلون نظام أمم الاسلام ، وما أقيح الجهل وما أفضله ، أفليس من المؤلم أن نجهل ونحن في مصر (المشهورة بالعلم) بلاد الاسلام وما حصل فيها ؟ ثم يأتي رجل نصراني قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها ، ثم أخذ يدرس أمم الاسلام ، وأنا الساعة أنقل عنه ، فكيف نفهم معاشر المسلمين قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، ما هو هذا الظهور ؟ وما معناه ؟ نعم نفهمه الآن بقول رجل بعيد عن الفرض لأنه ليس مسلما ، فإذا يقول ؟ يقول فيما قلناه :

(١) « إن أحد المبشرين الانجليز منذ (٢٠) سنة يقول : إن الدعوة النصرانية باتت خرافة من الخرافات .

(٢) ويقول : إن مبشرا بروتستانتيا يقول : « إن الاسلام يسير في سبيله منذ بدايته إلى اليوم فلم يعثر في سبيله إلا القليل ، وهو لا يمقت المسيحية ، فلذلك فاز فوزا مينا ، النصراني يحامون بفتح أفريقيا في القدم وفتحها المسلمون في العالانية .

(٣) ويقول : « إن نيوزيلانده مبشروها من عرب وتجار ابتدوا ذلك منذ (١٩٠٠ سنة) وبعد عشرين سنة أصبح في كل قرية مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، الانجليز عجزوا عن مقاومتهم .

(٤) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعده بة قليلة : « من الآن يجتاز الاسلام زمباري وينتشر في جنوب أفريقيا طبق القارة بأسرها » .

(٥) ويقول : « الاسلام يهجم على المسيحية كما هجم على الوثنية ، إذ أصبح الذين تنصروا في غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الاسلام ، بل الخبشة أيضا تسلم بعد أن كانت سدا منها »

(٦) « منذ خمسين سنة ما كنت ترى في الأحباش مسلما واحدا ، أما الآن فغالبيتهم مسلمون »

(٧) « ظفر الاسلام اليوم في أفريقيا عظيم » .

(٨) « إن التتار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين ونصروهم هبوا فأرجعوا اخوانهم جيهما للاسلام في القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون .

(٩) ومقال العالم (فريدو) ملخصه أن الحرب العامة لم تصبح ظفرا لأوروبا ، بل صارت ظفرا للشرق وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر ، وأن روسيا التي كانت سبب إذلال فرنسا وانكلترا للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته ، أقول : وملخص هذا كله قوله تعالى هنا : « ليظهره على الدين كله » ، فبينما الاسلام ينتشر في أفريقيا شرقا وغربا إذا آسيا يزول السكابوس الذي كتم أنفاسها فانتعش الاسلام .

(١٠) ويقول : « ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الاسلامية ، ومثاله ما حصل في طرابلس من اجتماع الترك والعرب على مناوأة الطليان .

- (١١) ويقول : « الحرب الباقانية زادت تقارب المسلمين » .
- (١٢) « إن مصطفي كمال بعد أن عرضت الدولة العثمانية غاب أوروبا كلها ، وقل لهم : أنا أحارب العالم كله ففاز ، وهذا نصر للإسلام » .
- (١٣) واتفق العرب والترك سرا ، وحاربا ، في كيليكية ، وإن كانوا لم يظهروا ذلك .
- (١٤) ويقول أرمينوس : « إن الدين الاسلامي هو الدين الفائق سائر أديان العالم شوري وديمقراطية إلى آخره » . أليست هذه الجلة من محبة ثقة عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وهذا عجب يارب ! أعيش في دهر بلادى ، وأجد كشيرا من الطبقة المتعلمة لا يصاون الصلابة المفروضة استقارا للدين بسبب انتشار المبشرين بيننا ، ثم أسمع هذا العلامة في أوروبا يقول : « إن هذا الدين يفوق أديان العالم » أليس أمثال هذا القول وما تقدمه أكبر معجزة للقرآن في هذا الزمان .

- (١٥) ثم يقول أيضا : « إن جزيرة العرب حفظت الاسلام والحرية الخ » .
- (١٦) المختص كلام المستر (كرتس) : « أن أوروبا لن تبقى طويلا في الشرق ، ولا يعضى جيل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الاسلامية متمتعة بالحكم الذاتي » .
- هذه زبدة مستخلصة من هذه المقالات عرضتها عليكم حتى يحضر في عقلك أيها الذكي منظر العالم الاسلامي العجيب ويظهر لي أنك متعجب من هذه الأخبار ! وتراها غريبة عليك كحالي حينما كنت أقرأها ، فذهبا جليلة خالصة ، فأنت الآن تقرأها وأخوانك المسلمون في أقطار الأرض يقرعونها ، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذل لأهم الاسلام ؟ كلا . ثم كلا . أنا أكتب هذا وقد ظهرت لي أهم الاسلام شرقا وغربا كأنهم في خيالي قد ربطتهم رابطة الاخوية العامة كما قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولقد ظهرت الآن ظهورا واضحا .

خطاب المؤلف

أيها المسلمون : أنتم سادة هذه الأرض ، أنتم الظاهرون فيها . أيها المسلمون : أوروبا نحن علمناها وهامى ذه تظهر علمها لنا نفدوه . أيها المسلمون : أنتم رجاء ، واعلموا أن الأمم ستبلغ رشدها ، فكونوا أنتم القدوة ، وانتمروا السلام ، وهل تفسرون السلام وأنتم ضعفاء ؟ ستكونون أقوىاء فتهاكم الأمم لقوتكم ، ونحبكم لرحمتكم . إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرهة الظالمة ، بل كونوا رجة للعالمين .

أيها المسلمون : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » عجب لأهم الاسلام ، ولدين الاسلام ! هذا الدين الذي نزل من السماء نورا مشرقا ، وما كاد يصل إلى الأرض ويسير قليلا حتى امتزج بالظلام ، وأول هذا الظلام الاختلاف والشجار الذي وقع بين عظماء الأمة لأجل الخلافة ، فذشاجر الأمويون والعباسيون والعلويون أمدا طويلا . ثم ذهبت الدولة كأمس الدابر ، وبقى العلم والمكن في الوقت الذي فيه كانت تحتضر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع القاهرة ، فرأينا الحسكة نامت نوما عميقا ، وفي بلاد الأندلس وشمال أفريقيا نفي ابن رشد ، وبات الذي يقرأ الحسكة مذموما مذحورا ، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا وهاموا ذر رجح إلينا ثانيا .

إن المسلمين اليوم أرقى منهم في كل زمان بعد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لا يكونون أرقى من السابقين في ألف السنة الماضية ، وهم اليوم يقبلون كل علم وكل حكمة ، اللهم لك الحمد ، ولك السكر ، ولك النعمة ، أنت المنعم المتفضل ، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير

يا أئمة : نراك جعلت الجوهر الفرد مخلوقاً من القوى المدخزة التي لو أطلقت منه لسفقت العالم كله ، نراك رحمت الفلحة وأعطيها أعيننا تعدد بالثبات ، والذبابة أعيننا تعدد بالألوف ، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الإنسان ونظامها تنظماً بديعاً تقدم بعضه ، وسيأتي قريباً ما هو أجل ، نهل بهذا هذا وبعد ما جاءنا من الأخبار عن أئمة الاسلام يدخل في قلوبنا وهم أرواحك أنك تترك هذه الأمم ، فهل الذي يرمى تلك الحشرة الخفيفة لا يرمى هذه الأمم الكبيرة ؟ إنك ترمى المسلمين ، إن وعدك حق وصدق ، ها هوذا القرآن ظهرت معجزاته ، هاهم أولاء المسلمون متحفزون ، أليس من أعجب العجائب أن يخفى العلم بعد نبي ابن رشد بالأندلس فيظهر في الشرق وفي الغرب رجال عظماء ، فيظهرون باسم الصوفية ويذمون العلم المشهور ، ويعلمون الناس بقدر إمكانهم كمحبي الدين بن عربي رحمه الله وأمثاله ، ونرى نفس ذلك المصري يظهر فيه السيد الرفاعي الكبير ، والسيد عبد القادر الجيلاني ، والسيد أحمد البدوي رضي الله عنهم أجمعين الذي تحتفل الأمة المصرية بمولده الآن (جمادى الثانية سنة ١٣٥٩ هـ) وهو من ذرية السيد محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ولد في فارس (سنة ٥٩٦ هـ) وتوفي بطنطا ببلادنا المصرية ، فالسيد أحمد البدوي قد اجتمع بالجيلاني والرفاعي في بلاد العراق ، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيه ابن الفارض ، والرفاعي ، والفسوقي ، والسيد أحمد البدوي ، وابن عربي ! فهذه ثمان قرون مضت ، وهؤلاء لهم القدح الممل في الاسلام ، فماذا جرى إذن ؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ، فهؤلاء الصالحاء العظماء أصبحوا بعد موتهم قبلة الأمة ، لماذا ؟ لأن كراماتهم لا نظير لها ، فمنهم من يأتي بالأسرى ، ومنهم من يحيي الموتى وهكذا ، فتلقى العامة ذلك بالقبول ، وسارت الأمة أجيالا وهي فرصة برها ، لأن جلاله وحكمته تظهر بخوارق العادات التي يظنون أنها أعظم مظهر للالهية ، وحجبوا عن جلاله الحقيقي ، وهي عجائب السموات والأرض ، ونظام هذا العالم .

إن كل نفس توافقة إلى الجمال ، والجمال التكويني إنما هي عجائب السموات والأرض بالعلوم ، فلما طمست البصائر ، ونامت الأمة ، حوّلت عقولها إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان .
فيا عجباً ! رباه : دين يبنذ نبذا ، ولا يعرف الناس إلا خرافات منسوبة إليه ، ثم يبقى إلى زماننا هذا ، ثم نراه ينتشر انتشاراً مدهشاً ، أليس هذا أيضاً من العجيب ! ثم نرى ما نكتبه الآن في التفسير مقبولا مع أنني لم آل جهداً في مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها ، ها أنتم أولاء أقبلتم على زمان العلم هاؤم اقرعوا كتابيه ، أنا أحمد الله عز وجل إذ جعل هذا الكتاب فائحة خير لأئمة الاسلام التي تعطشت للعلم ، ولا يحصى لها منه ، بعد أن أحاطت بها أوروبا ، ورأت مخترعاتها وعوامها ، فاسلام بلا عمل لا بقاء لأهله بعد زماننا ، والمسلمون في المستقبل حقا هم « خير أمة أخرجت للناس » .

لقد قرأت في الاحياء ما يفيد أن الامام الغزالي كان يخاطب أهل زمانه كما يخاطب نحن الآن الأطفال ، لا كما أخاطب أنا المسلمين الآن ، فانه لما أراد أن يفهم علماء زمانه أن الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأت بمثال إلا بالوضوء والفعل ، لأنه رأى أن فقهاء زمانه كانوا لا يفهمون إلا بالفقه . وقال هو أيضا : إن ترتيب أجزاء كتاب الاحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه ليكون ذلك أنيساً للفقه .

أما نحن الآن فانتنا نخاطب أمة استيقظت ، وعقولها ارتقت ، ونفوسها علت ، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعامةهم ، خطاباً صريحاً ، وننقل لهم عن الفرنجة الحق فيقبلون ، ولقد قال الامام الغزالي رحمه الله تعالى : « إن المسلم الذي لا يقبل العلم إلا عن مسلم ، وينبذ إذا كان عن غيره أشبه بمن قلع له الماء في محجم الحجام وهو مفسول نظيف فلم يقبله بحجة انه كان فيه دم ، فكذلك هؤلاء الأغبياء من المسلمين الذين

لا يقبلون الحقائق اذا وردت عن الكفار .

فأما نحن في زماننا فلسنا في حاجة إلى ضرب هذه الأمثال ، لأن أمتنا اليوم قد بلغت احوال التي بها تستحق أن تتولى زمام العلوم ، وهل بعد البيان بيان ! هاأنذا أعاين حال المسلمين بما يرد من جميع الأقطار أنهم بكل علم مغمومون ، اللهم اك الحمد إذ خلقتنا في زمان النهضة ، وصرفت عنا السوء ، وعادتنا ، وأنعمت علينا بالقبول ، أنت خير الناصرين ، أنت الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

فصل في ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمة الاسلام من رجال العصور المتأخرة لأنهم رحمة للعالمين

فأما سمع ذلك صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : كل ما تقدم حسن وجيل ، ولكنني أريد الساعة أن تذكر لي خبرا عن عظيم من عظماء الاسلام كان نعمة على أمة غير المسلمين ، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبي بكر ، ومن مهمما من الخلفاء الراشدين ، ولا من غيرهم من المشهورين في سائر الأقطار ، ليكون ذلك مثالا لرحمة المسلم لغير المسلم ، لأن ظاهر الآية : « رحمة بينهم » ربما يظن بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين . فقلت : إن المسلم رحيم بالمسلم وبالدني ، وبكل معاهد ومؤمن ، فالذي له مالنا ، وعليه ماعليتنا ، ونحن لانحارب ، ولا نغادي إلا من حاربنا ، وهم الذين في دار الحرب ، أما المثال الذي تريده فهو ماجاء في هامش كتاب « حاضِر العالم الاسلامي » المذكور بقلم الأمير شكيب أرسلان في الجزء الأول ، وانختم به الكلام في هذه الآية تحت عنوان « السيد الأجل » . فقد اطلعوا في ينان على تاريخ محرر في سنة ١٩٨٤ . يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان إلى الغرب جاء السيد الأجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٩ - ١٢٢٩) ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ - ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات وهي : (فونغ ، تسينغ ، يون ناي) ثم استدعاه إلى باكين ، وعهد إليه بمنصب عال ، ثم لما تولى السلطان نانفو (١٢٥١ - ١٢٥٩) عهد إليه بإدارة ست نظارات ، بالاشتراك مع (تاؤل هوان) ثم جعله مديرا عاما لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الإدارة جدا ، فعهد إليه بنظارة الاستخبارات ثم لما زحف السلطان إلى بلاد (تسوتشوان) جعله ناظرا لليرة العسكرية ، فقام بها أحسن قيام ، فلما تولى السلطان (قويلاي) أعطاه رتبة الوزارة ، وجعله عضوا في مجلس أمانة السر الأعلى ، وكان كما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله ، وحاز رضا السلطنة ، وسنة ١٢٧٤ تقدم إليه السلطان في أن يقبل ولاية ينان ، وكانت أحوالها مختلفة ، وكان أهل ينان شديدي الغباوة والجهل ، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة ، خاف هذا منه وأراد أن يجاذبه الجبل ، إلا أن السيد الأجل بتحكته وحسن سياسته استماله إليه وصبره صديقا ، وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خرابا ، فنشر السيد الأجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهديب الأخلاق ، وكذلك وجه همه إلى عمارة الأرضين ، فهدى الطرق ، وبنى المعابر والجسور والسدود لأجل المياه مما تلافي به خطر القحط ، فكانت بعض الأنهار تطفئ على الأراضي فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان ، وكانت أراضي أخرى تعطش في الصيف من قلة المياه ، فبنى خزانات وحيضا احتياطا من جراء العطش ، وأزال المغارم والمظالم ، وأبطل السخرة ، وشيد ملاجئ للأيتام والمهجزة ، وخفف المكوس ، وأحدث نموذجات زراعية يحتذى على مثلها ، وحفر الآبار ، وأقام الأسواق ، وأدخل في طاعة الدولة ملائمة ولا يحصى من الأقوام ، وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للإسلام ، ولكنه شيد أيضا هياكل لكونفوشيوس ولبودا ، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة ، فيحدها من الشرق سونغ ، ومن الغرب بيرمانيه ، ومن الشمال التبت ، ومن الجنوب آنام ، وبحسن سياسة السيد الأجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر للسيد الأجلّ بالزحف إليه ، فلما سار بالجيش رآه الناس خزيًا كثيرًا ، فسألوه عن سبب كآبته فأجاب : لست كشيئًا لكوني ذاهبًا إلى الحرب ، بل لكوني أنصوري منكم كثيرًا سيهلًا كوني في هذه المعجزة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقنلون وينهبون أناسًا كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضًا ، ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم ، فلبثوا ثلاثة أيام لا يجاوبون ، فهاج العسكر ، وطلب القواد الاذن بالهجوم ، فلم يأذن لهم ، بل راجع رئيس الثوار في أمر التسليم ، فأظهر الطاعة ولكنه لم يسلم البلدة ، فوثب رؤساء الجند على البلدة ، فغضب السيد الأجلّ ، واستدعاهم وقال لهم : إن ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان ، وأحكم فيها بالعدل والأمان ، لا بالقتل والعدوان ، فلا أرضي أن تهاجروا البلد ، مادام الثوارون وعدوا بالطاعة ، فإن أبيتم إلا سفك السماء بخرائكم القتل ، ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره ، فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسألوا ، وسكنت البلاد ، وأطاعت عن بكرة أبيها . وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجلّ ويتباهون بأعماله ، فأمنت السواحل ، واستراحت الرعية ، وساد العدل ، وقاضت الخيرات ، وعمرت البلاد ، وصار يقال هنيئًا لبلاد ينان ، أما آثاره في الزراعة فلا تزال بتأياها إلى الآن ، وأن كثيرًا مما بناه من الجسور لا يزال قائمًا إلى يومنا هذا . وكانت بلاد (تشاويان) تغطي عليها الأنهر ، فتتجول إلى بحيرة ، فحفر السيد الأجلّ نهرا حذر إليه تلك المياه كلها ، فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يغمرها من قبل ، وحفر ترعا كثيرة ، وخلقها سقيا البقاع المحتاجة إلى الري ، وجعل بريدا مؤلفا من ٣٦٠ فارسا وحراسا بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتق في أحدها أسرع البرد بإخبار الحكومة ، فجمعت الحكومة الأهالي ، ومنهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الأجلّ رحمه الله سنة ١٢٧٩ فكان له مأتم عمّ الصين بأسرها ، وبكاه أهل ينان كما يبكي الأولاد أباهم ، وعمّ الحداد البلاد المجاورة إلى بلاد (سونغ) و(تبت) وغيرها ، وذبحت القرابين في البلاط السلطاني ، وخلف خمسة أولاد و١٩ حفيدا ، فكان خلفه في الإمارة ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتداول أحفاده الإمارة ، وكانوا جميعا أعضاء للسلطنة .

وفي أيام دولة (مينغ) راجع السلطان (تاي تسوكا هوانغ تي) (١٣٦٨-١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة ، فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ، ووفرة آثار العمران ، مثل السيد الأجلّ ، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقميد المسائر اسمه (ين تشه شو) وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة ، وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الأجلّ ، وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل فيها القرابين عن روحه ، وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الأجلّ بقلم (تشينغ هو) . ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير (هيان يانغ) وهو لقب السيد الأجلّ عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الأجلّ إلى اليوم ، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠ انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وبهذا تم الكلام على قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رجاء بينهم . كتب ظهر يوم الاثنين ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣١ م والحمد لله رب العالمين .



الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : توأمنهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً

سيماهم في وجوههم من أثر السجود

اعلم أيها الذكي أن هذا الانسان فوق الأرض المخلوق من الطين في الأعم الأكثر ، هائم على وجهه ، جاهل لا يدري لم خالق ؟

الله أكبر : إن الانسان يشبه ماشع وذاع في زماننا ، من أن الجواهر الفردة والذرات الدقيقة أصبحت الآن موضع عناية علماء الألمان خصوصاً وعلماء العالم عموماً ، إذ يقولون إن فيها قوى كامنة ، وتلك القوى الخبوة يعوزها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها ، ذلك أن كل مادة فانها مكونة من مواد كهربائية سالبة وموجبة وهي مكبوسة مكتسبة مضغوطة ، فأصفر المادة الذي لا يرى إذا أنزلنا ضغطه وخرجت القوى الكامنة فيه غيرت لنا معالم الحياة ، لأنها قوى لا حد لها ، وقد تقدم هذا كثيراً .

أقول إذا كانت هذه حال الذرات التي لانراها في الطين والتراب والماء . الله أكبر : فكيف تكون حال هذا الانسان إذن ؟ الانسان نهاية الابداع في أرضنا هذه ، فإذا كانت هذه حال الذرات التي منها تركيب عالمنا ، فكيف يكون حال الانسان الذي هو نهاية الابداع ؟

الانسان يشبه هذه الذرة ، فهو يهيم على وجهه ، ويمسك ككليون منبذ كالذرة . والجوهر الفرد ولكن يستخرج قواء أناس منه محمولون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعي . وأيقظوه إلى استخراج ما كن فيه من القوى ، ولذلك تجد الرجل الملهذب الراقى يوحى أو بتعليم يقدّر أن يؤثر في نوع الانسان كله بأرائه وأفكاره ، ومن أوليات هذه الوجهة التي أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود فإن هذا الانسان الذي يعاشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض الخ » وهذا عجب ! الجوهر الفرد قواء مادية باستخراجها يرفعنا مادياً ، ولكن هذه النفس الانسانية باستخراج ما فيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله ، فنخطبته قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

يا عجب ! هذا الانسان المركب من ذرات أرضية وماحوطاً يركع ويقول : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت الخ » ، ويقول : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » .

هذا الانسان الصغير الجسم الضئيل يعاشر الحيوان ، يقف ويخطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التي لم يعرف الناس لها حداً إلى الآن ، وفيها شمس يمدونها بألاف الملايين وبعضها كما في الجزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة ، وضوء شمسنا بالنسبة لها أمر صغير . سبحان الله : أهذا الانسان هو الذي يخطب خالق هذه العوالم كلها ، ثم هو نفسه الذي يفكر في الشرق والغرب ، وفي أعلى وفي أسفل ، في ثانية واحدة نعم الانسان هذا وصفه ، وهذه حاله ، أيقظ الأنبياء وهذبوه وربوه ، وغاية الأمر أن الديانات قديماً كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم ، وكل دين أرقى مما قبله ، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والخرافات ، لأن الله يريد أمماً أرقى من السابقة موحدتين صادقين ، وقد أمر جميع الأمم أن تتحد به ، وبما من دين إلا وقد أمر متبعيه بالصلاة والتوجه لله ، ألم ترى إلى غاندي المصلح الهندي الشهير ، فانظر كيف يصف الصلاة في دينه البوذي الذي نزل به بوذا قبل نزول المسيح عليه السلام ، وكيف نراه يوقن بالصلاة ونفعها ، أنا لا أقول أن هذا الدين لم يفسخ . كلا . هو منسوخ بديننا وأما الذي يهمني أن أقوله أن وجود الصلاة إلى الآن في دين البوذية ، وإعلان غاندي أن الصلاة نافعة معجزة لديننا ونبينا ، لأن الله يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل الخ » ويقول : « ولقد وصينا

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» ، ويقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله » .
 فإذا أسمعك ما قاله المهاتما غاندى فى الصلاة فأتى أسمعتك مجزة ، أسمعتك شيئا لم تألفه ، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وإن كانت منسوخة بصواتنا ، ولكنك فى الغالب لم تسمع إذا كنت بعيدا عن ديار الهند أن هناك صلوات وإن كانت منسوخة يتلوها قوم ويفتخرون بها ، لأن الله رب الناس ورب الحيوان ، أما كون الدين منسوخا فشىء آخر ، وإذا كان المهاتما غاندى يفتخى بالصلاة ، فكيف يكون المسلم إذن ؟ وهذا نص ما قاله بالحرف الواحد . جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣١ تحت العنوان التالى مانصه :

الصلاة فى نظر المهاتما غاندى

وقم نظرى على أحد أعداد جريدة « الهند الفتاة » الصادرة أخيرا وفيها فذلكمة مختصرة عن رأى المهاتما غاندى فى الصلاة فرأيت ترجمتها لكى أشرك اخواننا (الشبان بالاختص) فى آراء ذلك الرجل العظيم خصوصا أن الكثير منهم ينظر الى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية ويعتبر التمسك بها نوعا من الجود قال المهاتما من ضمن أحاديثه على ظهر الباخرة « راجونا » :

« وربما كانت مسرقتى عندما أقوم لصلاة المساء تفوق ما أشعر به من الغبطة والمغزل دائر بيسدى . ويشترك معى فى صلاة المساء جميع أصدقائى من هندوس ومسلمين وبارسين وسيخ أمافى صلاة الصباح المبكرة فلا يشترك معى منهم الا القليل ، ولقد سألتى صديق مسلم عن الصلاة وما أراد منى أن أعطيه وصفا نظريا ولكنه سألنى عما شعرت به نحوها من تجارب عملية ولقد رافقتى سؤاله هذا كثيرا وليس غريبا على أن أصرح على رموس الأشهداء بأنه لم يكن لى سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة كما أنى لا أنكر الناس أنى لولم اكن أصلى لكنت تضمنى الآن إحدى دور المجاذيب . ولقد أتى على حين من الدهر كثير ما لقيته فيه من صرارة العيش ومن اليأس الوقتى الذى رمانى فيه بعض الجماهير ولكن ما كان أسرع نهوضى من يأسى وقنوطى ببركة صلاتى وقنوتى .

لم تكن الصلاة فيما مضى جزءا لازما من حياتى ولكنها أتت بنت الضرورة حينما وجدت أنى لن أكون سعيدا بدونها وكلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة . ولربما اكون قد بدأت حياة الاخاد ولكن قد أتى على نور من الله حينما بدأت أشعر بان لزوم الصلاة للروح أكثر من لزوم الاكل للجسم : لان مرض الجسم يحتاج إلى الحمية لكى يصح ولكن كلنا يعلم أنه لا يوجد حمية من الصلاة لكى تصح الروح ، وفى حين أن التخممة ربما تأتى لنا من كثرة الأكل فاننا لا نجد تخمة صلاة للروح

ولقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأعنى بهم بوذا ، وعيسى ، ومحمد ، اعترافا بأنهم لم يروا سعادة الحياة الاعلى ضوء مصباح الصلاة كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الاتقياء لا يجدون لهم سلاوى إلا فى الصلاة وقد يمتدح البعض كذابين ، ولكنى كباحث عن الحقيقة المجيدة أحب أن أو من بهذا الكذب لأنى وجدت أن نتيجة تصديقى له كانت عماد نجاحى ، ومع أنى لا أستبشر خيرا من الحق السياسى ولا أرى فى أفقه إلا يأسا فأتى دائما فى غاية الاطمئنان والأمان لدرجة أن الكثيرين صاروا يحسدونى على اطمئنانى هذا ، وما كل ذلك الا من الصلاة .

انى لست رجل تعاليم راقية ولا فلسفة عميقة ولكنى بكل خضوع يمكننى أن أدعى بأنى رجل صلاة ولست مع كل هذا أعلن كبير أهمية على الطريقة التى بها تؤدى الصلاة فالنتيجة فى النهاية واحدة .

بقيت مسألة صعبة ، وهي أن البعض لا يعتقدون بوجود إله لا يمكن أن أقول لهذا البعض إلا أن يرى بذلك العلوم التي تربك عقله عرض الحائط ويسلم بأننا بنى البشر ما أوتينا من العلم الاقلام فلندرس هذه المسألة بعقل طفل صغير وفي الحقيقة أننا أصغر حتى من الذرة لأن اللذة المتناهية في الصغر تطيع قوانين الطبيعة من شد وجذب وسقوط وارتفاع ، واسكننا بنى الانسان في كهريام جهلنا رقة آمالنا وعجرفة صلفنا ثق وجها لوجه ضد هذه القوانين ونسكرها . ومادمت قد سلمت بوجود إله وكنت به من المؤمنين فاني لأرى ما يمنعك لحظة واحدة عن الصلاة ولا أقبل فلسفة من يدعى بأن مجرد حياتنا في الدنيا هي نوع من العبادة ، وعلى ذلك لا لزوم للصلاة لأن الأنبياء أنفسهم وقد كانوا على اتصال دائم بالروح المعالي كانوا يقومون بالصلاة ويحددون إيمانهم كل يوم ، فما أولانا بنى البشر بأن نصلى وتتضرع إلى الله يوميا ونحدد إيماننا . إننى أيها الاخوان ضامن لكم بعد ذلك خلوكم بالسك من كل ما يمكن أن يسبب له أقل تعب أو أدنى شقاء . انتهى بتصرف .

أ . حلمي مطر

(إستاذ علوم من جامعة منشستر)

فضل الله على الناس

إن الله ذو فضل على الناس ، الناس محبوسون في الأرض ، أنا لا أدري كيف كان هذا الانسان قبل أن ينزل إلى الأرض وإنما أنا أصف الانسان الساعة بما وقر في نفسي ، فأقول : انى الآن موقن إيقاننا بما بأن صانع هذا العالم لا حد لرحمته ، رحة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وابداع في الصنع ، لا يسع من يقرأ هذا التفسير وما فيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويعتقده ، وليست تعقل نفس بعد هذا أن يكون وجود الناس في الأرض لقصد التعذيب . كلا . فكل عذاب لم يرد به إلا السعادة ، هذا لا أشك فيه ، فهو يقين (نعم هناك ماهو فوق عالمي وطاقي ، ولا يتسنى لى معرفته ، بل أسلم به ، وأومن به وهو عذاب الكفار الدائم ، فهذا آمنة به ، ولو أننا عرفنا سره لكننا من عالم أرقى من عالمنا ، فكفانا ما عرفنا الآن ، ونشكل أصر الباقي إلى الله ، حتى يطلعنا على السر بعد الموت ان استحققناه) .

فإذا كان هذا هو اليقين عندي ، فاني أبني عليه ما يأتي . فأقول : لعل أرواح الناس كانت قبل نزولها إلى الأرض غبية جاهلة بتفصيل العوالم ، وان كانت تعرف السكيات فعلوها تحيط بالسكيات وتجهل الجزيات فبعث الله فيها غريزة حب المادّة وعشقها فأنحدرت إليها وانغمست فيها وحبست . ومن عجب أن يكون هذا السجن الأرضي أشبه بستان جميل ، وهو أعظم سجن وأبدع ، وهو يعطينا درساً كأنه يقول لنا : أنا سجنكم في الأرض لأعلمكم ، أرسلت أنبياء وحكماء وعلماء ، وأنزات ماء ، وأمرتكم بالطهارة والصلاة لتسكموا ، ووضعت فيكم غرائز الطعام ، والشراب ، واللباس ، والحرب ، والعداوات ، ليكون ذلك كله مهمازا يدهمكم إلى العلم والعمل ، وهذا كله هو الرقي والسعادة ، وأوعزت إلى علماء اسباطه باليونان أن يمرّثوا الصبيان من الصغر على تحمل الضرب ، فيشبهون على الشجاعة ، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا الشاب أمام الفتيات ضرباً موجعاً قاسياً فلا يصرخ ، فيستحق أن يتزوج الفتاة لشجاعته ، وأطمت بعض القبائل أن لا يتزوج الشاب فتاة فيها إلا اذا قتل سبعاً ، أو فرأ ، أو نحو ذلك ، كل ذلك لاستخراج ما كمن في نفوسكم من العجائب والقوى الكامنة ، فلا شجاعة إلا بالتحمل ، ولا أنوار للنفوس إلا بالصلاوات والحكمة والعلم .

أنتم يا أهل الأرض مسجونون ، ولكن النى سجنكم حكيم ، ولم يرد من السجن ذلكم ، بل أراد استخراج كنوز نفوسكم ورفقها واسعادها .

وقد وضع لكم في الأرض أشجارا وأزهارا وأشجارا وجبالا وأردية وبحارا لتكون هذه كمالات لكم ،
 نارة بالنصب والتعب في استخراج ما بلان فيها ، وتارة بتعاطي ما فيها من الأغذية والأدوية والثمار ، وكل هذا
 نسكميل لكم ، واستخراج لقواكم ، وخير السجون ما جمع بين الحبس والعمل والطهارة ، انظر ما كتبناه في
 ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى : « إن الله يحب المتطهرين » ، وكيف يقول (بنتم
 الانجليزى) في كتابه « أصول القوانين » : « إن النظافة والاستمرار في العمل يقللان الجرائم ، والطهارة
 في الشريعة الاسلامية من محاسنها ، فلن ترى نظيفا عاملا إلا وهو بعيد عن الجرائم ، قليل الأوزار » .
 وازن أيها الذكي بين أدنى الحيوان ، وهي تلك الخلايا الصغيرة التي تعيش في الماء ، ولا تموت مطلقا إلا
 بعدو ينجسها ، أو بانقطاع غذائها ، وكيف تعيش دهورا ودهورا لولا الطوارئ ، كيف كانت حياتها ضئيلة
 من حيث الارتقاء ، وفيها طبعها أرواح ضئيلة ، ثم انظر إلى الحيوانات التي هي أرق منها وأرق إلى أن تصل
 إلى الانسان فتجد علما وحكمة ورقيا وشجاعة وقربا إلى الله بالصلاة حتى يقول الله في المسامين : « تراهم
 ركعا سجدا يفتخرون فضلا من الله ورضوانا » انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين
 كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الرابعة

في قوله تعالى : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستبظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع
 ليغيظ بهم الكفار »

صادق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لك الحمد اللهم ولك الشكر ،
 ما أعظم نعمك ، إن هذا الزمان هو الذي اشتد فيه ظهور المعجزات ، معجزات النبوة المحمدية ، كيف لا ،
 ألم أذكر في السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على بلاد سوريا ففتكوا بأهلها فتكاد رعا
 وقتلوا القوم تقيلا . ألم أقل في ﴿سورة آل عمران﴾ عند قوله تعالى : « ألم ترأى الذين أتوا نصيبا من
 الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » . الآيات ، إن هذه الآيات إنما نزلت لأجل رقينا نحن
 أبناء المسامين عموما ، والعرب خصوصا ، وقلت ان (الم) في أول السورة تشير إلى هذه القصة المبتدأة بهذه
 الحروف (الم) وأن اليهود لما اتكوا على شفاعته آبائهم ، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب
 ملكهم ، وملك المسلمون بلادهم ، وقلت إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الخرافات والجهل في الدين
 ما أزال نخوتهم ، وفرق جمعهم ، وأنت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات ، وهو المحيط الاطلنطي ،
 وبلاد السودان إلى بلاد العراق والموصل وما بينهما متفرقون مع أن بلادهم متلاصقة وتفرقهم إنما جاء من
 الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المخرفين والرؤساء المفرورين الدجالين وما أكثرهم في بلاد الاسلام ،
 هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار (الم) التي نزلت لا يقاظنا نحن الآن ، لأننا نحن الذين حبستنا أي
 الأرض ، ونحن في حاجة إلى الهداية ، فهدايتنا جاء بعضها عن طريق هذا الرمز العجيب ، كنت أقول
 هذا هناك وأنا واثق برقي هذه الأمة ، ولكن لم يكن ليخطر لي أن هذا الرق أصبح قاب قوسين . كلا .
 أنا كنت واثقا برقي المسلمين عموما وأبناء العرب خصوصا ولكن هل كان يدور بخلدني أني أعيش حتى أقرأ
 ما سقسه أيها الذكي الآن ؟ بل هل كان يهيجس في خاطري ، أو تحدثني نفسي بأن ما سقسه الآن يحصل
 ونفس هذا التفسير لا يزال يطبع . كلا . لم يكن ذلك بخلدني ، ولكن زماننا هذا زمان انقلاب في كل شيء
 انقلاب في الشرق ، وانقلاب في الغرب حتى أقرأ اليوم في جريدة الاهرام أثناء طبع هذه السورة يوم ٤ نوفمبر

سنة ١٩٣١ تحت عنوان « العراق وعصبة الأمم » وهذا نصه :
 « جنيف في ٢ نوفمبر (روتر) قال السرفرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق أمام لجنة الانتداب : « في أيديكم مفتاح الباب الذي لا بد لهذه البلاد النامية من المرور فيه إلى البافغ التام والتحرير الكامل ، فأسألكم أن تفتحوا هذا الباب . وقال أيضا : ان العراق برهنت على أنها أهل للقبول في جمع الأمم المتمدنة الراقية » . انتهى . وعلمت الجريدة على هذا التلغراف بمقال هذا نصه :

العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب ، ومستقبل الحالة في سورية

خطب السرفرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق أمس أمام لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف مؤيدا طلب انضمام العراق الى عصبة الأمم بعبارات مؤثرة .
 والذي نعرفه أن مسألة انضمام العراق الى العصبة في السنة المقبلة قد بت نهائيا بين الدول وأنه لم يبق لتقريرها رسميا الا بعض معاملات شكاكية لا تؤثر في الموضوع ، وانضمام العراق الى العصبة يعني إلغاء الانتداب الذي فرض عليها في مؤتمر سان ريمو فرضا . وقد رفضته منذ إعلانه وتمسكت بهذا الرفض الى النهاية . ولم تشأ انجلترا أن تضيف الى مشاكلها الكثيرة في تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة اكراهها على الاعتراف رسميا بالانتداب ، بل جعلت علاقاتها معها على أساس المعاهدات المعقودة في سنة ١٩٣١ ثم في سنتي ١٩٢٦ و ١٩٢٨ . وقد كفلت لنفسها في هذه المعاهدات الاشراف على المصالح المسؤولة عنها لدى عصبة الأمم بصفتها دولة منتدبة ، ومكنت العراق في الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم التقييد بنصوصه وأحكامه ، فكانت دولة منتدبة على العراق في نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له في نظر حكومة بغداد . على أن الشعب العراقي الذي رفض الانتداب رسميا لم يسعه القبول به ضمنا تحت ستار المعاهدات ، فكان دائما يطالب بتعديل ما يراه ماسا باستقلاله ، من مواده وكانت معظم الوزارات التي توالى في دست الحكم تصطدم بالانجليز من جراء ذلك فتفوز ببعض الشيء أحيانا وتفشل أحيانا الى أن وقع الاصطدام الأخير مع وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون ، وهو الاصطدام الذي أدى الى انتحاره بعد مابددت الآمال التي عقدتها على حسن نيتهم وشعر بقوة ضغط الشعب عليه وضياح مركزه لدى الوطنيين من أبنائه .
 ووقع اصطدام آخر أثاره الهاشمي باشا وزير المالية في عهد وزارة ناجي باشا السويدي . وبلغت الأزمة حينئذ أقصى حد من التعقد حتى خيل الى الجمهور أن الملك سيحجز عن تأليف وزارة جديدة .
 ودارت مباحثات خطيرة في تلك الأثناء جلت جلالته على الاقتناع بأنه أصبح في الامكان الوصول الى اتفاق مع الانجليز ، فأقنع نوري باشا السعيد بذلك وعهد اليه في تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين المتطرفين ، وأسفرت المفاوضات التي قامت بها وزارة نوري باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء والاستقلال ، ولانبقى لانجلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات اثنان منها غربي الفرات والثالث في جهات البصرة . ولم تقابل هذه المعاهدة على ما فيها من مزايا لا يستهان بها بارتياح المقامات الوطنية لطول مدتها من جهة ، ولأن العراقيين يريدون استقلالا خالصا من كل شائبة من جهة أخرى .
 وقد أبدت انجلترا طلب العراق الانضمام الى عصبة الأمم ، وأعلنت أنه أصبح في حالة من الرقي لا يحتاج معها الى إرشاد دولة منتدبة . سيدخل العراق العصبة في السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول المشتركة فيها ومن دون أقل قيد أو تحفظ يتعلق بالأقليات أو غيرها ، سوى القيود التي تنص عليها المعاهدات العامة ، كما صرح جلالة الملك فيصل المندوب الا هرام في أثناء مروره أخيرا بالاسكندرية .

ومتى دخلت العراق عصبة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة في طريق استقلالها . تهذر إبقاء البلاد المجاورة لها ، والتي هي أقرب الى الحضارة منها تحت الانتداب . وهذا ما أدركته فرنسا وصرح به مندوبها أخيراً في عصبة الأمم . فالطريق الذي سار عليه العراق ستسير عليه سوريا أيضاً إذ لا يهمل أن يقبل السوريون - كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات - بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق ، مع كونهم لا يقاتلون عن العراقيين شاماً وحضارة وخبرة في شؤون الحكم .

وخلاصة القول : أن دخول العراق عصبة الأمم سيكون فاتحة دور جديد في تاريخ الشرق الأدنى ومقدمة لانقلابات سياسية خطيرة قد تكون في مصلحته ومصلحة السلم . انتهى ماجاء في جريدة الاهرام أقول : هل كان يخطر لي وأنا حيّ أرزق ، ونفس هذا التفسير يطبع أن أسمع أن العراق وسوريا على أبواب الاستقلال . اللهم انك أنت الواسع المغفرة ، الحكيم العليم العدل ، أعدت إلى الشرق شرفه وكرامته وعزته بعد أن أدبته ورقيقته بالنوازل والمحن ، إن كتاب (بالتشديد) زماننا المسلمين خصوصاً والشرقيين عموماً من أسعد الكتاب (بالتشديد) في الأرض ، لأنهم يرون ما يدعون اليه من الرقي قريب المنال ، سريع الحصول ، والله هو الوليّ الحليم . انتهى الكلام على الجوهرة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

الفتح الاسلامي في زماننا

وآثار النبوة المحمدية في نهضة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، وعلى الفتح المبين ، اللهم إنك أنت الفتح العليم ، المحسن المهيمن ، الجليل الرحيم . تالله لم يكن ليخطر لي في الخيال ، ولا في الأمان ، ولا في الأحلام ، أن أقف في حياتي قبل أن أموت على ما سمعت به الآن عن بلاد الاسلام من الفتح الاسلامي المبين ، حقاً إن هذا زمان الفتح المبين ، الذي يضيء الفتح المبين أيام النبوة ، وأيام عصر الصحابة والتابعين ، نعم هو حق ، هو حق وصدق مبين ، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أظن في نفسي أن هذا التفسير ربما تقرأه أهم قراءة جدية بعد موتي ، وتثور به في وجه الجهالة العمياء ، فتطمس معالمها ، وتزهق روحها ، وتجعلها في خبر كان .

كنت أقول ذلك أشبه بالأمان والأحلام ، ومعلوم أن الأمان والأحلام تضليل ، ولكن ماذا حدث ؟ اليوم ، حدث ما لا عين رأت إلا قليلاً ، ولا أذن سمعت إلا نادراً ، ولا يخطر على قلب كثير من المؤلفين ، حدث ما ذكرته في تفسير البسملة في أول هذه السورة من حضور الشاب التركستاني الذي قصّ على أخبارا ونشرها في الجرائد فوق ما كتبه في أول السورة ، هذا الشاب اليوم أي في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م قد قبل في كلية الآداب في علم الفلسفة في الجامعة المصرية ، فماذا يقول ؟ يقول : لقد فتحت مدارس في بلادنا التركستان الصينية ، ودرسنا فيها العلوم الحديثة ، وأنا درستنا فيها ، وأن السبب في ذلك انتشار كتاب « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » ، ومثل بلادنا بلاد الصين ومسلوها نحو (٧٠) مليوناً ، وبعض أهل اليابان أسلموا ، واتصلوا باخوانهم في التركستان والصين ، واسلام أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضر لهم « التاج المرصع » مترجماً (انظر مقالة تحت عنوان معالومات جديدة في المقطم يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١) أكتب هذا الآن ذاكرة نعم الله عز وجل ، أكتبه وأنا دهش أن بعض الكتب التي سبقته ونشرت قبله قد أدت الغرض المقصود الذي كنت أرجوه منه بعد مفارقتي هذه الدار .

إن هذه الأخبار فيها معان سامية ، ومرام شريفة ، وأسرارها ما بعدها فتح سريع ، وخطوات واسعة ، اتصل المسلمون اتصالاً لم يعهدوه ، وانتشر الاسلام انتشاراً غريباً لم نهده ، واتصل الافريقي بالاندلسي ، والجاوي والسومطري ، والصيني والياباني ، والأفغاني والهندي والتركستاني ، والتتاري والقازاني . اتصل

المسلمون ، اتساروا اتصالا لم يهودوه .

هذا من آثار : « إنا فتحنك لك فتحة مبینة » فرحم الله الشيخ السباع لأنه هو الذى قرأت عنه أن الفتح معناه الفتح العلمى ، ذلك الفتح الذى نشر أيام النبوة فى سائر الأقطار ، ثم أصبحت بقايا العلم الإسلامى أشبه ببقايا الماء الآسن فى البرك والمستنقعات ، ثم كانت الحركة العلمیة الحاضرة ، فانبعث المسلمون ونفضوا غبار القل ، وغادروا السكسل ، وأخذوا يجتهدون مجدا مضى ، وهزأ قضا ، وسعادة أدبرت وملكا ذهب ، وأخذنا نسمع باقترابهم وتواصلهم ، فلله الحمد وله المنة .

أكتب هذا وسبقوه شبان هم يعيشون الآن معنا فى هذه الحياة الدنيا وهم مفكرون ، وآخرون لا يزالون صبيانا ، وآخرون هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وآخرون هم فى ظهور أصلاب آبائهم . كل هؤلاء وهؤلاء سيقومون ما كتبناه الآن أو يسمعون به فيبحث فى قلوبهم من الحجة العلمیة الإسلامیة مالا أعماه تناول أكثر المسلمين الحائنين ، وسيحدث ذلك فى قلوبهم شعورا قويا يحملهم على ركوب الطيارات انى أنا الآن وأما أكتب هذا فى صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر ، كأتى أراهم فوق طياراتهم راكبين من بلاد التركستان الصينیة ، أو البلاد اليابانیة ، أو البلاد الصينیة ، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشیة والجزائریة والتونسیة وهم يحلقون فوق رهوس إخوانهم المسلمين ، وقد قابلوهم بالتصفيق والفرح المبین ، هذا هو الذى أتخيله الآن ، كأنه حقيقة أراها بعینی ، وأقد أطمعنى ماتحقيق من انتشار ما أكتبته وذیوعه فى بلاد الاسلام أن هذه الحقيقة قد قرب وقتها ، وأظل زمانها ، وأقبل حينها : « ولتعامن نبأ بعد حين » وهكذا يقابل المصرى والسورى والمراكشى والطرابلسى جبل شبان الشرق الأقصى بمثله ، فيركبون طياراتهم ، ويردون إليهم الزيارة قاصدين الأفغان والتركستان والصين واليابان والهند وإيران وبلاد الترك وغيرها من بلاد الاسلام . كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » .

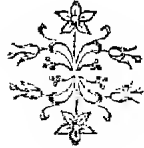
ومالى أذهب بعيدا ، إن زماننا زمان انقلاب اسلامى عجيب ! فبينما يخبرنى هذا الشاب التركستانى النابغة الذى يجيد أربع لغات ، وهولم يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت عن الشرق الأقصى ، وتسمع أذنى هذه الأخبار السارة العجيبة ، إذا بالجرائد والأخبار تأتى سراعا بأخبار مدهشة ، ذلك أن المسلمين اجتمعوا فى مؤتمر إسلامى عام فى القدس فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وتلقت رئاسة المؤتمر بركات التأييد من الملك على بن الحسين والأمير عبد الله أمير شرق الأردن ، والامام يحيى عامل اليمن ، وخديو مصر السابق ، وقد حضر المؤتمر مندوبو البوسنة والهرسك واليوغسلاف والصرب ، وكانوا يكررون صارا « الله أكبر ، الله أكبر » عند ذكر أسمائهم والحضور نحو (٢٠) ألفا . ثم اشتغل المؤتمر بتأليف لجانه الفرعية ، فقرّر أن يجرى تأليف اللجان الآتية : —

- (١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدسة والبراق .
- (٢) لجنة الثقافة الإسلامیة وجامعة المسجد الأقصى .
- (٣) لجنة سكة حديد الحجاز .
- (٤) لجنة الاقتراحات .
- (٥) لجنة الدعاية والنشر .
- (٦) لجنة الوعظ والارشاد .
- (٧) لجنة المالية والتنظيم .
- (٨) لجنة القانون الأساسى .

هذا ما جاء فى الجرائد المصریة يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أسعيت صنعك ، وأجبت تدبيرك ، وبصفت تفسير هذه السورة موافقا في زمان طبعه خاطئة حضور الشاب التركستاني إلى البلاد المصرية يحمل لنا نبأ بلاده ، ولخاتمة المؤتمر الذي هو الآن منبسط في فلسطين ، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الإسلام .

اللهم إن هذا هو النصر المبين ، وهو عينه الفتح الإسلامي . اللهم إن المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام النبوة قبيل الهجرة ، ففتحهم الآن فتح على على تليسي ، وسيعقبه قريبا الفتح السياسي العظيم ، وسيكون المسلمون سياج النظام العام ، وسجاة العدل والرحمة لسائر الأمم والأجناس ، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » يحملون السلام العام لأهل الأرض ، لأن فتحهم فتح على ، والأمم الآن سيكون فتحها فتحا علميا ، لأن الناس اليوم يسمعون ويعقلون ، وإلى هنا تم الكلام على ﴿ سورة الفتح ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ م



تفسير سورة الحجرات

(هي مدنية)

آياتها ١٨ — نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ
الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ
إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ
اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَّا مِنْ
اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ
بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا
بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُمُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى
أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ كُنَّ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ
 ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ
 الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمْئُونُ عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
 عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة .

﴿ القسم الثاني ﴾ في آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول السورة إلى قوله تعالى

« والله غفور رحيم » .

﴿ القسم الثالث ﴾ في آداب المؤمنين بعضهم مع بعض من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق بنياً فتبينوا » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

جرت عادة الشعراء أن يبدعوا قصائدهم بالفرام ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل ما بعده ، يصف جمال
 المرأة ومحاسنها ، فيصني السامعون للشاعر ، ثم يقتتل بهم إلى المدح ، فالاستجداء ، فيخرج بالجواهر السنية ،
 والهبات الذهبية ، ولقد تقدم أن الخلفاء الراشدين منعوا ذلك ، أما القرآن فان براعته استهلاله البسملة ،
 والبسملة تصف الله بالرحمة ، رحمة هي مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجمال والشجر والدواب
 وما جمال الفتيات الساحر إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية في
 الناس ، فليست في حاجة إلى ما يهيجها ، والأمم اليوم في حاجة إلى إثارة ما كن من صفات السكال في الناس
 وفي آثار الرحمة من الجمال ملاحظه .

ولقد شرح الله الرحمة فجعل لها سورة بأكلها ، فقال : « الرحمن علم القرآن الخ » ، إذن سورة
 الرحمن الآتية من مفصلات الرحمة في البسملة كما قدمنا في غير هذا المكان ، فصلت الرحمة هناك تفصيلا واضحا ،
 وفي ﴿ سورة الفتح ﴾ قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح وهو انكشاف الحقائق الذي ترتب
 عليه كل فتح في الاسلام ، فاذا قيل في ﴿ سورة الرحمن ﴾ : « الرحمن علم القرآن » ففي ﴿ سورة الفتح ﴾
 يقال : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وعلى هذا الفتح دانت أمم وأمم ، وفتحت بلاد وبلاد ، أما الرحمة
 في هذه السورة ، فاعلم هي الرحمة العملية ، أي رحمة الفضائل والأخلاق :

- (١) أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت عنده .
- (٢) وعدم الإصغاء إلى نقل الكلام حتى يتحقق التأني ويبتذل الباطل .
- (٣) والصالح بين الطائفتين .
- (٤) واحترام الأخوة الإسلامية .
- (٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية ، وكل فعل يؤذي الإخوان .
- (٦) وترك المز .
- (٧) والتناوب بالألقاب ، والسباب .
- (٨) واجتناب كثير من الظن .
- (٩) والتجسس .
- (١٠) وترك الغيبة ونحو ذلك .
- (١١) ثم التعارف .
- (١٢) والایمان بالبرهان واليقين .

ولما أتممت هذا المقال ، جاء صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ، فقال : كأنك فهمت أن الرحمة هنا موجهة إلى مافي السورة وهي المطالب الثانية عشرة . فقلت : إن الرحمة عامة ، وههنا جاءت هذه المطالب تذكرة بها ، وأمثلة لها ، وهذه من المطالب التي نقلت عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه إذ قال : « لو شئت لأوقرت سبعين بهيرا في تفسير البسملة » أو مامعناه فهو من نحو هذا الباب دخوله ، ومن هذه الناحية وجهته ، وبها وصوله ، وإن كان له علم فوق ما عرفناه وحكمة فوق ما ألفناه ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . فقال : إنك قد جعلت أكثر السور على هذا النحو ، فانك قد فسرت البسملة في أكثر السور بالمطالب التي فيها ، فجعلت تلك المطالب مثالا للرحمة كما هنا ، ولكن يخيل لي أن في هذه السورة طرائف مستحدثة ، وبدائع مستعسنة ، ولكن لأجد في لساني قدرة على التحرير والتصوير ، ولا في جناني قوة على التقدير والتفكير . فقلت نعم ههنا معان شريفة ، ودقائق منيفة ، ولطائف بدیعة ، وعوارف رفيعة ، وجواهر مكنونة ، وطرائف مصونة ، وطرائق مسنونة . انظر رعاك الله إلى هذه الآيات ، ففيها آداب الأمم ، وأحوال اجتماعها وتعارفها ، بحيث لا يكون هناك اختلاف ، ولا اضطراب ، ولا غيبة ، ولا نعمة ، ولا حرب ولا جدال .

وههنا يبدو للخطاير سؤال ، فيقال : إن الله هو الرحمن الرحيم ، ومن أجل الرحات أن لا يجعل في النوع الانساني هذه المثاب ، وأن يخلصهم من تلك الشوائب ، حتى لا يعوزهم النصائح القرآنية ، ولا الزواج الاسلامي ، وهذا السؤال يعوزه بحث هام ، وتنقيب عن مصادر هذه العوالم ومواردها ، وأولها وآخرها ، حتى نفهم الرحات ، ونعرف هاتيك الآيات البينات .

اعلم أهلك الله الحكمة ، وجنبتك الزلل ، وأماط عنك الفوائل ، وألبسك ثوب الوقار ، أن ما تراه من هذا الوجود الذي اختلط فيه الخبيث والطيب ، والحسن والفتيح ، ان هو إلا حركات في خيال هذه الأكران وخطرات فيه كالأوهام .

لقد علمت أيها الأخ الذكي مما مرّ بك في ﴿سورة النور﴾ أن الجواهر الفردة والشرارات التي وصل إليها التحليل ليست هي بمادة ، وما هذه المسماة بالمادة إلا نقط كهر بائية يجري سالبها حول موجبها ، أما نحو ستة آلاف ملايين الملايين ، وأما أقل ، وأما أكثر ، فإن كانت أقل ، فلتسكن الأنوار والأصوات ، وإن كانت أكثر فلتسكن الأجسام الصلبة ، والأجسام الثقيلة ، ولقد مرّ هذا غير مرّة في هذا التفسير .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت القدوس ، جليل جليل ، لا إله إلا أنت ، ان علمك إلا حركات ، فما هذه الحركات ؟ هي حركات في أثير ، وما هو الأثير ؟ وما الحركة لها في ذلك الأثير ؟ إلى هنا وقفت عقول الأحم في زماننا ، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسم لكان أثقل من الحديد أضعافا مضاعفة ، انظر هذا المقام في أول ﴿ سورة الصافات ﴾ ولكننا لا نحجم له ، ولا نحس به ولا يرى ، ونحن نقول إذن هو خيالنا .

الله أكبر : إن في خيالنا الحركات ، وتلك الحركات لها وجود حقا ، ولكن حركات خيالنا نتائجها معقولات لها نتائج في خارج أجسامنا وأعمالنا في رفق مدتنا ، ونظام أخلاقنا ، إذن هي موجودة وحركات العوالم موجودة ، ووجود ما في أذهاننا ضعيف ، ووجود ما في الخارج قوى ، فالأول سريع الزوال ، والثاني نراه آمادا طويلة ، ولكن الأصل هو الحركات على كل تقدير ، فلتسدم الأحجار والجبال والنجوم ، ولتفش دهورا ودهورا ، ثم تغنى ، ولكنها معدومة أوفى حكم المهدومة ، فهذا الجبل الذي نراه ، والحجر الذي فيه ، والشمس والقمر ، والشجر والذواب ، كهن حركات وأضواء متراكبات ، ظهرت للعيون بهيئات مختلفات ، ولكن العلم يقول . كلا . ثم كلا . أيتها العيون ، أيتها الأسماع ، لا وجود ، لا وجود ، كل هذا حركات ، والحركة لا نراه ، له وجود كامل ، وهو تام الرحمة ، ومن رحمته انه أراد أن يصور في هذه المجهول أرواحا ويأهمها علما ، وتجبه ويحبها ، فإذا يصنع ؟ صنع هذه الحركات ، فأبرز بها نور الكهر باء ، فضغطه ، فتراكم وازدحم وانحصر انحصارا شديدا في الذرات والجواهر الفردة ، وبهذا التراكم أصبح مشاهدا محسوسا ، وما عوالمنا إلا تنوع وتجديد ، واختلاف في الصور والأشكال ، وإذا كان أصل العوالم سالب الكهر باء وموجبها ، فهكذا نشأت كلها على هذا النمط ، سماء وأرض ، وجاد وحيوان ، أعلى وأسفل ، حى وميت ، أسود وأبيض ، رفيع ووضيع ، كافر ومؤمن ، عالم وجاهل ، مارك وسوقه ، ذكى وبليد . وهناك تفاعل وتفاعل ، فهذا التفاعل به دوام الوجود وترقى هذه الصور تعيش الأرواح الحيوانية ، وهي لاهية لها إلا بهذه الصور التي مبدؤها تلك الحركات ، وأقرب شيء إلينا ما مر في ﴿ سورة الفتح ﴾ من أن في كل قطرة كسن الابرة لا تزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية جوام بها يحمر الدم ، وهي عاملة فاعلمة جاهدة ، وتسعة آلاف خلية بيضاء هي المدافعة عن المملكة الجسمية ، لتحافظ عليها من الذرات الداخلات في الجسم لاهلاكه ، إذن أرواحنا لا ارتقاء لها إلا في جو مشبع بالعراك والخلاف ، والاشتبك ، والاختلاط ، والاختلاج ، وكل أم يقبها ولدها ، فإذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب ، والأخير يشبه الأول فهكذا تكون هذه النفوس ، ففيها تكون الهدايات والشهوات ، والحسد والبغضاء ، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان .

هذه طبائع عوالمنا ما هي إلا حركات ، والحركات متضادات ، وبغير هذا لا وجود للمادة ، والمادة فيها تربي الأرواح ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان وجود العالم وجود ناقص والانسان تبع للناقص مستمد منه ناتج عنه ، والنتائج على مقتضى المقدمات ، ولقد قدمنا أن الله رحيم ، ومن أجل رحمته انه يخلق خلقا من روحه هو وهي النفوس الانسانية ، وهذه النفوس أيضا ناقصة ، ولا كمال لها إلا بالتطور والتشكل ، والتطور والتشكل إنما يكونا في المادة ، والمادة ناقصة ، فإذا كان هذا طبع الوجود الناقص ، طبعه التناقض ، فلم تبق إلا مرتبة واحدة وهي تصفية هذه الأخطا ، وإزالة هذه النقاظ ، لذلك أزل الأنبياء والحكمة في الأرض ، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودة والموعظة الحسنة ، ومنها هذه السورة ، فالله (وان كان رحيم) لا يخلق المستحيل ، ومن المستحيل أن تخلق أرواحنا كاملة ، كما كان من المستحيل أن يكون للمادة بوجود أولى ، فإذا كان أصل الوجود المادى معدوما فالكمال معدوم من باب أولى ، فمن الرحمة انتباه خطا ارتقاء النفس في مدارج الكمال ، وهذا هو الذي جاء في ﴿ سورة الحجرات ﴾ .

إن ارتقاء النفوس البشرية لا سبيل له إلا التدرج نحو الكمال ، فليكن الناس في أول حياتهم كالأسود دراسة وكالأنعام شراهة ، فليرفعهم العلم إلى درجات اللائكة السكرام ، والوجود الكامل لخير صانع العالم مستحيل فقول القائل : **لَمْ يَخْلُقَ اللهُ نَفْسَنَا نَاقِصَةً** ثم هو يكملها ، وهلا خلقها كاملة من أول وهلة ؟ معناه لم يكن كل إنسان أصلاً للوجود . (وبعبارة أخرى) لم يكن كل إنسان إلهاً إذ لا كمال إلا له ، فإذا خلقنا نحن كاملين فعنه أنا آلهة ، وهذه هي الحقيقة ، كل ما عدا صانع العالم أصله الصدم والوجود طارئ عليه وهو لا يقبل من الوجود الطارئ إلا قليلاً قليلاً حتى يصل للكمال الذي يليق به . (وبعبارة أخرى أيضاً) يصل إلى مرتبة لا يمتدّها ، وغيره يصل إلى أقلّ أو أكثر منه ، هذه هي الحقيقة ، وهذا هو جواب أصل السؤال

جمال في جمال

يخيل لي وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرات الوجود مشرقات ، وانها تفتحت أكمالها ، وازدهرت فأشرقت الأنوار المخبوءة فيها التي يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للاقتفاع بها في الأعمال ، وكأنها كلها الآن مضبوطة .

الله أكبر : نعم كلها موسيقى ، ألم تر أن حركاتها منتظمات ، ألم تر أن حركاتها في النور تكون من أربع مائة مليون مليون في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها ، أي من ابتداء لون الجرة إلى انتهاء لون البنفسجي . جيل والله هذه المناظر ، حركات تعد بالملايين في الثانية في ذرات لا يحصر لعدددها ، قد حجب روحى عنها ، روحى التى تعيش فى وسط هذه الأنوار وهذه الحركات ، روحى المسكنة المحجوبة المتنوعة عن أن تسمع تلك الحركات وتشاهد تلك الأنوار ، نعم حجبها الله ، حجبها عن ذلك الجمال وعن تلك الأنوار رحمة منه بروحى ، لأنها لو سمعت تلك الموسيقى ، أورات تلك الأنوار ، وشاهدت أساليبها فى الحديد والنحاس والرصاص والماء والهواء والجبال ، وشاهدت أفانينها المختلفة ، وضروبها العجيبة ، وسمعت تلك الأغاني ، وأنواع الموسيقى ، وضروب اللحن الشجية لذابت من اللذة ، وهاككت من وفرة الجمال ، أنا الآن أعيش فى جمال منظور ، وجمال مسموع ، ولكنى عنه محبوب ، رجة من الله بى .

ومن رحمة بالحيوان أيضاً انه غشى على عقله ، وعلى بصره ، وعلى سمعه ، وشغله بتحصيل قوته ، ومطاردة عدوه ، ولولا ذلك لشاهد تلك الأنوار ، ولذهل من جمال الأصوات فى موسيقى الذرات . ألم تر أن الجمال تبهم عند سماعها للفناء ، وأن الحيتان فى البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات ، إذن الجمال محبوب عند كل حيوان كما هو محبوب عند الإنسان ، فكان احتجابه عنه رجة به ، والا هلاك الأولون والآخرون .

الذرات مركبات من جمال وباختلاف حركاتها وتنوع صورها كان هذا الوجود ، المملوء بالتنافضات المؤلمات المؤذيات ، من الحرّ والبرد ، والخلو والموت ، والخبيث والطيب ، ولكن أصل الوجود غلب عليه وهو الجمال ، ألا ترى إلى الشجرات المزهرات ، والشموس الطالعات ، ألم تركيب ترى صباحاً قطرات الندى على الورق وهى أشبه بقطع الماس الجيلات ، ألم تركيب يستبين لك منظر نسيج العنكبوت ، وقد جلله الندى بهيئة خيمة من الجواهر البديعة والماس المشرق البهيج ، غلب الجمال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بظهور الغضوب الشموس ، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها ، وتظهر أصل جمالها ، فإذا غاب عنا تنوع حركات السكر بآء فى الذرات من حيث جمال ألوان أضوائها ، وبهجة موسيقاها ، فوالله لم يغيب عن عيوننا مشاهدة باهر جمالها فى الليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، فالجمال باق وان أحاطت به المؤلمات والمزججات ، والإنسان يشاهد ذلك ، والعناية الإلهية تريد أن ترقيه ، فإذا تصنع ؟ خلقت فيه قوى متضادة ، وأهلبته

باطحسد والحقده والهداوات والحروب ، وقالت أيها المسامون : عاربوا كل من يؤذيكم وأنتم تنشرون دعوة الاسلام ، وياعلماء الألمان والرومان والروسيا وجميع أوروبا اخترعوا المهلكات ، وابتعدوا ما تشاهون من المنذرات ، واشغلوا نفوسكم بذلك حتى تغيب عقولكم عما أمامكم من الجبال الذي ينم على أصل الجبال ، وبهذه الشواغل تعيشون أمدا مقظرا ، ولوأن الجبال غاب عقولكم مما تشاهدون ولم تشبه شوائب الحسد والطمع والمباراة والمنافسة هلكنم واصرتم في خبر كان .

وهذه المزعجات جعلت رياضة لكم ، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلا قليلا بقدر ما تسمح به قواكم فتستنبطونه استنباطا في أثناء مجادلانكم . كما ان خير الناس كل في صحة أبدانكم ما كان غير مركز فتأخذ منه الخلايا حظها قليلا قليلا . فأما الأغذية المركزة فانها تظني على الجسم شرطا طغيان ، فتسكون فيه بشور وقروح وأصراض .

إن كل ما أخذ بالاثب وانصب ، فهو عند من ناله صرحى منبوذ ، لا تغيره نفسه التفاتا ، ولا له عندها منزلة ، فكل مبدول مغاروح ، وأحب شيء إلى الانسان ما منع .

فلما سمع صاحبي ذلك وهو شديد الاصفاء إلى . قال : إن هذا لون آخر من ألوان العلم ، وصورة محبرة ، ونعمة ونعيم ، وحكمة من الله الحكيم العليم ، لم يرد على نخطها درس فيما درسه ، ولم نر لها شيئا فيما قرأناه . فقلت : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

القسم الثاني من السورة

التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قبل البدء في تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : ﴿ سورة الفتح ﴾ قد ذكرت بعد القتال ، لمناسبة أن الأولى كالقدمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهي أشبه بما يعقب الفتح ، فإن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي ﷺ بينهم وقد استتب الأمر ، فاذن يجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي ﷺ وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التي يكونون عليها ؟ فانهم اذا كانوا في الأمثال المضروبة في التوراة والانجيل قد تراجوا فيما بينهم وسجدوا وركعوا وعبدوا ، ثم نموا وعظموا ، وقوّوه ، وغانظوا الكفار ، فليكن البحث بعد ذلك في طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فهذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقتها مع ما قبلها ، والمنشرع في تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله) أي لا تتقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش لمقدمهم ، ان حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن تجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فسميت الجهتان يدين مجازا للمجاورة ، ومعنى لا تتقدموا بين يديه ، لا تفعلوا أمرا من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية صور المعقول بصورة المحسوس ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لا تقطعوا أمرا دون أن يحكما به ، وفي ذكر الله معه تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والمقصود من هذا المعنى الانقياد لأوامره ونواهيه فلا يجاون بقول أو فعل قبل أن يقوله صلى الله عليه وسلم ، أو قبل أن يفعله . فلا يذبكون يوم عيد الأنهي قبل ذبحه ، فان الذبح بعد الصلاة ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولا ترفع الأصوات عنده كما حصل من الشيخين ، إذ اختلفا في أمر

فارتفعت أصواتهما بحضرته لما قدم وقد من بنى تمم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سبب نزول الآية وهي عامة شاملة لا تخص ما ذكر (واتقوا الله) في التقديم ومخالفة المسلم (إن الله سمع) لأقوالكم ورفع أصواتكم عنده (عليه) بما تسمعون ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس جهوري الصوت ، وفي أذنه وتر ، كان يتأذى رسول الله ﷺ بصوته ، فنزل فيه في أمثاله قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إذا كلمتموه ، فإذا نطقوا فاطمعت فذلكم أن لا تبالوا بأصواتكم وراء الله الذي يبلغ به بصوته ، وإذا كلمتموه وهو صامت فأيكم أن تبالوا به لجهل الدائر بينكم ، أو أن تقولوا يا محمد يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع السكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى (ولا تجهروا له بالتكلم كجهر بعضكم لبعض) في الأصوين المتكلمين خشية (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ففي الرفع والجهر استعفاف قد يؤدي إلى الكفر المحبط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة ، ولما نزلت هذه الآية تحلف ثابت بن قيس ، فدعا رسول الله ﷺ إلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية ، وإنى رجل جهوري الصوت ، فأخاف أن يكون عملي قد حبط فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، انك تعيش بخير وتموت بخير ، وانك في أهل الجنة . فقال : رضيت ببشرى رسول الله ﷺ لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبدا . فأنزل الله تعالى (إن الذين يهضون أصواتهم عند رسول الله) صراحة للأدب (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أي ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتسكايف الشاقة حتى ظهرت تلك القلوب وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، وقال عمر رضي الله عنه : أذهب الشهوات عنها ، والامتحان اختبار بليغ (لهم مغفرة) لنوبهم (وأجر عظيم) انفضهم وسائر طاعاتهم :

(١) ويروى أن رسول الله ﷺ أخبر ثابتاً بأنه سيقبل في سبيل الله ، فلما كان يوم الجمعة في حرب مسيلة قتل ، وكان عليه درع فرأه رجل من الصحابة بعد موته في المنام . فقال له : إن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعي فذهب به وهو في ناحية من العسكر عند فرس يستن في رطيله ، وقد وضع على درعي برمتي فأت خالد بن الوليد ، فأخبره حتى يسترد درعي ، وأت أبابكر خليفة رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ، وقل له إن عليّ ديناً حتى يقضيه عني ، وفلان من رقيق عتيق ، فأخبر الرجل خالداً ، فوجد الدرع والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبابكر بتلك الرؤيا ، فأجاز أبوبكر وصيته ، قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أحييت بعد موت صاحبها إلا هذه .

(٢) ولما نزلت الآية الأولى كان أبوبكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كاخى السرار ، وما حدثت عمر النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهمه عما يخفص صوته ، لذلك مدحهم الله بقصص الصوت عند رسول الله ﷺ ثم إن العرب كانوا يعاملون النبي ﷺ على عاداتهم فيما بينهم

(١) لما بعث رسول الله ﷺ إلى بني النضير ، وجاءوا بهيأته سبائاً إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن النزارى ، جاء بعد ذلك رجالهم يفدون النزارى ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم قائل في أهله ، فجاءوا ينادون يا محمد اخرج إلينا ، حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، وأعتق نصف النزارى ، وقبل فداء النصف الثاني .

(٢) وأيضا لما جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والزرقان بن بدر وأفدين على رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة ، وهو راقد نأدوه : وقالوا يا محمد اخرج إلينا ، وذلك للمفاخرة كما هو معلوم في فن الأدب والحديث ، لذلك ولأمثاله نزل قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) من خارجها سواء أكان من خلفها أم من قدامها ، والحجارة قطعة أرض محجورة بمحاط

والبراد حبيرات نسائه صلى الله عليه وسلم (أكثرهم لا يعقلون) لأن العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة ، لا سيما لمن كان في منصب النبوة (ولوأنت صبروا حتى تخرج إليهم لسكان) الصبر (خيرا لهم) من الاستعجال لمناقضه من الأدب (والله غفور رحيم) لأنه اقتصر على النصيح والترغيع هؤلاء المسيئين للأدب . وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عتبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ، وكانت بينه وبينهم احنة في الجاهلية ، فلما شرف ديارهم ركبوا مستعجلين إليه ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد ارتدوا ، ومنعوا الزكاة ، فبعث خالد بن الوليد فوجههم يصلون ، فسلموا إليه الصدقات ورجع فنزل : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) أي بأي نبأ (فتبينوا) فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق ، فإن من لا يبالى بالفسق لا يبالى بالكذب الذي هو نوع منه . والفسوق الخروج من الشيء ، يقال فسقت الرطبة عن قشرها ، وفي مقلوبها فقت البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها ، وأيضا فقت الشيء إذا أخرجته من يد مالكه مفتصبا له ، ويستعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبر ، وقوله « فتبينوا » في قراءة أخرى « فتنبوا » ، والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان ، يقول فتنبوا كراهة (أن تصيبوا قوما بجهالة) أي كراهة إصابتكم قوما جاهلين بحالهم (فتصبروا) فتصبروا (على ما فعلتم نادمين) مغتمين غما لازما ، متمنين أنه لم يقع ، فقوله فاسق على هذا هو الوليد بن عتبة ، وأنت ترى أن الفسوق خروج عن الحق ، وهل كان الوليد كذلك ؟ إن الوليد أخطأ في ظنه فليس فاسقا ، فالأولى والأحق أن يراد العموم أي أي فاسق ، والتقييد بالفاسق يدل على قبول خبر الواحد العمل ، إذ لو توقفنا في خبره استوفينا بينه وبين الفاسق ، ولخلا التخصيص من الفائدة (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهي أنكم تريدون أن يطيع رأيكم في الحوادث ، ولو فعل ذلك لعنتم ، أي لوقعتم في العنت ، وهو الجهد والهلاك ، وكان هذا يشير إلى الرواية السابقة على ما قيل أن بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الإيقاع بيني المصطلق وتصديق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصنون ، ويزعهم جأهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناءهم بقوله (والكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) خبرهم للإيمان إلى آخره جعلهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد (أولئك هم الراشدون) أي أولئك المستنون هم الذين أصابوا الطريق السوي ، ومن أبي نصره قال : قرأ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه « واعلموا أن فيكم رسول الله » إلى قوله « حبيب إليكم الإيمان » قال هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتموا فكيف بكم اليوم ؟ أخرجه الترمذي وصححه ، وقوله (فضلا من الله ونعمة) أي حبيب إليكم الإيمان فضلا الخ مفعول لأجله (والله عليم) بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز (حكيم) يفضل وينعم بالتوفيق على الفضال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) فقتلوا (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء إلى حكم الله (فإن بغت إحداهما على الأخرى) تعدت عليها (فقتلوا) التي تبغى حتى تقيء إلى أمر الله (ترجع إلى حكمه ، أو ما أمر به) (فإن فأت فاصلحوا بينهما بالعدل) بفصل ما بينهما على ما حكم الله (وأقسطوا) وأعدلوا في كل الأمر (إن الله يحب المقسطين) يحمد فعلهم بحسن الجزاء ، نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده ﷺ بالسيف والنعال ، ولما نزلت قرأها صلى الله عليه وسلم ، فاصلحوا وكف بعضهم عن بعض ، وهذا دلالة أنه يجب معاونته من بني عليه بعد

تقديم النصيح والسعي في المصالحة ، وأيضا الباغى مؤمن وإذا قبض عن الحرب ترك ، لأنه فاء إلى أمر الله
 (إنما المؤمنون إخوة) لأنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية (فأصلحوا بين
 أخويكم) إذا اختلفا واختلفا ، ذلك أن الإيمان قد عقد الاخوة بين المؤمنين ، فهي كأخوة النسب أو أحق
 وقد جرت العادة أنه إذا حصل مثل ذلك بين الأخوين في النسب فانهم يجتهدون في رفعه بالصلح ، فالاخوة
 في الدين أحق بذلك ووضع الظاهر موضع الضمير في أخويكم مضافا إلى المؤمنين للبالغة في التقرير والتخصيص
 (واتقوا الله) في مخالفة حكمه والامتناع فيه (لهلككم ترجون) على تقواكم (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر
 قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) أي لا يسخر بعض
 المؤمنين والمؤمنات من بعض ، إذ قد يكون المسخر منه خيرا عند الله من السائر ، والقوم مختص بالرجال
 وهو جمع قائم كزائر وزور ، ويقال أيضا أنه مصدر نبت به فشاخ في الجمع (ولا تلهوا أنفسكم) أي ولا يعب
 بعضكم بعضا ، فإن المؤمنين كمنفس واحدة ، ويصح أن يقال ولا تلهوا ما تلهون به ومن فعل ذلك فكأنما
 لزل نفسه ، والزل الطعن باللسان (ولا تنازوا بالألقاب) ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فإن النبز مختص بلقب
 السوء عرفا (بش الاسم الفسوق بعد الإيمان) الاسم هنا الذكر من قولهم طاراسمه في الناس بالكرم ،
 أو بالؤم ، أي بش الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتبارهم به . يقال إن
 الآية نزلت في صفة بنت حبي رضي الله عنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يقالن لي
 « يامهودية بنت يهوديين » . فقال لها : هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد (ومن لم يقب
 عينا نهي عنه (فأولئك هم الظالمون) حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا
 كثيرا من الظن) كونوا منه على جانب ، فليتناقل المؤمن وليحتط حتى يعلم أمن الأمور العملية ذلك الظن
 فيجب اتباعه ؟ أم من حسن الظن بالله فكذلك ؟ أم في الاهيات والنبوات حيث يخالفه الدليل القاطع ؟
 فيحرم اتباعه ، أم هو ظن سوء بالمؤمنين فكذلك ؟ أم هو في الأمور المعاشية فيباح (إن بعض الظن إثم)
 أي ذنب كالثالث والرابع فيما تقدم (ولا تبخسوا) ولا تبخسوا عن عورات المسلمين من الجنس ، وفيه معنى الطلب
 كالتمس ، وفي قراءة بالخاء من الحسن الذي هو أثر الجنس ، كما يقال للحواس الجواس . وفي الحديث :
 « لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بثته » يروى
 أن سلمان الفارسي كان مع رجلين موسرين وهم مسافرون للجهاد ، فقالا له يوما : انطلق فاطلب لنا طعاما
 فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجد
 عنده طعاما ، فأخبرهما ، ثم أرسله إلى طائفة من الصحابة فلم يجد ، فأخذا يتجسسان هل عند أسامة
 ما أمر لهما رسول الله ﷺ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما
 قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يوما لحما . فقال : ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسماء فنزلت هذه الآية (ولا
 يغتب بعضكم بعضا) ولا يذكر بعضكم بعضا بالسوء في غيبته ، والغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان
 فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته (أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) هذا تمثيل وتصوير
 لما يناله المغتاب من عرض أخيه على أخفى وجه ، والمبالغة في الآية ظاهرة في الاستفهام التقريري واسناد
 الفعل إلى أحدكم ، وجعل المأكل لحم أخا وهذا الأخ ميت ، وعن قتادة : « كما تكره أن وجدت جيفة
 ممدودة أن تأكل منها كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي » (فكرهتموه) أي إن صح ذلك وعرض عليكم
 هذا فقد كرهتموه ، ولا يمكنكم إنكار كراهته (واتقوا الله) بترك ما أمرتم باجتنابه ، والندم على ما وجد منكم
 منه ، فإذا اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المؤمنين التائبين (إن الله تواب رحيم) يا أيها
 الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى من آدم وحواء فكيف يغتاب بعضكم بعضا ؟ وكيف يسخر بعضكم من

بعض وتتنازرون الخ (وجهلناكم شعوبا وقبائل) الشعب الجع العظيم المنقسمون إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العماثر ، فالبطون ، فالأنفاد ، فالفصائل . ففرقة شعب ، وكثانة قبيلة ، وقريش عمارة وقصى بطن ، وهاشم نخد ، وعباس فصيلة (تعارفوا) ليعرف بعضهم بعضا لا للتفاخر ولا للحرب والامز والنز والسخرية ، وظن السوء بالأخ في الدين (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبالتهوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تفاضل النفوس لا بالأنساب ، فمن أراد الشرف فليتمسه منها . قال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله » . (إن الله عليم) كرم القلوب وتقواها (خبير) ببواطنكم ^{xx} روى أن نفرا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدية ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنوفلان ، يريدون الصدقة ويمنون ، فنزل : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب ولم يحصل لكم والامنا منتم على الرسول بالاسلام وترك المقاتلة (ولكن قولوا أسلمنا) فإن الاسلام انقياد ودخول في السلم ، واطهار الشهادتين ، وترك المحاربة يشعربه (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أي ولكن قولوا أسلمنا ، واحطال انه لم تواطىء قلوبكم ألسنتكم بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لا يلبسكم من أفعالكم) لا ينقصكم من أجورها (شيئا) يقال لات يلبس اذا نقص (إن الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا ، يقال رابه فارتاب (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) في طاعته ، والمجاهدة بقسميها تصلح للعبادات المالية والمبدئية (أولئك هم الصادقون) الذين صدقوا في إيمانهم (قل أتعلمون الله يدينكم) أي أنخبروه بقولكم آمنا (والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه خافية (يمنون عليك أن أسلموا) أي يهتدون اسلامهم عليك منته وهى النعمة الثقيلة من الحق (قل لا آمنوا على أي اسلامكم منصوب على نزع الخافض (بل الله يمت عليكم أن هذا لكم للإيمان) على ما زعمتم مع ان الهداية لا تستلزم الاهتداء (إن كنتم صادقين) في ادعاء الإيمان فله المنة عليكم ، وهذه الجملة جواب ان (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) ما غاب فيهما (والله بصير بما تعملون) في سركم واعلانكم ، فكيف يخفى ما في ضمركم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

خاتمة في مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبي ﷺ والأمة ، وقسم يخص الأمة ، والثاني إما تحلية بترك الرذائل ، وإما تحلية بالفضائل ، والقسم الأول هو : —

- (١) لا يقدم المؤمنون على أمر من الأمور دون الاعتناء على أسئلة الكتاب والسنة .
- (٢) التهييب والاجلال له .
- (٣) لا يتجاوز صوتهم صوته .
- (٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب وصراعة للأدب .
- (٥) لا يخاطبون باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبي والرسول .
- (٦) من خفضوا أصواتهم عند رسول الله ، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضي الله عنهم ، امتحنت قلوبهم للتهوى وخلعت بالاختبار كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه .

(٧) بنو النضير الذين نادوه من وراء الحجابات ، وهكذا عيينة بن حصين ومن معه من وفد بني تميم إذ قالوا وقت الظهيرة وهو راقد : يا محمد اخرج إلينا أكثرهم لا يعقارن .

(٨) الصبر خير لهم حتى تخرج وتكلمهم .

(٩) ذمّ المنّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان ، وأن المنّ إنما يكون لله إذ هداهم إلى الإيمان إن صحت لهم الهداية .

وهذه المسائل التسع فتح باب المعاملة ذوي العلم وخفض الصوت عندهم ، واحترامهم لشيوخ العلم والفضلاء في الاسلام .

القسم الثاني في التخلية بترك الرذائل

(١) لا نسمع كلام الفاسق بل نقبض لتظهر الحقيقة وإلا وقعنا في فتنة جهلاء ، ونبدنا غما .

(٢) نقبل كلام العدل ، وهو يوجب الظن لا اليقين .

(٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فاستهوا عن طاعة الامام العادل بتأويل محتمل ، ونصبوا لهم إماما ، فالحكم فيهم أن يبحث إليهم الامام ويدعوهم إلى طاعته ، فإن أظهروا مظلمة أزأها عنهم ، وإن لم يذكروا مظلمة وأصرّوا على البغي قاتلهم الامام حتى يفيئوا إلى طاعته ، ثم إن هؤلاء لا يتبع مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يذفف على جريحهم ، أي لا يجهز عليه . وأتى على عليه السلام يوم صفين بأسير ، فقال : « لا أقتلك صبرا إني أخاف الله رب العالمين » ثم انه لاضمان في نفس أموال على إحدى الطائفتين ، فأما اذا كان البغاة فئة قليلة لامنعة لها ، أولم يكن لهم تأويل ، أولم ينصبوا إماما ، فلا يتعرض لهم اذالم ينصبوا قتالا ولم يتعرضوا للمسلمين ، فإن فعلوا ذلك فهم كقطاع الطريق في الحكم . هذا ملخص ما جاء عن الأئمة في قتال الباغيين . أما الآية التي نحن بصددھا ، فالكلام عليها أعم ، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قالوا أو كثروا فإن بغت إحدى الطائفتين ، فلنقاتل الباغية ، ومتى فاعت فليكن الصالح بالعدل .

(٤) العدل في كل الامور .

(٥) شوق الله المسلمين وحضهم على المصلح بين اخوانهم ، وحبب إليهم ذلك بذكر الاخوة وتكرارها

(٦) تقوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرحمهم بتلك التقوى .

(٧) ترك السخرية ، فلا يسخر رجل برجل ، ولا امرأة بامرأة .

(٨) ربما يكون المستخور منه خيرا من الساخر ، كما كان الأنبياء يسخر منهم الجاهل ثم يعاونهم كما حصل لنوح عليه السلام : « إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون » .

(٩) لا يكن لمز من المؤمن للمؤمن ، وهو الطعن والضرب باللسان ، واذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما

عاب نفسه ، واذا فعل الانسان ما يستحق به اللز بأن عرّض نفسه لذلك ، بسبب الوقوف مواقف التهم مثلا ، فكأنما لمز نفسه وعابها ، وأيضا اذا عاب الانسان غيره كان ذلك حاملا لذلك على عيبه فكأنه عاب نفسه .

(١٠) لا يكن تنابز بالألقاب ، فاذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها ، فإن الله نهى أن يهين بما سلف من عمله ، وأيضا لا يقول المؤمن لأخيه : يا فاسق ، يا منافق ، يا كافر ، يا جاحر ، يا خنزير ، وهكذا كل ما يكرهه المنادي به ، أو يفيد ذمّا له ، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام : كالأعمش ، والأعرج ، فلا بأس بها .

(١١) النهي عن ظن السوء بالمسلم مع التكامل به كما قال سفيان وغيره لم يفسد بذلك ، وعن سوء الظن بالله .

(١٢) لا يبحث المسلم عن العيوب المستورة ، ولا يتتبع عورات الناس ، حتى لا يظهر ما ستره الله . يقال : « نظر ابن عمر يوما إلى الكعبة ، فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » .

(١٣) لا يذكر بعض المؤمنين بعضا بالسوء في غيبته ، روى أن عائشة ، قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صنفية كذا وكذا : أى قصيرة . فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر أزجته ، أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه ، لشدة نيتها وقبحها . وقال ميمون بن سيار : بينما أنا نائم إذا بحبيبة زنجى وقائل يقول : كل يا عبد الله . قلت : وما آكل ؟ قال : كل بما اختبعت عبد فلان . قلت : والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا . قال : ولكنك استمعت ورضيت فكان ميمون لا يفتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يفتاب أحدا عنده .

(١٤) تقوى الله في أمر الغيبة ، وفي جميع المنهيات . هذه هي التحلية عن النقائص المذكورة في هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : التحلية بالفضائل

(١) إن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، هم كانوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، فيكون الناس على هذا كأغصان الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فانها كلها متصلة متحدة مجمعة على أصل واحد ، وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة في الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لثمرة على زهرة إلا بما فضلت به الزهرة وفضلت به الثمرة ، هكذا لا فضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأتقياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقل من ذلك ، يقال إن ثابت بن قيس لم يفسح له رجل في المجلس ، فقال فيه (ابن فلانة) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من ذا كـر فلانة ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله . قال انظر في وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيت يائبا ؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فزالت في ثابت هذه الآية ، ونزل في الذي لم يفسح له : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس الخ »

(٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أصر رسول الله ﷺ باللا حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيص : الحمد لله الذي قبض أبى ولم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو : إن يكره الله شيئا يغيره ، وقال أبو سفيان : لأقول شيئا ، أخاف أن يخبره رب السماء ، فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، وسأهم عما قالوا فأقرؤا ، فأنزل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتسكاثر بالأموال ، والازراء بالفقراء ، لأنهم متساوون في النسب ، فلا تفاخر لبعض على بعض ، لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفي البخارى لما سئل : « أى الناس أكرم » قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدقون في السؤال حتى قال في العرب : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا أى تعلموا » . وعن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخا ، فنزل على أيدي الرجال ، ثم قام فخطبهم

حمد الله وأثنى عليه ، وقال الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس : إن الناس رجلان : برّ قبيح كريم على الله ، وفاجر شقيّ هين على الله ، ثم تلا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » ، ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . - قوله المحجن : عصا مخنية الرأس كالصوحيان ، وقوله عبية الجاهلية أي كبرها ونفرها اه

تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل المذكورة مقسم على التحلية بنضائل الائتلاف ، ولذلك قدم في السورة على تعارف بني آدم ، فأولا تعظيم الرسول ، وقبول قوله ، ثم الآداب العامة بين الناس ، ثم يكون اتحادهم بالتعارف والبحث والعلم ، وهذا هو المقصود الأعظم . ألا تعجب من هذا المقام ! ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة وأبناء العرب واقفون ! أنظر إلى هذا تجده رمزا إلى اتحاد نوع الانسان كله كأنه يقول : ليس الاسلام كاليهودية ، إن اليهودية جعلت ديننا خاصا بجنس واحد وهم بنو اسرائيل ، أما دين الاسلام فلا أبيض ولا أحمر ، ولا عربيا ولا عجميا ، بل الناس فيه سواء ، أنظر أيها الذكيّ للأمم الحاضرة ، أنظر إلى أمريكا التي مدحت اتحادها لك سابقا ، وذمت الأمم الاسلامية الحاضرة لجهلها وتقاطعها ، أنظر أليس البيض هناك يحرقون أن يكونوا مع السود في مركبة واحدة في القطار ، ذلك لمجرد اللون ، أنظر كيف سبقونا في العلم والأخلاق ، ولكن لا تزال فيهم تلك النقيصة المزرية ، وهي اعتبار اللون فارقا ، أنظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة والعرب الذين هم أهلها واقفون ، أنظر : ان ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذي سيجمع الأمم جمعا حقيقيا لاجعها صناعيا ، فليجد النوع الانساني ، فالأمم الاسلامية التي بعدنا ستفهم هذا ، وستقرأ كل العلوم والصناعات وتجد وتحوز الحكمة ، واذن يقودون أهل الأرض . أنظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم : « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا » ولم يقيد التفقه بعلم خاص ، يريد إذا علموا كل ما يجب علمه في أحوال الدنيا والآخرة ، ولا جرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعراق والموصل والسودان فهؤلاء خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام على شرط العلم الذي لم يقيد به إلا بعض النقيض بلا حتى ، فهل نحن الآن خيار الأمم ؟ أقول نعم على شريطة العلم الذي يلزم للأمة في دينها ودنياها ، واسكننا الآن لسنا خيار الأمم ، لأننا جهلاء ، وانخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم بحث هذه الأمم المتجاورة على العلم كما شرحت في سورة ﴿ آل عمران ﴾ فيدرسون العلم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واذن يتعارفون ، لأنهم تقاطعوا بالجهالة الكتماء فصاروا أمما عجماء متفرقة متشاكسة ، فإذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التي درستها أوروبا واليابان وأمريكا وزادوا عليها ، ثم اتحدوا مع اخوانهم الترك والفرس والأفغان ، وسائر أمم الاسلام ، فاذن يكون خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، وهذا الذي أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره وسيعرف أبناء العرب ذلك ، ويعملون به قريبا ، وسيكون قرّاء هذا التفسير قاندي تلك الحركة من أمم الاسلام . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٦ يونيه سنة ١٩٢٥ م



لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى

اعلم أيها الذكي أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع :

في هذا الشهر وهو شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ منذ أيام كنت سائرا إلى جهة النيل لمجرد الرياضة حيث النسيم عليل ، والجو جميل ، والدنيا مشرقة ، والنيل جار ، والأشجار منزهات ، والزروع نضرات ، إذا بامرأة صريضة ، تمشي وهي عرجاء صفراء ، قد ازداد ضعفها ، ونحل جسمها ، فخطر لي أن هذه لا تطلب للزواج ، ولا يرغبها الأزواج ، وما كان أسرع الخاطر إذ ذاك إلى إرخاء العنان ، والخوض في المعامع ، والعروج إلى طرائف المعاني ، والوصول إلى درجات المعالي .

هنالك هنالك أخذ العقل يقول : الناس جميعا في الأرض متحنون ، لا يطلب الرجل امرأة لزواجه إلا بعد أن يأنس بجملاتها ، ويرتاح خللاطها ، ويسره مرآها ، ويروقه مبدؤها ومنتهاها ، نعم هذا نوع من الامتحان ، امتحان في الجمال ، امتحان في الأخلاق ، امتحان في القوة الجسمية والقوى العقلية ، فالمشوهة الخلقة ، والقييصة الوجه ، والسيدة الخلق ، والفبيبة العقل ، لا يرغبها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك ، ولكن النقص فاش ، والطيور على أشكالها تقع ، والكمال درجات .

فيأعجبنا النظرة فائرة ، وخلسة ماضية ، أحضرت علما وحكمة ، وأفادت نورا وفهما . القبح ذكر بالجمال والمرض أذكرنا بالصحة والكمال .

خلال ثلاث يحد في طامها الانسان : خلة الصحة في الجسم ، وخلة انتظام الخلق ، وخلة الكمال في تفكير العقل . هذه هي الثلاث الثلاث التي قدمنها في ﴿سورة الفتح﴾ وكانت من آيات الله في زماننا ، إذ كانت هذه الثلاث هي كما قدمنها الفتح العلي : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » والأخلاق الجيلة « ويهديك صراطا مستقيما » وينصرك الله نصرا عزيزا . ومن مقدمات هذا قوة الأبدان ، وهذه الثلاثة هي مقاصد العلم في زماننا كما ترجمته لك من أقوال علماء زماننا .

أفلا تنجب الآن ! نرى الله يقول لنا في هذه السورة : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ولا جرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملا وهو إحدى الدعائم الثلاث ، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل في أسدها ، فالتة امتحن قلوب طائفة زمن النبوة ، ولا جرم أن امتحان القلوب أغمض من امتحان الأجسام . الحياة كلها امتحان ، امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالمقوى لبعائنا الامتحان في الأعمدة الثلاثة ، لأنه إذا امتعن فيما أغمض ، فالامتحان فيما هو أسهل من باب أولى .

وصرح بالامتحان في سورة أخرى سماها باسم « الامتحنة » فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لاهن حلن لهم ولا هم يحلون لهن » إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى ، وأمرنا يوما ما أن نمتحن النساء المهاجرات فالأعلم بمتحن من هو دونه ، والرجل أعلم من المرأة ، فهو بمتحنها فيعلم إيمانها .

كل هذه الأوايات الدينية تفتح لنا أبواب الامتحان ، فلنمتحن كل شئ في هذه الدنيا ، واما امتحنا عقل الانسان فامتحان جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير في هذا الوجود من باب أولى ، ومن ترك

الاختبار والامتحان ، وعاش حالة على المجموع لم يفكر وهو يقول على تفكير غيره وامتحانه فأنما هو طفل يقيم يربيه المحسنون .

يمتحن الطبيب المريض إما بحس نفسه بحاسة اللمس ، وإما بإسجاع عدد الضربات ، وشدة وضعفها بسمعه ، وإما بمشاهدة البول في القارورة بحاسة بصره ، وبمشاهدة لسانه أنظيف أم عليه طبقة فضيه ، هكذا عايننا أن نمتحن ما نباشر من أعمالنا من جميع وجوهه ، ومن الطرق المختلفة : من أن نكل على غريزته فهو أشبه بالحيوان ، والغريزة يجرئها ظاهر الأمور ، ألم تر إلى النراش يرى النار فيمتدح إليها فيحترق ، وإلى الدباب يقع في العسل فيموت ، هكذا غرأنا إذا وقفنا عليها أخطأنا بنافي أسرج المواقف وأشد الأزمات ، فمن بهره رافع الجبال واعتز به ، وأودته جهائنه ، وأحاطت به خطيئته ، وقامت بجهله قيامته ، فظواهر الجبال ، لا تفي عن دخال الأهمال ، وزخرف الظواهر وزينتها تغر الجاهلين ، وتقعده بالعجزين ، وتودى بالعاقلين ، وهالك جوهرة نفيسة ، وزهرة جميلة ، أختم بها هذا المثل ، وهي ما قرأته في كتاب « سررات الحياة » للورد أبقري المولود سنة (١٨٣١) المتوفى سنة ١٩١٣) تحت عنوان « الرجل السكامل » قال : « ما تلك الصفات التي تتوخاها في الرجل السكامل في هذه الحياة ؟ وما هي المزايا حتى يتمتع بها العصامي العبقري ويمتاز عن سواه ؟ ثم أجب قائلا : هي أولا العقل الرزين المصون ، ثانيا العواطف الشريفة كالبرودة ، والإحسان ، والحب العام ، والكرم ومكارم الأخلاق ، وثالثا صدق النظر في قضايا العقل والتثبت في أحكامه ، ورابعا قوة بدنية تصون هذه الخلال وتحفظها من الزوال ، وتساعد على تنفيذها في المجتمع العام ، وإذا لم يكن العقل رزينا صائب الحكم أسرع في حكمه ، فسكان الخطأ حليفه ، والألم نصيبه ، وقد أحاطت به المصيبة ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة ، والأخلاق شريفة ، والنفس عفيفة ، فإن الإنسان يكون عابدا لنفسه ، واقفا عند حسه ، جاهلا بحب جنسه ، بعيدا عن الأنس به . وإذا لم يكن الجسم حسيديا والأعصاب قوية متينة ، فإن عمله يكون ضخिला ، ونفعه قليلا ، وحرمانه طويلا ، لا يذكي نارا ، ولا يدفع عارا ، ولا ينفع جارا . وإذا كان القصد نبيلًا ، والنية حسنة ، والسكن قوة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق ، متعثرة الأذيال ، غبية عمية ، فإن ضررها يكون أكثر من نفعها ، وخطؤها أكثر من الصواب .

قال نسكيري : « نحن نمدح الرجل فنقول هو عبقري ، هو كامل ، كيف يكون هذا السكامل ؟ أكون بالشرف ؟ أم يكون بالظرف واللاطف ؟ أم يكون بالشجاعة والاقدام ؟ أم يكون بالعقل ؟ أم يكون بالجماع هذه الأوصاف كلها فيه ؟ وظهور أثرها على يديه ، بأسلوب تصحبه الرقة واللاطف والشفقة والعطف والحنان ، إن الرجل السكامل يجمع ذلك كله ويفوقه هو أند من الكبريت الأحمر ، وأعز من بيض الانوق ، هو أبعد مما نطق . إن الملوك يقدر أن يعطوا الناس ألقاب الشرف ، وصفات الاعظام والسكامل . ولكنهم لن يتسنى لهم منح نفس السكامل ، فهم يمنحون الأقوال بحسب ، وكل منا يتسنى له أن يكون كاملا نبيلًا متى أردنا » انتهت ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذه القطعة الانجليزية تسببه نظيرتها في « سورة الفتح » وغاية الأمل أنها هناك مجمة وهنا أشبه بتفريع عليها ، ولكن مخطري هنا سؤال وهو : إذا كان الامتحان مشروعًا شرعًا الله وقد أمر المسلمين وقتما ما أن يمتحنوا المهاجرات في حال خاصة ، وهو نفسه امتحن قلوب رجال للتقوى أفلا نفكر نحن في المسألة المشهورة الاجتماعية ، وهي أن الزوجين يمتحنان عند الزواج ، أهما صحيحان أم مريضان ؟ فقلت : هذا حسن ولكنه بسورة المتعنتة أليق ، فانتظره هناك في تفسيرها إن شاء الله تعالى . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « إن الله عليم خبير » وفي هذه اللطيفة (١) أو بع : قالات : المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » بفت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفي إلى أسي الله فان فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المتسطين ﴿٢﴾ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴿٣﴾

يأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أي طائفتين من المسلمين اقتتلوا ، وليكن الصلح بالعدل ، فلا يذهب لمن كان من غير أمته ، كما لا يجوز للإنسان أن يشهد لأبيه ، أو أخيه ، أو لفتى ، أو لغير الخ كما تقدم في (سورة النساء) .

فاذا بفت طائفة ولم تقبل الصلح فليقاتلها المسلمون ، وحتى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل ، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين ، بل جعلهم إخوة ، ثم أمر المسلمين بالتقوى ، وهذا يعقبه الرحمة العامة ، والرحمة هنا في الأرض الأمن والسعادة ، والفز والسودد ، وعظمة الأمم الإسلامية ،

هذه يارب أوامرك ، ولقد علمنا علما يقينا أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريطة ، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله في أمر الخلافة وان كانوا في حكم الرعية غالبا عادلين . فعصى المسلمون أمر الله وتعصبوا لقبائلهم وأنسبهم . لم يرض عمر رضي الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبد الله بن عمر ، لماذا ؟ لأن الأمر شوري بين المسلمين ، أما أن يأتي خليفة فيقول : إن الخلافة لابني فهذا ليس له ، بل هو حرام عليه ، لأن المسلمين ليسوا قطيع غنم يرثون ، فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ ولقد جاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » في صفحة ١٠٩ وما بعدها من الجزء الرابع ما يأتي :

« ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا ، وآل علي بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون في إدراكها ، وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها معاوية سنة ١ هـ هجرية ، فغضب أشياخ العالويين في الكوفة من تنارله وهاجوا ، وأمر الكوفة يومئذ زياد بن أبيه العامية الشهير ، فشدد في اخضاع الثرة ، وقتل جماعة من أشياخ علي ، فيهم حجر بن عدى وأصحابه ، فتربص العالويون بقتل موت معاوية لعل انتحاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا بيعته قاموا عليه ، وزادهم فمة ما هموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالصياد ، فمن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام السالوي في ذلك :

خشينا الفيل حتى لو شر بنا به دماء بني أمية ما رونا

لقد ضاعت رعيتهكم وأنتم تصيدون الأراب غافلين (١)

وكان أوجه العالويين يومئذ الحسين بن علي ، فأما مات معاوية سنة ٤٠ هـ هجرية وتولى ابنه يزيد أبي الحسين أن يبايعه ، على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى هذبوا ببعثهم خرقا لحرمة الدين (٢) وكان الحسين في المدينة ، فأما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر إلى مكة وأكثر شيعته في الكوفة ، فسكتوا إليه وهرضوه على القدوم إليهم لينصروه ، فلما علمهم ، ولما اقرب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جنودا حاربا ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة في

كر بلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قودهم من مناصرتهم ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يطالبون بدمه ، وسموا أنفسهم « التوابين » وأمير السكوفة لايزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها ، ودلوا عليهم رجلا منهم ، فقتل ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهو من جلة الذين طمعوا بالسيادة لابتزاز الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال ، وكان المختار على الهمة ، فجاء السكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو إلى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، فقبعة على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله ، وقتل أكثر قتلة الحسين ، ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا بتلك الدعوة ، فبعث إلى المختار يتبرأ منه ، فقول المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جلة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لأحمد ، لأنه إنما كان يريد لها لنفسه ، فلما علم ابن الزبير بفرضه بعث أخاه مصعبا على العراق فارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والأخرى تقول بتحويلها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهورا وتصديا للفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابها حتى صار الأئمة ١٢ إماما وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من الشيعة العلوية أيضا فرق أخرى غير واحد من أعقاب علي كالزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخرى لا محل لذكرها . وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله ، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر ، وصلبوا آخرين فأصبح دعاة الشيعة يسترون خوف الفتك بهم ، فلاقي العلويون في أيام بني أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا ، وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية المتوفى سنة ١٢٦ هجرية ، فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا إلى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه من عمال بني أمية ، فقد كان ينصر العلويين ، ويستعمل أهل الذمة كما تقدم . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ الممّن الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

هذه حال المسلمين بعد العصر الأول ، فأين الصلح ، وأين الحق ، وأين الشورى ؟ معاوية أمر الناس بالمباينة بالخلافة لابنه ، كيف هذا وأين الشورى ! تر بص العلويون موت معاوية ، ولهم الحق لأن الأمر شورى ، ولكنه أمر بمباينة يزيد ، إذن لا شورى ، إذن هو ملك عضوض ، إذن القرآن لم يعملوا به ، ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد قتل الحسين رضي الله عنه اختلفوا ، فالكيسانية ساقوها إلى محمد بن الحنفية ، وغيرهم جعلوها في ولد الحسين رضي الله عنه حتى صارت الخلافة إلى محمد المهدي ابن حسن العسكري وهم ١٢ إماما ثم كانت فرقة الاسماعيلية وغيرهم ، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم ، وهذا ورب العرش هو الارتباك . هذه أمور لا توافق القرآن ، بل هي اعتقادات أضرت بالمسلمين .

أيها المسلمون : الشورى بينكم والصلح ، أيحوز في ديننا أن نسمع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرها لجور شبهة ! « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله اعلمكم ترجون » .

(١) ابن الأثير ١٢٩ ج ٥

الشيعة العباسية والعلوية

لو كان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن ، وكفعل أصحاب النبي ﷺ واجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، أى لوفعل المسلمون بدليلين يقينيين ، وهما نص الكتاب ، ودليل الاجماع ، لم تسكن هناك شيعة عباسية وعلوية يطالبان بالملك ، بل كان أولو الرأي يجتمعون ويقررون الخلافة لمن حاز صفاتها ، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق ، فالتجأوا إلى العصبية وأيدوها بالسيف .

ظلم بنو أمية العباسيين والعلويين ، وقتلوا رجالهم ، فماذا جرى بعد ذلك ؟ اتحد الفريقان ، ودبروا المكائد ، لنيل الخلافة سرًا ، وهما معا من بنى هاشم أعداء بنى أمية من أيام جاهليتهم ، وباع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية لتقدمه عليهم في الفضل ، فالأصم إذن شورى بين الرهطين ، وهذا حسن جدا ، سارت دعوة العباسيين في بلاد الفرس وغيرها وسكت العلويون لأن العباسيين بايعوهم ومنهم السفاح والمنصور . وأمر إبراهيم الامام العباسي أبا مسلم الخراساني وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشك فيه ، وقتل مروان بن محمد إبراهيم الامام ، فانطلقت الامامة إلى اخوة الامام المقتول ، والعلويون وأنصارهم لا يهتضون ، لأن عدوهم لا يزال حيا ودولته قائمة ، ولما سقطت دولة الأمويين غدر المنصور بالعلويين ، وقتلهم تقيلا ، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله .

اللهم ليس هؤلاء على سنن القرآن ، استبدت الأمويون بالخلافة ، وتركوا الشورى ، وحاربهم العباسيون ، والأمويون يطاردونهم ، ففازوا ، فيكون الغدر والقتل ، فأين الآية ، وأين الشورى ، وأين القرآن ؟ اللهم إنك عظيم وعلى ، أنت تعلم ضعف أهل هذه الأرض ، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى السكال ، ولذلك حبستهم في هذه الأرض ، والمحبوسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوما يعظونهم في السجون ، ولكن تغلب عليهم طباعهم ، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم ، ورجعوا إلى الجاهلية في الخلافة ، أما في حفظ الدولة فلا

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذه أمور عظيمة - فذكرني بالتفصيل في هذا المقام ، فالاجال لا يغني عن التفصيل . فقلت يا صاح إن أردت إلا الافصاح ، فاسمع ما جاء في الجزء الرابع من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » في صفحة ١٠٨ وما بعدها تحت عنوان « الشيعة العباسية » وهذا نصه :

« وكان في جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم بنو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها ، والأمويون في إبان دولتهم ، وانما كانوا يدعون إلى أنفسهم سرًا ، وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقتهم واضطهادهم يتقاربون ، لأنهم من بنى هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بنى أمية من قبل الاسلام ، والمضطهدون يتقاربون في أى حال .

وظل العباسيون يتسرون في دعوتهم وهم مقيمون في الحيمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شأن بنى أمية ، فهموا بالتهوض ، واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبي هاشم ، وكان أبو هاشم هذا يقد على خلفاء بنى أمية من المدينة إلى الشام فيمر في أثناء الطريق بالحيمة ، ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه في الخلافة ، فخافه ، فهدس إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سمه في لبن ، فشر أبو هاشم بالسهم وهو في بعض الطريق ، فخرج إلى الحيمة ، وصاحب الدعوة العباسية يرمث محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فنزل عنده ، ولما أحس بدنو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده ، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم ، فلما مات أبو هاشم نهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جيها ، فأخذ في بث الدعوة سرًا ، ثم توفي وقد أوصى

بالخلافة بعده إلى ابنه إبراهيم وعرف بالامام ، فأخذ إبراهيم الامام في بت دعائه ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار ، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم في خراسان والعراق وقد نصرها العلويين صرارا ، فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم وأرضاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أي أهل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يسم العلويين ولا العباسيين ، وكان الخراسانيون قد ماوا السولة الأموية ، فهان عليهم أن يبايعوا آل محمد ، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين ، وتوفي إبراهيم الامام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد الحبيب فأتى أمرهم وسلم لهم السولة كما هو مشهور .

بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بني أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الأمويين ، وفي من يخلفهم من آل البيت ، وكان في جملة الحضور أبو العباس السفاح وأخوه عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وهو أبو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس ، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يوسف وهو محمد بن عبد الله بن حسين المثنى ابن الحسن ابن علي الملقب بالنفس الزكية ، فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموا أنه من النضل عليهم ، وبايعه أبو جعفر المنصور في جلنهم (١) ولعل هذه المبايعة هي التي أكتت العلويين عن طلب الخلافة في أثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كأنهم انفقوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت ، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام إبراهيم أو غيره من بني العباس .

أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين ، وفي جلنهم أبو سلمة الخلال الميرى الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حمام أعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها ، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس كظم رتبه ليس يرى ما يقول الناس ، ثم علم أن إبراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة « من اتهمته فاقته » ، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جلنهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شوري بين الشيعتين (٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الامام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه أخوة الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح وأخوته وسائر أهل بيته ، وقد انتقلت البيعة إلى أبي العباس المذكور ، فأنزله أبو سلمة عنده ، ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة ، فسكت ، فبقيت آل العباس ، وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقوادحار بنون عساكر الأمويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبهم وملاكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفاً على أنفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شوري بين الرهطين ، وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين ، فشكروه إلى أبي مسلم سراً ، فهدس إليه رجلاً قتل بالكوفة غيلة ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتلوه ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في إخلاصهم حتى تم الأمر لهم .

أما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في المدينة ، وبايعه معهم سائر بني هاشم ، ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٣ جاءوا إليه

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الأثير ٢٤٣ ج ٥ والفرج ١٤٧

(٢) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودي ١٥٠ ج ٢

في الكوفة يطالبونه ببيعهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال ، وقطع لهم القطن ، وكان في جملة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة ، فأكرم السفاح وفادته ، وعرض عليه ما يرضاه من المال ، وقال له : استحكم عليّ ، فقال عبد الله بألف ألف درهم فإني لم أرها قط ، ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صير في اسمه ابن أبي مقرون ودفعه إليه ، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتصمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبكي ، فسأله عن السبب ، فقال : « هنا عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط » فبناه به ، ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه ، فابتاعه بخمسين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس بكرام عبد الله وانزله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما في ضميره ، فبث عليه العيون ، فأنس هذه طمعا ، فزاده عطاء ، فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلاً بالأموال ، ففرقها في أهله ، وكانوا أهل فقة ، فلما رأوا تلك الأموال سرّوا .

وأما عبد الله فصار مضمراً المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما تمت المباينة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك ، والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالأموال كما رأيت ، فلما توفي السفاح سنة ١٣٣ هـ بخرية خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلاً شديداً البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه ، فكان همهم قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة ، لأن لهم في عمقه بيعة ، فبث عليهم العيون ، وأراد اختبارهم ، فبعث بعطاء أهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب إلى عامله فيها : « أنظر الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه ، وتشدد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم المذكوران ، فكتب إليه بذلك ، فتدقق المنصور أنهما ينويان القيام عليه وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه ، لأنه كان يكرههما ، ويعتقد الأموال عليهما ، والمنصور لا يرى ذلك ، فلما رأوا تضيقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم ، فلم أبو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق واحتال في استطلاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابني عبد الله ، وكتب إليه يستقدم بهما ، فأفكر عبد الله أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصاً بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعاً ، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق فنقلهم وهم مشايرون بالقبود ، والأغلال في أرجلهم وأصنافهم ، وقد جعلهم على خيل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما ، فجاءوا ببني الحسن وعندهم بضعة عشرة رجلاً ، فأنس المنصور بنقلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة . أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور إلى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدا من القيام ، فظهر بالدعوة ، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه . فقالوا : « إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر » . فقال : انكم بايتموه مكرهين ، وأن بيعة محمد بن عبد الله أصح منها ، لأنها انعقدت قبلها (٢) . وكان أبو حنيفة أيضاً على هذا الرأي يقول بفضل محمد هذا ويحتاج إلى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول ، فتأذت إليهما الحنة بسبب ذلك ، فلما تمسكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ هجرية أصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكاً على القتياب في طلاق السكره وحبس أبو حنيفة على القضاء كما هو مشهور . وكان لسكر المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ذلك لا يسدر من أهل البيت ، كما صدر من بني أمية فتحسروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها .

(١) العهد الجديد ٢٧ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤

ذكروا عن محمد بن عبد الله في أثناء قيامه على المنصور أنه سمع شاعرا يرثي بني أمية ، فبكى فقال له
عمه : أنبكي على بني أمية وأنت تريد بني العباس ماتريد . فقال له : يا عم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا
فيا بنو العباس إلا أقلّ خوفا لله منهم ، وأن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم ، واقد كان للقوم أخلاق
ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر (١) .

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطر بين عظيمين : الأول أن
يحاربوا بني أمية ويتعلبوا على أخراهم . والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة . وكانت
الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت في عصر الراشدين ، وكما أراها بنوعلي ،
وأن العلويين إنما عجزوا عن نيلها لاعتقادهم في دعوتهم على شرف نسبهم ، وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم
يفلب إلا بالدهاء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش ، فلما انتقلت البيعة
من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم أفضت
بعده إلى ابنه إبراهيم الامام ، وتوفق هذا إلى أبي مسلم الخراساني ، ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائدا على
نقبائه ودعاته ، وأرضاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا فصياها :

« انك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي ، انظر إلى هذا الخبيث من اليمين ، فالزمهم ، واسكن بين
أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار
واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت أن لاندع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأما غلام بلغ
خمس أشبار واتهمته فاقتله » . (٢)

خرج أبو مسلم من عند الامام إبراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها ، وعول عليها ، فكان يقتل كل من
اتهمه ، أو شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبورا (٣) بدون
حرب في بضع سنين ، وفي جللتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار السعاة كأبي
سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بنفسه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال
لأبي مسلم أمير آل محمد ، فلما استشار السفاح أبا مسلم بشأنه ، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبو مسلم
بقتله ، فقتلوه ، وقتلوا عماله على الأطراف ، وفعل نحو ذلك أيضا سليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة
الدولة العباسية قبله وكان شيخا جليلا يدخ وسعا في نصرة تلك الدعوة ، فبعد قتل أبي سلمة بلغ أبا مسلم
عنه مثل ما بلغه عن أبي سلمة ، فأحضره إليه ، وقال له : « أحفظ قول الامام لي من اتهمته فاقتله ؟ » قال
نعم ، قال : فاني قد اتهمتك ، فخاف سليمان ، وقال : أناشدك الله ، قال : لا تناشدني فأنت منطو على غش
الامام ، وأمر بضرب عنقه (٤) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد ، قتل بعضهم بالحيلة
والبعض الآخر بالقدرة ، ومنهم المكرمان وأولاده وكبار رجاله (٥) وغيرهم بشرك كثير حتى سئم الناس فعله ومالوا
سفك الدماء ، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابلاته الا أوصى وتكفن وتحنط ، وثار من
ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس ، وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء
وأن يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم .

(١) الأغاني ١٠٦ ج ١٠ (٢) ابن الأثير ١٦٥ ج ٥ (٣) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٥

(٤) ابن الأثير ٢٠٨ ج ٥ (٥) ابن الأثير ١٨٣ ج ٥

المنصور والدولة العباسية

فهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدهم أولا على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت ولم يكسب ببغية أبي العباس ، وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولكنه حرصهم على قتل من بقي من بني أمية بالأغراء أو التخويف على ألسنة الشعراء ، ويقال أنه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعري مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد آمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية ، فيقال إن سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان بن هشام ، فأشدد سديف قوله :

لا يفرّك ما ترى من رجال * إن تحب الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السفاح ، وأمر سليمان فقتل ، ودخل شاعر آخر ، فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية ، فقتلهم ، وبسطوا النطوع على جثثهم ، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) . وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية ، وشدة ثقته بآبائهم ، ولكن لا خلاف في أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٣ هجرية وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر في أوائل القرن الماضي . والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم ، فأشار إلى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره ، ولم يقل سديف ذلك حبا لبني العباس بل كرها لبني أمية ، وانتقاما لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية ، وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعة ، فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك تقم على العباسيين ، وهجأهم بأشعار باغ خبرها المنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ، ففعل (٢) .

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد ولم ينج منهم إلا قتيلون ، أهمهم عبيد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففرّ إلى الغرب ، وأسس دولة بني أمية بالأندلس كما سيأتي ، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ، ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالأئمة من آل علي ، وخصوصا زيد بن زين العابدين ، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، دهول يبل ، ففصر به ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (٣) .

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يتخرب أبو مسلم وسما في تخليص الدولة له من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفي جلتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع بالخلافة ، فخاربه بأمر المنصور ، وغلبه ، وقبض على مافي عسكره من الغنائم والأسلحة ، فأراد المنصور أن يوجهه همه إلى بني الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم ، وأصبح خائفه على سلطانه بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالة ، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للعلويين ، فانهمم بأنه ينوي إخراج الملك منهم ، فاستعحق التل عملا بوصية الامام . وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك ، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي ، فضرب عدويه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرّد فيسهل على المنصور قتله ، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الأمين ، وقد أكن له أناسا بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣

(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

من العتاب إلى التوبيخ حتى إذا أُرِفَت الساعة صفى المنصور ، ففرج السكائنون بأسمائهم وقتلوه سنة ١٣٧٧ هجرية ، فأمر به فلقوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته ، وشاورهم في قتله ، ولم يقل لهم أنه قتله ، فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شهرة فقتله ثم اقتله » فأشار المنصور إلى البساط فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقيق موته قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافك » (١)

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلهم انه ارتكب بقتله خطرا عظيما فلما علم أن نار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكرون به لولم يدانغ عنه بهن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعا واسكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة : ثم عمد إلى تخليص الخلافة من آل علي فحارب محمد بن عبد الله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه ، ولمكنه لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه فجاء خفيصا عنده . ثم علم سرا أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة . فتجاهل وبعث اليه ، وقد دبر أمرا كتمه عن رجال بطاقته : فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من مكان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه . وقال : « يا ابن العم إلى مطلقك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لي على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه » فقال المنصور : « ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطاقته واعتمد على ما بعضه يبيع دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا فخذ اليك واقتله سرا » فأطاعه عيسى فسلم اليه عمه فضى به إلى الكوفة . وأضر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معا . أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهم بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام : فاستشار بعض ذوي مشورته فذروه من عاقبة ذلك فبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا فقتله في بيت جعل أساسه على الملح (٢) .

وأمثلة ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطي الأمان ثم ينكث كما رأيت فعليه بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط لما يبيع السفاح ، وأرسل أخاه المنصور لحاربه : فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس : فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشار فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به فبعثه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس فأمره بأرضائه . وكان رأى أبي جعفر في بادئ الأمر أن يفي بما أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا « ان الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسدت . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فبعد ان جاء ابن هبيرة إلى أبي جعفر مستأنا غدر به وقتله (٣) لأنه اتهمه ثم اتهم أبا مسلم وقتله بعد ان أمانه كما رأيت ، وشاع نسك الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس : فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث اليه يرض عليه الأمان ويوعده خيرا فأجابه محمد : « أي أمان تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم (٤) »

وظل المنصور وأبو مسلم قدرة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك . على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون

(١) المسعودي ١٦٧ ج ٢ (٢) المستطرف ٦٣ ج ١ . وابن الأثير ٢٥٧ ج ٥

(٣) ابن خلدون ٢٧٩ ج ٢ (٤) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٥

الافى من نازعهم على الخلافة فقلنا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك فى نهاية العدل والرفق كما سيأتى . أما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو ما يتعاق بها حكمه حكم المجرمين : فشكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته فى خطر فإذا دعى للأول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للرب .

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن ملوية مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس وقد فر من العراق فالتجأ الى المغرب خوفا من القتل فنصره رجاله ، وخصوصا مولى له اسمه بدرسى فى تأييد سلطانه مثل سعى ابن مسلم فى الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجته : ثم أقصاه حتى مات . وفعل نحو ذلك فى رؤساء الأحزاب الذين نصره ، وسيأتى الكلام على ذلك .

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى فى نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الحرانيين وغلب على جند الأميين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك أو دع (١) » وفى الواقع ان المأمون لما استتب له الأمر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان رباة وأمره أن يسمه ففعل (٢) . اهـ مأودته من كتاب التاريخ الهندى الاسلامى والحمد لله رب العالمين .

فانظر أعزك الله أيها القارىء فى هذه الأهم الاسلامية ، وكيف :

- (١) يأمر هشام بن عبد الملك سرا بقتل (أبى هاشم) ابن محمد بن الحنفية الذى تدعوله الفرقة الكيسانية
- (٢) ثم إن أبى هاشم لما أحس بانوث أوصى بالخلافة لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس .
- (٣) ولما تولى ابنه ابراهيم الامام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل ، وكيف يأمر أبى مسلم بقتل كل من يتردد فيه ، وكيف يقتل ٦٠٠٠٠ غديرا فى منازلهم وفى طرقهم ، والله حرم القتل ! فهل يباح القتل لأجل الملك ؟ فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان احلح » .
- (٤) وكيف بايع العباسيون باسم آل محمد ، ثم استبقوا بالملك وقتلوا العلويين ، بأى كتاب ؟ أم بأية سنة ؟ وبأى عقل ؟

- (٥) وكيف يقتل أبوسلمة الخلال المثرى الشهير غديرا وظلما المتهمسك بالعلويين ؟

(٦) وههنا أمر عظيم حل بالامة ، هذا عبد الله بن الحسن والله صاحب البيعة جاء الى السفاح الذى اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه أثاب ألف درهم ، وفى نفس الوقت حضرت جواهر نهبا عسكر العباسيين من مروان بن محمد ، فلما رآها عبد الله أخذ ينظر إليها ويبكي الى آخر ما تقدم من أنه يبكي لأن هذا كان عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط ، وأعطاه تلك الجواهر . هذه الحسكية وحسدها ان صحت تدل على تغير الأخلاق فى بعض آل البيت ، ذلك لأن عصر النبوة كان عصر زهد فها هنا البكاء ، وما هذا التعجب ؟ إن أخلاق الامة إذ ذاك تغيرت ، لأن الامة نسبت أخلاق النبوة ، وأنس الناس بالترف والنعيم ، وبيت النبوة الذى هو النور المشرق فى الامة أيضا انحطت ببعض حجراته الظلمة ، النبى ﷺ وأبو بكر وعلى وغيرهم يحرقون المال ، وفاطمة رضى الله عنها تطحن على الرحى ، ثم انا نسمع أن عبد الله يبكي

للعجواهر ويفرح بالمال ، ذلك تغير عظيم في أخلاق الأمة حتى سرت إلى بعض رجال بيت النبوة ، تغيرت أخلاق الأمة ، فبعد أن كان الخليفة حارس المال الأمانة كحارس رضى الله عنه أصبح مترفامنعها كالعباسيين والأمويين ، واشترأت لهذا أعناق العلويين . هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت عفيفة عن مال الأمة أصبحت شرهة على ما لها ، وطابت لذلك ، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له ، وما أقبح هذا الجهل بأمة الاسلام !

(٧) ثم كيف نرى أبا جعفر المنصور يبعث في طلب بنى الحسن الذين كانوا نصراؤه بالأسس ، وكيف يقتلهم جميعا بعد أن أحضرهم مثقلين بالقيود والأغلال ؟ وكيف يضرب مالكاً على فتواه في طلاق المكره ؟ وكيف حبس أبا حنيفة ؟ ذلك لأنهما أفتيا بأن بيعة محمد بن عبد الله صحيحة ولا بيعة للمنصور ، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعاً له بالأسس من آل بيت النبوة ؟ .

(٨) اللهم انك أنت المهيم العليم الحكيم ، أمرى إبراهيم الامام باذلال العرب على يد أبي مسلم الخراساني فقتل منهم مئات الألوف في منازلهم ، حرمة الله الملك إذ قتله الأمويون ، تولى أخوه السفاح بعده فلم يشفق على بنى أمية لما حتم له النصر ، وأهلك النوم ، فلم يدم له الملك ، ومات ولا ذكر لعقبه . فنولى أبو جعفر المنصور ، فأوقع بالطائفتين العلويين من ناحية وأقاربه العباسيين من جهة أخرى ، وقتل أبا مسلم . كل ذلك مخالف للقرآن والعقل ، وتولى الخلافة ذريته فلم تطل المدة حتى رأينا ما باتى : اختلاف الأمين والمؤمن ، ولكل أنصار ، فأنتصار الأول العرب ، لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور

(٩) وأنصار الثاني الفرس ، لأن أمه فارسية ، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته فتنصره الخراسانيون كما نصره أجداده ، إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة ، ولهذا حقروا العرب بعد أن كان بنو أمية رافعي شأنهم ، وههنا زاد امتهان العرب ، فالدولة عربية ظاهراً فارسية حقيقة ، فلما مات المأمون سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم ، وأمّه تركية من بلاد (السغد) في تركستان ، فشب محبا للأتراك ، وصار لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهى أول مظاهر جراتهم على الخلفاء ، ولم يكن له ثقة بجند العرب ، لأن العباسيين أذلّوهم فضعفوا واستسكانوا ، ومن المدهش أن أخاه المأمون أوصاه بمحاربة العرب ، ولذلك منهوا من أعمال الدولة ، وآخر عربى تولى عملاً عنيسة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هجرية ، ولقد أراد المعتصم كما زهد في رجال العرب أن يزهد في بلادهم ، فبنى سماصراً بالقرب من بغداد ، وأقام فيها جنده ، وأنشأ فيها ثعبنة ، وجعل حولها طوافاً ، واتخذ منى وعرفات ، غرّب بذلك أمراء كانوا معه لم يطلبوا الحج خشية أن يفارقوه ، فصار بذلك لفظ عربى مرادفاً لأحقق الأوصاف عندهم . ومن قولهم : « العرب بمنزلة الكلاب اطرح له كسرة واضرب رأسه » . وقولهم : « لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبيّ ينصره الله به » وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال ، وقلت النهاية بالعرب وأحزابهم ، وهذا سرّ انك تسمع ابن طولون والاشيد والمماليك البرية والبحرية كانوا يحكمون مصر ، وتلك هى السنة التى سنّها العباسيون من التجاهل إلى غير العرب وانحيازهم إليهم ، ناهيك ما فعله المنصور ، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلائس الفارسية الطويلة ، تدعم بعبدان من داخلها بدل العمام ، أو يهتموا فوقها بعمامة صغيرة ، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم ، وأن يكون اللباس الاسود عاماً فيهم ، وهوشعار العباسيين كما كان اليباض شعار الأمويين ، فلا بد للدخول على الخليفة العباسى من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر ألبستهم ، وألبسهم المنصور دراويع

كتب على ظهورها : « فسيفيكهم الله وهو السميع العليم » وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمرؤا رجالهم بمثل ذلك .

نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام

نحن الآن أيها الذكي لم نكتب هذا حبا في التاريخ ، إن التاريخ لا معنى له إلا الاعتبار والذكرى والناسي والله يقول : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » تلك القرى نقص عليك من أنبائها الآيات .

الله أكبر : نحن الآن في تفسير آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الآيات التي تأمر بالصلح أولا والاخاء ثانيا ، ولما قرأنا تاريخ أسلافنا ، ألفيناهم بعد العصر الأول هجروا الشورى بتانا ، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ملطفة بالاسلام . فلما فعلوا ذلك أخذوا يتخذون غير العرب لاذلال العرب .

الله أكبر : إن الغنم بالغرم ، أذل العباسيون العرب ، لماذا ؟ لأجل الخلافة ، ولم ذلك ؟ لأن الخلافة تعطى الحرية في الأموال والدولة ، واسكنها لو كانت تلك الخلافة خلافة صادقة بحيث لا يتصرف الخليفة في مال ولا في حال إلا بالشورى ، لم يتناحروا ولم يتقاتلوا عليها ولم يهلك عبد الله من ذرية الحسن رضي الله عنه أمام السفاح لأجل الجواهر والمال ، لبس العباسيون ملابس الفرس ، هجروا العرب أمر المتصم بالأبأخذوا من العطاء فماذا جرى ؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت إمرة الفرس تارة والترك أخرى ، فقتلوا من الملوك العباسيين ٣٨ من ٥٩ خليفة ، وبعضهم سملوا عينيه ، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد (اقرأ هذا المقام موضحا في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » فهناك ترى كيف قتل باغر التركي المتوكل وهو في حال سكر ، وكيف قتل غيره وغيره) .

إذن بنو العباس استعانوا بغير العرب لاذلال العرب ، فصاروا هم أول من أذلهم الفرس والترك . كل ذلك لترك الشورى ، والنسيان القرآن ، وانباع العصبية الجاهلية ، يتعصب العباسيون ؟ لمن يتعصبون ؟ لأجل المال لا غير والسلطان ، فتكون النتيجة الوبال على الذرية . إن ماضيه العباسيون مع العرب بقي آخره إلى الآن ، ألم تركبنا التاريخ بالممالك البرية والبحرية وبالأمم العثمانية التي أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب ، ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالبا عصبيتهم فناموا ولم يظهر فيهم نابغون يذكرونهم مجدهم مثل من ظهوروا اليوم فناموا نوما عميقا . إن ما فعله العباسيون سرى في بعض أسراء الأندلس ، فانهم كانوا يستعينون بحبرائهم من الفرنجة على اهلاك المسلمين . وانظر إلى قصة برّاق في ﴿سورة الأحقاف﴾ أيضا في الآية المذكورة . وكيف كان يقابل بابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا . وكيف جاء بوعد من البابا لأمر أشبيلية (جندل بن حمود) انه هو الذي يكون أميرا على بلاد الأندلس على شرط أن يعير على قرطبة ليخضع شوكة المسلمين ، ففعل بهذه الوصية ، وأغار على قرطبة ، فسكان الفرنجة في نفس الوقت مغسرين على أشبيلية ، وفضحوا البكر والمرأة بحضرة أبيها وزوجها ، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض ، ومثلهم وأكثر منهم لأجل المحافظة على الدين ، كل ذلك وجندل بن حمود مغرور بوعد البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا ، وقد خاب ظنه ، فانهم قتلوه في قرطبة غدرا بعد أن ساعدتهم في إذلال المسلمين ، أما عسكره فانهم رجعوا فوجدوا أشبيلية مدينتهم قاعا صفصفا ، وقابلهم عسكر الفرنجة بالقتل والاهلاك ، فطلبوا الأمان .

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » إلى آخره .

الله أكبر : إذن أم الإسلام بعد أزمان النبوة قد خالفوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه واجماع الأمة .
الله أكبر : إذن بعض ما نحن فيه الآن نتأجج ما كان من آباءنا . اللهم إني أجدك جدا كثيرا على نعمة العلم ، وعلى أن وقتني للإسلام بما حصل لأمتنا حتى يكون ذلك نبراسا لمن بعدنا ، فنسكون أرقى حالا ما نحن عليه الآن .

اللهم اننا نحن الآن منهمورون في بحار من الجهالة ورثناها عن بعض أسلافنا الغابرين . هاجم أولاء بعض شيوخ الطرق في زماننا ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، يحملون الرايات ، ويتخذون النقباء ، ويعطون العهود ، ويطوفون بالبلاد ، لماذا هذا ؟ هم لا يعلمون سر ذلك ، ولكن سره أظهره التاريخ كان العباسيون والعلويون يفعلون ذلك لما فاتهم الخلافة ، وكان أبو مسلم الخراساني تحت أمرته نقيب بني العباس وبهذه العهود والمرادين والتلاميذ استرجعوا الخلافة ، وفسكوا بمن هم أحقّ منهم وهم العلويون ، ذهبت الدولة العربية ، ولكننا لانزال نرى النقباء والتلاميذ في جميع بلاد الإسلام ، وهؤلاء وان كانوا يريدون التقوى والصالح كان أمرهم فيما مضى راجعا لطلب الخلافة كما ترى في دولة الفاطميين بمصر ، وحسن بن الصباح ببلاد الفرس في قلعة الموت . هذه فكرة عامة ، وصورة مصفوفة ترينا حالهم للنظر في مستقبل بلاد الإسلام .

اعتراض على المؤلف

فلما اطلع صديقي العلامة على هذا ، ودرسه حتى دراسته . قال : مأجل هذا البيان ، اننا كثيرا ماقرأنا التاريخ ، ودرسنا القرآن وتفسيره ، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آبائنا السابقين ، فأنا أجد الله على نعمة العلم وانتظام التاريخ مع آي القرآن . ولكن هنا تبدى لي سؤال ؟ وهوانك بهذا البيان قد كسرت قلوبا صحيحة ، ونفوسا بريئة ، فانه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضائعا ، إذن تاريخنا أسود وآبؤنا ظالمون جهلاء ، إن هذا القول يقبض القلب وينكسر الرأس ، ثم انك نقلت عن الفرنجة الذين لا يرجي منهم مودة للمسلمين مدح هؤلاء الملوك فكيف تجمع بين الذم والمدح ، وهل العقول تقبل الضدين ؟ يا سبحان الله : إذن جميع المدح إنما هو تظاهر من المادحين ، لأن ماقرأته الآن في هذا المقام ظاهر من التاريخ فهو لاشك فيه إذن المدح هو المشكوك فيه . فقلت له : أيها الصديق ان المدح والقدح كلاهما حق . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : لقد قدمتم في هذا التفسير في سورة سباء وغيرها أن الأمة أشبه بطفل ، وكل قرن في حياتها يعتبر سنة واحدة في حياته ، إذن الأمة اليوم كمرأى في السنة الرابعة عشر ، ولكنها اليوم أدركت البلوغ قبل ١٥ سنة كما يدرك الشاب بالاحتلام قبل السن ، والدليل على ذلك انها اليوم تقبل العلم والحكمة المنشورة بعد أن كانت لاقبلها ، ولا تعرف لها وزنا ولا طعما .

إن الطفل في أول أيامه يصيبه التخبط والجهالة ، لاسيما اذا كان يتيم ، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء الراشدين بعد النبي ﷺ أخذ المسلمون يتخبطون في ديجور الظلام ، ونسبت الأمة الشورى ، لأن الشورى إنما تكون بين البالغين ، فأصبحت الأمة كمرأة طرحت بصوالة تلفقها الأمويون فالعباسيون فالأمراء الخارجون عليهم وأمراء الأندلس ، ثم دالت الدولة ، ولكن بقيت الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

ان ما اتفق لآبائنا هو الأسس التي بنى عليه نظام مدينتنا ، وكيف نتجه للشورى ونحرص عليها ، نصطفى الأمراء ورؤساء الجمهوريات إلا اذا رأينا عبر الدهر في آباءنا الأولين ، والذي منعنا أن نسير على الطريق المستقيم إنما هو الجهل بالتاريخ وبعظاته وآلامه وبالشرع نفسه ، أما الآن فقد عرفنا الحقائق ، وأن آباءنا كانوا في زمان لم ينضج فيه العقل الإسلامي في أمر الخلافة والحكومات فسرودوا كل مشرد ، وباءوا وأصبحوا ذكرى للذاكرين

هذه ذكرى لنا ، ولقد عرفنا اليوم والمعرفة أساس العمل ، فهنا سائق للحكومة المنظمة وقائد ، أما السائق فهي الآلام التي حلت بآبائنا الأولين ، وأما القائد فهو ما نراه من الحكومات المنظمة في بلاد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرهما ، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربي عليه الصلاة والسلام ، هذا ما كان من أسي الحكومات العام .

النظام العام في الاسلام

فأما فيما عدا ذلك من النظام العام فكانت دولهم أعدل دول الأرض ، وقد بقي ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع ، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها ، وظهر في تلك الممالك العلماء والحكام والشعراء والمهندسون ، وجميع من يحتاج إليهم العمران ، بل هم قدوة أوروبا وحاملو لواء العلم في العالمين .

هاهنا الشريعة والمذاهب والقرآن باقية محفوظة ، هاهنا القرآن والشريعة باقيان لم تسهما يد الحدثن فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التي بناها لتكون مطاف الحجاج ببغداد ، ولا المعتصم لما جعل في سامرا مناسك الحج ولا غيرهما ، فهنا هي ذمة مناسك الحج والقرآن باقيان ، وهل من رقت تلك الفرق المتشاكسة وهي اثنتان وسبعون فرقة دين الاسلام ؟ كلا ، بل من رقت وحفظ الاسلام .

أشرق دين الاسلام في العرب وانتشر في الأقطار ، وتنقلت رئاسته من العرب إلى الفرس إلى الترك إلى أمراء في سائر الأقطار ، هذه سنة الله في خلقه ، تنقل الشمس في أبراجها والقمر في منازلها ، والمادة في صور الجساد والحيوان ، إن المادة خلق الله والدين لله وهو القائل : « تلك الأيام نداؤها بين الناس » فهذا هو العدل وحسن النظام .

إن المسلمين في المستقبل غير المسلمين الماضين ، فهؤلاء يسلم لهم الدين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ وسيكون الأصراء والملوك والخلفاء آباء للأمة الاسلامية ، لاذنا يفترون المسلمين ، وسيكون أمرهم شورى بينهم . المسلمون السابقون كانوا خير أمة أخرجت للناس في زمانهم ، ذلك أن دولهم كانت خيرا من دولتي الفرس والروم ، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظام في ممالك أوروبا ، فنحن الآن لا نكون خير أمة أخرجت للناس إلا إذا اعتدنا في الخلافة والامارة ، وكان أمراءنا أشبه قوم بأبي بكر وعمر وعثمان والنبي صلى الله عليه وسلم . هذا من حيث النظام العام في المملكة ، فأما الأفراد فانهم سيحكمون ما نقوله في هذا التفسير ، ويعملون به عن اعتقاد وإخلاص وصدق ويقين ، وذلك ما قررناه مئات المرات من أن القيام بأي عمل من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض السكفيات ، فهو من جهة عمل نافع للأمة ومن جهة أخرى سعادة للمرء في الآخرة بل يقول إمام الحرمين وغيره إن ذلك أفضل من فرض الدين لأن القائم بهذا العمل دفع الخرج عن بقية أمة الاسلام . وأمة هذا اعتقادها وقيمتها لا جرم تكون خير أمة أخرجت للناس ، فإذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجهاد والمسال مثلاً فهنا أمة الاسلام يعملون الأعمال العامة تقر بها الله تعالى ، فيكونون أرق من جميع الأمم . هذه هي أمة الاسلام في مستقبل الزمان . انتهى



جمال العلم . ونور الحكمة . وأزهار الهدائق العلمية . وبهجة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت المنعم المتفضل الحكيم ، معلم الحكمة ، وملهم كل حشرة ودابة وإنسان وملاك كريم .

بينما كنت أكتب في مقالة في سورة (ق) في بيان جمال العلم وبهجة الحكمة وأسرار اليقين في معنى (الم) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقد استبان بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف في سورة (ق) لها صلة وثيقة بها في أول (سورة البقرة) وانها فيها مفتاح فتحت به أسرار في زماننا كانت مغلقة الأبواب ، وأن الشبان في عصرنا وفيما بعد عصرنا سيفتحون بهذه الحروف خزائن كانت مغلقة على القرون المتأخرة في أم الاسلام الذين أغرقهم مطامع آبائهم في أحوال هذه الحياة ، ومطامع الأمم الذين يحيطون بهم ، فأهلهم عما يحيط بهم من العلوم كالفلك وعلم النبات والحيوان ، فخرجنا نحن في الأرض حائرين لا ندري أين تتوجه ؟ فألقينا هذه المفاتيح التي أعدها الله لزماننا ، فיאنس بها الشبان الأذكاء ، فينالون منها ما يريدون ، ويضارعون الأمم المحيطة بهم ، بل يكونون أرقى الأمم ، لأنهم إذ ذاك يكون ما يعملون لديناهم هو عين ما يقرت بهم إلى ربهم ، وهذه منزلة لم يسبقها سابق ، ولن يلحقها لاحق ، وقد فصلت هناك المقام تفصيلا ، واستبان من قراءة التاريخ في ابن خلكان وغيره أن ملوك المسلمين تداولوا هذه الحروف فيما بينهم وجعلوها رموزا في السكتات الرسمية ، فأدّت الغرض الشريف ، وحقت دماء ، وحفظت ممالك ، ولكن لم يقض ختام تلك الأسرار من الوجهة الإلهية والنظام الاجتماعي إلا في زماننا أي عند الحاجة إليها كما استعملها أولئك الملوك في أغراضهم السياسية ، تمهيدا لما زاولناه في هذا التفسير من المناهج الشريفة ، والمقاصد المنيفة ، واسعاد الأمم ، وإثارة الهمم ، وطمس معالم التفرق والانحلال ، وتشديد حصون الولائم ، ورفع بنود الارتقاء والاتحاد ، واستباق الحيريات في سواء السبيل .

أقول : بينما أنا أكتب ذلك إذ حضر صديق العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ما أجل مارصفت ، وما أحسن ما صنعت ، ولكني أذكرك بما أبت في (سورة الحجرات) من تفرق وانحلال ، واختطاب واختلال ، وهتان وضلال ، وجهل ووبال ، في الممالك الإسلامية ، وما أحيط بها من كل ضرر وبلية ، فقد ذكرت أنهم كانوا في غيهم يلعبون ، وهم في كل واد يهيمون ، ويقولون ما لا يفعلون .

فما كادت شمس الفاتح محمدية تقرب من سماء الوجود ، ونلاها الشفق بعد الغروب في أزمان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، حتى عسعس الليل ، وعبس الدهر ، وكبح وجهه الزمان وبسر ، وأصبحت الخلافة ملصكا عضوا ، لافرق فيها بين الأمويين والعباسيين والفرس والترك والأندلسيين ، وكل دولة إسلامية هذا شأنها وذلك دأبها ، ولما كان هذا التفسير لم يقصد به مجرد إرشاد الأمم ، وإثارة الهمم ، بل أريد به ما فوق ذلك من إظهار الحكم الإلهية ، والظم الحكيمية ، وآثار العجايب الربانية ، أليست هذه الأمم المختلة النظام في حكوماتها ، الشاردات في غيها وشرها ، خلقا خلقته الله بيده ، فليكن تبيان الحكمة في ذلك الاضطراب بعد النظام ، والملوك بعد الخلافة .

إن النفس تواقّة إلى مناظر أزهار الحكمة في رياضها ، وإلى ثمار العلم في حدائقها ، حتى تطمئن إلى حقائق التكوين ، وبدائع الابداع ، إن الأمم التي وقفت عند طواعر التشريع ، ولم تعرف السر المصون ،

ولا الجوهر المكنون ، في النظام العام تسمى وتصبح وهي خاملة ، وتصبح ديارها فيما بعد خاوية على عروشها ، وبئرها معطاة وقصرها غير مشيد . إن القاصرين على ظواهر التشريع مثلهم كمثل « شجرة غيبشة اجتمت من فوق الأرض مالمسا من قرار » ، والذين أدركوا سر النظام مثلهم كممثل « شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » ، فالأولى كشجرة الخنظل ، والثانية كشجرة النخل . إذا تقرّر هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ما السر ؟ ما هذا الخلاف ؟ والتفرق والانحلال بعد العصر الأول ، وكيف ينزل دين من السماء عظيم ، يزلزل الأرض زلزالا شديدا ، ثم يرفع الانسانية أجيالا ، ثم يختفي وراء الحجاب ، وتلبس الأرض رداء الخداد عليه ، وتلبس الانسانية ثوبا قشيبا من مدنية حديثة ، وحامو هذا الدين نائمون هائمون . فأنا أود أن تشرح لنا هذا المقام ليتحدّد التشريع مع التكوين ، وتلتئم الحقائق مع الظواهر ، والعقائد مع الفروع ، وهذا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين ؟ .

فلما أتمّ ذلك ، قلت له : لقد أجدت في صوغ عبارات السؤال واصطفتيتها بصفاء نفس وجودة قريحة ، حتى تجلت بوضاء نقية للقارئ . فاعلم أيّدك الله بالفهم ، وألهمك الحكمة ، وأنا ربصيرتك بالعلم ، أن آية (ق) التي ذكرتها : « أفلم ينظروا إلى السماء الخ » فيها الجواب عما تقول . فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقلت : إن فيها ذكر النبات ، والنبات أنواع مختلفة ، ولكم من نبات قد خفيت منافعه حينما عن البصائر ثم ظهرت نجاة إلى الوجود كما حصل في زماننا هذا ، فإن امرأة افرنجية في مصر نشرت (قبل أواخر سنة ١٩٣٩ افرنجية أى قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الموضوع) في الجرائد المصرية أنها جرّبت الرحلة المسماة « البقلة الحقاء » وهي كثيرة في بلادنا المصرية تقول أنها جرّبتها إذ شربت ماءها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر وكان السكر ٦٠ في المائة ، فأخذ يقلّ حتى شفيت تماما . وما كادت تطلن هذا في الجرائد حتى صنعت آلات لعصر الرحلة ، ويبت للناس ، وأخذ المرضى يفعلون ذلك رجاء الشفاء .

هذا هو الذي تمّ في أيام كتابة هذا الموضوع في بلادنا المصرية ، وإنما ضربت هذا المثل المفيد في علم الصحة بتجربة امرأة أرادت الخير للناس إلا لأجعله نظير ما في القرآن من العلوم ، فالدين نزل من السماء بقول الله ، ونظام الزرع بفعل الله ، فإذا رأينا نظامه الذي صنعه بيحييه تخفى أسرارُه على نوع الانسان . ينظر الأشجار والزرع ولا يفقه منها إلا قليلا ، ويسم الزهر في وجوه الناظرين وهو يقول : انظروا إلى جمالي ولكن ما أوتيتم من علمي إلا قليلا ، فهكذا يسمع الناس الكلام الموحى به ، ويبتهجون ببلاغته ، ان كانوا من الأمم العربية ، أو باحترامه وتقديسه ان كانوا من غير الأمم العربية ، ثم يسمعون خطاب الوحي : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويسمعون أيضا : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » فنوع الانسان على الأرض ليس مقياسا لنظام الطبيعة المنظورة ، ولانظام الكتب السماوية المسموعة ، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم في قول بليغ ، ولا نظام زهر بدیع ، بل الحاكم العقل الانساني ، والعقل الانساني مغموس في سجة الطين ، فهو يعطى من العلم بقدر كما اتفق لهذه المرأة افرنجية في « البقلة الحقاء » وكما يلقي من الفكر لأناس يعيشون في زماننا وبعده لا يدرك بعض أسرار الآيات القرآنية كالمفاتيح الآتي ذكرها في سورة (ق) كما قدّمناه .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أنا أقارضك الثناء ، فأنت أثبتت على تنميق السؤال وإيضاحه ، وأنا كذلك بدوري أثبت ثناء مستطابا على الاجابة ، ولكننا ليست بكافية ، وإنما علمتنا مسألة طيبة جاءت للتظهير والتشبيه ، ولكن المهم أن ندرك سر اختلاف الأمم الاسلامية التي سبقتنا وقد أوضحتم ، ماسر هذا الاختلاف وهذا الخلود الطويل ؟ وما حكمته التكوينية ؟ ولم أستفد من هذا الجواب إلا أن بعض أولى الأبواب ياتي إليهم فهم أمور في الاسلام كما أتى إلى هذه المرأة في الطب .

وما يخصه أن أهم الاسلام المتأخرة غشى على عقول كثير من أكابرها فتاب عنهم كثير من الخفايا ، و يمتدحها
أخذ يظهر الآن ، أى أن السر كل السر إنسانه الاستعداد ، فلا استعداد إذا رقب عند حد محدود بها أحيط به
من غواشى الظلم داخلا وخارجا يتف عن انهم ، إذن إلا في السر المصون ، والجوهر المكتون ، والضراط
المستقيم ، ولكن القول لم تهتد إليه ، رستهدى الآن وتنظم دول الاسلام . هذا شرح ما أجلكه ، فإذن
سر النظام هنا أن الفضائل (وإن كانت موجودة فعلا) لا تعطى إلا لمن يستحقها ، فهذا الجواب مع نفسه
بجمل لا يشفى الغليل . فقلت : سيالك الله وبيالك ، فإن آيت ياصح إلا الانصاح ، فوالله ألقى عليك التصيل
بعد الإجمال .

اللهم منك الحول ، ومنك القوة ، أعلم أيها الأنخ الوادق للحكمة ، الفرح بها ، المستعد لفهمها ، أن الناس
إذا لم يفهموا المحسوسات لا يدركون المعقولات ، ومن يحجز عن فهم ما أدركته الأبصار فهو عن ادراك ما وراءها
أعجز ، ومن كثرت مدركاته البصرية وكل محسوس وعقلها بربوبية كثرت ما وراءها من عاومه الحسكية . فلا شرح
الآن لك أيها الذكي خمسة أنواع من العلوم :

- (١) نظام النبات .
- (٢) نظام الفلسفة العام .
- (٣) نظام الحكومات كحكومتنا المصرية اليوم .
- (٤) نظام البيانات العام .
- (٥) النظام المجمع للذاهب الاسلامية .

وكل ما سأفصله في هذا المقام فهمته مما فتح بمفتاح : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بفيها
وزينها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة
وذكري لكل عبد متيب » .

فهذا الذى ذكرته الآن هو نفس هذه التبصرة وهو الذكري ، فانا اذا فكرنا فى أمر النبات وجدناه
يحل هذه المشا كل كلها . والنبات منظور ، وهذا المنظور يحل لنا مشا كل المسموع والمعقول . فقال :
إن ما تذكره الآن أشبه بالألغاز ، والتعريف يجب أن يكون أوضح من المعروف ، فأين الايضاح هنا ؟
فقلت : خلق الانسان من عجول . ههنا خمسة فصول :

الفصل الأول فى النبات

إن فى النبات فاكهة وحبا وخضرا للإنسان ، وفيه حشائش وتين للحيوان ، وفيه أغذية لأدنى الحشرات
ولكل حيوان ، وكل فى الأرض من فضلات نباتية وحيوانية عفنة قدرة يعيش عليها أدنى الحيوان من خلق
ودود ونحوها من المحاوقات ، إذن النبات يغذى أشرف حيوان يكاد يلتحق بالملا الأعلى وهو الانسان وأخس
حيوان يكاد يلتحق بالطين اللازب وهو الدود ، وبينهما درجات لا يكاد يحصرها العدد ، وكل خرب بما لديهم
فرحون ، فلا الدود يبنى فوق مالهيه ، ولا الانسان يتنزل عما أمده به ، فهذه الحيوانات اقتسمت النبات
وأكلته ، وكل يسعى لطلب رزقه فيما استعد له وله خاق ، وهو معرض عما وراء ذلك ، وهو بذلك فرح سعيد
ولم نجد من هذه الأنواع من الحيوان أحدا يلقى نظرة عامة على جميع النبات إلا بعض خواص الانسان .

الفصل الثانى فى نظام الفلسفة العام

قلنا فى الفصل السابق ان السود قد يعيش فى فضلات النبات والانسان يأكل منه ، وأنهما هما وما

بينهما من أنواع الحيوان متقسمات أنواع النبات ، وقبلنا ان هذا الانسان وحده هو الذى فكروا فلسفته فى النظام العام لهذا النبات . إن المفكرين فى النبات أيضا ، أى المذكور فى حيز (الم) فى (سورة ق) (وهى الحروف التى هى مفتاح من مفاتيح العلوم الآتى بإنشائها هالك) يكونون فرقا شتى ، فمنهم من يبحث فى خشبه للصناعة ، ومنهم من يبحث فى شجره رزقه للأكل ، أو حبه للتجارة ، أو منافعه للطب ، إلى غير ذلك من مباحث لا يتطاع حصرها إلا فى مجلدات ، وإذا رغبنا طرفنا إلى ما فوق ذلك وجدنا هذا النبات إن هو إلا نوع واحد من أنواع الوجود ، ولكل نوع علماء اختصوا به كما رأيت لكل طائفة من النبات حيوانات خاصة تعاطاه وتغذى به ، فقوم للنظر فى عموم النبات من حيث تكوينه ونسبته إلى الحيوان ، وقوم يدرسون نفس علم الحيوان ونسبته إلى النبات ، وآخرون يدرسون علم المعادن ، وآخرون يدرسون الطبائع العامة للعوالم كالمغناطيس والضوء والكهرباء والحرارة والصوت ، وهذه طبائع عامة لا تختص بقسم من أقسام الطبيعة ، وهذا كله فى العالم الأرضى ، وهناك طوائف يرتفع بعضها إلى العلويات ويكونون فرقا شتى ، وأعلامهم من ينظرون نظرا كلياً فى تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذناب والمجرات والسدم ويحصرون العوالم حصراً عاماً . وآخرون فوق ذلك يحصرون العالم العلوى والسفلى بهما أن يكونوا قد أسكروا العلوم الرياضية بقدر طاقتهم ويفكرون فى النظام العام . هذه نظرات أكابر الفلاسفة فى الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجزئية فى العوالم السماوية والأرضية كنسبة نوع الانسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التى قاسمتها الأغذية فى المخارقات النباتية ، فكما كان السود مشاركا للإنسان وللهشرات وغشيريها فى اقتسام الأغذية النباتية ، وأختص الانسان بالبحث العام فى النبات ، هكذا المفكرون فى الأمم اقتسموا النظر فى العوالم العلوية والسفلية ، واختص أكابر الحكماء بالنظر العام فى العوالم كلها ، وانتقلوا منها على جهة اليقين والمسرات والبهجة إلى صنائع العالم ، وتعلقوا بالصنائع ونسوا الصنعة وراءهم ، وقرءوا : « وأن إلى ربك المنتهى » .

إذا فهمت هذا أيها الصديق فقس عليه نظام الحكومات ، وأضرب لها مثلا نظام حكومتنا المصرية ، لأنه أقرب إلينا فى التمثيل ، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقدمة لما نريده أيها الأخ الذكى من إدراك السر فى التناقض والاختلال والاختلاف الواقعات فى القرون الإسلامية الحالية حتى تلتئم العقائد والنظام العام مع التشريع الظاهرى كما طلبته أيها الأخ العليم ، فهذا تفصيل الكلام على :

الفصل الثالث : نظام حكومتنا المصرية

- إن حكومتنا المصرية تراها مكوّنة من :
- (١) قرية لها عمدة ومشايخ وخبراء .
- (٢) مركز مكوّن من قرى .
- (٣) مديرية مكوّنة من مراكز .
- (٤) فوزارة الداخلية المكوّنة من مديريات .
- (٥) فالوزارة العامة المكوّنة من وزارات ، وهذه الوزارة فيها وزارات مثل الداخلية والخارجية والحقانية والأشغال والزراعة والمالية ، وفيها مصالح كثيرة ، كل هذه تتبع للوزارة العامة ، وكل جماعة فى وزارة مكبون على عملهم ، لا يعرفون إلا قليلا عن عمل غيرهم فى الوزارات والمصالح الأخرى كما لا يعرف حيوان البر عن حيوان البحر إلا قليلا ، وكما لا يعرف عالم الحيوان الأرضى عن عالم الكواكب إلا قليلا .

(٦) وفوق هذه الوزارة القوّة العليا التي تولي تلك الوزارات التي تستند إلى رجال دار النيابة الذين تصدّقهم الأمة للقيام بمشايها .

فأنت ترى أيها الذكيّ أن كل طائفة تقوم بسمليها وتعرض عما سواه ، وإذا خالفت ذلك اختلّ النظام كما تقتسم أنواع الحيوان من أقلها وهو الدود مثلاً إلى أعلاها وهو الانسان أصناف النبات ، ولكن فريق واحد يكون نظره عاماً في الأمة كلها وهو القوّة التي تنظر في شؤون الوزارات كلها ولا تهتمّ بجزئيات الأعمال بل أعماها عامة ، وليس لها أن تنزل عن الكليات كما اختص نوع الانسان دون سائر الحيوان بالنظر العام في النبات المشترك بينه وبين الحيوان ، وكما اختص الحكميم العظيم في نوع الانسان بالنظر العام في الوجود وان شاركه غيره في النظر في الجزئيات العلمية ، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم المنحصر فهذا مثال له مجمل ، وهذا توضيح وشرح لما بعده وهو نظام الديانات العام في الأرض .

الفصل الرابع في نظام الديانات العام في الأرض

اعلم أن في الأرض من أنواع الديانات ما يختلف باختلاف العقول والأفهام اختلافاً كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان في التغذية والانتفاع ، فكما رأينا من بقايا النبات المتعفن المنبؤ في الأرض والبرك والمستنقعات ما يتعاطاه الدود وأخصّ أنواع الحشرات والعلق ، ورأينا منه ما هو فاكهة وسحب لنوع الانسان الذي يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة السكرام ، هكذا نرى من الديانات ما تنزل إلى دركات الانحطاط لفبارة معتقبيه وانهم في نوع الانسان أشبه بالدود في نوع الحيوان ، فأعوزهم ذلك إلى دين يورثهم ويسد حاجاتهم ، ويكون ذلك الدين على قدرهم لا يتجاوز ما قبله نفوسهم ، ويمثل به أفئدتهم ، وهم به فرحون .

ومثال ذلك ما ستراه في ﴿سورة البقرة﴾ في الجزء الأخير من القرآن ، إذ ترى هناك في حديث رئيس البعثة الأزهرية الصيفية أن عدد الديانات في تلك البلاد خمسون ديناً ، وعدد السكان (٥٠٠) مليون انسان ومن الديانات عبادة الجبال والنور والنار والدواب المختلفة ، وكذلك ترى في تفسير نفس تلك السورة أن في الحبشة من يعبدون الأشجار ويقدمونها ، وبعضهم يقدمون الطبيعة ويعبدها ، وترى الذين يعبدون الأشجار يقومون حولها في كل عام ، ويقومون بواجبهم الديني ، وكيفية ذلك أن يدهنوا جذوعها بالسمن ويقفون حولها وهم يرقصون ، ويغنون مختلف الأغاني ، ويقصد أهالي قبيلة (لادرمون) بعض الجهات التي تكثر فيها الأشجار ، ويقنولون حولها بعض المشروبات ، كالخمر واللبن وشراب العسل وغيرها .

هذا أقل من كل من ديانات هذا الانسان . ماهذه الديانات المختلفة في عالم الانسان إلا نماذج مطابقت لمختلف العقول والعواطف والأميال على النحو الذي اختلفت فيه أغذية الحيوان في السمات من دود يتعاطى القاذورات ، ومعه حشرات كذلك ، إلى أنعام تأكل الأب ، إلى الانسان يتعاطى الفاكهة والحب ، وما مثل دين الاسلام إلا كمثل النوع الانساني فيما مثلنا ، إذ نظر نظرة عامة في جميع النبات فبعثه وفسكرفيه وإلا كمثل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة عامة في أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وجدوا فيها ، فاتخذوا كلياً من الجزئيات وكلاً من الأجزاء ، ونظروا نظرة عامة وتوجهوا به إلى صانع العالم ، وأخذوا يشوقون الأمم إلى الوحدة العامة ، والنظام العام ، وإلى صانع ذلك النظام ، وهذا هو مقصود دين الاسلام ، فهو لا يحصر المتدين في مصنوع من المصنوعات وان كان في كل مصنوع سر من أسرار الربوبية ، ولكن دين الاسلام يقول : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ، فهذا دين عام يهز مفاكرهم يقومون به من نوع الانسان ، تكون نسبتهم إلى هذا النوع الانساني كنسبة الانسان إلى الحيوان من حيث النظر في أمر النبات من حيث عمومها لا من حيث اقسام أصناف الحيوان لأصنافه المختلفة تغذية وتنمها وحبا ، بل يكون نظره عاماً لمنفعة العموم ، وإذا ظهر هذا السرّ المسكون في هذه الفصول الأربعة فقد وصلنا إلى المقصود من هذا المقال وهو :

الفصل الخامس في النظام المجلد للمذاهب الإسلامية

لا جرم أنك أيها القارئ بأدنى النظافة لما مضى تعرف سرّ المذاهب الإسلامية التي بدرستها تصل إلى مقصودنا من هذا المقال ، فما هذه المذاهب الإسلامية ؟ هي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ومذاهب الشيعة المختلفة ، والزيدية ، والاباضية ، وفرق مختلفات متفرقات ، وكل امرئ اتبع مذهبا من هذه المذاهب أكتب على عمله ، مخلصا فيه ، واثقا به متقربا إلى الله ، قائما بعمله على الوجه الذي أراده الله له ، فترى الشافعي مكبا على قراءة الكتب المقررة مثلًا في الجامع الأزهر ، كبن قاسم ، وكتاب الخطيب الشربيني على متن أبي شجاع ، والتحرير ، والمنهج ، وأمثاله ، وقس على ذلك بقية المذاهب ، وكل هذه مستخرجات من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وتراهم يستدلون بالأحاديث المتنوعة والأدلة المختلفة ، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وإن خالفوا أقوال غيرهم في الفروع التي لا ضرر فيها على الأصول ، وبدوام ذلك أجيالا وقرونا أصبح كل مذهب كأنه عقيمة راسخة ، وإن كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد ، احترام المذاهب الأخرى كبرا عن كبره ، لا جرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين المسكى ، فبينما ترى الشافعي والحنبلي والزيدى والامامى ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها ، ونواقض الوضوء ، وأركان الحج ، والبيع الصحيح والفساد والطلاق والرجعة ، والدعوى والبيئات ، والشركة والاجارة ونحوها .

تراهم لا يفسكرون ، وإن يفسكروا ، بل لن يخطر بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الاسلامي الذي جاء لاقتاد الإنسانية كلها من شرّ الملوك الظالمين ، والمسلطين القاهرين ، ذلك أن كل فريق من هؤلاء المتعصبين المخلصين لا يعدون أن يكون مثله كمثل عمدة قرية من قرى مصر ، أو شيخ من مشايخها ، أو مأمور من مأموري المراكز المصرية ، أو مدير من المديرين ، أو وزير من الوزراء ، ولا جرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته في الحكومة المصرية ، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا في مراكز خاصة فعليهم أن يقووا بها حقّ القيام ، وليس من حقهم عادة أن ينظروا نظرة عامة في الأحوال العامة للأمة الإسلامية فيكونوا في أمم الاسلام أشبه بالقوة المدبرة في الحكومة المصرية التي تولى الوزراء ، وتعطى كل ذى حقّ حقه ، وتنظر نظرة عامة في مصالح المصرية ، أو يكونوا أشبه بالإنسان في مثل النبات ، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات ، أو كمثل دين الاسلام إذ جاء لنظرة عامة في جميع الكائنات ، هكذا كانت ولا تزال أحوال أمم الاسلام إلى وقتنا هذا ، ولا عيب على الناس في ذلك ، فلا لوم على حنفي ولا شافعي ولا زيدى ولا مالكي في هذا القصور ، لأنه قصور موروث من أيام أن اضطربت الأمة اضطرابا شديدا ، وزلزلت زلزالها ، وقال المسلمون : ما لهذه الأمة ما لها ، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها ، وأحيت مآلات من عوائد العصبية والنسب وارجاع الخلافة للأنسب وحدها ، وأخذ الأمر ينادى العباسي ، والعباسي ينادى العلوي ، وينادي جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفرس وكرد متقلبين .

وكل يدعى وصلا ليلي * وإيلي لا تقرّ لهم بهذا كما

أنزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فان بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي إلخ » . وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذه المزية هي التي قامت بها النبوة خير قيام ، فما كاد عصر النبوة وأيام الصحابة بعدها تمر حتى عصفت عاصفة الأنساب ، ورويت لها الأحاديث ، وقامت الضجة ، وأعجبا ! ليست الخلافة للمال ، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كآبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، فهو ليس خليفة ، لأن هذا ليس على طريقة ديننا ،

شرب الخلفاء الخمر ، لبسوا الحرير ، كنزوا المال ، هل هذه خلافة ؟ صدق رسول الله ، فهي ملك عضوض لا عجب إذا رأينا أبا حنيفة يضرب ، ومالك يهان ويؤذى ، واستمرّ اذلال الباباء في أعصار خلعت ، ولم يكذب أحد يرفع بصره إلى النظر في الأمر العام الذي أعد له هذا التفسير حتى ينجّ في السجن ويؤذى ويهان ودامت الأمة على ذلك أجيالا وأجيالا ، وأرباب المذاهب في أعمالهم دائبون مخلصون إذ لا مخلص لهم ولا منفذ إلى المستوى الأعلى الذي فيه ينظرون نظرة عامة في دين الاسلام ، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، ومنهم من كان يكتب ما شرعناه الآن تحت ستار التصوف ، وآوية تحت ستار الفقه كما ترى منه شذرات في كتب الفقه في المذاهب الاسلامية المختلفة لأهم الاسلام ، ذلك هو الحاصل في أهم الاسلام إلى هذا اليوم .

نظرات حكماء الاسلام الذين أعدّهم الله للمسلمين بعد ظهور هذا التفسير

إن هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أحياء يدرسون ، ومنهم من هم في بطون الأمهات ، أوفى ظهور الآباء ، هؤلاء سيكونون مستنيرين بالنور الإلهي ، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ، وهؤلاء تشرق نفوسهم بالأنوار الالهية ، لأن هذه الحجاب مملوءة نورا إلهيا ، وبالبحث فيها يزدادون قوى وعلماء وحكمة ، وتشرق عقولهم ، هؤلاء بمد تلك الدراسة ينظرون في دين الاسلام فيقولون : ماهذه المذاهب إلا أنوار جزئية لدين كلي ، وهذا الدين السكلي يعوزها حكماء يفكرون فيه فيكونون للمذاهب المختلفة أشبه بالإنسان المختصّ بالنظر العام في النبات مع مشاركته للحيوان في النفسانية بالنباتات ، وكالقوة الحسكية المستمدة من نواب الأمة ومجلس الشيوخ ، والأعيان التي تخصص لكل وزير عمله ، وكل حكيم الذي ينظر للعلوم كلها نظرة عامة ، وقد شارك علماء الحيوان والنبات والخلق وارتقى عليهم ، وكدين الاسلام الذي جاء ومقصده عام لا يتقيد بشجر ولا بحجر ولا بكيسة : « فأينما تولوا فثم وجه الله » . فهذه الطائفة هي التي تجل لأهم الاسلام وحدة عامة للعالم كله ، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين : « أيها المسلمون : إن الخلافة والرياسة ليست للسل ، إن هذا خطأ محض وجهل فاضح ، ليس هذا ديننا : قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . وإذا كان اطعام رغيف لمسكين يحتاج إلى اخلاص بلا جزاء ولا شكور كما نرى نور الشمس يصل إلى أهل الأرض ، هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين ، فإن كان غير ذلك فهو كاذب ، الخليفة ليس هو ذلك المترف المنعم . كلا . فاما أن يكون كأبي بكر وعمر وعليّ وعثمان ، واما لا ، نحن لا نطلب خليفة محجبا ولا منعما ، إن هذه جهالة أعظم الجهالات هنالك نهت كل ما بناه الآباء من الخلاف والشجار الذي شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه ، فلهم جميعا أجر فيما اختلفوا فيه ، لأنهم كانوا فيه مخلصين ، وكل منهم كان يعتقد أن الحق في جانبه ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذلك هو تحقيق الحق ، وهذا هو الجواب عما سألتني عنه أيها الصديق ، فهذه الأمم الاسلامية لما كانت في مبدأ أمرها لم تطلق صبرا على الأخلاق الشريفة النبوية والعمرية والبكرية والعلوية والعثمانية ، فرجعت القهقري درجة فدرجة ، فلما علم الله منهم ذلك ، وأمرهم لا يحملون الامانة كما أدبت لهم ، ولا يتورعون عن ذلك سلطان الله على العرب الفرس فدخلوا بينهم والترك وغيرهم ، وقال : أيها الأمم : إن العرب قد أخلوا بشروط النبوة فدخلوا معهم وفرّقوا جمعهم ، لأنهم لم يحملوا الخلافة بالشورى ، بل جعلوها للعصبية ، فإذا كان الأمر كذلك فاني أذن للأهم أن يزاحمهم « جزاء وفانا » ، فدخل الفرس فزاحمهم ، ودخل الترك كذلك ، ثم استبدوا بهم ، ذلك هو العدل الإلهي ، وهانحن أولاء الآن وأنا أكتب هذا وأنا من النسب العربي الصميم ، أقول هذا هو التاريخ الاسلامي مجلا ، وهذا كان شأننا ، وهؤلاء الحكماء الآتون بعدنا سيصلحون

ما أفسده الزمان ، وأنى به الحثيثان ، وسيتولون للأهم الإسلامية كفى كفى :

مامضى فانت والزمى غيب ، ولك الساعة التى أنت فيها

فقال صديقى بعد ذلك : هذا حين وكيف ببق هذا إلى هذا الزمان ، وهذه نيت ١٣ قرنا ، وهى زمان طويل ، فلماذا تأخر هذا الإصلاح إلى هذا الزمان ؟ فقلت : أيها العزيز : اعلم أن هذا العالم فيه أسران اثنان أحدهما يعمل فى ثانيهما ، فالعامل هو العقل العام المسلط على ثانيهما وهى المادة التى ماهى إلا حركات فى خيال السكون المسمى بالأثير ، وانما سميناها خيالا لأنه يشبه خيالنا نحن ، فخيالنا نحن فيه بقوة عاقلة منظمة واخرى حركات فى الأثير المنبث فى هذا الفضاء الذى عبرنا عنه بالخيال هى هذه المادة ، فالمادة مجموع حركات منظومات يتصرف فيها عقل ، وأظهر هذه المادة الشمس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات ، تشرق الشمس على الآفاق فيكون نبات ، وهذا النبات يأخذ فى الحق أمدا على مقدار ما حدد له ، وبه قد نصبه وتعبه تظهر فيه أزهار جيلة تحكى أنوار المشرقات وتستمد منها الضوء ، بل تنجبه للشمس عند طلوعها وعند مغيبها اتجاهها ، هكذا تلك العقول السكينة المدبرة لهوائنا الأرضية تربي عقولا جزئية فى أرضنا كالعقول الإسلامية ، ولكن زهر تلك العقول لا يأتى إلا فى حينه ، ولن يتعدى طوره ، تقديم وتأخير ، فإذا رأينا أمنا الإسلامية اليوم قد بزغ فيها فجر الإصلاح ، وأخذت أزهار العقول الإسلامية فى نباتها تضيء للآل فهذا هو الناموس العام ، فلا زهر لشجر إلا بعد حين يناسبه ، وهذا الدين لم يمض له إلا ١٣ يوما من أيام الله الصغرى وهى القرون بعد أن استعادت الأمة اظهور مصلحين هم أزهارها كما لم يزهروا النبات إلا بعد استكمال قواه فى أمد المعلوم .

هذا جواب ما سألتنى عنه أخ فى أمر أم الإسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم ، والفلة المستحكمة ، ثم اليقظة الحديثة ، ثم الإصلاح الذى بزغ فجوه ، وما حكمة الله فى ذلك ؟ وما سن النظام ؟ . فقال : لم أكن والله لأتوقع هذا الكشف والايضاح ، ولم يكن ليخطر لى أن أنال هذا الفتح المبين ، ولكن ما نوع التعاليم التى تخص بها طائفة المصلحين فى أم الإسلام ؟ فقلت :

بهجة وجمال فى ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الاسلام فى مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديق أن هذه الطائفة فى أم الإسلام مثلها كمثل من ذكرناهم فى الأمثلة السابقة ، بل كل ما سأفوله الآن يستتج مما قررت لك الآن ، فهم كالمالوك الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم ، وكالحكام الكبار بالنسبة للماء العلوم الجزئية ، وكالأنبياء بالنسبة للمجتهدين كأبى حنيفة والشافعى ، ومجتهدى الشيعة وهكذا ، وكالإنسان بالنسبة للحيوان فى مثال الاغذية النباتية والنظرة العامة فيها ، فهؤلاء علومهم تكون موجهة للكمالات كما ترى فى القرآن : إن القرآن والنبوت موجهان للأمور العامة ، ولأن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة ، بل هذا الاختصاص لطوائف يتلقون تابعين للنبوة ، واقد جاء فى كتاب « الاتقان ، فى علوم القرآن » فى الجزء الثانى فى صفحة ١٧٦ وما بعدها نصه : —

« قال ابن تيمية فى كتاب ألفه فى هذا النوع : يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد قل أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جث فى أعيننا (رواه أحمد فى مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (أخرجه

في الموطأ) وذلك أن الله قال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليتدبروا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من الفنون كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والاختلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه يدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم الصراط المستقيم بعض بالقرآن أى أتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولا يمكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعربوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها . الثاني : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبية المستمع على النوع ، لاعلى سبيل الحد المطابق للحدود في عمومته وخصوصه ، مثاله ما نقل في قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية ، فسأوم أن الظالم لنفسه يقتل المضيع للمضيعات ، والمنتهك للحرمات . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات ، فالمقتصدون أصحاب اليقين والسابقون السابقون أولئك المقربون ، ثم ان كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول الفائل : السابق الذي يصلى في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلى في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار ، أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة . انتهى ما أردته من كتاب « الاتقان ، في علوم القرآن » والحمد لله رب العالمين .

وقد أطال في ذلك صاحب الاتقان ، ونحن نكتفي بهذه الشذرة استدلالا على ما أردناه وهو أن هذه الطائفة آراؤها عامة موجهة لاسعاد المجموع بما هو عام ، فأما الفروع فلها شأن آخر ، إذن سلف الأمة الذين شادوا مجدها لم يكن نظرهم محصورا في الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الاسلامية في الأعصر المتأخرة ، فانهم أفرغوا جهدهم في استقصاء الفروع ، ونسى أكثرهم النظام العام الذي كان يمشه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في تعليمهم ، أفليس هذا من العجب ! أوليس من العجب أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يسلّموا ما فيها من العلم والعمل كما قدمناه هنا قريبا ، ويقولون : « تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ، وقد كانوا يقولون مدة في حفظ السورة ، وانظر كيف يقول أنس : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلة في أعيننا » ، وكيف يقيم ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكيف يقول صاحب كتاب الاتقان : « إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف بكتاب الله تعالى ؟ » .

عجب وألف عجب يارب ! إذن ملجاء في هذا التفسير موافق ومناسب لما كان عليه الصدر الأول ، إذن هذه سنة اسلامية جيلة ، فاجد الله على العلم والحكمة ، إذن المفكرة العامة وحب العلم ، وحب الله ، وحب الأمة ، نتأجج هذا القرآن ، وهو المقاصد الهامة التي يمشها هؤلاء المصلحون الآن في أم الاسلام .

آراء (جون راسكن)

المولد سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أفلا تعجب أيها الذكي من علماء أوروبا : أرائك الذين شربوا من مناهل علوم أباثنا كيف يقولون ، هذا ، راسكن يقول في قطعة تحت عنوان (التعليم الحقيقي)
« ان التعليم سواء أ كان لأدنى الطبقات أو أعلاها لا عبثة فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مغريا للتعليم ، إلى الاكباب على العلم ، وأن يعرف كيف يدير حركة أعماله ويتقنها الخ » اه .
وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان « تعليم الأطفال »
« ان مقاصد التعليم الطامة تنحصر في توجيه همة المتعلم إلى الاكباب على القراءة والفهم » ثم قال :
« كما أننا لا نعطى جميع ما يهوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح ، هكذا لا نحمل أذهاننا مشاق تحصيل جميع العلوم في صباح الحياة وأول العمر : بل العمر كله زمان مهيع لتحصيل العلوم ، ومن ذا الذي يعتد الطالب لذلك ، ويحدث في قلبه غراما وعشقا لتحصيل أمد الحياة الا الاساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ » .

فهذان الرأيان مجمعان على أن الغرام بالتحصيل ، والولوع بالعلوم هو الذي يبعث في الأمم رجالا يكونون مصاييح يضيئونها ، وقناديل ينثرون سبلها ، وكواكب في دجئات الظلمات ، وحنادس دهر الدهارير ، مع معرفة ما يعملون ، وادراك كنه ما يزاولون .

ضرب مثل لحكام الأمم الاسلامية في المستقبل يمسوب النحل

(١) قال فاضرب لي مثل هؤلاء المصلحين في أمم الاسلام بعدنا الذين يصلحون ما فسدته يد الأيام وحوادث الدهر ، ويعلمون أمم الاسلام كيف يصلحون بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا ؟ وكيف يقومون بالعمل بآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ويصرفونهم عما وقع فيه أبائهم من الشجار على الخلافة والامارة ، وان ذلك انما جعله الله تجربة يحتس من مثلها الانباء فلا تكون الممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالاتحاد والاجتماع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل ، وان كان لا بد في ذلك تأويل ، وهم جميعا ناجون ، المتخلف منهم في اجتهاده ، ومن هو على صراط مستقيم .

(٢) ثم ما علامه هؤلاء المصلحين : فقلت . انما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكماء أمم الاسلام كمثل الخشرم : فقال ؟ وما الخشرم : فقلت . يمسوب النحل وهي الملكة التي تقود الآلاف المؤلفة من النحل في الخلية ، فقال : وما المناسبة بين المشبه والمشبه به : فقلت لعلك اطاعت في خلايا النحل على تلك الاشكال المسدسات المنتظمات الملتصقات المجتمعة معا . قال نعم اطعت ، فقلت وهناك ترى من تلك الاشكال المصنوعة من الشمع ماملئ عسلا ، ومنها ما جعل منزلا لبيض النحل يربي فيصير ذكورا للنحل أو يصير نحلا عاملة (انظر هذا المقام في سورة النحل ، والاشكال هناك مرسومة موضحة) وهناك أيضا ترى منازل أخرى ممتازة بيضاء وهي قليلة بالنسبة لغيرها ، فهذه البيوت تربي فيها تلك الملكات أو العاسيب أو الخشارم ، فترى الملكة تأمر أن تغذي الذرية العاملة والذكور بعسل معتاد : أما العاسيب الصغار فانك ترى غسلن أنقى وأجل وأصفى : قد اصطفاه النحل من مواد خاصة حتى تخرج العاسيب أو الملكات ذوات أجسام أقوى وغازئ أصفى فتدير

الخلية كلها وتكون حفاظا ونورا للجميع هذا في المثل به : أما الذي ضرب بنا له هذا المثل ، وهم المسلمون في أمم الاسلام المستقبلة فانهم طائفة نسبتهم في القلة الى أمم الاسلام كنسبة الياسيب الى الآلاف المؤلفة في الخلية الواحدة ، وهذه الياسيب عند باوعهن سنا مملوكة يتقاتلن ومن خلل فهو القائم بنظام هذه الدولة النحلية الصغيرة ، بهذه الطائفة الاسلامية التي ضربنا لها هذا المثل يقرن من النجوم أجلاها ويخربون في كل شئ بسبهم ، وتكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما اغتذت الممالك النحلية بأنواع ما يبنى العمل من رحيق الزهر الجليل ، وهذا التشبيه حق ، فان العلوم زهرات هذه الدنيا ونوراتها ، والرحيق المختوم المخبوء في تلك الزهرات هو محاسن نظام هذه الدنيا الجليل ، وحسب صانع العالم ، وحسب الامم الانسانية ، وارتقاء النفس عن السفساف وشوق النفوس ، وعشقها للانسانية ، وريقها وسعادتها ، فهذا هو الرحيق المختوم المخبوء في زهرات هذه الدنيا ، وزهرات هذه الدنيا : هي العلوم والمعارف .

فما مثل العلماء المحتادين في الامم الذين أغرموا بعلوم اللغات كعلوم اللغة العربية الاثني عشر ، وعلوم اللغات الأخرى ، أو بعلوم خاصة من رياضية أو طبيعية أو فروع من فروعها أو صناعة من الصناعات المتفرعة عليها أو بعلم القانون في أي أمة من الامم أو بعلوم ظواهر دين من الديانات . أقول ما مثل هؤلاء الاكمل النحل العاملة في خلايا النحل الاثني تتلو عند رؤيتها « وبنا من الاله مقام » علوم . فكل منها يعمل خاص ، وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعا عادلا ، والمملكة رباط الجميع ، فهؤلاء النحلات كلهن اقسام أعمال المملكة ، وغذاؤهن وهن أجنة ليس من النحل المصني : فهذا الغذاء غير المصني في الصغر مناسب لأعمالها عند ادراكها : فالعمل فرعي والغذاء غير مصني : أما اليسوب ففذاؤها مصني ، وعملها عام للجميع . فاذا رأينا علماء اللغة أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات ، فان هؤلاء كالنحل انقذات بأعمالهن في الخلية ، واذا رأينا المفرمين بالحكمة العاشقين للعالم الذين يلعبون بجميع أطراف هذه العلوم ويختصمون هم بالمثل الأعلى قلنا هؤلاء هم حكماء هذه الأمة القائمون بتدبيرها بعدنا ، المجتهدون في اصلاحها : هذا جواب سؤالك الأول .

أما علامانهم فأقول : ان لهم « علامتين : العلامة الأولى » تؤخذ من الجواب الأول ، فهم المفرمين بجمال هذه الدنيا من العلويات والسفليات ، العاشقون لكل علم ولكل فن ، المسكرون على صفوة العلوم المحبون لصانع العالم ولعباده الواهلون بأمم الاسلام أن ترقى .

« العلامة الثانية » أن الناس يصصفون اليهم ، ويأبون الى كلامهم ويستمعون لهم ، وتقبل القلوب عليهم ، ويعمل العقلاء بأقوالهم وآرائهم بشوق وتوق : فهاتان هما علامتان . فقال : حسن ولكن أي الكتب يقرؤها الانسان حتى ينال هذه الدرجة الرفيعة ؟ فقلت : السموات والأرضون والبحار والأنهار والسحب والجبال ، هذه هي الكتب التي يقرءونها ، وكتاب الله الدال على ذلك . فقال : هذا أجل ان هذه المذكورات مبنولة للناس جميعا ولكن أ كثر الناس لا يعلمون .

فقلت : فان أردت يا صانع إلا التخصيص فاني أقول : إن هذا التفسير وما يمثله من الكتب العامة لمؤلفي الاسلام في زماننا وفيما قبله مضارع تنبت فيها وتزهر عقول وعقول ، والاستعداد هو الذي به يمتاز الحفيد من الرديء ، والخبيث من الطيب ، والسابق والمتعصم ، والاول والآخر ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » فاذا رأيت أيها الصديق أمثال الخلفاء الراشدين وسداد حكمهم وبارع حكمهم وما أوتوا من ذكاء وفطنة ، حتى قال بعض حكماء أوروبا في عصرنا ونقلنا عنهم ذلك في هذا التفسير : انهم كانوا أذكى من قياصرة الروم وأكسرة

القرن في زمانهم ، فما ذلك الا من التسليم الى كانوا يتلقونها من النبوة عند تلاوة الآيات القرآنية كما تقدم وأنهم كانوا لا يعفون شيا حتى يفهموا حقائقه ، وما هي هذه الحقائق ؟ هي التي ظهر لنا نتائجها في أعمالهم فزاهم يحوطين أمهم والأهم الخاضعة لهم بوطنهم ورجلهم ، لأنهم فهموا معنى آية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصاروا هم رحمة للعالمين ، لا للمسلمين وحدهم ، فعمد عليهم وفهموا أن الفاسم لم تكن لأجل شهواتهم بل كانت لإصلاح المجموع : فلذلك نبشوا التعم ظهر يا ورضوا بالخبر الذي لم يدخل وتركوا عرض الحياة الدنيا وهكذا ، وهذا نموذج لصورة العالم التي بصفتها أئمة المسلمين بعهدنا الذين يكون مثلهم في أمة الاسلام كمثل الانسان في نوع الحيوان أو كمثل دين الاسلام بالنسبة لساير الديانات يملأ عليهم . فهؤلاء المصلحون بعهدنا تكون وجهتهم المصلحة العامة وقيادة مجموع الأمة يحترمون المناصب كلها ويحبون العساو كلها ويكونون للمسلمين أباء ، فاذا رأوا الشافية والحنفية والمالكية والحنبلية والشيعة والزيدية والاباضية وأمثالهم مكبين على فروع زاولوها ، وأحاديث تلقوها وعاشوا على ذلك وماتوا فليقرروهم وليغرمواهم بحمال العالم ، وحب المجموع الاسلامي ، وحب الله عز وجل ، وتوجيه هم المسلمين الى المثل الأعلى .

ذلك أيها الأخ جواب ما سألتني عنه . فقال : بقي لي سؤال واحد ، وأنا لك شاكر . فقلت : وأنا إن شاء الله محيب . فقال : من أين أتت لك هذه الاجابات مع أنك قبل أن ألقى السؤال عليك لم يكن لك به علم . فقلت : ان الاجابات أحس بها في قلبي وقت السؤال فيشرح صدرى للاجابة فأجيب . فقال : وهل كل ما يشرح صدرك له يكون علما . فقلت : ذلك له ميزان . فقال : وما هو ذلك الميزان . فقلت : الميزان هو الدين أولا ، والعقل ثانيا ، والنظر لحاجة الأمم الاسلامية ثانيا ، فان وافقها فهو حق ، وان خالف الدين أو العقل أولم يكن له دخل فيما يحتاج اليه المسلمون لم يكن خيرا جواب فلا أجيب به . فقال : لقد أطلت عليك بالأسئلة ، ولقد أفدت خيرا إفادة ، فأنا أجد الله على هذه النعم . فقلت : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . انتهى ظهر يوم الثلاثاء ٥ يناير سنة ١٩٣٣ م النصف الثاني من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية .

نور على نور

في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة

عنها ، وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة الى الآن .

حضر صاحبي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير في اليوم التالي لكتابة هذا المقال : وقال .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الكرام . أما بعد : فاني اليوم أريد منك أن تبين لي أمسين ، قد أشكلا على فيما تقدم : أما أولها فأنك ذكرت في الأمر السادس عند تعليلك على أعمال الدولة العباسية أن عبد الله بن الحسن واليه صاحب البيعة جاء الى السفاح الذي اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ ، وأن ذلك يدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوة قد تغيرت في القرن الثاني بعد القرن الأول ، وأن الترف صار مرغوبا فيه بعد أن كان مبغضا عنه ، فأرجو أن تذكر لي شذرة من أخلاق رجال العصر الأول ليكون تذكرا وتبصرة . فقلت : أذكر أن المغيرة (كما ذكرت في بعض هذا التفسير) لما قال له رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية « انكم تموتون فيما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقي منا

على من بقي منكم» . ونقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر . لما أخوفه بجموع الروم وأنه لن يقدر عليهم وهم يحاصرون حصن بابل : فقال عبادة .

« يا هذا لا تفر من نفسك ولا أحمالك . أما أخوفنا به من جمع الروم وعساكرهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلهي ماعذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . وإن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحوصنا عليهم . لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه أن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقروا لعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنما منكم حينئذ لعل إحدى الحسينين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفروا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفروا بنا ، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا . وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا ويدعور به صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده . وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده . وإنما ما أماننا . وأما قولك : أننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة : ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه » اهـ

فلما سمع صاحب ذلك قال كفاني ما ذكرت في الأمر الأول . نحن الآن في تفسير آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين في العصور الأولى ما نل أماننا ، فأراك أنت في الخلافة ؟ فقلت : رأيي ذكرته في بعض أجزاء هذا التفسير . فقال أريد أن تصرح به هنا لأن هذا مقامه فقلت قد كتبت في مجلة « المعرفة » في شهر يناير سنة ١٩٣٢ فقال أرجو اثباته هنا مأخوذا من فحوى ما هنا ، فقلت قد جاء فيها تحت العنوان الآتي ما يأتي ، وهذا نصه :

آراء خطيرة في الخلافة الإسلامية

مبحث الخلافة الإسلامية مبحث مهم من المباحث العلمية الإسلامية ، وكل علم لا يعرف الناس أدوار تاريخه يكونون في دراستهم له ، وأحكامهم فيه أشبه شيء بمن يبنى بيته على شفا جرف هار ، ومن يستسمن ذا ورم وينفخ في غير ضرر .

إن الخلافة الإسلامية في الأعصر الغابرة لعبت دورا عظيما ، هما ، وشغلت أهم الاسلام قاطبة ، وتفرقوا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ما عودهم الآباء . وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل يتسنى لطفل تربى على مذهب خاص في عصر الخلافة أن يفكر في القرآن وفي الاجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لظريته لا يتعداها ، جامدا عليها لا يتخطاها . إن أكثر أنواع الانسان في الأرض مقلدون ، جدت القرائح وتعارضت الظنون ، ووقفت الحركة العلمية الإصلاحية في جميع الشؤون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصاب الصاعقة ، وأحاطت بنا الأمم « وهم من كل حذب ينسلون » أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا أيها المسلمون أتأكل عليكم نبأ الخلافة ، وأبد رأيا بجملا يقبل التفصيل والتحوير .

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأي فيه الا بالبحث في أحوال الخلفاء السابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملا بقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقوله تعالى « أفلم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى ، موجهة للمصلحة العامة بأخلاص ، تصبح خدمة عامة لا ينتطح في أمرها عنزان ، ولا يرثها الأبناء عن الآباء ، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سرور تتقاذفها في أيدي الجهال وتأتي أن يناهها الأبطال . توفي رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فعمرو فعثمان فعلى رضي الله عنهم . درسنا مجمل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أبا بكر وصي بها لابنه ، واستسكن عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم نر أحدا منهم استكثر من الأموال واتبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة في الاسلام . إن أمر الخلافة شورى بين المسلمين « وشاورهم في الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

مضى عصر الراشدين ، وتولاها الأمويون وأوطم معاوية فاستبدوا بالأمر فقاومهم بنو هاشم فقتل بهم الأمويون فقتلوا ذريتهم ، ثم اشتد العباسيون والمالونيون في مقاومة الأمويين ، وساعدتهم شيعةهم الفارسيون وبطلهم أبو مسلم الخراساني ، وأكثروا من موضوعات الاحاديث ، وما كاد الأمر يتم للعباسيين حتى قلبوا ظهر الجن للمالويين وقتلوا بهم فقتلوا ذريتهم ، وقتل المنصور محمد بن عبد الله ، وهو الخليفة الحنفي صاحب البيعة الصالحة .

هنالك أصبح الخليفة العباسي بيد تشريد الأمويين يقتل المالويين باليمن وأبناء عمه العباسيين بالشمال بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعةهم غدرا كآبي مسلم الخراساني وجعفر البرقي وغيرهما كثير . ولقد قتلى العباسيون في إذلال العرب كما قتلى بنو أمية في إعلاء شأنهم على غيرهم ، ومقالة ابراهيم الامام لآبي مسلم « من ترددت في أمره فاقتله » وحرقه على قتل العرب فقتل منهم ٩٠٠ ألف رجل غدرا وهم آمنون .

مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون وأمّ الأول عربية ، وأمّ الثاني فارسية فنصر الفرس ابن أختهم وشردوا العرب كل مشرد وأذلّوهم ومنعهم المقتضيم النظام . ولما كانت أمّ المعتصم تركية من بلاد الصغد أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هنا لك أصبحت الخلافة في العباسيين اسما بلا معنى ، وتنازع القواد من غير العرب الرئاسة وصار الخلفاء آلات صماء في أيديهم فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ وسحباوا أعين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدي التتار ، وكل ما حصل للعباسيين تمّ نظيره في الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بحجراتهم من الاسبان على اخوانهم ، فيهلك الفريقان ، فرما كانوا يقتلون المستعجب بهم غدرا كما حصل لجندل بن جود أمير أشبيلية اذ وعده البابا ودوق فينيزيا وبعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كما اذا ساءلهم في فتح قرطبة فبرّ بوعده لهم فقتلوه غدرا وخربوا أشبيلية .

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وما يتبعها من الامارات في الاسلام . وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها في القرآن . والذي أراه :

(١) — أنه يجب على كل أمة « عربية أو غير عربية » أن تعمم التعليم للذكور والأنثى بقدر الامكان .
(٢) — يجتمع أمراء الاسلام المفوضون من أمهم في أمر الخلافة ، لينتخبوا أميرا منهم لها ، على شريطة ألا يعمر أمرا الا بمشورتهم : من صلح أو حارب أو غيرهما كما كان يفعل الخلفاء .

(٣) — أن يكون الانتخاب لسنتين محدودة أولدة الحياة ، فاذا انقضت المدة في الأول أومات في الثاني فلينتخبوا سواء بالشورى ، فاذا أعيد انتخابه في الحالة الأولى قل ذلك .

(٤) — يجب أن يرعى في الخليفة أمران مهمان وهما (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الامراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا في الترجيح اذا تعارض أميران واستوفيا ما ذكرناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة في العلم والجسم » .

(خامساً) — كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لا سقاه في تولي أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأي من فوقه ، وهذا ضارّ بالساميين .

(سادساً) — إذا قلنا أن اجتماع في هذا الزمان «الضعف أو افتراق كلمة» فليقر بين المسلمين الوقت المناسب . فأما الخلافة الضعيفة التي يتولاها ، من لا يجوز حسنه الثقة ، فما هي إلا شبكة صائدين ، وحيلة محتالين ، فهل المسلمون عقار يتناوله الإبناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خسير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليستكونوا بالأولى خلفائهم بسلطانين ولم يمشيرين وعلى أعمالهم شاهدين ولا عوابعهم مقومين . هذا ما أراه في شأن الخلافة وفوق كل ذي علم عليم . هذا هو ما كتبت في مجلة المعرفة ، والحمد لله رب العالمين . فلما سمع صاحبي هذه المقالة قال : حسن هذا الرأي ، ولقد ذكرت فيه : أن الدولة العباسية اضمحلت وضعفت واستبد بها عمالها ، فهل من سبيل إلى معرفة الفروع التي تفرعت لها تلك الدولة أيام ضعفها ؟ فقلت نعم جاء في الجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامي ما يأتي :

وجعلت سلطة الخلفاء تنقلص حتى وسعها السواديين الفرات ودجلة . ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضي بالله في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات	حكماؤها
البصرة	في يد ابن رائق
خوزستان	» البريدي
فارس	» عماد الدين بن بويه
كرمان	» أنى طي محمد بن الياس
الري وأصفهان والجيل	» ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضروبيعة	» بنى محمدان
مصر والشام	» الاخشيدي
خراسان وما وراء النهر	» السامانية
طبرستان وجرجان	» الديلمي
البحرين واليمامة	» القرامطة

استبداد الجنود والخدم

ومما زاد الامر استفحالا أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلق الايدي في قصور الخلفاء يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء صنوف الاهانة وأنواع العذاب . كما فعل جند المغاربة والأتراك في المعز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعه لأنه قصر في عطايتهم . فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس . فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقي بعضهم يلطمه ، وهو يتقي بيده وأدخاله حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب القاضي وجماعة فاشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم ادخلوه سردابا وجصوه عليه فمات (١) . ومع كل ما لحق الخلفاء من النذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للأتراك ولا لغيرهم من غير عرب قرين أن ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس . فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفاتها

سنة ٩٥٦ هـ ففر من بقي من أهله إلى مصر والتجأوا إلى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة إلى أن فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٦٣ هـ فأخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد خلفاء العباسيين جميعا نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق ، وأولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر . فلما سمع صاحب ذلك قال ما أحسن التفصيل بعد الاجمال ، ولو أننا وفقنا على مجمل الدول الإسلامية من أول عصر النبوة إلى الآن : لكان ذلك أشد جمالا وكالا . فهاك جدولنا ببيان ذلك وهذا نصه .

جدول الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام إلى الآن

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هـ
الخلفاء الراشدون	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الأموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
الجودية	مالقة	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة	٠٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشبيلية	٠٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
الجهورية	قرطبة	٠٣	٤٢٢	٤٦١
ذو النونية	طليطلة	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
الحامرية	بلنسية	٠٧	٤١٢	٤٧٨
التوجيمية	سرقوسة	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دانية	دانية	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الإدارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الأغالبة	تونس وغيرها	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	»	٠٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حماد	جزائر الغرب	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمال إفريقيا	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنو حفص	تونس	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنو زيان	جزائر الغرب	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنو مرين	مراكش	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرفاء	»	٢٨	٩٥١	لا تزال
الطالونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الاششيدية	الفسطاط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها هـ
الفاطمية	القيروان والقاهرة . مصر	١٤	٢٩٧	٥١٧
الايوبية (١)	القاهرة (مصر)	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	»	٢٧	٦٤٨	٧٩٣
» الشراكسة	»	٢٣	٧٨٤	٩٢٢
العائلة الخديوية	»	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زبيد (اليمن)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
الصفورية	صنعاء الخ	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاشية	زبيد	٠٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعاء	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	»	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهديّة	زبيد	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزيرية	عدن	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمن	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	»	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الرسية	صعدة	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعاء	»	٠٠	١٠٠٠	لا تزال
الجدانية	الموصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المزبدية	الحلة	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
السلفية	کردستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	اذر بيجان	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيدية)	طبرستان	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس (فارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلاك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزيارية	جوجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنويه	کردستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنوبويه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧

(١) هذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وجاه ص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها هجرية
السككوبية	کردستان	٠٢	٣٨٨	٤٤٣
السلجقة وفروعهم	جنوبي آسيا	٥١	٤٧٩	٧٠٠
المانشندية	سيواس وغيرها	٠٥	٤٩٠	٥٦٠
الانابكة البوريون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
» الزنجيون	سوريا و بين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
» البكتجينيون	ار بلاو غيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
اتابكة اذربيجان	اذر بيجان	٠٥	٥٣١	٦٢٢
الساغرية	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
الهزارسية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القفافية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣ (١)
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لا زال
خانات المغول	زقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشائر الذهبية	قراختاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
» القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
» جاجتاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيرها	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس و كردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السرمداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
السكرتيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
انقراقيون	اذر بيجان وغيرها	٠٥	٧٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	»	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات الحجم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا زال (٢)
التيموريون	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٩٠٦
الشيانيون	»	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجينيون	»	٠٦	١٣٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	»	٣٥	٠٩٢١	١٢٨٩
» خوقند	»	١٧	١١١٢	١٦٩٣
الجانينيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزنويون	افغانستان و بنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	» و هندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢

(١) قد أسقطها مصطفى كمال باشا ، وصارت الآن جمهورية (٢) سقطت أيضا في مصرنا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ما تركها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هجرية
سلاطين دهل	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
« جانبور الشرقيون »	جانبور »	٠٩	٧٩٦	٩٠٥
« مالوا »	مالوا »	٠٧	٨٠٤	٩٢٧
« بكرات »	بكرات »	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خاندیش	خاندیش (الهند)	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهمنية	الدهكن »	١٨	٧٤٨	٩٣٣
النشاهات العمادية	برار »	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
« النظامية »	أحمد نجر »	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
« بريد »	بيدر »	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
« العادلية »	بيجانبور »	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
« القطبية »	كواكندا »	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطور المغول	هندستان »	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان	١٥	١١٦٠	لا تزال (١)

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التي ظهرت من أول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والأتا بكة والاشيذية والخيويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والأتراك والشراسة والاكراذ والهنود والتستر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والسكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعا وعمران ودهلي وغيرها . انتهى ما أردته من كتاب تاريخ التمدن الاسلامي والحمد لله رب العالمين

بهجة الجلال في تاريخ الأمم الإسلامية

في جواب اعتراض على المؤلف في هذا المقام

حضر صديق العالم الذي اعتاد مسامرتي في هذا التفسير . فقال : يخيل لي أن هذا المقام قد خرج عن دائرة التفسير خروجا يؤدي إلى أن يحسب الانسان نفسه في تيهاء المعارف ومفاوز العلوم ، أو كأنه غريب في وسط هذا المعمعان العالبي ، فأين آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فان بخت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبني حتى تفيء إلى أمر الله » من هذه الدول المتشاكسة ، والأحوال المتناقضة التي لا حد لها ولا نهاية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنت بما صنعت هنا خرجت عن دائرة المفسرين جميعا فانهم قليلا ما ينظرون إلى مثل هذه المشا كل والمشاجرات والحوادث علمها منهم بأن كلام الله لم ينزل لمثل هذه الامور ، هو نور ، والنور غير الظلمات .

فقلت : حيالك الله أيها الأخ ، أنا أعلم انك تعبر بهذا عن آراء كثير من اخواني المسلمين شرقا وغربا ، وهذا القول أثار في نفسي آثارا جميلة صالحة :

وحركت وجدى بعد ما كان نائما ✖ برأى الضحى مشغوفة بالترحم

فلوقبل مبكها بكيت صباية ✖ بسعدى شفيت النفس قبل التندم

(١) سقطت وآخرها أمان الله خان

ولكن بكت ليلى فهبج لي البكا * بكها فقلت الفضل للمتقين
أذكرني بقول ابن الفارض :

أجد الملاحة في هواك لذينة * حبا لذكرك فليلمني اللوم
إن ملامتك أيها السديق إغراء :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء * ودافني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحران ساحتها * إن مسها ضجر مسته سماء

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أخذت في الغزل بدل الإجابة ، وذكرت الخمر المذمومة طباً وشرعاً . فقلت :
« تلك الأمثال نضر بها للناس لعلهم يتذكرون » ، هاجت بلا بل شوقاً للمباحث الجلية ، والآيات البديعة ،
في هذا الوجود وحكمته ، والعلم وروعه .

أيها الأخ النكي : سأحدثك الساعة مجيباً عن اعتراضك بما يشالج صدرك ويشرحه ، ويصلح بالك ،
فأجعله في ثمانية فصول :

- (١) في النظر في عالم الحيوان .
- (٢) وفي بروز الإنسانية من وسط معاصم الطيحاء الثائرة في الشهوات البهيمية ، والسطورة السبعية ،
وتسلطها على القوتين ، والاعتدال فيهما .
- (٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان (كونفيشيوس) الفيلسوف الصيني في القرون الأولى
(٤) ثم قفاه (سقراط) في جمهوريته وانتجى نحو آخر في سياسة الأمم ، وهما في النتيجة متآخيان
متقاربان ، وإن لم يعرف أحدهما أخاه ، لتباعد الديار ، وانقطاع الأخبار .
- (٥) ثم تطبيق عاوم تلك الأمم البائدة على الأمم الإسلامية في القرون الأولى ، وكيف تطوّروا في
سياساتهم على مقتضى ماذكره (سقراط) فسكان أوائلهم على المنهج الأثم ، وتنزل الأبناء عن سنن
الآباء دركة فدركة إلى أن انحطوا إلى أسفل سافلين في سياساتهم .
- (٦) ثم تبين أن ذلك لم يخفقه الله سدى ، بل جعله بصائر ونور لنا نحن المسلمين في هذا العصر الذي
جاء كالفصل بين أمدنين متناقضين : أمد مضى بحوادثه وتجاربه التي جعلت سلام يصمد عليها
الجيل الآتي والجيل المقبل إلى قة السعادة والهناء .
- (٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحوادثهم لم تظهر آثارها أكمل إلا في زماننا هذا ، لأن الله يريد أهما
تسكون في سعادة وحبور .
- (٨) ثم تبين نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان في هذا الزمان .

الفصل الأول : نظرتي في عالم الحيوان

اللهم ان نورك مشرق علينا ، في كل حين شمس تشرق ، وقر يضيء ، وكواكب تزين ، ومجرات
كثيرات الشموس ، وسلم بهيدات الأمكنة ، طويلات الأزمنة ، من حيث وصول أنوارها إلينا .
رباه : جل صنعك ، بهرت حكمته . رباه : خلقتنا في وسط هذا النور والجمال ، وجعلت فينا قوى
تغشنا على أعمالنا نحن ، فماذا وجدنا ؟ وجدناك يارباه بعثت في الحيوان نشاطاً بقوى ثابتة فيه سميناها
« القوى الشهوية » ، تلك القوى حركته اطلب القوت ، وطلب النسل ، وعاش في هناء وحبور ، رأيذك
منعته غرائز ، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد ، وحفظ النوع ، وحفظ السعادة الزوجية ، في مقابلة أحوالنا

المنزلية ، وحفظ الجماعات في مقابلة أحوالنا السياسية .

هذه ياربى حال الحيوان الذى يحيط بنا ، أنت الفاعل بشأه ، فالنور الذى يحيط بنا من كل جانب وتراه حيواننا قد أعطى الحيوان فى داخله قوى تضىء له طرق الحياة ، مشاهبات من حيث حقائقها له مشابهة مما . إن الحيوان بنوره الداخلى الموازى لنور السكواكب الخارجى من حيث الهداية قد كشفه أمر السعادة الشخصية المنزلية والسياسية ، ولكننا من جهة أخرى وجدنا أموراً عجيبية ، وجدنا قوى الغضب فى كواسر الحيوان أغرته أن يسقط على أمثال الفزلان والأرانب من آكلات الحشائش . تسطر السكواسر من الطير على بغائها ، والسباع والنمور والوحوش على ذوات الظلف والحافر وغيرها ، مجزرة هائلة ، وميدان واسع للقتل والفك والنهش ، بينما يرى كل نوع من مشرات ، أو طير ، أو زواحف ، أو كواسر ، مسوقاً بفرزته للتعاطف والتواد والتراحم ، بالعواطف تعارضت واتجهت إلى اتجاه الإهلاك والتدمير والذعر والخوف والعداوة والعدوان ، ملحمة مجزرة مهلكة ، جنازات تجمعها جناز ، وضحايا وراءها ضحايا ، فى وسط هذه المعامع والمجازر برز خالق جديد .

الفصل الثانى فى ظهور الانسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الانسان ، وما هو ؟ هو حيوان اجتمع فيه القوة الغضبية مع القوة الشهوية ، فهو سيج وغزال ونمر وأرنب وذئب وطاووس ، هو جماع كل حيوان ، فظهر التضارب فى أخلاقه ، والخلط فى أفعاله ، كما كان بين الأسد والشاة والنمر والغزال ، ولما رأينا له حالا ثالثة سمينها «عقلا» عقلت القوة الأسدية أن تطغى ، والقوة الشهوية أن تحيد عن الصراط السوى ، وهنالكَ كان الفطن أن يكون هذا الانسان مهتدلاً ، واسكن ما كل ما يتخفى المرء يدركه ، فاننا رأينا المجازر والمذابح والفاراس التى تشنها الآساد على الفزلان ، تفعل مثلها وأشد منها الأمم القوية مع الضعيفة ، ومن الخجل أن السكواسر من الطير ، والقوائم من السباع لها العذرى الفتك بالآكلات الحشائش ، فأما الانسان فانه حيوان زاد فى شره عن كل حيوان ، فهو يغير على غيره لئلا كل من تبعه وعرق بعينه ، ليكون الغنم له والغرم على غيره بلا علة إلا ظفائه . ولا سبب إلا جهله وخطئه المبين .

هذه صفات أكثر نوع الانسان ، ولقد ارتقت عن هؤلاء طائفة منهم فقالوا : قف أيها الانسان قف ، أين عقلك ؟ انك لفرى مبين ، نحن ننزلنا عن الحيوان شرفاً ، ونزلنا دركات فى طرق العمالية ، ألسنا أشرف منه قدراً ، ألسنا أرفع منه مرتبة ؟ أفلا نكون نحن بررة أقياء ، فعلياً أن نجعل المجموع مساعداً للمجموع فلنقم بالقسط ، ولنترك لكل امرئ ما كسب ، بل لنزهد نحن فيما فى أيدي ذيرنا ، ولنسكن آباء رجاء للناس ، هذه مزيتنا لا غير ، لقد علمنا بما جربنا أن الله سريع الحساب ، وبهذا نزل الكتاب ، ألم نروا أيها الناس أن الانسان اذا أكل فوق طاقتة ، فانه يتحمل تبعه جهله ، ويعطى الدواء المرّ السكرية ، فيكون الغنم بالغرم ، أليست البطنة تذهب الفطنة ، بل ألم يظهر فى علم الطب حديثاً أن كل ما كول قد طبخناه نقص من مادة الحياة فيه مقدار عظيم ، وما لا يطبخ يعطى قوة الحياة لنا كاملة ، إذن أيها الناس نحن غافلون ، اتباع اللذات والشهوات له رد فعل ، فآله سريع الحساب لنا فى نفس الحياة فضلاً عما بعدها ، وأيضاً اذا توغلنا فى اللذات وجدنا قواً نضعفت ، وكل جيل يكون أضعف مما قبله ، والعاقبة مخزاة موقمة فى الدمار والإهلاك فهذه الطائفة من نوع الانسان قالت . كلا . فلتكن حكومات ، وليكن نظام ، فانظر :

الفصل الثالث فيما نقل عن كوفشيوس الفيلسوف الصيني العظيم

بقلم الكاتب الأمريكي (ول. دورانت) مؤلف قصة « الفلسفة وعصور الفلسفة » وقد ذكر أسماء ١٣ عظيما اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل :

- (١) إن التقويم المصري عثر عليه قد أُلِف سنة ٢٤٩٠ قبل الميلاد وهذا من عجائب العلم .
- (٢) ومثل بوذا المتوفى سنة ٥٤٣ ق. م .
- (٣) ومثل كوفشيوس المتوفى سنة ٣٧٨ ق. م .
- (٤) ومثل سقراط المتوفى سنة ٣٩٩ ق. م .
- (٥) ومثل قيصر المتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد .
- (٦) ومثل المسيح .
- (٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ٦٣٢ ب. م .
- (٨) ومثل روجر بيكن المتوفى سنة ١٢٩٤ ب. م . الذي يدعون انه أول من استعمل البارود (١)
- (٩) ومثل غوتنبرج المتوفى سنة ١٤٥٤ ب. م مخترع المطبعة .
- (١٠) ومثل كولمبوس كاشف أمريكا سنة ٤٩٢ ب. م .
- (١١) ومثل (جيمز واط) مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م .
- (١٢) الثورة الفرنسية .

هذه هي الحوادث التي اختارها ذلك الكاتب الأمريكي التي يراها بحسب نظره هو أنها أعظم ما أثر في العالم الانساني ، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كوفشيوس الفيلسوف الصيني الذي عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة ، فهل لك أن أحدثك عن أولهما ، ثم أحدثك عن ثانيهما ؟ أحدثك عن أولهما في هذا الفصل ؟ لماذا ، أحدثك عنه ، لأنه شرح المسألة التي أنا الساعة بطريق حلها ، مسألة نظام هذه الدنيا ، هذه الدنيا الجميلة في نظر الفيلسوف ، المرتبة الموحشة في نظر الجاهلين .

الله أكبر : أنت كبير ، أنت عظيم ، عجبتنا يارب هذا الابداع ! عجبتنا يارب لابداعك ! تعاليت وارتفعت عنا ، وأرسلتنا إلى الأرض ، وقلت لنا أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فميشوا فيها ، وسترون موتا وحياة ، وعزا وذلا ، وقاهرا ومقهورا ، وغالبا ومغلوبا ، وحيوانات ذرية تسطو على الانسان ، وعلى الأسد ، وعلى الأسد يسطو على الانسان ، وانسانا يحارب انسانا بالسيف والنار والحديد والبارود والغازات السامة ، فتذهلون من هذا المنظر ، وتقولون موت وحياة ، وفراق ووصال ، ماهذا ماهذا ؟ ولكني اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم ، يعيشون فيكم وأرواحهم في الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسامهم ، وكأنهم في عزلة عن المادة ، أشهدتهم صني ، وأفهمتهم حكمتي ، وأن ما يشاهدونه إنما هو المظاهر التي تشبه مظاهر السينما (دار الصور المتحركة) يراها المتفرجون صوراً تتبعها صور والنفس باقية خادمة لن تموت ، وما هذه الصور إلا أحوال مختلفات عارضات على النفس التي لا خلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادة إلا بما يعترىها من نحس وسعد وموت وحياة ، فالأهل والأحباب على سريرهم وميتهم يكون ، والنبي والحكيم والفيلسوف يضحكون سرورا لما تجرى به المقادير عليهم وعلى غيرهم ، لأنهم للناس آباء ، والناس كلهم أبنائهم ، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على جمال سره المصون المكنون ، فعرفوا أنه رحيم وماعمله إلا لتخليص النفوس من الجهالة ورقبها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم ، فتشاهد الجمال والجلال ، فهذه الطائفة

منهم كونفوشيوس وهو حكيم كبير . قال الكاتب الأسباني في ذلك المذكرات في « مجلة المقتطف » في شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م :

« ولابد لنا من رمز يمثل الصين ، الصين العظيمة التي يدعوها أبناؤها « كل ماتحت الشمس » . والصين القديمة التي مازالت تدون تواريخ ملوكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن ، والتي لا غنى عن هذه الفرصة لأعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كنفوشيوس ، فانها تتعمق على حكمة خالصة من الشوايب وهي من كتاب « المعرفة العظيمة » . قال : — « إن الأقدمين الأجناد كانوا اذا أرادوا أن يوضحوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون أسئلة مما لديهم ، وقبل أن ينظموا أسئلة مما لديهم كانوا ينظمون أسرارهم ، وقبل أن ينظموا أسرارهم كانوا يهذبون أخلاقهم ، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم ، وقبل أن ينقون نفوسهم كانوا يخالطون أن يكونوا صادقين ومخلصين في تفكيرهم ، منزهين في أغراضهم ، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين ، كانوا يوسعون معارفهم ، وتوسيع المعرفة كان يحى عن طريق البحث والملاحظة ، شاهدوا الأشياء والأفعال فكتبت معارفهم ، ولما اكتملت معارفهم خالصت أفكارهم وتنزهت أغراضهم فتهذبت أخلاقهم فتنتفت نفوسهم فانتظمت أسرارهم ، ولما انتظمت أسرارهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها ترحب في السعادة والوئام » .

« ولما كنا صرايين في الفكر ، ونرفض أن نرى الأشياء على حقيقتها (كالديمقراطية مثلاً والزواج والاستعمار ونظام الطبقات في أوروبا وأمريكا) ، فنحن لسنا مخلصين في تفكيرنا ، ولما كنا غير مخلصين في تفكيرنا تعذر علينا أن نبلغ بنفوسنا مراتب الكمال ، وأن ننظم حياتنا ، ولما كنا لانستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرارنا ، وأذن قدولنا في حالة اضطراب وفوضى » .

هذا هو الدرس البسيط الذي يلقيه علينا كنفوشيوس ، اننى أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كنفوشيوس عن ظهر قلب ، فقد وجدت كل سطر من سطره يصل إلى صميم الحقيقة ، وفي الوقت نفسه يمكن تطبيقه ، واذ أخلو إلى نفسى أقول : لو أن بعض هذه الحكم طبع في نفسى من عشرين سنة لكنت فزت باتساق النفس ، والسكرامة الروحية ، والفهم الهادى ، والخلق المتين ، والأدب الخاص ، وهى الصفات التى يتصف بها الصينيون المثقفون الذين عرفتهم ، أنا لأعرف رجلاً طبع أمة بطابعه كما طبع كنفوشيوس أمة الصين ، فلنأخذ تاريخ وفاته رمزاً وحافزاً ، إن هذا الرمز ينطوى على القصاص الغنائية البديعة التى نظمها شعراء دولة « نانغ » الصينية ، وصور المشاهدة الطبيعية المقسمة بسمة التصوف والشوق ، والآلية الصينية الكاملة شكلاً وزخرفاً ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها ، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة تلخص في اسم كنفوشيوس . وبهذا نتم السكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع : فى آراء مستقراط فى جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكى أن كنفوشيوس فى الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف واتساع المعارف بناء على البحث والملاحظة ، وبالبحث والملاحظة كملت المعارف تخلصت الأفكار ، وهذبت الأغراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسر فالدول .

يا سبحان الله : إذن أحم الإسلام لارتقى لها إلا بمعرفة المشاهدات واستقصائها بحثاً وتنقيهاً ، فيعرفون إذن علوم الكائنات حولهم ، ويطالعونها ، ويدرسون آثار الأمم البائدة التى ورثوا هم أرضهم وديارهم ، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتحاشوه ، إذن لنسدرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى ،

وندرس توارىخ أسلافنا من العباسيين والأمويين والصحابية والتابعين ، ثم نرى الحسن فنفعله ، والقيح فنجتنبه ، لا أننا تمنى بسطوة الملوكة وجبروتهم ، ومنعهم الشراء أموال الأمة جزافا ، ولنبتد كل ما كان فيه استبداد كبريات الخلافة الإسلامية بالمبايعة القسرية ، وتوارث المسلمين بها كما توارث النعاج والخراف ، كل ذلك ان يكون إلا بالدراسة ، وهذا الاجمال الذى قاله فيلسوف الصين فصله سقراط المعاصره ، فقد جاء فى الجمهورية فى الكتاب الرابع حكاية عن (اديمنتس) الذى تدخل فى الموضوع وسأله قائلا : وبماذا تدفع عن نفسك ياسقراط (يريد بذلك أن سقراط يحرم على رجال الدولة القائلين بالحكم أن يتمتعوا بالأموال ، بل يجب أن يكونوا زهادا على الهيئة التى رأيناها فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، وأن لهم هم سعادة روحية ، وتبتلا ، وصلة برهم ، تجعلهم أسعد ألف مرة من المترفين البائسين الجاهلين) اذا احتج أحد عليك بأنك لم تبلغ رجال هذه الطبقة «الحكام» أوج السعادة ؟ مع ان اللوم عليهم فى عدم سعادتهم لأن الدولة دولتهم عند التحقيق ، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضى ويشيدون الأبنية الفخمة ، ويفرشونها فرشاً يتفق مع خفايتها ، ويذبكون الذبايح ، ويولون للأصحاب ، ويملكون الفضة والذهب ، وكل ما هو ضرورى لسعاد الناس ، وقد يقال انهم كصفار المستخدمين ليس لهم فى المدينة إلا الخفارة .

(سقراط) نعم ، بل يظهر انهم يقتصرون على القوة ، ولا يأخذون معه مالا كالأخرين ، فلا يمكنهم السفر على نفقتهم اذا أرادوه ، ولا تقديم الهدايا للحظايا ، وانفاق الأموال على الرغائب الأخرى ، كما يفعل المحسوبون سعادا ، وأمثال ذلك من الامور مما طويت عنه كشعها .

(اديمنتس) فأضيف ذلك إلى شكواى .

(سقراط) أقتسأنى أىّ دفاع أقدم ؟

(اديمنتس) نعم .

(سقراط) أظن أننا اذا استأنفنا السير فى الجهة نفسها أدركنا الدفاع المطلوب ، مع انه لا يستغرب كون هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى فى هذه الأحوال ، على اننا لم نؤسس الدولة لجرد اسعاد قسم من أهلها ، بل لاسعاد الجميع معا على قدر الإمكان ، ففرضنا فى انشاء الدولة اكتشاف العدالة ، كما اننا فى دولة أخرى ساء نظامها نكتشف النجس ، وبمسد اكتشاف همدى وتلك يمكننا البت فى المسألة التى أمامنا ، فنحن جادون فى الوقت الحاضر فى انشاء دولة سعيدة ، لافى أن نخص أفرادا منها بالسعادة ، بل أن نسهل جميع أفرادها على السواء ، ثم ننظر فى دولة هى نقيض هذه أحوالا ، فلنصورنا شخصا بشريا فالتقينا منتقدا بأننا لم نزين أجمل أقسام الصورة بأبهى الألوان ، لأن العيون وهى أجمل أعضاء الجسم لم تلون بالأرجوانى بل بالأسود فيجب أن نفكر فى أنه دفاع كاف قولنا له : « أيها الناقد مهلا ، لا تتوقع منا أن نلون العيون باللون الجليل بحيث لا تبقى عيوننا ، وهكذا يقال فى بقية أعضاء الجسم ، ولكن انظر اننا جعلنا الجسم كله جيلا بتلون كل عضوفه باللون الملائم ، فجزيا على الطريقة نفسها فى مثلنا الحالى توجب علينا أن نسيغ صنوف السعادة على الحكام فيصيرون غير ماهم اه

وجاء فى الكتاب السادس من الجمهورية فى صفحة ١٥٥ : « ان هؤلاء الحكام فضلا عن زهدهم فى المال ، وإهم أباء الدولة ، يجب أن يدرسوا كل علم يصلوا إلى معرفته الله عز وجل الذى عبر عنه هو بالخير ، وهذه الدراسة مفصلة فى هذا التفسير ، فحجة فى الجمهورية ، وانما طلب ذلك لأن تلك الدراسة توجب حب صانع العالم ، ومتى كان هذا الحب تمت السعادة وصار هؤلاء الحكام خلفاء له فى إدارة أرضه : « يادادونا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى الخ » .

وقسم في الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام : (أرستقراطية ، ديموقراطية ، وأوليغاركية ، وديموقراطية ، واستبدادية) فالأرستقراطية حكومة الفلاسفة ، وهي الحكومة العادلة المشروعة شرعا وحيزا فيما تقدم ، ثم يظهر بها ذلك الخلف حول غير طريقتي السلف ، فيظهر خلف الفلاسفة غير مراعيين الحكمة ، فيصبح الأمر بيد القواد ، ويقومون بالدولة بدل الفلاسفة ، وهي التيموقراطية ، ثم يظهر بعد ذلك الطمع في المال ، وتذهب الحساسة من الجنود ، ويصبح المال هو المقصود بهد أن كانت الحكمة في الأرستقراطية ، والحساسة في التيموقراطية ، فالمال إذن يكون هو المقصود في الأوليغاركية ، فإذا أصبح هذا مقصودا كابر الأمة فهم إذن مجرمون ، لأنهم يخشون الشهوة الساقطة ، شهوة البطن والفرج ، وأذن يصبح المال في يد الحكام ، فيقوم الشعب ويحاسبهم حسابا عسيرا ، وتنزع الأمة إلى الثورة ، فتسكون الحكومة بالانتخاب ، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهي الديموقراطية وتسكون الحكومة الاستبدادية إذا لم يمكن ضبط الأفراد .

هذه هي الحكومات وأنواعها ، ومن رأى سقراط أن أعلاها أولها ، وآخرها أقلها شأنا . والديموقراطية وهي الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات رديئة ، ولكن في زماننا قيمتها عظيمة ، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لتبنى عليها ما يريد من الكلام في الفصل الخامس .

الفصل الخامس في تطبيق علوم تلك الأمم على أمننا الإسلامية في القرون الأولى

فإذا رأينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبذل قصارى جهده في التبرئ من مال المسلمين ويكتفي بأقل انقوت ، ورأينا أبا بكر قبله والنبي صلى الله عليه وسلم وعليه عثمان رضي الله عنهم ، فإنا نقول هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط ، وإذا رأينا أن العصر الأول لما ذهبت درلته ، ورأينا الأمويين والعباسيين في القرن الثاني يقاتل بعضهم بعضا وان كانوا مجتهدين والمجاهدين أيسر ، ورأينا أمثال عبد الله من ذرية الحسن وقد حضر عند السفاح ، ورأى المال المنهوب من بني أمية ، وهو جواهر وحلى للنساء ، وهو يطلبه من السفاح لأن ابنه كان هو صاحب البيعة فإنا لانشك أن هذا الجيل أقل من الجيل في القرن الأول ، لأن بعض آل البيت أحبوا المال وقد كان علي رضي الله عنه وعمر يترآن منه ويهربان ، وهذا يأخذ ألف ألف درهم ، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت ، وقد كانت تنفر منه وتحقره فاطمة رضي الله عنها ، فالسفاح في المثال المتقدم المشروح آنفا قبل هذا المقام في الطبقة الثانية وهي التيموقراطية فهو إلى الحساسة أقرب ، وعبد الله من ذرية الحسن أشبه بالطبقة الثالثة وهي الالفغاركية ، وهي التي مقصد أربابها المال فهو إذن في رتبة شهوية كما كانت التي قبلها حماسية (وبعبارة أخرى) إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب ، وأمثال السفاح إلى الحساسة أميل ، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب ، وهي التي يعقبها الاضطراب .



هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا ، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعا على نسق واحد ، وهو هذه الطبقة . طبقة المال والشهوة البهيمية ، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحساسة ، فأصحاب الحساسة أدلوا أصحاب الشهوة : أي الطبقة الثانية ذات الطبقة الثالثة .

اللهم إنك أنت الحمود على نعمة العلم ، نحمدك أنك عزفتنا لماذا انتقمنا من المسلمين بعد العصر الأول وسلطت بعضهم على بعض ، وألبستهم شيئا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، لأنهم لم يكونوا في النروة العليا من مقاصد الملك ، وهو العدل والصدق والاخلاص ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، أي انهم لم يكونوا خلفاءك

أنت على عبادك في الأرض ، و بعضهم أنك إلى الأرض و اتبع هراء في الميل إلى عصبية ، و أبناء يثنه ، و تفضيلهم على سواهم ، و أنت ما أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم إلا للسد العاصم ، و هجر العصبية الجاهلية ، لذلك عاقبتهم بالتخاذل ، و جعلت الملك في أيدي ذريتهم ، و جعلتهم خاضعة أعناقهم لقوادهم من الترك و غيرهم .

ههنا ظهرت الحكمة في تسلط بني هاشم بعضهم على بعض : فالعباسي يقتل العاوي ، و العاوي يطالب بالملك ، و الله يقول . كلا . لا ملك لأنكم تريدون مطلباً أدنى و هذا الدين نزل لما هو أعلى ، فكونوا متعادين لأسلط بعضهم على بعض ، و ذلك جزاء الذين لا يعدلون .

خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي و عبد الله الحسني

« أيها السيدان العظيمان : أزلتما دولة الأمويين ، و أخذتما جواهرهم و نقودهم ، لمن هذه النقود ، و لمن هذه الجواهر ؟ أي لكما أم للأمة ؟ ستقولان ان لنا في بيت المال كذا و كذا ، و تحتجبان بفروع علم الفقه ، و الفقهاء مختلفون ، و عمر رضى الله عنه يرى غير رأيكما ، لنزع فروع الفقه جانبا ، نحن نريد تربية الأمة ، إن الأمة لا تربي بهذه الطريقة ، لا تربي الأمم بأن تجعل طائفة منها تختص بالمال ، و تحصل غيرها مسخرة لها ، فهذا مثال العين و صبغها بالصبيغ الارجواني الذي ذكره سقراط ضربه مثلا لطبقتكم الشريفة يرى علم الحكمة المدون قبل النبوة أن طبقة الحكام أولى بأن تزهد و ترضى كما ترضى العين بصبغها البسيط و تتباعد عن أن تزين كما تزين العرائس ، و أن تكون مترفة ، إن المترف لنيل ، و كثرة المترفين تسقط الأهم ، الوقوف عند فروع الفقه و الجدل فيها إضاعة لجمال الاسلام . يقول الله تعالى : « و اذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أليس هذا هو دين الاسلام ؟ أليق بنا أن نجعل جسم أمتنا أعصابا مصابة بالشلل ، لنزع الفلسفة و الحكمة العقلية جانبا ، و انرجع إلى النبوة ، ماذا رأينا فيها ؟ رأينا إعراضا تاما عن مال الأمة من نبينا ﷺ و خلفائه فإذا جرى بعد هؤلاء ؟ رأينا كما أيها السيدان تناديان مال بني أمية : فأنت يا سفاح تواسي به عبد الله الحسني لانك اغتصبت الخلافة من ابنه وهو يشوق للمال و يفرح ، و أنتما معا نسيما ان المال مال الأمة ان لم يكن بعلم الفقه ، فليكن بعلم الاخلاق ، و علم القرآن ، و علم النبوة ، و سيرة الصحابة ، أين رأى الأمة في هذا المال ، نحن أيها السيدان نحفظ حقكما و شرفكما و نعدكما مجتهدين ، و المجتهد مخطئ و مصيبا مرحوم و لكن الاجتهاد شيء و تربية الأمة شيء آخر ، هاهو ذا كونهوشوس الفيلسوف الصيني يجمل نقاوة الضمير و تهذيب النفس ، و نظام الأسرات ، و نظام الممالك : كل ذلك موقوف على البعث في المحسوسات و فهمها و درسها ، و هاهي ذه النبوة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها في الخلفاء الأربعة : نسمع أصحابه رضى الله عنهم يقولون : « من حفظ البقرة و آل عمران جدد في أعيننا » و هذا عجب ، و نسمعهم يقولون : (ما كنا نحفظ آي القرآن حتى نفهمها) و هذا تقدم قريبا : هذه البقرة ، و هذه آل عمران ، و نحن الآن نحفظهما و نحفظ القرآن كله ، و نحفظ علوما و علوما ، و لكن أين ملكنا و حكمانا و قضائنا الذين أشبهوا أبا بكر و عمر و أمثالهما ، أخبراني أيها الشريهان العظيمان ، و قولاني يقع في خاطري ان النبوة كانت تلقى عليهم تعاليم تبصرونهم على النظر في ملكوت السموات و الأرض ، حتى ترسخ محبة الله و محبة الخير للناس في نفوسهم أولا ، و تعاليم أخرى تجعلهم يفكرون في الأمم و الدول و الأخلاق و الأحوال ؟ و الأفعالاذا نسمع كما تقدم أن بعضهم يحفظ السورة في سنين معدودة ، و ما هذا الحفظ ، و ما هذا البطء إلا بتفهم المعاني التي ذكروا أنهم يتعلمونها من نبينا صلى الله عليه وسلم .

خطاب المؤلف المسلمين

أيها المسلمون : نحن اليوم نسلم تسليماً قاطعاً أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم بحمولة عندنا ، ونقرّ ونشهد كما جاء في الأحاديث السابقة المنقولة عن (الانقان) للسيوطي أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوة كانت متبوعة بمعان نجعلها نحن الآن ، بدليل أننا لم نجد رجلاً يضارعون الخلفاء الراشدين في تدمير العدل في الأمم ، نقرّ بهذا ونعترف به ، ونقرّ بأن التعاليم التي فهمها الصحابة وأكثرهم لم يعرفوها أكثر الناس بعد ذلك وضربوا عنها الذكر صفحاً . نعم : الشريعة كلها بلغت هذا لاشك فيه إنما الأمور التي وقعت في الصدور ، وهي التي تهذب الأخلاق وتحفظ الدول ، وتحفظ المال للأمة جعلت نسيباً منسياً غالباً . أقول : فلعل ما أطلبنا به في هذا التفسير يحوم حول بعض تلك المعاني الشريفة : ففيه بهجة الجلال السامى والأرضى ، وفيه نظام الدول والممالك ، وكيف يكون زوال الملك تابعاً للشريعة على المال : فلعل هذا الكتاب يكون فاتحاً باباً يلجج المسلمون بهدنا ويدخلون منه الحقائق الخلقية والنظام الدولية ، فلا عجب في ذلك فقد رأينا النيل يجري من خط الاستواء وبين منبعه ومصبه في البحر الأبيض المتوسط ما يربو على ألفي ميل ، ولم تظهر ثمراته إلا بالقرب من مصبه في بلادنا المصرية : أما في السودان فثمرته قليلة ، فلعل دين الإسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد العصور الأولى وزمانه الحديث اليوم ، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الفصل السادس ، في أن الله عز وجل هو الذي أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والعلم والدين لا تظهر فوائدهما التامة إلا بعد التجارب الكثيرة ، وهاتين أولاد رأينا تجارب الآباء سنأخذ اليوم حذرنا مما وقعوا فيه ، ونؤسس الممالك على الشورى ، ولا نكون مغرمين بالمال كالطبقة الشهوية ، ولا بالعظمة كالطبقة الحاسية بل نكون مغرمين بالعدل ، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين ، وما هذا ذلك فنحن ندعه : وهاتين أولاد عرفنا حقيقة التاريخ ، والله بالمرصاد لمن غفل في السياسة ، كما إنه بالمرصاد لمن غفل في تدبير الطعام والشراب فالقصر والمغالي فيها مخدول مقهور مهان ذليل ، فمن أكثر من الطعام أورثه الأسقام ، وشرب الدواء الكريه المرهكنا من طغي في الملك صنع لنيل النوم ، وأصبح محسوراً مقهوراً .

خطاب الله للأفراد والأمم

إن ما نراه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الإسراف في المأكل والمشرب ، ومن حيث الجهل بالحجة العامة في الأمم يفهمنا فهماً عامياً ، كأن الله عز وجل يخاطب الأفراد قائلاً : أيها الناس . هاأنذا أنزلتكم في الأرض ، وأعطيتكم الحب والفاكهة والخضر ، وبوأتكم في الأرض منازل وقصوراً لأنظروا تكفرون بجهل نعمي ووضعها في غير موضعها ، أم تشكرون بالنظام العام ؟ وقد أعددت لكم العدة ، وأوقت العدل بينكم ، وأنا سريع الحساب في الدنيا قبل حساب الآخرة ، فمن أكل فوق طاقته ، وانبغ شهوته ، فاني أعددت له أمراضاً مختلفات تله ثم قتله ، وإذا أراد البره منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المنافية لاجعلوا لنوقه ، وأعطيتهم الأسلحة والمشارط ، وقلت لهم : أيها الأطباء من استغاث من هؤلاء الجاهلين بنظامي وهو مريض فخرعوه كؤوس الأدوية يشربها صبراً وعلقماً ، وحزقوا جلده بأسلحتكم المعددة لذلك ، وأدخلوا تحت جلده مواداً تحقرونه بها ، زيادة في تعسديه ، ونكالا به ، لأنه جهل نعمتي ، وهذه الأدوية

المرّة مائة إلا أنواع من السموم التي تتحمل أجسامهم تحملها ، وتقدر على أن تسوغها وتمثل بها ، فن عاش من هؤلاء عاش حليلا سقيما ، ومن كثرت أدويته أوردته مراردا الملسكة ، وحجبت به إلى عالم الأرواح ليصرف مستقره ودرجته في عالم الأموات .

هذا خطاب الله الذي يخيل لنا أنه يخاطبهم به في كل زمان ومكان ، وكأنه عز وجل يخاطب الأمم قائلا : « أيها الأمم : ها أناذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوان حولكم ، وكثير منهم قهرا لك منقلمات ، ومحبة ومساعدة تامة كالنحل والنحل ، أما أنتم فإن أيّ أمة جهلت المحبة العامة وتقاطعت ، وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدو كما حصل في أمم العرب وأمم الاسلام المتأخرين ، فوعزّي وجلالي لأسلطنّ عليهم من هم أكثر منهم التثام ، وأوصلهم رسما ، وأقربهم محبة ، وأحسن منهم نظاما في مدينتهم وإن كان دينهم أقلّ من دينهم ، وشرفهم أدنى ، ولكن المودة العامة نامية ، فهؤلاء أسلطهم على هؤلاء المتقاطعين يسومونهم سوء العذاب ، ويفتكون بهم فتكاذريما ، ويزيدونهم تقاطعا بالوشايات والنسكيات ، ويصرون لهم أشبه بالخدم والعبيد حتى يستيقظوا من نومتهم .

فالأمم العظيمة التي استحك نظامها وإن كان كثير من رجالها فاسقين أسلطهم على الأمم المتقاطعة وإن كان أكثر رجالها صالحين ، لأني أريد المودة العامة ، والمحبة الملتزمة ، التي تشمل الأمة كلها نظاما واتقانا ، فأنيّ أمة قصرت في ذلك فإن من هي أحكم منها نظاما تسطو عليها ، وتمتلك سترها ، وتذللها ، وتغير عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها ، فتقذف عليها النار من الجوّ ، ومن السفن البحرية ، ذلك جزاء الجاهليين .

هذا ما خطرت لي اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٣ ميلادية - ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهور والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع : في بيان أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات في الهيماء اختص باللعن الطيور ، وبالعظام الوعوش ، وأخذ الخيالة ما عليه من سلاح وكراع ، وهذا هو المسمى (بالسلب) كسبب كما يقول عنزة شعرا :

لى النفوس وللطيور المحرم وللوعوش العظام وللخيالة السلب

وإذا دفن في جدته ، فلا دود والحشرات تراث لجه وعظمه ، ولورثته ماله وعقاره ، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره ، لم يخلق الله خلقا عبثا ، فإذا مات أبائنا الأول ، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم ، وهي المبرة في التاريخ : لأن الدود استوفى حظه ، والورثة نالوا صرادهم ، فلنستوف نحن ميراثنا الآن ، ولنقل أن الأئمة رضى الله عنهم كأي حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط ، وماوك مفتصين ، فأهان المنصور الأول والثاني ، وأما الثالث فقد امتحن وأهين في مسألة خلق القرآن ، إذن فلا سبيل إلى إطاعتهم في أصغر نظام السولة إلا بمقدار : أما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الدول والممالك .

(١) مثل أن يستنجوا من آية « ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى الخ » إن المدار في

الملك على قوّة جسمه وعامه : وأما مسألة شرف الآباء فليست مقياس ذلك ، وهاهم أولاء بنو إسرائيل يقولون : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه لأنه لا لنا من بيوتته ، ونسبنا أرفع من بيت طالوت ونسبه ، وأيضا ليس عنده سعة من المال والمدار في الملك على المال والنسب ، أى أنهم يريدون الطبقة الثالثة ، وهي التي تملك بسبب سلطان القوّة الشهوية ، وهي (الأوليغاركية) أى المالية فيصبح المدار في الملك على المال : فقال الله لهم . كلا . أيها الناس : المدار على العلم

بدل المال ، واستعداد المرء من حيث ذاته هو لا أصل له : فهذا يرجع إلى أعلى طبقة ، وهو طبقة الأَكابر والحكام بقدر الامكان : فهذه الآية تهدم الركن الركين في استيلاء العباسيين والأمويين ويرجعون إلى الشورى .

(٢) وهل يستطيع أصحاب الشافعي ومالك وابن حنبل وأبي حنيفة أن يرفعوا أصواتهم أمام ملك هذه الدول : فيقولون أيها الملك : أما سمعتم قول الله « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم في الأمر » وقوله من قصة بلقيس : « قالت يا أيها الملك أقفوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد » الخ وقوله في قصة فرعون اذ يشاور الملأ في أمر موسى « إذ قال للملأ حوله فإذا تأمرون قالوا أرجعه وأخاه » الخ : يا أيها الملك كتمان شريكتان يذكركهما القرآن ، ملكة تقول « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وملك عات « يقول للملأ حوله فإذا تأمرون » القرآن صريح في الشورى ، لملك يورث ، ولا مال يؤخذ إلا بأمر نواب الأمة أي أهل الحل والعقد : فهذا كله ترك منذ العصور الأولى لأن الحكومات مستبدة وكل من رفع رأسه قتل أو أهين ، ودرج الخلف على ماسنه السلف ، ورضى الناس بالملوك وعاشوا في ظلالهم وهم كارهون أو غافلون :

أكتب هذا الليلة : ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ أكتبه وأنا مقبل على زمان سعادة وهناك لأمة الاسلام بعدنا ، وسيكون هذا من عقوبات التهديدات ، وبناء الحكومات على أساس زطيد ، فلا المال ولا النسب ، ولكن السكينة والعلم وضبط الملك ، فهنا نحن أولاء جئنا في زمان لا يخرج فيه على السكانيين نظرا في تجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج ، وهي واجبة علينا فأما من قبلنا فقد كانوا في زمان لا يستطيعون فيه أن يرفعوا أصواتهم حتى يرفع السيف على أعناقهم ، وأنا لست أقول إنهم لم يدوتوا ذلك هم دونهم ، ولكنهم لم يطولوا فيه كما أطالوا في البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها ، والعلة هي الخوف مع ان هذه المسألة حفاظ لما عداها : لانه لا صلاة ولا حج ولا غيرها والناس غير آمنين في منازلهم ، والأمن يكون أكمل إذ أسند الأمر إلى أهله .

الفصل الثامن . في تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس في زماننا وبهذه

إن الله عز وجل سيسأل كل ذي علم عن عمله ، والله سيسألني عن تقصيري في النشر بعد النهم : يقول الله تعالى « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا تكتمونه الخ » ويقول « إني أنزلت الكتاب في اللغة العربية ، وأمرهم شورى بينهم » الخ .

وسيسمع هذا أقوام بعدنا فيرون أن أهم ما في القرآن متروك ، فلم يستنسخ منه الناس علوما فيوجبوا قراءتها (مثال ذلك) علوم الآثار كآثار الآشوريين ، والبابليين ، وقدماء المصريين ، والفرس ، وما أشبه ذلك ، تلك الأنم الخالية التي عمر الناس عليها في الحفائر والمقابر ، وعلى الألواح والطروس ، والورق ، ورق الغزال ، والبردي ، أليست هذه هي التي يقول الله فيها كما قلتمناه مرارا « وسكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وان كان مكروهم أنزل منه الجبال « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله الخ » أليست ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبدين في الأمم الاسلامية الذين ذكروناهم ، وكيف كانوا يكرون ويخالون في

حياتة ماسكهم ، وإننا نحن يجب علينا أن ندرس ذلك ، ومن المدهش أن علماء الاسلام أجعلوا ذلك ، فجعلوا تلك العلوم من فروض السكفانيات ، واسكن المساكين تركوا ذلك كله جهالة كما أروحناه .

إن هذا المقال يطول إذا استطرنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم : كل ذلك ذكر لنظام السر والممالك ، وأنا أشهدك يا الله إذ وقعت لوضع نيل في هذا المقام تدل على البقية وعلى من يأتون بعدنا ، أن يدرسوا الفلسفة ، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن ويرقوا الأمم : إن هذا الزمان مبدأ لأمر أسعد حالا وأرقى شأنًا ، ولذلك أنعم الله بهذا التفسير « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أى نصف الليل في رمضان سنة ١٣٥٠ هـ - ٢ يناير سنة ١٩٣٢

نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول . والمزارع . والثمار

والتسليم لله لمناسبة ما كتبت في هذا المقام

رباه : أصرت نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله ، وأمرنا بذلك التسليم في آية : « فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » الآية .

وأمرت المسلم أن يقول في أول كل صلاة : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا » رباه : هانحن أولاد وجهنا وجوهنا لك ، وسلمنا أمورنا إليك ، ورجعنا إلى كتابك ، وانتظرنا الفتح منك . رباه : هانحن أولاد نزلت أرواحنا إلى هذه الأجسام في أرضك ، ونظرت في أحوال الأم التي نعيش معها ، والأم الخالية فألفينا عجبا ! ألفتناك فعلت في عقولنا ما فعلته في حقولك وحقولنا :

(١) ذلك أنك أنزلت المطر مدرارا في خط الاستواء أكثر أيام السنة ، ولم يعوز المخلوقات الحية هناك حوث للأرض ، ولا ري للشجر ، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة ، والمخلوقات الحية قريبة العين بتلك الثمرات اللاتي تؤتي أكلاها كل معين باذن ربها .

(٢) ثم رأينا أَمَا أخرى في مناطق أخرى يعوزها حوث الأرض لاستخراج نباتها ، وقد كفاه المطر السقي

(٣) وأما أخرى كأمتنا المصرية يعوزها أصران : حوث لأرضها لتغليب الطين فيها ، واستخراج للماء من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع وثمر . هكذا رأينا الواهب العقلية والحكمية :

(١) فهانحن أولاد نرى أنبياء ظهرت الحكمة في قلوبهم فبشروا للأمم ، وهؤلاء الأنبياء لا يعوزهم معلمون أرضيون ، وليسوا في حاجة إلى دراسة النظريات الفلسفية .

(٢) ونرى حكماء في الأرض يعوزهم بحث وتنقيب في مقابلة القسم الثاني فيما تقدم .

(٣) ونرى علماء يعوزهم أصران : تدريب عقولهم بالبحث ، واستخراج العلم من مخزون علوم الانبياء والحكماء .

هذه أقسام المواهب العلمية المقابلة لمناخات المزارع والحقول والأشجار الأرضية : إذن نحن اليوم من الفريق الثالث ، فعلى أن نبحث لاستخراج ما كمن في عقولنا من المواهب في مقابلة حوث الأرض لاستخراج الزرع منها ، وأن نقرأ ما نبعث من منبع النبوة من العلم ، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لئلا تهلك الأمة كما تهلك أمتنا المصرية جوعا إذا تركت حوث أرضها ، ولاندفع علوم آبائنا الأولين ولا حكماء الأمم ولا علم الرسالة الحمادية ، لئلا تهلك أمتنا الإسلامية كما تهلك الأمة المصرية إذا تركت ماء النيل جانبا وأخذت ترقب المطر ، ولا مطر غزير في بلادها : رباه هذه طريقتنا في حياتنا الدنيا ، نكتب هذا ، وسيكتب نظيره من بعدنا ، ونسلم أمورنا إليك ، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا ، بل هي منك وهي هبة إلهية لك

فشكل من كانت لديه أى حكمة من أهم الإسلام في زماننا أو بعده : فانه مأثور أن يسلم أسره لله ، وأن يسعى في نشرها في أمته ، وأن يعلم أنه لا فضل له في معرفتها ولا في نشرها : كما لا فضل لأشجار خط الاستواء في غزارة ثمراتها ولا خقول الزراع المصريين في تفضية عبادك بحروبها ، فأنت الزارع في الحالين ، وأنت المهيمن على الأمم منها : فها أنا ذا أقوض أمري إليك ، وأقول أسلمت رجعي لله إتباعا لأنبيائك ، لاسيما خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأوقن أن ما كتبته ما هو الاغيض من فضل رحمتك ، وما عقولنا ولا أبحاثنا إلا كالعلم في يد كاتبه يصرفه كيف يشاء ، أنت منزل الماء من السماء ومحي الأرض بعد موتها ، وأنت منزل الوحي ومصرف العقول ، وهاديها الى ما نشاء من طرق الهداية . بها تنبي أعما وأعما ، بل هذه الطرائق الحديثة في أمنا الاسلامية ، ترجع بالناس الى المصور الأرقى النبوية ، عصور التسليم لك والالتقاء لأصرك والسير على نصوص كتابك ، والاهتداء بأنوارك ، وقيام أمم ودول ، تصكون أقرب الى عصر النبوة في حبك وفي الاشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل ، (وبعبارة أخرى) يكون المسلمون في مستقبل الزمان رحمة لعبادك لانك رب العالمين اه .

إشراق شمس الاسلام بعد إظلام ليله

لقد أبنا في تفسير هذه الآية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بضت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبني حتى تفيء الى أمر الله فان فامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » اختلاف الأمم الاسلامية في القرون المتأخرة ، وأفضنا فيه إفاضة كافية وافية ، ومن عادة الله عز وجل أن يجعل بعد العسر يسرا ، وبعد الضيق سعة : « وذلك الأيام نداوها بين الناس » .

اللهم إنا نحمدك جدا يوافي نعمك ، ويكافئ مزيديك ، رباه قد نلنا ما كنا نتمناه في أم الاسلام ، رباه لقد أنلتني ما كنت أتوق إليه وأنا حي ، نعم نلت ذلك ، فيا سبحان الله : هل كان يدور بخلدني أن أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود ، فند أيام اختلافنا على جبل بينهما ، فوكل الأول الحكم الثاني ، فحكم الثاني للأول ، وفي هذا اليوم جاء في جرائدنا المصرية أى يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتي مانصه :

الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

« تم الاتفاق بين العاهلين العربيين ، وذلك على عدة نقط ، النقطة الأولى ان الأربعة الخلفاء التي كانت تابعة للسيد علي بن محمد الادريسي ، والذين انقضوا عليه بعد وفاة والده السيد محمد الادريسي ، والذين أخذوا منه المدافع التي كانت معه من مترايوز والجبخانه ، وقد ظلوا حاكمين نفوسهم مدة من الزمن ، غير أنه حصلت الفوضى بينهم ، واختل الأمن والاطمئنان ، ثم أصبحت من غير راع ، فما كان من كبارهم إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الامام يحيى ، وذهبوا الى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى (ساقين) وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدم لتسلم أمورهم ، ويجري ضبطها ، قبل استفحال الفوضى بها ، وألزموه الحجة ، فطلب منهم تسليم المدافع والجبخانه الموجودة معهم ، وتسليم الرهاين بحسب العادة المتبعة هناك ، فأجيب طلبه ، فأرسل الجيوش المتوكلية واحتلت الجهة تسليما من غير أى مقاومة ، ولما بلغ الأمر الى ابن السعود من عامله بصبيام أرسل من طريق جيزان تلعرافا لعامل الامام بميدى ، وهو القاضي عبد الله العرشي

الذي منه رفقه إلى جلاله الاسم يحيى ، فحصلت المخبرات بين الباهليين ، ثم اقترحا إرسال مندوبين من الطرفين كان على رأس مندوبي اليمن حاكم سيدي القاضي العروشي ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راجح ، وشيخ بلاد مجور ، وشيخ بني جماعة ، واجتمع الوفدان عدة مرات ، ثم قرأ القرار على أن البلاد التي احتلها جيش الامام تضم إليه ، ويتوقف مؤقتا عن التقدم الى جهة صبيا ومايلها ، ثم ان رفق ابن السعور طالب أن تعين الحدود ما بين عسير واليمن ، فرفض الامام يحيى ذلك ، بحجة أن عسير من أمها اليمن ، وقد أجرى الصلح مؤقتا بهذا وبناء على ذلك تم الاتفاق ، وأمضى الفريقان المعاهدة . اهـ

أفليس من العجب أن يكون هذان الأميران ابني تلسك الأم التي لم تعرف إلا المشاجرة والتنازع في القرون المتأخرة ، وقد رجعا لنبوة كرة واحدة اتباعا لآية الصلح بين الطائفتين . هذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون في الرق ، فهل كان يدور بخلدني أثناء طبع ﴿سورة سبأ﴾ التي كمل طبعا في شهر شوال سنة ١٣٤٨ هجرية أي منذ أقل من سنتين (وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ) أن مائتيه لبلاد اليمن ، بل ما توقعته يتم قبل مضي سنتين اثنتين . أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التي توقعتها في هذا التفسير ، حقا حقا ان الله أذن برقي أم الاسلام .

كم ذكرت في هذا التفسير أن هذا زمان رقي أم الاسلام . كم كررت هذه الجملة ، نعم كررتها ، ولادليل عندي إلا دافع نفسي ، وهذا الدافع كان كافيا لما أكتبته ، وليس هذا الدافع برهانا عقليا ، إذ البراهين العقلية غير الامور الوجدانية القاصرة على صاحبها ، ولستكم ضل قوم بوجدانهم فكثيرا ما يخطئ الوجدان ، ولكن في هذا المقام صدق الوجدان ، وتم ما كنت أتوقعه لهذه الأمة أوجهه ، حتى أصبح ذلك عندي يقينا صدقته الحوادث .

فانظر كيف كتبت في تفسير ﴿سورة سبأ﴾ المذكورة انني كنت فسرتها تفسيراً أوليا بدون اطلاع على ما كتبه المسلمون والاوروبيون عن الآثار في أرجاء اليمن ، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت في أثناءها على تاريخ تلك البلاد ، وسبب اضمحلالها ، وأن القوم أهلوا أعمال زراعتهم ، وصيانة سدودهم ، فانهار السد ، ففترقوا شذروا ، فكان الاستنتاج الاجالي الأولى هو عين التفصيل التحقيقي بعد ذلك ، وفي هذا التفصيل ظهر الكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ ، وخريطة «مدينة مأرب» بعد خرابها ، وخريطة «سد العرم» ، وذكر العلماء الذين تقبوا عن تلك الآثار ، وما لا قوا من الذلة والمهانة ، وهم من أم مختلفة وكيف نشروا صور تلك الآثار في أنحاء أوروبا ، والمسلمون لجأهم بعلومهم وبلادهم ، وعلوم الأمم حولهم ، ولغاتهم خامدون نائمون جاهلون كأنهم لا يسمعون ، أو كأنهم غير موجودين في هذا الكوكب الذي تعيش عليه ، وختمت المقال هناك بنداء وجهته لأمة الاسلام ، وقلت : إيه يا أمة الاسلام ، أهكذا يكون المسلمون ؟ إلى أن قلت : يجمل في دين المروعة والشرف أن يكون الجاهلون يهرون أرض الله أكثر من المسلمين إلى أن قلت : لا لا إن أمة الاسلام ستأخذ دورها عن قريب . أمة الاسلام النائمة قد اقتضى دورها ، وستأتي أمة الاسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله الخ إلى أن قلت : لم ذكرت سبأ ؟ ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لما الآن ، ذكرت لمن يتعظون ، دفن الله المال والعلم في الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن الخ .

هذا قل من كل مما كتبه في ﴿سورة سبأ﴾ . أفليس من العجب العجيب أن نرى في صحيفة الجهاد في نفس التاريخ المتقدم تحت عنوان «أخبار اليمن» مانصه :

« تقدمت الجيوش المتوكلية شرقا واحتلت وادي سبأ ومأرب والبيضا والسودا والحرا وبنى نوف والعوالق وبيعجان والمصهين وصراد والجوبة ، والجميع يسمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير

أى مقاومة ، وفى أثناء هذه المدة يجرى التنقيب فى مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانين عن مالوك حير وكنوزهم المدفونة تحت الجبال ، وقد اهتمت الحكومة اليمنية إلى استخراج مدفن بجعة مأرب ، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأشجار الكريمة ، وأيضاً وجدت مدفن آخر بجعة بلد تسمى « النخلة الجراء » وهى تابعة لبلاد الحذاء ، وتبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترا ، والمشرف على استخراج مالوكها من الكنوز سيف الاسلام محمد بن أمير المؤمنين ، وأيضاً وجدت كنز بجعة بلدة تسمى « غيمان » وقد وجد بها تمثال لملك من مالوك حير ، وعدة تماثيل : منها ماهو على صور الخيل ، ومنها ماهو على صور أخرى ، وأما الملكة قرينة الملك فهم ينقبون عنها فى بلد تسمى « سيمان » وهى تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترات ، والتنقيب يجرى باهتمام عظيم . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

كل هذا لما كتبته وسمعه صديقى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير سر أيماسرور ، وقال : هذا هو النصر والفتح المبين . هاهم أولاء القوامون على أمر اليمن قد نشطوا لاستخراج كنوزها ، ولكن خير لهم أن يعلموا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالا كما فعلت اليابان ، وهاهم أولاء أمراء الاسلام غيروا طريقة آبائهم فى القرون المتأخرة التى كانت كلها محن وبلاء فالحمد لله رب العالمين .

فقلت : إن أمم الاسلام اليوم تخطو خطوات واسعات نحو المجد ، وأنا أقول : ستشهد الانسانية مشهدا اسلاميا لا يشابهه إلا عصر النبوة ، وينتشر الرقى الاسلامى انتشارا لم يعهده له نظير ، وهذا ابتداء دوره فى أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لاحتد لكاملها ، ولا منتهى لسعادتها .

فقال صديقى : إن الأمر فوق ذلك ، إن اتساع المعارف أخذ يمتد بين أمم الاسلام جميعها ، فليس قاصرا على أمة العرب ، بل المدهش أن الأمم التى ليست بصريبة أخذت ترتقى طفرة ، لافى الآثار وحدها ، ولا فى الصلح بين الطوائف ، بل فى سائر الشؤون الحيوية ، وهل أتاك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معاولات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نصه :

معلومات جديدة

عن بلاد التركستان الصينية (كشغر)

نصف ساعة مع السيد منصورخان

كثيرا ما كنت أحنّ إلى مصر حنين الموضع الرؤوم إلى فطيمها ، وكما زمت حقائى بقصد السفرتها كسنى الظروف وتقدمنى الحوادث ، ومافتحت عيني من نوم إلا وأرى صورة الأزهر الشريف ماثلة أمامى ، لا تكاد تفارقنى حتى أراد الله ، وكنت من جملة المدعوين إلى المؤتمر الاسلامى العام ، فلم أربدا من زيارة مصر التى باتت منى قاب قوسين أو أدنى ، وبين عشية وضحاها كنت فى مصر أسير فى شوارعها جيئة وذهابا ، وفى ذات يوم ضمنى مجلس مع شاب يدعى « السيد منصور أمين خان » من بلاد تركستان الصينية (كشغر) وهو فى العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجانبا من الانكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق الحيا ، يمتلى الجسم ، لا يتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصيح ، حتى أنك اذا مزجت كلامك بكلمة عاسية يطلب منك تفسيرها ، وأنت تقرأ فى جبينه عنوان الشرف والمبادئ السامية عند ما يقع بصرك عليه ، فطلبت منه أن يتخفى بمعلومات عن تلك البلاد النائية ، ففضل علينا بالحديث الآتى :

(س) — ما السبب الذى جعلك على مفارقة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

(ج) — كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية فى (كشغر) والعلوم العصرية قليلة فى بلادنا جدّا بالرغم

من رقى العلوم الإسلامية والآداب العربية والفارسية ، فنسند عصور قديمة كانت بلادى واخوانى المسلمون غرقى في لجة الجهالة ، بحيث لا يمكننى تفصيل أحوالهم الاجتماعية في هذه المدة القصيرة ، فها أنا ذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبى (وهم مسلمو تركستان الصينية) بالعلوم العصرية ، تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب الزندقة والاحاد فى البلاد بل السكفر ، وأن كل من يتعلم علما عصرىا يعدّه قومى مارقا من الدين ، إلى أن بزغ فى آفاق عالم الاسلام شمس أحرقّت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى سجال الحقيقة ، وأزيل الغطاء عن عيون شباب بلادى جيهما فى بضع سنين ، الأصم الذى عجزت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التى كانت تصدر آنا فآنا لفلاسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى هنّقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات فيلسوف الاسلام الأوحّد فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا فى مدة وجيزة ، وأبدع قرنا جديدا فى الحياة الاجتماعية الإسلامية ، ووفق بين القرآن والعلوم العصرية ، مما لا يدع مجالا للشك والريب فى أن تلك العلوم هى نفس الدين ، وأخصّ بالذكر من المؤلفات : ﴿ التاج المصحح ﴾ الذى أهدها لميكادو اليابان و ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ و ﴿ تفسير الجواهر ﴾ وكتاب ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾ . ومن العجب أنى فى أى بلاد مسرت بها فى سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفى يده أثر من آثاره القيمة يريد أن يتثقف به ، أو يثق به غيره ، والحق يقال ان آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر فى عقلية الشعوب تأثيرا يشبه تأثير المصلح فى الدين المسيحى « لوثر » . ولما كنت فى بلادى كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكارا لاسمه ، وتقديرا لأعماله ، إن تلك الآثار القيمة أثرت فى عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا يتيهون فى بيداء آسيا الوسطى حيارى لا مرشد لهم ولا دليل ، فى عزلة عن الأمم المتمدنة ، فلما رأوها أقبلوا عليها ، وحلّ فى قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية ، فسهوا إلى منابعها فى جامعاتها فى الممالك المتمدنة الأوروبية والإسلامية ، وأن هذه الكتب الطنطاوية هى التى بعثتنا فى أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآبائنا ، وأنا واحد من أول وفدنا من البلاد ، وعددنا ثلاثون شابا ، وقام بعدنا وفد آخر ، كل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف ، فها أنا ذا غادرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم العصرية ، وللارتشاف من مناهل حياضها .

(س) ذكرتم أن فى بلادكم مسلمين ، فكم عددهم ومن يكلمهم ؟
(ج) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية ، أما المسلمون فى بلاد الصين فانهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويعتادون العادات والتقاليد الصينية ، ويدينون بالديانة الإسلامية المحمدية ، وأن الذى يتكلمهم هى الحكومة الصينية الإمبراطورية .

(س) هل تضيق الحكومة عليكم فى دينكم ؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية ؟

(ج) نحن أحرار بكل معنى الكلمة .

(س) هل زرتم غير مصر وتركيا ؟

(ج) الأفغان ويران فى طريقى إلى تركيا .

(س) هل مكثتم طويلا فى بلاد الأفغان .

(ج) جلت فى الأفغان ستة أشهر ، وأن رفقى أمين أفسندى الكاشغرى دخل فى إحدى المدارس الأفغانية مجانا تحت حماية أمان الله خان الملك السابق ، فحما ذهبت إلى وزارة المعارف الأفغانية أخبرنى معاون الوزير أنه فى صدد ترجمه كتاب ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ للاستاذ طنطاوى جوهرى إلى اللغة الفارسية لشبان الأفغان

(س) قلم ان كتاب (التاج المرصع) هذا الفيلسوف أهداه صاحب الأبراطور اليابان ، فهل هذا الكتاب أثر في تلك البلاد اليابانية ؟

(ج) إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكتب المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربيع قرن بارشاد المشهور عبده الرشيد إبراهيم السباح ، والآن في اليابان على ما سمعت من بعض الثقافات أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني ، فصار هذا الأثر النفيس (دولة) أي تتداوله الأيدي ، وأثر في زيادة محبتهم لدينهم ، والآن ينتشر الدين الإسلامي بتأثير تربية هذا الأثر انتشارا واسع النطاق . انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة
شاهد سعيد درويش من سوريا الباب : نزيل مصر

فلما سمعت ذلك وكتبته . قلت : صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، هذا من فضل ربي ليسألني أشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ، وقرأت : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية و ١٨ يناير سنة ١٩٣٣ م .

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى في قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يستخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تهاجروا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »

إن ما تضمنته هذه الآيات فيه « مقامان : المقام الأول » في غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء والمز والتناذب بالألقاب والغيبة وما أشبهها « المقام الثاني » في غوائل الأعمال القلبية ، وقد أشير لها بالنهي عن كثير من الظن ، ويقرب منه التجسس ، فهنا أمران خطيران : هما اللسان والجنان . قال زهير بن أبي سلمى :
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدسم

إن القلب هو العالم النورى الجليل العالى الشريف ، الذى يجمع صور العالمين الدنيوى والأخروى ، واللسان ينوب عنه فى أداء ما كمن فيه من المعانى والعلوم والمعارف ، وكل خير وشر ، إذن أمرهما عظيم ، ولا جرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكميات والجامعات ، كل ذلك لتكميل العقل وتدريبه . ولقد كانت عناية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضا ، ألا ترى أن العلوم اللسانية كلها فى الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان ، وفى لغتنا العربية ١٢ علما : كان نحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع والخط والانشاء والتاريخ والاملاء والشعر والخطابة ، كل هذه وما يشبهها إنما جعلت لترقية اللسان ، كما أن العقل يرقى العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التى تبحث فى نظام العالم العام ، وفى علم النفس وفى علوم الأخلاق والسياسة والله والأرواح والملائكة ، إذن العقل واللسان أمرهما عظيم ، لذلك كان لزاما

على- في هذه المقالة أن أبين لك أيها القارئ عجائب العلم والحكمة ، وهذه الثروة السامية التي ورثناها عن آباءنا الأولين ، وكيف دفعت هذه الثروة في ثنايا الكتب مئات السنين ؟ وكيف نبقت الأمم الأوروبية في هذه الثروة الآن ولكن بهيئة غير الهيئة الإسلامية والنتيجة واحدة .

أنا أرى الآن أنك قد نهأت نفسك أيها القارئ للبيان ، وشاقها مما أقوله في هذا المقام ، واني سأعجل لك ذلك الآن فأقول :

يا سبحان الله . اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الهادي ، أنت الحكيم ، أنت معلم الطيور في أوكارها ، والوحوش في أوجارها ، والحشرات في أكناسها ، والذرات الميكروبية في أطوارها ومستقراتها ومستودعها ، وكل من هذه له طريقة تناسبه ، وحال تلائم ، فهكذا نوع الانسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع ، اتنازى أن الكلام في تهذيب اللسان يتخذ طرقاً متباينة ، وأحوالاً شتى ، ونرى ديننا الإسلامي فيه من كنوز العلوم في هذا المقام وغيره ما به ينتفع الصادقون الخالصون ، فهذهذا الامام الغزالي قد ذكر في الجزء الثالث من الاحياء آفة اللسان فجعلها عشرين ستقرؤها قريباً ، وأبان مضارها ، والاحتباس منها ، وهما هي ذه جمعية المباحث النفسية في انكسارها تبحث في غوائل اللسان كما بحث علماءنا ، ولكن بطريق أخرى ، فانظر ماذا جرى ؟ جعلوا العقل أشبه ببطارية الكهرباء ، واللسان أشبه بحارس لتلك الكهربائية ، فإذا حافظ عليها اللسان ولم يبعثرها وسكت ، فإن تلك الكهربائية تكون عوناً لصاحبها في جذب القلوب واقبال الناس على الانسان وسهولة المعاملة وجميع مصالح الحياة ، إن هذه الطريقة نافعة لمن يريد العاجلة ، وطريقة علماءنا نافعة لمن يريد الآخرة ، والطريقتان تسعيان لغرض واحد ، وهذا أمر عجب ! إن أسلافنا ظهر منهم الخطباء والحكام والعظماء وأرباب الحجج بسبب أن يحوزهم ما ذكره الأوروبيون ، فهم عملوا بما وصى به الله ونبيه والعلماء فانتفعوا ، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لا يهتمون إلا بالنتائج القريبة اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية في زماننا من أكبر المعجزات وأعظم الفوائد في ديننا الإسلامي ، فلا ذكر لك أولاً مأسطرتة من أقوال علماء جمعية المباحث النفسية ، ثم أتبعه بما قاله الامام الغزالي في الاحياء ، وهذان في حفظ اللسان وهو المقام الأول ، ثم أختتم بما ذكرته في كتابي في علم الأخلاق المسمى « جوهر التقوى » في الذنوب القلبية كالخسد والحقد بعد ذكر الذنوب اللسانية ، وهو المقام الثاني من المقالة الثانية وهالك مقالته :

جمعية المباحث النفسية

المغناطيسية الشخصية

الفصل الأول : معرفة القوة

إننا كل منا فيه بطارية كهربائية ، يؤثر ويتأثر ، فالجذب من الناس لتيار منك وأنت لاتعلم ، وكذلك النفور ، فالمرء يؤثر ويتأثر طوعاً وكرها .

وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العقلية تعمل بفسير العقل فلانها مغناطيسية وان كانت هي غيرها ، وقد تعمل أعمال الكهرباء ، والقصد أن نعرف كيف نحكمها كما حكمنا الكهرباء وان لم نعرف حقيقتها كما جهلت الحياة .

الفصل الثاني

من هو الرجل المغناطيسي ؟ الرجل كالمرأة في المغناطيسية

- (١) تزيح اهتمامته .
- (٢) رزين لا يتأثر بسرعة .
- (٣) الامساس بقوة خفية فيه ، (لا في حديثه ولا سلوكه ولا سكناته ولا معاملته) بل هي جزء منه .
- (٤) يستولى على جزء من كهر بانيك فتذهب إليه .
- (٥) ينظر نظرات رجة بين عينيك في أول الأنف بدون أن تشهر باسمئزاز مع اللطف عند أول كلامه معك .
- (٦) يصنى إلى حديثك دائماً .
- (٧) لا تنفأ أمامه عقبة ، ولا يتلف على مطالبه ، بل هو واثق بها ، لأنه متأكد لارتكابه على المعرفة ، وأنه ينال مقصوده .
- (٨) لا يمدح نفسه البتة .
- (٩) يزداد القويّة في مغناطيسيته ، والضعيف يزداد ضعفاً ، هذه قاعدة .
- (١٠) لا يغرر باظهار العلم ، بل حديثه عادي .
- (١١) لا يظهر الرغبة في الحديث وأنت تعجب به لاعتقاده أنه قادر على الاخبار بالمجائب وهو لا يريد وتظن أنه لا يعتمد ذلك ، ويظهر لك كأنه فوق المدح والاطراء .
- (١٢) إذا ترقى في هذه الصفة لا يسر بآثاره في أصحابه كالأول لأنه أرقى من ذلك .
- (١٣) يترقى دائماً .
- (١٤) مميزات المغناطيسية الشخصية : السطوة ، والتأثير ، والثروة ، والجاه ، والقبول عند الناس ، وهي نتائج منطقية للفتنات السابقة ، ويجلب المحبة لجذب الثروة والأفراد .
- (١٥) يبرز عليك مفارقتة ، تتعلق به تعلق الطفل بأمه .
- (١٦) يسلب علمك ، وهو يحفظ علمه ، ولو شاء لأسمعك فتحدثه وهو ساكت يصنع أخذ علمك .

الرجل غير المغناطيسي

- (١) يخيفك وتكره مصاحبته .
- (٢) يزدك حزناً وانقباضاً .
- (٣) يكثر المجالس .
- (٤) يشكو القدر ، والأصحاب ، والجن ، وكل شيء .
- (٥) متغير المبدأ ، سريع التقلّب فيه ، وفي الحديث ثقيل عليك ، ولا يقنع بشيء ، عابس الوجه ، غائب ، لا يحب إلا الاطراء الكاذب ، فتخلص منه بالاطراء الكاذب .
- (٦) تفرح عند خروجه من عندك ، ولا مغناطيسية عنده ، هي سالبة ، فقد أخذ منك شيئاً وهو بعض المغناطيسية .
- (٧) سببه أنه لا يعتمد على نفسه ، لا يستقل ، والرجل المغناطيسي لا يشكو ، ولا يبكي ، هو قوة تخضع له الظروف ، ويؤثر في البيئة التي حوله .
- (٨) مسرف في أحواله .
- (٩) منهزم سريعاً .
- (١٠) النتيجة أنه لا يلاقى إلا الدمار تبعاً لقوانين الطبيعة الصادقة .

القاعدة الذهبية

- (١) لا تشك الخلق الملك .
- (٢) ولا تسع وراء اكساب المدح ، ولا الشفقة من الناس .
- (٣) وفي كل رغبة قوة مغناطيسية يجب حفظها للانتفاع .

الفصل الثالث : طبيعة التيارات العقلية

- (١) كل رغبة لأي مطلب هي تيار عقلي عملي يحمل قوة مغناطيسية ، يؤثر الرجل المغناطيسي على اخوانه ، ويعمل في هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر .
- (٢) استخراج القوة من الرغبة ، هذه الرغبات اذا عصبتها وحفظناها كانت قوة حفظناها لانفسنا وان جرينا ورامها ولنا مبتغاها فقدناها ، فلنحرص عليها ، لآتنا ألهوج إليها فنحزنها .
- (٣) فلا نانية والفخر الكاذب ، وقلة الصبر ، توجب أفعالا تصرف بها عنا تلك القوة .
- (٤) لا تدع مجالا لتيار الرغبة أن يفلت من يديك ، ولا تحقق تلك الرغبة لتسكون لك قوة تنضم إلى أخوانها فتكون قوى الجذب لفيرك ، فاذا رغبت أن تدهش أخوانك بأخبار عجيبة ، ورأيت فيك مطمحاً لذلك فاسكت وهذه قوة حفظها ، فان حققت ذلك أضعفت مغناطيسيتك .
- (٥) السكتان : اذا رأيت أن تخبر أحد أصدقائك بخبر ولو كان لاقية له فاكتمه ، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية ، وهذه أشبه بالحمام في البرج ، يجلب إليه أخوانه ، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة ، وهذه تخدمك أجل خدمة .
- (٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوة هو الجود والوقوف . كلا . بل كلما زادت حفظا زادت قوة كأنهر كما علا سنده زاد ضغط الماء عليه فيسهل الانتفاع بها أكثر .
- (٧) إن قوة الرغبة موجودة ، ألم تر أنك قد تملك الرغبة على المشي وركوب العرب لاخبار صديقك فاذا حفظت هذه القوة حفظت لك كل قواك التي كانت ستصرفها .
- (٨) نحن لا يؤثر فينا غرابة الذكاء ، وانما يؤثر فينا نفس الذكاء ، فقابل الخبر المرقص بسكون كأنك فوق ذلك ، لا أنك لا تميل لسماعه . كلا . وكأن نفسك عميقة ، وأعجابنا بما يبدو من الأذكاء أقل من أعجابنا بأنهم أعمق منا ، اجعل معارفك وأخوانك في ظلام دامس من جهة أفكارك ، ونرى فعلت ذلك فجأة أعجب بك أصحابك حالا .
- (٩) السكتان جعل الأتباع يظنون في المتبوعين قوة فوق طاقتهم ، ولولا السكتان ما جهلت الحقائق والجهل بها أورت الاتباع إعظاما لمتبوعهم ، فعظماء الرجال سادوا بالسكتان .
- (١٠) ممن اتصف بهذه الصفة تشارلس استيوارت الزعيم الأيرلندي وهو فوق نابليون ، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم ، وكان استوارت بارتل قليل الكلام جدا ، ولا خشنة في صوته ، ولا يتسكلم إلا باللازم ، وكان هادئا في حديثه .
- (١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المختلفة ، ومعنى هذا الصمت أن أخبارك تحفظها في نفسك وتعود التفكير فيها فتكون قوة حقة ، أما اذا تسكمت وصرحت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك ، فاذا لم تطلعهم على سرّك كنت ذا جاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد .

(١٢) لا تخبر اخوانك انك قرأت المغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك ، بل اكتفم هذا تكون قوة عظيمة ، أما اذا علموا كانت أعمالك ضائعة ، واجتنب الاطراء ، فالذي يبارى أفعاله يزيد عليه الساكت الحافظ لرغبته ، فالناس هم المادحون له .

الفصل الرابع

انظر في حياتك الماضية تجد أنك أنت و ٩٩ من المائتين الناس يشتهرون الفرص لاخبار اخوانهم بما فعلوا لتظهر ذباهتهم ، هذه فطرة حب الاطراء والمدح ، وهي تيار من تيارات المغناطيسية الانسانية العقلية في المخ يتسرب من النفس كما تضع السكر باء في الجود بدون عمل اذا لم تحفظ ، إن هذه الفريزة فينا متى تركت وشأنها أضعفت قوانا وأخلت منا منافع لانهاية لها ، وهي تضاد المنافع الواجبة لنا فلتحفظها ، فلتحذر هذا ولتجتهد أن تكون منقبها ، فلا تحقق رغبة الاطراء ولو في أبسط الأشياء ، فاحفظها تسكب غيرها بلا تعب ، فسوف تشهد النتيجة محسوسة ، في زمن قصير ترى « أمسين : الأول » أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيرا محسوسا في نفسك ، وفي حياتك اليومية ، يزيد احترامك لنفسك وثقتك بها ، وتعلو هيبتك ووقارك ، وتحس بالقوة الحقيقية تسرى في عروقك ، بعد التغلب على كل تيار تشعربه « الثاني » انك ترى اخوانك قد تغيروا تتعوك تغيرا كليا ، يزدادون رغبة للبحث عنك ، والمحاذة والبقاء معك ، يمكنك الزيادة في كل وقت اذا اتبعت ما يأتي : « لا تحقق رغبتهم في معرفة شؤونك ، واترك أصحابك حيارى من جهتك ، وإياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمدا » انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : كيف يمكن استعمال القوى المضادة لنا عند تلك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أو سالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التعادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسي القطب السالب ، الأثرى إلى السكير كيف يضرب بالفضائل عرض الحائط ، ويفضح نفسه ، ويخالف ضميره ، تلك قوة قاهرة باطشة ، فلا تستفيد منها كما يستفيد المصارع الياباني من خصمه ، وتكون وبالا عليه .

معرفة القوة القابلة للاستعمال

ق . علمت القوة المغناطيسية السكامة في التكتفم ، ونبدأ الأناية بالنسكفم والفخر ، كل دافع للرديلة نعمة متسكرة فليقابلها اللبيب بصدر رحب على أي شكل كانت ، فزيد القوة المغناطيسية ، فيضيف جاذبية على جاذبية عنده ، فان اتبع هواه رجع كالعادة وتضعف البطارية العقلية . إن العازل الواقي لك من ضياع المغناطيسية هو العلم الذي تقرأه في مثل هذا .

تمرين هام لامتنعاص الطاقة

اذا عرض لك خاطر مزعج مما كان يؤثر فيك سابقا ، فافرح فانك أرقى منه ، وفكر في أنك ستملكه وتنتفع به ، ففي أثناء التفكير :

(١) خذ نفسك ببطء مقدار ٨ ثوان وكرر العبارة الآتية : « سأسعى حالا بارادتي لامتلاك القوة السكامة لهذه الرغبة » .

(٢) بعد ذلك احفظ الهواء في رئتيك ٨ ثوان ، وكررا الجملة الآتية في أثناء ذلك : « سأسعى الآن في

امتصاص هذه القوة التي ستصبح من الآن ملكاً لي .

(م) أخرج الهواء من رئتيك ببطء نحو ٨ ثوانٍ وردد الجلة الآتية في نفسك أثناء ذلك : « أنا الآن في هدوء تام ، ويمكنني به أن أحكم القوة المغناطيسية التي أحوزتها » ويمكنك أن تكرر هذا التمرين عدة مرات إذا أردت .

هأنذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء ، وذلك ليس لحفظ القوة فقط ، بل العلماء يعتقدون أن هناك صلة بين الرئتين ، وبين طبيعة الشعور البشرية .

يتغلب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يفقد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه ، وانك تسلبه قوته ، وتستعملها لأغراضك ، ففي خطوة واحدة صرت أرقى من الهوى النفسى ، وأعلى من العواطف ، والناس يسعون لهذا طول حياتهم ، وقليل منهم الواصل . مثل الرغبة والعواطف كمثل قبلة فيها فتيلها المحترق الذى ينتهى بفرقتها ، فان تركها الرجل الجاهل تفرقت وقتلت ، أو شوهت جسمه ، وان رفع الثيل عنها (ولا أخالك إلا فاعلا ذلك) صارت ملكاً حلالاً تفتقع بها فى حياتك متى شئت ، فالإنسان تحت العواطف هالك ، والمالك لها سعيد . انتهى الفصل الخامس .

الفصل السادس : الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل : هذه الفصول الخمسة لم يحى فيها أمور عالية هى معقدة سر ؟ فنقول : عليك باتباع هذه التعاليم ، والنتيجة أشبه بنتيجة الزرع ، والقوانين هنا كالشمس ، الزرع لا يورق ولا يزهو ولا يثمر إلا فى زمان ملائم ، هكذا هنا فليست النتائج بفت يوم أو بعض يوم .

بعض النتائج فى الحال تشاهد

الطالب الجديد يشاهد فى ٤ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج ، وفى الحال يشعر باحترام نفسه ، والثقة بها ، وكما زدت كعباً للنفس زدت قوة فى أعصابك ومخك تزيد فى أبحاثك ونفقت بمغناطيسيتك الشخصية ، وهى ليست أنانية ، بل هى طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظيم نفوذك وتأثيرك ، وهى لاتدعو للمباهاة ، ولا المفازة أبداً ، وليفتقد كل طالب نفسه بصراحة فى كل لحظة ، فلا يقع فيما يقع فيه الناس من الخطأ ، فلا تظن أن فقدك الجاذبية من أنانية الأصحاب وفوقهم السقيم ، فالخطأ منك أنت لأنك فقدت الجاذبية .

ضرب مثل

إن زيدا الذى كنت تحب إعجابه بك وهو صديقك قد أقبل ، وقد كنت تستجلب مودته وهو لا يلتد بعاشرتك ، ولا تسره صحبتك ، سبب ذلك أنك كمنت البطارية المرسلة وهو البطارية القابلة ، فكنت فاقداً لشارئك الكهر بائية ، فأضعت قوتك وراء الفخر والمباهاة طوعاً أو كرها ، وهو حاز ثقتك واحترامك بلا تعب ، يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدمة تدل على أنه سحج منك ولم تسحج منه .

ما يجب عليك ؟

اسكت الآن قليلاً ، اترك صاحبك ثلاثة أيام أو أربعة ، هل سرك شئ تجرب به أصحابك كما دت ؟ احفظه . اترك المادة القديمة ، تغلب على تلك الرغبة ، رغبة الاخبار والمباهاة : هذا التغلب سهل فى الأول ، صعب

بعد ذلك ، لم تكن العادة منك ، ولست كنت أنت فوق كل شيء ، لأنك قوى الهزيمة ، ولست من تقب أمامه العقبات ، ولقد كانت تهريب منك تلك القوة ، وأسفاه : فاحفظ رغائبك المادية والمعنوية لا تفر منك ، وليس هذا نكران الذات إنما هو القانون العلمى الذى يتحكم التيارات ، فإذا عملت بهذه القوانين وطبقتهما بدك كائنك أمكنك أن تحفظ قوتك ، وتقارم رغباتك ، وقوة ذلك تغيير ماسكالك . انتهى الفصل السادس :

الفصل السابع

لهلك تقول قبضت على قوتى المادية والمعنوية بيد من حديد ، وجعلتها فى بطاريق العقلية ، فالنتيجة ؟
 ﴿ الجواب ﴾ القوة التى ماسكتها وحفظتها سوف تجذب إليها ما يضاف لها من مغناطيسية الآخرين كالكهرباء الموجبة تجذب السالبة بدون عمل منك ولا فكر . وجهلك يتغير ، وأخلاقك تتغير ، وأعمالك وأنت لا تشعر ، والذى كنت تطلبه فلا تصل إليه يجرى إليك مختاراً بلاسئى منك ، يأتى إليك اضطراراً بالقانون والجذب الهام
 ﴿ والنصيحة ﴾ أن لا تندمى إذا لم يأت لك نفس ما طلبته بهينه الذى كنت تسعى إليه ، انه سوف يأتى لك يوماً من الأيام .

التغير الطبيعي المشاهد

متى ابتدأت فى العمل والتفكير والتقوية بهذه القوانين :

- (١) فالجسم يتغير .
- (٢) العين أكثر لمعاناً .
- (٣) البشرة تزيد بياضاً .
- (٤) القامة أكثر اعتدالاً .
- (٥) يترك الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتعامل ، والسامة ، والتأثر .
- (٦) يكون هادئاً ساكناً .
- (٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذى تلعب به الطبيعة البشرية ، أصبح قوة لا يستهان بها فى الوجود ، تتغير الدنيا فى عينه ، تلبس حلة جديدة ، تتبدل أفكاره من جهنمها ، ويستمر فى فهم قوته المعنوية ، فيزيد إيمانا وعقيدة وطمأنينة ، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة ، والعلم قوة ليس بملها قوة .

يجب الانتباه لأبسط الأشياء ، فإذا ترك فرصة واحدة أضاعت كثيراً من قوته ، هناك ظاهرة طبيعية ، لا يهتد بها صغار العقول ، وتكون سبباً من أسباب اليأس ، وداع من دواعى الخيبة ، إذا سرت فى هذه الأعمال انقادت لك السعادة ، وأصبح ما كان صعباً عليك فى غاية السهولة ، ولكن ربما تقف عند مانئته فاعلم أن القوة لا تنهاى ، فاطلب الأعلى ولا تقف عند ما وصلت إليه ، فليس للسعادة نهاية ، ولا للقوة غاية .

الفصل الثامن : اقتراحات نافعة فى الامور العملية

قد عرفت هذه القوانين ، وفهمت كيف تحفظ كهر بائيتك ، وتريد أن تستعمل هذه الموهبة فى أمر ، كأن تتوجه إلى رجل فظ غليظ قاسى القلب ، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لاعتلك ، فهذه القوانين تساعدك :

- (١) تظاهر أمامه بمظهرك الأدبى الحقيقى مع الفتور وعدم الاهتمام ، شاعرا أنك قادر أن تكون أرق

من ذلك وألف في حضرتك ، واسكنك لا تريد ذلك . وتبسط في الحادثة وأنت متسمر لقوتك المحفوظة في بطارتك حق قدرها . تسلم بهدوء وطمأنينة . لا يظهر على وجهك علامة التلف والاشتياق . لا يظهر الملل عليك ، ولا اليأس على وجهك ، اجعل السرور يهاوئ أسرار طياتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح ، وكل حركاتك دالة على ماسبق ، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عيني في أعلى الأنف ولتعتقد أنها موضع ضعف الرجل ، هؤلاء الخشنون ضعاف ، فستنظر عيناه يميناً وشمالاً ، ولا تنظر لها بعين برائة بل بهدوء وطمأنينة فتبتعد عيناه عنك بقلق زائد ، اجتهدي أن ينظر إليك وأنت تتكلم ، وإذا ابتداء في الكلام فارفع عنه نظرك وانظر إلى أي نقطة أخرى من جسمه ، اصغ إليه باحترام ، فإذا ابتدأت الكلام انظر النقطة بغير وضوح بحيث لا يتنبه ، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك ، وبعد ذلك لا ينسك أبداً وسوف يعرف أنك أثرت فيه

كيف تحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟

تدرب على الخطابة في الأماكن الخالية ، أوفى حجتك التي لا يجاس مملك فيها أحد ، وخذ النفس بلطف وأخرجه بلطف هكذا . دقائق ، والادخال والاخراج بالتدرج ، وبعد ذلك قف على قدميك ذاهبا جانبا ملقيا كلمات ذات رنات في أي موضوع على شخص ، أو أشخاص ، أو صورتك في المرأة ، وقيل بصوت جهوري ، مشيراً بأصبعك ، مفكراً في كل جملة قبل النطق بها ، كامل الثقة ، وثقة تامة بالقول ، حاصراً فيه فكرك ، وتخرج الألفاظ كدقات الأجواس من أعماق صدرك ، والكلام في أي خاطر يطرأ عليك ، ولو كانت الكلمات غريبة ، أو الأقوال غير معقولة ، وتقوم على السامع الخيالي وكأن الحادثة حقيقة .

التأثير « قسمان : الأول » زيادة الثقة بالنفس وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعر بها في حينها : متى شعرت بملل واحتجت إلى زيادة ثقتك بنفسك فاقض في هذا التمرين نصف ساعة تر الحجب الحجاب . والقسم الثاني تأثير العقيدة ، فإذا كان الحديث في قضية معلومة استفاد من هذه القوة الجبية فائدة ، وحصل على ما يريد على حسب ما طلب في حديثه ، وكأن تلك الأشياء ملك له فلا تلبث حتى تأتي له ، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة في أوروبا اليوم . وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثانية والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية ذكرتها لأريك أن القوم في أوروبا أخذوا يحنلون على حفظ اللسان بمثل ذلك وإن كنت أعارض في بعض ملجاء فيه ، وأنت ترى أيها الذكي أن هذه الجمعية احتملت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها . وهذه النتائج الدنيوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقاً بما أقصه عليك من نباء الأخبار والآثار التي ذكرها الامام النزال في الاحياء . وسترى عجباً من توافق النتائج في الحالين وكيف كانت هذه الثمرة المحزونة عندنا ضائعة . وظهر عند غيرنا ما وافقها في نتائجها . فانظر ما سذكركه فيما يلي وهو :

القسم الثاني من المقام الأول في المقالة الثانية

نذكر هنا ما جاء في الجزء الثالث من كتاب الاحياء في صفحة ١٠٠ وما بعدها وهذا نصه :
« ونحن بتوفيق الله وحسن تديره نفصل مجامع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طرق الاحتراز عنها ، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها ، فنذكر أولاً فضل الصمت ونورد فيه بذكر آفة الكلام فيما لا يعني ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة

المراء والجمال ، هم آفة الطبيعة ، هم آفة الشعر في الكلام بالتشقي ، وتكاثف السجع والفساحة ، والتوسع فيه ، وغير ذلك مما جرت به عادة المنافخين الدعين للخطابة ، هم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، هم آفة اللعن إمام الحيوان أو جناد أو انسان ، هم آفة الغناء والشعر . وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيد ، هم آفة المزاج ، هم آفة السخرية والاستهزاء ، هم آفة افشاء السر ، هم آفة الوعد الكاذب هم آفة الكذب في القول واليعان ، هم بيان النعاريض في الكذب ، هم آفة الغيبة ، هم آفة النخبة ، هم آفة ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ، فيكلم كل واحد بكلام يوافق ، هم آفة المدح ، هم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، هم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل ، وعن كلامه وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة ؟ وهي آخر الآفات ، وما يتعلق بذلك ، وجعلتها عشرون آفة » ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه :

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ، ولانجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدهح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم (١) « من صمت نجى » وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « الصمت حكم وقليل فاعله » أي حكمة وخزم (٣) روى عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت لرسول الله : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه (٤) وقال عقبة بن عامر قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك ، وإسكك بيتك ، وأبك على خطيئتك (٥) وقال سهل ابن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ : « من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أنكفل له الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « من وقى شر قبحه وذنبه ولقلقه فقد وقى الشر كله » القبح هو البطن ، والذنب الفرج ، والقلق اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج (٧) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان الفم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله . ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ، فقد

(١) حديث : من صمت نجى (ت) من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد .

(٢) حديث : الصمت حكمة وقليل فاعله : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت ، قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب « روضة العقلاء » بسند صحيح إلى أنس .

(٣) حديث سفيان الثوري : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث (ت) وصححه (ون ه) وهو عند (م) دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان .

(٤) حديث عقبة بن عامر : قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك الحديث (ت) وقال حسن

(٥) حديث سهل بن سعد : من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أنوكل له الجنة . رواه خ

(٦) حديث : من وقى شر قبحه وذنبه ولقلقه الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة .

(٧) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث (ت) وصححه (وه) من حديث أبي هريرة

قال (١) معاذ بن جبل : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : ثكلتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (٢) وقال عبد الله الثقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ؟ فقال قل ربى الله ثم استقم . قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسانه وقال هذا (٣) وروى أن معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه (٤) وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من سره أن يسلم فليزمل الصمت » وعن سعيد بن جبيرة مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال (٦) إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أى تقول : اتق الله فينا فانك ان استقممت استقمنا ، وان اعوججت اعوججنا (٧) وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردنى الموارد ان رسول الله ﷺ قال : ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حديثه (٨) وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلى ويقول : « يالسان قل خيرا تقم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم » فقل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقول أو شيء سمعته ؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه » (٩) وقال ابن عمر : قال رسول

(١) حديث معاذ : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس على

مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (ت) وصححه (وهك) وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) حديث عبد الله الثقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ؟ الحديث رواه (ن) قال ابن

عساكر وهو خطأ ، والصواب سفيان بن عبد الله الثقي كما رواه (ت) وصححه (ه) وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث .

(٣) حديث : ان معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه ، الطبراني وابن أبى الدنيا فى الصمت ، وقال : أصبعه مكان يده .

(٤) حديث أنس : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرايطى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف .

(٥) حديث : من سره أن يسلم فليزمل الصمت ، ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بأسناد ضعيف .

(٦) حديث : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان الحديث (ت) من حديث أبى سعيد الخدرى رفعه ، ووقع فى الاحياء عن سعيد بن جبيرة مرفوعا وانما هو عن سعيد بن جبيرة عن أبى سعيد رفعه ، ورواه (ت) موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح .

(٧) حديث : ان عمر اطلع على أبى بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع يا خليفة رسول ؟ قال ان هذا أوردنى الموارد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حديثه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو يعلى فى مسنده والدارقطنى فى العمل والبيهقى فى الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال الدارقطنى ان المرفوع وهم على الداروردي ، قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ولا علة له .

(٨) حديث ابن مسعود أنه كان على الصفا يلى ويقول : يالسان قل خيرا تقم ، وفيه مرفوعا : إن أكثر خطايا بنى آدم فى لسانه ، الطبراني وابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن

(٩) حديث ابن عمر : من كف لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن

صلى الله عليه وسلم : « من كنت لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (١) وروى أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني : قال عبد الله كأنك تراه ، وعذ نفسك في الموتى ، وإن شئت أنبأتك بما هو أهلك لك من هذا ساء ، وأشار بيده إلى لسانه (٢) وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٣) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » (٤) وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله عبدا تسكاه ففهم ، أوسكت فسلم » وقيل لعيسى عليه السلام : « دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لا تنطقوا أبدا ، قالوا لا نستطيع ذلك . فقال : فلا تنطقوا إلا بخير » وقال سليمان بن داود عليه السلام : « إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » (٥) وعن البراء بن عازب . قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : داني على عمل يدخاني الجنة ؟ قال : أطمع الجائع ، واسق الظمآن ، وأسر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « اخزن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله أصمؤ علم ما يقول » وقال عليه الصلاة والسلام (٧) « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة » (٨) وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس ثلاثة : غانم ، وسالم ، وشاحب ، فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساك ، والشاحب الذي يخوض في الباطل » وقال عليه الصلاة والسلام (٩) « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أضاء بلسانه وأن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه »

(١) حديث : أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني ، قال عبد الله كأنك تراه الحديث ، ابن أبي الدنيا في الصمت وطب ، ورجاله ثقات ، وفيه انقطاع .

(٢) حديث صفوان بن سليم مرفوعا : ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ، ابن أبي الدنيا هكذا هي سلا ورجاله ثقات ، ورواه أبو الشيخ في طبقات المحققين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا .

(٣) حديث أبي هريرة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت ، متفق عليه .

(٤) حديث الحسن : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : رحم الله عبدا تسكاه ففهم أوسكت فسلم ، ابن أبي الدنيا في الصمت والبيق في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل ابن عياش عن الحجازيين .

(٥) حديث البراء : جاء أعرابي فقال : داني على عمل يدخني الجنة ؟ قال أطمع الجائع الحديث ، ابن أبي الدنيا باسناد جيد .

(٦) حديث : اخزن لسانك إلا من خير ، الحديث (طه) من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر .

(٧) حديث : إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة (هـ) من حديث أبي خلاد بافظ : إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطلق فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة وقد تقدم

(٨) حديث ابن مسعود : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاحب ، الحديث الطبراني ، وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ المجالس ، وضعفه ابن عدي ، ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود .

(٩) حديث : إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ، الحديث لم أجده مرفوعا وإنما رواه الخرائطي في مكالم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، وجزء في الفرار من الناس » .
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « من كثر كلامه كثرت سقطته ، ومن كثرت سقطته كثرت ذنوبه ، ومن كثرت
ذنوبه كانت النار أولى به » .

وهما ورد في الآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ،
وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو
ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاووس : « إنني سمع أن أرسله أكلني » . وقال وهب
ابن منبه : في حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه ، حافظا لسانه ، متقبلا على شأنه .
وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله :
أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما
يعنيه » . وقال بعضهم : « الصمت يجمع للرجل فضيلتين : السلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه » . وقال
محمد بن واسع لمالك بن دينار : « يا أبا يحيى : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم » .
وقال يونس بن عبيد : « مامن الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله »
وقال الحسن : « تسكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقال له مالك : يا أبا بحر لا تسكلم
فقال له أخشى الله أن كذبت وأخشاك أن صدقت ، وقال أبو بكر بن عياش : « اجتمع أربعة ملوك : ملك
الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقيصر . فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل . وقال
الآخر : اني اذا تسكلمت بكلمة ملستني ولم أملكها ، واذا لم أتسكلم بها ملستني ولم تملكني . وقال الثالث :
عجبت لتسكلم ان رجعت عليه كلمة ضرته وان لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أفدمني
على رد ما قلت » . وقيل أقام المنصور بن المهتزم يتسكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل مات تسكلم
الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان اذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقاما فشكل ماتسكلم به كتبه
ثم يحاسب نفسه عند المساء ، فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من
الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة
والفضول والتجريف والزيادة والنقصان وايقاظ الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهي سبابة إلى
اللسان لا تنقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قاما
يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويمسكه ويكفه عما لا يحب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتي
تفصيله ، ففي الخوض خطر ، وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام
الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة ، فقد قال
تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . وبذلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة
أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة ،
أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تقي بالضرر ، وأما لا منفعة فيه
ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع
الكلام وبقى ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس
وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطرا ، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره

(١) حديث : من كثر كلامه كثرت سقطته الحديث ، أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ،
وقد رواه أبو حاتم بن حبان في « روضة العقلاء » والبيهقي في الشعب . ووقفا على عمر بن الخطاب

علم قطعاً أن ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال (١) : « من صمت نجاً » (٢) فليد أوتى والله جواهر الحكم قطعاً وجوامع السكام ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بشار المعاني إلا خواص العلماء ، وفيما سند كره من الآفات ونسب الاختلاف عنها ما يبركك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى ، ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ، ونترقى إلى الأغاظ قليلاً قليلاً ، ونؤخر الكلام في الغيبة والغيبة والكذب فإن النظر فيها أطول ، وهي عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بدون الله تعالى .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعينك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحتفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والغيبة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتسكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً لأنك تسكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فانك مضيق به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتقبل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفسكور بما كان يفتح لك من نفحات رحة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هالت الله سبحانه وذكرته وسبحته لسانك خيراً لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة ، ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسرانا بيناً ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه ، فانه وإن لم يأثم فقد شمس حيث فاتته الريح العظيم بذكر الله تعالى (٣) فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فسكراً ونظرة إلا عبثاً ونطقه إلا ذكراً هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يتخير بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » بل ورد ما هو أشد من هذا . قال أنس (٥) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع ، فسححت أمه عن وجهه التراب وقالت : هنيئاً لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره ، وفي حديث آخر (٦) أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض نفرج يمشي حتى أنه ، فلما دخل عليه قال أبشرياً كعب ، فقالت أمه هنيئاً لك الجنة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المثالية على الله ؟ قال هي أمي يا رسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعله قال ما لا يعنيه

(١) حديث : من صمت نجاً تقدم .

(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع السكام (م) من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث : المؤمن لا يكون صمته إلا فسكراً ، ونظرة إلا عبثاً ونطقه إلا ذكراً ، لم أجده أصلاً ، وروى محمد بن زكريا العلاني أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أمرني أن يكون فطقي ذكراً ، وصمتي فسكراً ، ونظري عبثاً .

(٤) حديث : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (ت) وقال غريب (و) من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجدنا على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه : لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره (ت) من حديث أنس مختصراً وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف .

(٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض الحديث ، وفيه لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه ، ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بأسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه .

أو منع مالا يعني ومعه أنه أعتبها الجنة لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعني حوسب عليه وإن كان كلامه في مباح فلا تهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب . وعن محمد بن كعب (١) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجوبه ؟ فقال إني لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعني » وقال أبو ذر (٢) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ، قلت بلى يا رسول الله ؟ قال هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك . وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : « خمس طرق أحب إلى من الدهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما لا يعنيك حتى تجد له موصفا ، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في شبر موضع فحدث ، ولا تمار سلما ولا سفها ، فإن الحليم يظلمك والسفيه يؤذيك ، وإذا كرا أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، واعفه بما تحب أن يعفك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه محازى بالاحسان ، مأخوذ بالاجترام » وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفت ، ولا أنسكف ما لا يعني . وقال مورك الهجلى : « أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه ، قالوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا يعني » . وقال عمر رضي الله عنه : « لا تهترئ لما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتعلم من فجوره ، ولا تطلبه على سرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى » : وحده الكلام فيما لا يعنيك . أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مآل ، مثاله : أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والشباب ، وما تهبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر ، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يخرج بكائك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ، ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ، وأنت تسلم من الآفات التي ذكرناها ، ومن جللتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد ألبأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة أو كثير الأسئلة فيها آفات ، فأنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر فضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال لا كان كاذبا ، وإن سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به ، وإن احتال لدافعة الجواب افتقر إلى جهد وذهب فيه ، فقد عرّضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول : ماذا تقول وفيم أنت ؟ وكذلك ترى انسانا في الطريق فتقول من أين ؟ فر بما يمنعه مانع من ذكره فإن ذكره تأذى به واستحيا وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب

(١) حديث محمد بن كعب : إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث ، وفيه : إن أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك ما لا يعني ، ابن أبي الدنيا هكذا مرسل وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

(٢) حديث أبي ذر : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث ، وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك ، ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

فيه ، وكذلك تسأل عن مسألة الحاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري فيجيب عن غير بصيرة ، ولدت أئني بالكلام فيما لا يعني هذه الأجناس فان هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر ، وإنما مثال مالا يعني : ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى ! فأراد أن يسأله عن ذلك فنفته حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم اللدع للحرب ، فقال لقمان : « الصمت حكم وقليل فاعيد » أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال ، وقيل انه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ، فهذا وأمثاله من الأسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب وهو مالا يعني وتركه من حسن الاسانم فهذا حده ، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة مالا حاجة به إليه ، أو المباشرة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة يد وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، وأن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يستاد اللسان ترك مالا يعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدا . انتهى الكلام على الآفة الأولى .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول : أي فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء ابن أبي رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وأمرهم المعروف ، أو نهيا عن المنكر ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أنشكروا : إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهارة كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولادنياء » . وعن بعض الصحابة . قال : « إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا » . وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للسكاب والجار : اللهم أخذه ، وما أشبه ذلك ، واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى . قال الله عز وجل : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأفق الفضل من ماله » فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه . قال (٢) : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط

(١) حديث : طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأفق الفضل من ماله ، البخاري وابن قانع في صحيح الصحابة والبيهقي من حديث ركب المصري ، وقال ابن عبد البر أنه حديث حسن ، وقال البخاري لا أدري سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا ، وقال ابن منده : مجهول لا نعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عاصم فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث (دن) في اليوم واليلة بلفظ آخر ، ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

من بنى عامر فقالوا : أنت والدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت
 الحفنة الغراء ، وأنت وأنت . فقال : قولوا قولكم ولا يستهويكم الشيطان إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق
 بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها ، وقال ابن مسعود : أنذركم فضول
 كلامكم ، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليكتب
 ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذا . وقال الحسن : « يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكلت بها
 ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثراً وأقل » . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض
 عفاريتة وبعث نفران يظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مرّ في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى
 الناس وهزّ رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون
 ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يعملون . وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له
 تكلم والا أمسك ، والفاجر انما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثرت ذنبه ، ومن كثرت ذنبه
 كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار (١) : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم
 فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاي وأسنان ، قال : أما كان لك
 في ذلك ما يردّ كلامك ؟ وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ، ثم قال « ما أوتي رجل
 شراً من فضل في لسانه » وقال عمر بن عبد العزيز رجة الله عليه : أنه ليمعنى من كثير من الكلام خوف
 المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليصمت ، وإن كان ساكناً فأعجبه
 السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع ، فإن
 وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما ظهر
 الرجل لسانه ، ورأى أبو الهرداء امرأة سليطة ، فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها ، وقال إبراهيم :
 « يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام » فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث
 عليه ، وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني . انتهى الكلام على الآفة الثانية .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي ، كحكاية أحوال الفساق ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ،
 وتجبر الملوكة ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحلّ الخوض فيه وهو حرام ،
 وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن
 عليه الخوض في الباطل ، وأكثر الناس يتجاسسون للتفرّج بالحديث ، ولا يحدّدو كلامهم التفكه بأعراض
 الناس ، أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنتها ، فلذلك لا مخلص منها إلا
 بالاعتصام على ما يعني من مهمات الدين والدنيا ، وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستعدها ،
 فقد قال بلال بن الحرث (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان
 الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط
 الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » ، وكان علقمة يقول : كم من كلام

(١) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال : كم دون لسانك
 من باب ، الحديث ابن أبي الدنيا هتداً مرسلًا ورجاله ثقات .

(٢) حديث بلال بن الحرث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث د ، وقال حسن صحيح

منعنيه حديث بلال بن الحرث ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يفسدك بها جلدائه يهوى بها أبعد من الثريا » وقال أبو هريرة : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخائضين » وبقوله تعالى : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إن كنتم مثلهم » ، وقال سلمان : أكثر الناس ذنباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله ، وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يرمي بمجلسهم فيقول لهم ترضوا فان بعض ما يقولون شر من الحديث ، فهذا هو الخوض في الباطل ، وهو وراء ماسياتي من الغيبة والفحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر مخاطرات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية الباطل والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يومهم الطعن في بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض في الباطل ، نسأل الله حسن العون بلفظه وكرمه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهى عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « لا تمارأناك ولا تمازجه ، ولا تعده موعداً فتخلفه » وقال عليه السلام (٤) : « ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ، ولا تؤمن فتنته » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو باطل بنى له بيت في رضى الجنة » وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » ، وقال أيضاً (٧) : « ماضل قوم بعد أن هداهم الله

(١) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يفسدك بها جلدائه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن ، والشيخان (وت) : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار ، لفظ (ت) وقال حسن غريب .

(٢) حديث : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح .

(٣) حديث : لا تمارأناك ولا تمازجه ولا تعده وعداً فتخلفه (ت) من حديث ابن عباس وقد تقدم .

(٤) حديث : ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته (طب) من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ورواه ابن الأسقع بإسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود .

(٥) حديث : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، الحديث تقدم في العلم .

(٦) حديث أم سلمة : أن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم .

(٧) حديث : ماضل قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبي أمامة وصححه وزاد : بعد هدى كانوا عليه ، وتقدم في العلم ، وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف .

إلا أوتوا الجدل» ، وقال أيضا (١) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقا »
 وقال أيضا (٢) : « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ،
 وتجهيل المسئلة في اليوم السابع ، والسير على المييمات ، واسباغ الوضوء على المنكارة ، وترك المراء وهو
 صادق » . وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن
 عبد العزيز رحمه الله عليه : من جعل دينه عرضة للعصومات أكثر الثقل ، وقال مسلم بن يسار : إياكم
 والمراء فانه ساعة يجهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته . وقيل : ماض قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال .
 وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه : ليس هذا الجدل من الدين في شيء . وقال أيضا : المراء يقسي القلوب
 ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل
 لجوجا عماريا مجببا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : أوفقت أخى في رمانة فقال حلوة وقات حامضة
 لسي في إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرميك بداهية تمهلك العيش .
 وقال ابن أبي ليلى : لا أمارى صاحبي فاما أن أكذبه واما أن أغضبه ، وقال أبو السرداء : كفي بك إثما أن
 لاتزال عماريا ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « تكفير كل لحاء ركعتان » وقال عمر رضي الله عنه : لاتعلم
 العلم ثلاث ولا تتركه ثلاث : لاتعلمه لغباري به ، ولا تباهي به ، ولا ترائي به ، ولا تتركه حياء من طلبه ،
 ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه ، وقال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب جلاله ، ومن لاسي
 الرجال سقطت مروءته ، ومن كثر همه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه هذب نفسه » . وقيل ليمون بن
 مهران : « مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لأشاريه ولا أماريه » وماورد في ذم المراء والجدال أكثر
 من أن يحصى : وحده المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما في اللفظ واما في المعنى واما في
 قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الانكار والاعتراض ، فشكل كلام سمعته فان كان محقا فصدق به وإن كان
 باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فامسكت عنه ، والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه باظهار خلل
 فيه من جهة الدعوى ، أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير
 وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطيئان اللسان ، وكيفما كان فلاوجه لاظهار خلله ، وأما في
 المعنى فبأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا ، وأما في قصده فبأن يقول : هذا
 الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض ومايجرى مجراه ، وهذا الجنس ان
 جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض
 الاستفادة لأعلى وجه العناد والنسكار ، أو التلطف في التبريف لافي معرض الطعن ، وأما المجادلة فعبارة
 عن قصد اخفام الغير وتجهيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون
 تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص
 صاحبه ، ولانجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأم به لو سكت عنه ، وأما الباعث على هذا فهو الترفع
 باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنان للنفس قويتان لها ، أما اظهار

(١) حديث : لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وإن كان محقا ، ابن أبي الدنيا من حديث
 أن هريرة بسند ضعيف ، وهو عند أحمد بلفظ : لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المازحة والمراء
 وإن كان صادقا .

(٢) حديث : ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان الحديث وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمي
 من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ : ست خصال من الخير الحديث .

(٣) حديث : تكفير كل لحاء ركعتان ، الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

الفضل فهو من قبيل تركية النفس : وهي من مقتضى مافى الجهد من طغيان دعوى السكبر بآه ، وهي من صفات الربوبية ، وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السببية فإنه يقتضى أن يترق نفسه ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وأما قوتيهما المراء والجدال ، فالمرأى على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات الهلكة ، وهذا مجاوز حدّ السكراهة ، بل هو مصيبة مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولانفك المماراة عن الإيذاء وتمهيج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدم في قائله بكل ما يتصوره ، فيشور الشجار بين المتحاربين كما يشور المراس بين الكافرين ، يقصد كل واحد منهما أن يعرض صاحبه بما هو أعظم نكابة ، وأقوى في الخامة والجماع ، وأما علاجه فهو بأن يكسر السكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسببية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتى ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فإن علاج كل علة باماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجلّه عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه ، روى أن أبا حنيفة رجة الله عليه قال له لادد الطائي : لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد نفسى بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تنسكلم ، قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ علىّ منها وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جداً ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً فى أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس ، وأكثر ما يغلب ذلك فى المذاهب والعقائد فإن المراء طبع ، فاذا ظن أن له عليه ثواباً اشتدّ عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغي للإنسان أن يكفّ لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعاً تأنف في نصحه في خلوة ، لا بطريق الجدال فإن الجدال يخيّل إليه أنها حيلة منه فى التلبس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فاستمر البسطة فى قلبه بالجدل وتأكده ، فاذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) « رحم الله من كفّ لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » ، وقال هشام ابن عروة : كان عليه السلام يردّد قوله هذا سبع مرات ، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ، ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء ، وحب الجاه ، والتعزّز بالفضل ، وآحاد هذه الصفات يشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها ! وبهذا تمّ الكلام على الآفة الرابعة .

الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة ، وهي وراء الجدال والمراء : فالمرأى طعن فى كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة ، والجدال عبارة عن أصري يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجأج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراض المراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق ، فقد قالت عائشة رضى الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

(١) حديث : رحم الله من كفّ لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه ، ابن أبى الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور الديلمي فى مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ : رحم الله امرأ كفّ لسانه عن أعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جداً .

(٢) حديث عائشة : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم خ وقد تقدّم .

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع». وقال بعضهم: «إياك والخصومة فإنها تمحق الدين» ويقال: «ما خصم وربع قط في الدين»، وقال ابن قتيبة: «سرتني بشر بن عبد الله بن أبي بكر»، فقال: ما يجلسك هنا؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عمي، فقال: إن لأهلك عندي يدا وأنى أريد أن أجزيك بها، وأنى والله مارأيت شيئا أذهب للدين، ولا أنقص للرملة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل القلب من الخصومة قال فقامت لأنصرف فقال لي خصمي مالك؟ قلت لأخصمك، قال انك عرفت أن الحق لي، قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا، قال فاني لا أطلب منك شيئا هولك، فإن قلت فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أوفى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه، وكيف تدم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أى جانب هو يتوكل في الخصومة من أى جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد القسطة، أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحق واطهار الحق، ويتناول الذي يمسله على الخصومة محض النفاق لقهرا الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدى عناده وكسر عرضه وأنى إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللدد والخصومة والهجاء وهو مذموم جدا، فأما المظالم الذي ينصر محجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجأ على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال معتذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره، حتى أنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمل على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدل، فينبغي أن لا يفتح بابها إلا للضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك معتذرا جدا، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تدم خصومته إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آنما نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدل طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة، والاختشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو مراه أو خاصمه، فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) «يكننكم من الجنة طيب الكلام وأطعمكم الطعام» وقد قال الله تعالى: «وقولوا للناس حسنا»، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «من سلم عليك من خلق الله فارد عليه السلام وإن كان مجوسيا إن الله تعالى يقول: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها»، وقال ابن عباس أيضا: «لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه»، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة لغرفا يرى

(١) حديث أبي هريرة: من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب والترهيب، وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور.

(٢) حديث: يمكنكم من الجنة طيب الكلام وأطعمكم الطعام، الطبراني من حديث جابر وفيه من لأعرفه، وله من حديث هاني أنى شريح بإسناد جيد: يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام.

(٣) حديث أنس: إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها، الحديث (ت) وقد تقدم.

ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أمدها الله تعالى ابن آدم الطاهم والآن الكلام « وروى أن عيسى عليه السلام صرّ به خنزير فقال صرّ بسلام ، فقيل : يا روح الله أقول هذا خنزير ؟ قال : أكثره أن أعوز لساني الشر ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام (١) : « الكلمة الطيبة صدقة » . وقال (٢) : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » ، وقال عمر رضي الله عنه : « البر شيء هين ، درجة طابق وكلام لين » . وقال بعض الحكماء : « الكلام اللين يفسل الضغائن المستكفة في الجوارح » . وقال بعض الحكماء أيضا : « كل كلام لا يسيحط ربك إلا أنك ترضى به جليساتك فلا تسكن به عليه بخيلا فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين » . هذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخسومة والمرارة والجدال والعجاج فإنه الكلام المستكره الموحش ، المؤذي للقلب ، المنفص للعيش ، المهيح للغضب ، الموغر للصدر ، فسأل الله عن التوفيق بمنه وكرمه . تمّ الكلام على الآفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السادسة : التقصير في الكلام والتشدد

التقصير في الكلام بالتشدد وتسكف السجع والنصاحه والتضع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاسحين المدّعين للخطابة ، وكل ذلك من التضع المذموم ، ومن التسكف الممقوت ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وأتقياء أمتي برآء من التسكف » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام » وقالت فاطمة رضي الله عنها (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ، يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام » . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « ألهلك المتنطعون ثلاث صرات ، والتنطع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضي الله عنه : إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان » ، وجاء عمرو ابن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتسكف بين يدي حاجته بكلام ، فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٦) : « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة السكأ بلسانها » وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتسكفة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متسكف ، وكذلك التفاصيل الخارج عن حدّ العادة ، وكذلك التسكف بالسجع في المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني (٧) كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل

- (١) حديث : الكلمة الطيبة صدقة (م) من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وقد تقدم .
- (٣) حديث : إن أبغضكم إليّ الله وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون ، أحد من حديث أبي ثعلبة وهو عند (ت) من حديث جابر وحسنه بلفظ : إن أبغضكم إليّ .
- (٤) حديث فاطمة : شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ، الحديث ، وفيه ويتشدقون ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب .
- (٥) حديث : ألهلك المتنطعون (م) من حديث ابن مسعود .
- (٦) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة السكأ بلسانها ، رواه أحمد .
- (٧) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث (م) من حديث المنيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلهما عند (خ) أيضا .

ومثل ذلك بطلان ؟ فقال أسجعا كسجج الأعراب ، وأنسكر ذلك لأن أثر التسكف والتضع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للعرض وما وراء ذلك فتسجج مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتشديد من غير إفراط وأغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لا يثق به ، فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجج والتشدق والاشتغال به من التسكف المذموم ، ولا يباحث عليه إلا الرأى ، وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع وينجر عنه . انتهى الكلام على الآفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السابعة : النجش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ونهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم (١) : « إياكم والفحش فان الله تعالى لا يحب الفحش ولا الفجش » (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال : لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا أن البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى ، يسمعون بين الحميم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قلعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لعائشة « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لسكان رجل سوء » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « البذاء والبيان شعثان من شعب الفراق » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التسكف ،

(١) حديث : إياكم والفحش : الحديث (ن) في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : النهي عن سب قتلى بدر من المشركين : الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح أن رجلا وقع في آب للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث ، وفيه : لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا .

(٣) حديث : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي (ت) بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا ، قال الدارقطني في العمل والموقوف أصح (٤) حديث : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو .

(٥) حديث : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى : الحديث ، وفيه : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث : ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مانع ، واختلف في صحبته ، فذكره أبو نعيم في الصحابة ، وذكره (خ) في التابعين .

(٦) حديث : يا عائشة لو كان الفحش رجلا لسكان رجل سوء : ابن أبي الدنيا من رواية ابن هبيرة عن أبي النضر عن أبي سامة عنها .

(٧) حديث : البذاء والبيان شعثان من الفراق (ت) وحسنه (و) وصححه علي شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم .

ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فإن إلقاء ذلك جُمُلا إلى أسماء المواقف أولى من المبالغة في بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجهلت بادرت القلوب إلى القبول ولم تنظروا ولكن ذكره مقررا بالبداية يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه فإن الأولى في مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق » ، وقال جابر بن سمرة (٢) : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا » وقال إبراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب ، وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدواء الناس ؟ اللسان البذي ، والخلق اللذي ، فهذه مذمة الفحش ، فأما حذو وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها في أهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكتنون عنها ويدلون عليها بالرموز فيكون ما يقاربها ويتعلق بها . وقال ابن عباس : إن الله حي كريم يعفو ويكنو ، كنى باللسان عن الجائع ، فالتيس واللس والدخول والصحبة كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستحب ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتهير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخش من بعض ، وربما اختلف ذلك بمادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والفاظ أولى من لفظ التفوط والخراء وغيرهما ، فإن هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحي منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه خش ، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال : قيل في الحجرة ، أو من وراء الستار ، أو قالت أم الأولاد ، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصریح فيها يفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحي منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالتصریح بذلك داخل في الفحش ، وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأثناه فسأله لئري مايقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث والمؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « أوصني فقال عليك بتقوى الله ، وإن امرؤ غيرك بشيء يعلمه فيك فلا تهره بشيء تعلمه فيه يكن وبال له عليه وأجره لك ولا تسب شيئا » قال فأسببت شيئا بعده . وقال عياض بن حمار (٤) قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أنتهر منه ؟ فقال المسابان

(١) حديث : إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الأسواق : ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف ، وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش ، وإسناده جيد .

(٢) حديث جابر بن سمرة : إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء : الحديث أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ غيرك بشيء يعلمه فيك فلا تهره بشيء تعلمه فيه : الحديث أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جزي الهذلي ، قيل اسمه جابر بن سليم ، وقيل سليم بن جابر .

(٤) حديث عياض بن حمار : قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من

شيطانان يتهاويان ويتهارجان وقال عليه السلام (١) «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» وقال عليه السلام (٢) «المستبان ما قالا فعلى البادئ منه حتى يعتدي المظلوم» وقال عليه السلام (٣) «ملعون من سب والدیه» وفي رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والدیه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والدیه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه»

الآفة الثامنة : اللعن

إما حيوان أو جاد أو إنسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) «المؤمن ليس بلعان» وقال عليه السلام (٥) «لا تلعنوا بلعنة الله ولا بفضله ولا بجهمهم» وقال حذيفة مأتا عن قوم قط الاحق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين (٦) «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعنتها فقال عليه السلام خذوها ما عليها وأعروها فانها ملعونة قال فسكأتني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد» وقال أبو الدرداء ماله من أحد الأرض الا قالت لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه ، وقال يا أبا بكر أصدقين ولعانين كلا ورب السحرة صرتين أو ثلاثا فأعقني أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال لأعود ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) ان اللعانين لا يكونون شفعا ولا شهداء يوم القيامة ، وقال أنس (٩) كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئر فلعن بعيره فقال عليه السلام يا عبد الله لاتسرع معنا على بعير ملعون ، وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فان في اللعنة حظرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعده الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلع الله عليه : والصفات المقتضية للعن ، ثلاثة الكفر ، والبغضة

بأس أن أنتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاجان (د) الطيالسي وأصله عند أحمد

- (١) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود
- (٢) حديث المستبان ما قالا فعلى البادئ حتى يعتدي المظلوم (م) من حديث أبي هريرة وقال ما لم يعتد
- (٣) حديث ملعون من سب والدیه ، وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والدیه : الحديث أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد وانفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

- (٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان : الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا ولترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا
- (٥) حديث لا تلعنوا بلعنة الله : اسندت (ت د) من حديث سمرة بن جندب قال (ت) حسن صحيح
- (٦) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعنتها الحديث رواه (م)

- (٧) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال يا أبا بكر لعانين وصدقين : الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه

- (٨) حديث ان اللعانين لا يكونون شفعا ولا شهداء يوم القيامة (م) من حديث أبي الدرداء
- (٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال يا عبد الله لاتسرع معنا على بعير ملعون ، ابن أبي الدنيا باسناد جيد

والفسق ، وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب : الأولى اللعن بالوفا الأعم كقولك لعنة الله على الكافر والمبتدع والقسعة : الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والرافض أو على الزناة والظالمات وآكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن في أمم أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المماثلة ويثير نزاعا بين الناس وفسادا : الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنة الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنة الله وأبو جهل لعنة الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنة الله وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ فإن قلت يلحق بكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مساما في الحال وإن كان يتصور أن يرتد ، فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنة الله إن مات على الكفر وللعنة الله إن مات على الإسلام وذلك غيب لا يدري والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلمن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تنقلب في الأسوار إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللحن فكان يقول في دعائه علي قر يش (١) اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر بيد حتى أن من لم يعلم عاقبت كان يلحقه فنهى عنه (٢) إذ روى أنه كان يلحق الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون يعني أنهم ربما يسلطون فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يجر كما روى (٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يا رسول الله

(١) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث أنه كان أنه يلحق الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء : الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا : الحديث ، وفي رواية لهما قنيت شهرا يدعوا على رجل وذكوان الحديث ولهما من حديث أبي هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه الحديث وفيه اللهم العن لحيان ورعلا : الحديث ، وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء لفظ (م)

(٣) حديث أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث (د) في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يحباهم الله ورسوله الحديث ، وفيه فإذا سببتهم المشركين فسبوهم جميعا

هذا قبر رجل كان أطمع للطعام وأضرب للهام من أبي خافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكف عن أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر إذا ذكرتكم الكفار فمما فأنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء فكف الناس عن ذلك . (١) وشرب نعيمان الخمر فمات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقبل هذا فإنه يجب الله ورسوله ، فهناك عن ذلك ، وهذا يدل على أن لعن فاسق بهينه غير جائز ، وعلى الجلة في لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره ، فإن قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آسر به ؟ قلنا هذا لم يثبت أصلاً فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أسره به ما لم يثبت فضلاً عن المعنة ، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً ، وقتل أبواؤاثة عمر رضي الله عنهم فإن ذلك ثبت متواتراً ، فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ، ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا به أحدهما ، إن كان كافراً فهو كما قال ، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه » وهذا معناه أن يكفوه وهو يعلم أنه مسلم ، فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً ، وقال معاذ (٤) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتهاك أن تشتم مسلماً أو تعصى إماماً عادلاً ، والتعرض للأموال أشد . قال مسروق : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قالت توفي ، قالت رحمه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) : « لا تسبوا

(١) حديث : شرب نعيمان الخمر فمات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسكن عوناً للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقبل هذا فإنه يجب الله ورسوله ، ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسل ، ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمداً وكناه عبد الملك ، والبخاري من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلدته في الشراب فأتى به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم لعنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم ، وفيه : لا تعينوا عليه الشيطان ، وفي رواية : لا تكونوا عون الشيطان على أخيك .

(٢) حديث : لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق .

(٣) حديث : ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

(٤) حديث معاذ : أتهاك أن تشتم مسلماً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل .

(٥) حديث عائشة : لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا (خ) وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرفائق مع القصة .

الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقتلوا . وقال عليه الصلاة والسلام (١) : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » . وقال عليه السلام (٢) : « أيها الناس : استظفوني في أمهائي وأصهارى ولا تسبوهن . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا ، فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ، أو ألصق بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال : قاتل الحسين أن مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر ثم تاب ، عن الكفر والقتل جميعا ، ولا يجوز أن يلحقه ، والقتل كبيرة ولا تنهى إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطاق كان فيه خطر ، وليس في السكوت خطر فهو أولى ، وإنما أوردنا هذا لنعلم الناس باللعنة والطلاق اللسان بها ، والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفة بأوصافهم دون الأشخاص المعينين ، فلا تستعمل بذلك الله أول ، فإن لم يكن في السكوت سلامة . قال مكى بن ابراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة جملوا بلعونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكرك لما ارتكب منك فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صيغة يوم القيامة لا إله إلا الله ولعن الله فلانا فلا نخرج من صيغة لا إله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أوصني فقال أوصيك أن لا تكون لعانا . وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم : « لعن المؤمن يهدل قتله » . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا : لو قلت أنه مرفوع لم أبال ، وعن أبي قتادة قال (٤) كان يقال : من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله ، وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشتم حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلا : لا صحح الله جسمه ، ولا سلمه الله ، وما يجرى مجراه فان ذلك مذموم ، وفي الخبر (٥) « إن المظلوم ليدعوا على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » . ثم الكلام على الآفة الثامنة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلانبيده ، وأما الشعر فكلام حسن وقبيح

(١) حديث : لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، الترمذى من حديث المفسيرة بن شعبة ورجاله ثقات ، إلا أن بعضهم أدخل بين المفسيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم .

(٢) حديث : أيها الناس : احفظوني في أمهائي وأصهارى ولا تسبوهن . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا . أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى : احفظوني في أمهائي وأصهارى وإسناده ضعيف ، والشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة : لا تسبوا أمهائي ، ولأبي داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم ، وللنساء من حديث عائشة : لا تذكروا موتاكم إلا بخير ، وإسناده جيد .

(٣) حديث : قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعانا ، أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرير الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم .

(٤) حديث : لعن المؤمن كقتله ، متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك .

(٥) حديث : إن المظلوم ليدعوا على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة ، لم أقف له على أصل ، وللترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف : من دعا على من ظلمه فقد انتصر .

قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحاً حتى يريه خبيره من أن يمتلي شعراً » ، وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فسكروه فقل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صفيقي شعر ، وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكراً فإن ذكر الله خير من الشعر ، وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إن من الشعر لحكمة » ، نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح ، فإنه وإن كان كذباً فإنه لا يمتدح في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولولم يكن في كفه غير روحه به جاد بها فليتيق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً ، وإن كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لوتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها (٤) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفف نعله وكانت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يهرق وجهه يهرق يتولد نورا قالت فبهت فنظرت إلى فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يهرق وجهك يهرق يتولد نورا ، ولولا أنك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره » ، قال وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي ؟ قلت يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غير حبيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى قبيل مابين عيني وقال جزاك الله خيراً يا عائشة ما سررت مني كسروري منك . (٥) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر العباس ابن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

(١) حديث : لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحاً حتى يريه خبيره من أن يمتلي شعراً (مسلم) من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي شيرة نخوع والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد .

(٢) حديث : إن من الشعر لحكمة ، تقدم في العلم وفي آداب السماع .

(٣) حديث : أمره حساناً أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال حسان اهجهم وجبريل معك .

(٤) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يخفف نعله وكانت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يهرق وجهه يهرق يتولد نورا الحديث ، وفيه انشاد عائشة لشعرا أبي كبير الهذلي :

ومبرأ من كل غير حبيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث ، رواه البيهقي في دلائل النبوة .

(٥) حديث : لما قسم الغنائم أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو ممن أَرْضَى الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أقول في الشعر فليس يعتذر إليه ويقول بأني أنت وأمي يا رسول الله ، إني لأجد للشعر ديبية على لساني كديب الفهد ، ثم يقرصني كما يقرص الفحل ، فلا أجد بدا من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين . والى هنا تم الكلام على الآفة التاسعة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهي عنه إلا اقترا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « لا تمارأخاك ولا تمازحه » فان قلت الممازاة فيها إبداء لأن فيها تشاكيا للأخ والصدق ، أو تجميلا له ، وأما المزاح فطباية وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه ، فاعلم أن المنهي عنه الافراط غيه أو المداومة عليه ، أما المداومة فلا تته اشتغال باللعب ، والمزل فيه واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تبت القلب ، وتورث الضيق في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فما يخلو عن هذه الامور فلا يذم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (٢) : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال رسول الله ﷺ (٣) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من الثريا » . وقال عمر رضي الله عنه : « من كثر ضحكك قلت هيئته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثرت سقطته ، ومن كثرت سقطته قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة . قال ﷺ (٤) : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وقال رجل لأخيه : يا أخى هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال لا ، قال فنيح الضحك ، قيل فما رى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ، ونظروهيب ابن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فإنا فعل الساكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فهذا فعل الخائفين ، وكان عبد الله بن أبي يهلى يقول : أتضحك ولم أكفانك قد خرجت

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه الحديث (مسلم) من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ أباسفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وعبيدة بن حصين ، والأقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس : أتجعل نهى ونهب العبيد بين عينة والأقرع وما كان بدر ولا حابس ؟ يفوقان مرداس في جمع وما كنت دون امرئ منهما ؟ ومن تضع اليوم لا يرفع قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وزاد في رواية : وأعطى علقمة بن علاثة مائة ، وأما زيادة : اقطعوا عني لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة .

- (١) حديث : لا تمارأخاك ولا تمازحه ، الترمذي وقد تقدم .
- (٢) حديث : إني لأمزح ولا أقول إلا حقا ، تقدم .
- (٣) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم .
- (٤) حديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

من عند القصار ، وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبيكي ، وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ألت تذهب من بكائه قيل بلى ، قال فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه ، فهذه آفة الضحك ، والمعلوم منه أن يستغفر في ضحكك ، والحمد لله التبتسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت ، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . قال القاسم مولى معاوية (٢) : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم يسأله يقرّبه فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ، ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك فقال نعم وأفواهكم ملائ من دمه . وأما أداء المزاح إلى سقوط الوتر فقد قال عمر رضى الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد ابن المنكدر : قالت لى أمى يابني لا تمزح الصبيان فتهون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يابني لا تمزح الشريف فيصدق عليك ، ولا الدنيا فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رجه الله تعالى : « اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضعيف ، ويجرّ إلى القبيح ، تندثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فإن ثقل عليكم حديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضى الله عنه : « أندرون لم سمي المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق » ، وقيل : لسكل شيء بذور وبذر السداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة للنهي ، مقطعة للأصدقاء . فان قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول أن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا ، ولا تؤذى قلبا ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على الدور فلا حرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن (٣) لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصغار ما يصير كبيرة بالاصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالاصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ، نعم روى أبو هريرة (٤) أنهم قالوا يارسول الله انك تداعبنا ، فقال انى وان داعبتكم لا أقول إلا حقا . وقال عطاء (٥) ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحدى وجرى منه ذيل كذيل العروس . وقال أنس : ان النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكك الناس مع نسائه . وروى (٧) انه كان كثير التبتسم

(١) حديث : كان ضحكه التبتسم ، تقدم .

(٢) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله يقرّبه وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأفواهكم ملائ من دمه ، ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل .

(٣) حديث اذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد تقدم .

(٤) حديث أبي هريرة : قالوا انك تداعبنا ، قال انى وان داعبتكم فلا أقول إلا حقا ، الترمذى وحسنه .

(٥) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس نعم ، الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه : البسيه واحدى وجرى منه ذيل كذيل العروس لم أقف عليه .

(٦) حديث أنس : كان من أفكك الناس ، تقدم . (٧) حديث انه كان كثير التبتسم ، تقدم .

وعن الحسن (١) قال : أنت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز فبكيت ، فقال انك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى : إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهنّ أبكارا . وقال زيد بن أسلم (٢) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك ، قال ومن هو ؟ أهوالذي بعينه بياض ؟ قالت والله ما بعينه بياض ، فقال بلى إن بعينه بياضا ، فقالت لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا بعينه بياض ، وأراد به البياض المحيط بالخدقة ، وجاءت امرأة أخرى فقالت (٣) يا رسول الله احملني على بعير ، فقال بل نحملك على ابن البعير ، فقالت ما أصنع به ؟ انه لا يحملني ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من بعير إلا وهو ابن بعير فكان يمزح به . وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير (٤) وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : يا أبا عمير ما فعل النغير ، لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور . وقالت عائشة رضي الله عنها (٥) خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال تعالى حتى أسألك فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال هذه مكان ذى المجاز ، وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثني أني بشيء فقال أعطينيه فأبيت وسعيت وسمي في أثرى فلم يدركني ، وقالت أيضا (٦) سأبقي رسول الله ﷺ فسبقته فلما حملت اللحم سأبقي فسبقني وقال هذه بتلك ، وقالت أيضا رضي الله عنها (٧) كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلي فقالت لأحبها فقلت والله لتأكلن أولاً أنا نحن به وجهك فقالت ما أنا بذائقته فأخذت بيدي من الصحيفة شيئا منه فطأخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها ففرض لها رسول الله ﷺ ركبته لتستقيمني فتناورات من الصحيفة شيئا فسحمت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك . وروى أن الضحاك بن سفيان السكلابي (٨) كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبي ﷺ قال ان عندي امرأتين أحسن

(١) حديث الحسن : لا يدخل الجنة عجوز : الترمذي في الشماثل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت : ان زوجي يدعوك أهوالذي بعينه بياض ، الحديث الزبير بن بكار في كتاب الفسكاهة والمزاح ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة ابن سهم الفهرى مع اختلاف .

(٣) حديث : قوله لامرأة استعملته نحملك على ابن البعير ، الحديث أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ : أنا حملك على ولد الناقة .

(٤) حديث أنس : أبا عمير ما فعل النغير ، متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة .

(٥) حديث عائشة في مسابقته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز ، لم أجده أصلا ، ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر .

(٦) حديث عائشة : سأبقي فسبقته ، النسائي وابن ماجه ، وقد تقدم في النسكاح .

(٧) حديث عائشة في لطح وجه سودة بحريرة ولطح سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار في كتاب الفسكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد .

(٨) حديث ان الضحاك بن سفيان السكلابي قال عندي امرأتان أحسن من هذه الجيراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجهما وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما ، الزبير بن بكار في الفسكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلا ، وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيفة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

من هذه الجبراء ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجهما وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضدحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤاها إياه لأنه كان دميما . وروى علقمة عن أبي سامة (١) أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليه السلام فيرى الصبي لسانه فيمش له ، فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وماقبلته قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن من لا يرحم لا يرحم . فأكثر هذه الطائيات متقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معاملة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) سريرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرأ : أنا أكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواحيه . وروى (٣) أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفيرا لجل لي شرود ، قال فغضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أمترك ذلك الجلل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أقفر رمنه كما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة ، وبعد ما قدمت المدينة قال فرآني في المسجد يوما أصلي فجلس إلي فطوّل فقال لا تطوّل فاني أتظرك ، فلما سالت قال يا أبا عبد الله أمترك ذلك الجلل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أقفر رمنه حتى لحقني يوما وهو على حمار ، وقد جعل رجله في شق واحد ، فقال أبا عبد الله أمترك ذلك الجلل الشراد بعد ، فقلت والنبي بعثك بالحق ماشرود منذ أسلمت ، فقال الله أكبر الله أكبر ، اللهم اهد أبا عبد الله ، قال فحسن إسلامه وهده الله . وكان نعمان الأنصاري (٤) رجلا مزاحا ، فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه

(١) حديث أبي سامة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيمش إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن رجلا قد خرج وجهه وماقبلته قط ، فقال إن من لا يرحم لا يرحم ، أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جدّه ، وحكي الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك : أحدهما أنه عيينة بن حصن ، والثاني أنه الأقرب بن حابس ، وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سامة عن أبي هريرة أن الأقرب بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم . (٢) حديث : قال لصهيب وبه رمد أنا أكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات .

(٣) حديث : أن خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفيرا لجل لي شرود ، الحديث الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو .

(٤) حديث : كان نعمان رجلا مزاحا ، وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ، الحديث ، وفيه أنه كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه ، الحديث الزبير بن بكار في الفسكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسلًا وقد تقدّم أوله .

بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فاما كثر ذلك منه قال له رجل « من المصيبة انك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يوجب الله ورسوله ، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفه إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله هذا قد اشتريته لك ، وأهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا ؟ فيقول يا رسول الله انه لم يكن عندي ثمنه وأصبحت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر صاحبه بتمته ، فهذه مطايعت يباح مثلها على التدور لا على السوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب . وإلى هنا تم الكلام على الآفة العاشرة والحمد لله رب العالمين .

ونكتفي بذكر هذه الآفات العشرة عن باقيها في هذا المقام لطولها ، ونذكر باقيها ان شاء الله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « ما يلفظ من قول إلا إليه رقيب عتيد » وأذن فليكن هذا نهاية القسم الثاني من المقام الأول في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلهووا أنفسكم » الآيات إلى قوله « إن الله تواب رحيم » .

المقام الثاني من المقالة الثانية

في غوائل الأعمال القلبية

أى المشارها بقوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » والتي يشير لها قوله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ بآية « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحيط أقرب إليه من حبل الوريد » وآية « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

والأعمال القلبية وهذه الغوائل قد شرحها الامام الغزالي في الاحياء ، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجملناه في كتابنا الذي ألفناه لطلبة دارالعلوم وهو « جوهر التقوى » فهناك ما جاء في ذلك الكتاب في صفحة ١١٣ وما بعدها وهذا نصه :

الفضيلة والذيلة والسعادة

إذا زرعنا شجرا وتعيننا في إنمائه فغايته ثمره ، هكذا إذا نصبتنا في تحصيل الفضائل فالغاية السعادة . السعادة نيل المراد الشريف ، وراحة النفس ، والاستلذاذ بالفضائل ، ولا سعادة لفؤاد مضطرب ونفس فاجرة ، فما من رذيلة إلا وهما في النفس سوء الأثر ، فالجهل أشد الآلام ، والبسالة شقاء الجهال ، والنسيان والسهو بلية الانسان ، والعجب والكبر يوردان القلب موارد العطب ، ويصرعانه في المنقلب ، بالحظوظ الخسيسة والشهوات الباطلة ، والتهرض لملت الماقتين ، واستهزاء المستهزئين ، والحسد يودي بصاحبه ويقطع فؤاده ويقلبه في نار السعير ، ويعرضه لخطر كبير ، والشهرة يهذب صاحبه ويوقعه كل يوم في نائبة ، ومن ظن المال غاية ما اشتهاه ، والسلطان والعز قصرى مناه ، عذب بها العذاب الأكبر . « ولا تهجيك أمواهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » بما يصيب محبوبهم من الآفات ، وما يعرض له من النكبات ، وهم عادموا الصبر ، قليلوا الأجر ، كثيروا الهلع ، عظيموا الخزع ، فأني يكون المرء من السعداء ، وقد كتب نفسه بيديه في ديوان الأشقياء ، فالسعيد من اتبع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالعفة وما يقبها ، والشجاعة والحكمة وأقسامها ، أولئك هم السعداء في الدارين ، عند ربهم يرزقون فرحين اذا اعتادوا وصروا على ذلك حتى صار مستلذا معشوقا ، فيأنس بالمعارف العالية ، والطبيعات وأقسامها ، والرياضيات وأفلاكها ، والالطيات وجالها ، ويعلم ما تصله القوة البشرية من المعارف الحسكية ، ويأنس بالعدل في

عمله ، والصديق في منطقته ، والمروءة في أصحابه ، وقد أرضى أشرف العقلاء ، ورضى بما ساقه القضاء ، ولا يطمعن في رضاء سائر العالمين ، فإن ذلك ليس في حيز الامكان ، وغاية الأمل وقصاره التعالي عن الرعونات الدنيوية والرضاء ثم الطمأنينة : « يأتيها النفس المطمئنة ارجى إلى ربك راضية مرضية فادخل في عبادي وادخل جنتي » .

من هذا تعلم قول بعض علماء الغرب لبعض شبائنا : « لا يملك المال ، اذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملا القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهبا ، فلم يدم محدود الفضائل ، والمثري واسع المعروف » .
وأنا أقول : ألم تسمع أقوال النبي سليمان عليه السلام : « وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين » . انتهى

القدوة الحسنة

مامن نبي أو عالم أو عامل إلا كان قدوة على حسب درجته ، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس وضحاها والنجم الزاهر في ظلمات الدياجر ، لتكن شمسا يضيئ سناها للنظرين ، وسيرتك هدى ، وعلمك نبراسا للسايرين .

أيها الطالب : إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحانك أساس يبنى عليها ومقدمات انتاج ، فاحذر الحذر كله أن تكون قدوة سيئة للبينين ، وكن خيرا القدي لخير المقتدين ، حتى يصدق علينا قول السمومل :
اذا مات منا سيد قام سيد ✖ قمول لما قال الكرام فحول
لا يرين الناس منك إلا كالا ، ولا يطلعون منك إلا على ماجل وحلا ، ولا تنقن عين منك على قبيح ، وأصلح السريرة ، وأحسن العالنية ، وذرا المباهاة والملاسة ، والمشاقة والمراء ، وأظهر البشر ، وقل للناس حسنا ، وآت ذا القربى حقه ، واعف واصفح ، إن الله يحب المحسنين .

علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم ، والمنهج الأوضح ، في علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، والتعوّد على نقيضها ، ومحاربتها بعدوها ، فالجهل بمزاولة التعليم ، والبخل بتسكاف البذل ، ومداومة العطاء ، إلا أن العادة لتأثيرا على النفوس الحيوانية فضلا عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاده الانسان بالتعويّد فسخره للركوب وامتطاه للحرب ، وذلك للحلب وساقه للحرث ، وصيره يسقى الزرع ، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثير الأرض ولا يسقى الحرث ، أفليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان ؟ فكم من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب أخركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب وصار شجاعا ، وكم من بخيل تعوّد البسذل فأعطى المال وأكرم التزليل ، حتى صار طبعها مستلذا ، وعادة مألوقة .

عجب للعادة وأى عجب ! تغلب المحبوب مكروها ، وترد المألوف مبغضا ، وتجعل السفينة حلما ، والحليم سفينا ، والجاهل عالما ، والكاذب صدوقا ، للعادة في النفوس عجائب ألا ان للجوارح أثرا في النفوس ، وللنفوس أثرا في الجوارح ، كالبحر يمتطره السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لذائذ والرذائل آلاما . إلا أن امتكاف الفضائل مجاهد ، وصريد لا يزال على الصراط مسافرا ، لم ينل بغيته ، ولم يحظ بنواله ، فانه فضل على القاعد الغافل ، والساهي النائم ، والفضل كل الفضل أن يصير المتكاف مرغوبا والمسكره من الطاعات محبوبا ، قال في الحديث الشريف : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ، ألا وان قوام الأمر وعماده : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » اهـ

الغضب

الغضب ثوران يغلي به الدم ، فيرتفع في أعالي العروق ، فيجهر وظاهر البدن دفعا لا ردى قبل وقوعه ، وانتقاما من المؤذى بعد حصوله ، اذا ظن القدرة على خصمه ، فان بدا له الضعف تبدل الاجرار اصفرارا ، وكثر الدم راجعا لأعماق الجسم هاربا من إيذاء الخصم وان تردد بين الاعتقادين ، وشك في الأمرين ، تعاقب اللونان ، فأحمران قدر ، وأصفر للخور ، فالدم كالجيش المحارب ، يقدم أقدام القادر ، ويحجم إجم الخائر : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

والغضب آثار ظاهرة كتغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركات والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأهداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولهمرك ان قبج الظاهر أثر لقبج الباطن ، وما الظاهر إلا مرآة تجلت فيها صورة النفس ، وثمرة ظهرت في شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها ممتد في الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالشتم والفحش من الكلام مع تحبط النظم واضطراب اللفظ والاقدام على الضرب والتهميم والتزيق والجرح عند التمكن حتى اذا عجز عن التشفى رجع إلى نفسه فزق ثوبه ، ولطم خده ، وضرب يده على الأرض ، وغدا كالواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما سقط فأغشى عليه ، وقد يضرب الجاد ويخطب الحيوان ، وربما رفسه دابة فرفسها ، أو انكسر القلم فشججه كما يعامل العقلاء .

هل هذا إلا من آثار اضطرام نيران القلب وصورة من قبضه ، وكل له من صور تبرزها الأيام ، وتجليها الحوادث مع المفضوب عليه كالحقد ، والحسد ، والشهامة بالسآآت ، والحزن بالسرور ، وافشاء السر ، وهتك الستر ، والاستهزاء ، فهذه ثمرات افراط الغضب .

وأما ما يضاعفه فالحية الضعيفة ، وثمرتها قلة الأنفة ، واحتمال النلة ، وعدم الغيرة على الحرم ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات من غيره ، وأن لا يغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب ، ومباشرة العيوب ، فلا يتوب ، فن ابتلى بذلك فليترجميته ، فكل الطرفين مذموم ، والوسط ممدوح ، هدا الله الصراط المستقيم .

ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ، ان خبت أنبت القتاد والشوك والحسك ، وخبيت النبات يتقلب على طيبه ، ورديته على جيده ، ومما مثل الهجر والحسد والشهامة والاحتقار والغيبة وهتك الستر وإيذاته بالضرب وغيره ، الناجمة من الحقد ، النابتة في أرض القلب الذي أفسده الغضب إلا مثل شوك السعدان ، وشجر الطرفاء ، ونبات الحنظل والعليق ، إذا نبتت في أرض لم يتعدها مصلحوها ، ولم يقم عليها أهلها ، ألا وان القلب إما جنسة ذات رياض وفاكهة وروح وريحان من علم نافع وحكمة صالحة ، وأما نار تستمر ، ويحجم ترمي بشرر ، فيحترق الجثمان ، وتنهل الأبدان .

ألق بصرك في الفضاء ، وتأمل النبات ونجب ، ألم تر إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهلوك الذي نبت ما بين شجرات الفول فيمتص غذاءها ، ويبعد أثمارها وحبها ، تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والفول مثل الفضائل ، والهلوك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ، ونحن مازرعناه وأما هو النامي بنفسه ، المعتدى على نباتنا ، المميت لمادتنا ، المبيد لأغذيتنا ، ألا وان ماضى الناس نام بنفسه وما نفعهم يعوزه القيام عليه .

فاذا ابتليت بمن آذاك فلا تجعل للحقد عليك سبيلا ، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارة للزرع بعزقها ، وافعل ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فانه لما حلف أن لا ينفق على مسطح قريبه وقد

تسكّم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى : « ولا يأتون أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعنفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » ، فوصله بعد القطيعة ، وأنعم عليه بعد الحرمان . انتهى

المعجب وسببه وعلاجه

المعجب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فأما من كان خائفا وجلا مشفقاً من زواها ، ومن فرح بها من حيث أنها نعمة من الله فليس بمعجب ، أما سببه فالجهل ، وأساسه الوهم الذي عليه بنى قصور الهوى ، ومحاريب الجهل ، وتمثيل الفخار . فأما علاجه فأن يعرف المرء أن ما تباهى به بين الأقران لا يخلو من أحد أمرين : إما ما يدخل تحت اختياره ويظهر بعمله ويحصل بسعيه كالعبادة والصدقة ، وإصلاح الأمة ، وسياسة الجمهور ، وحشد الجنود ، ورفع البنود ، ونظام الموازين ، وتعليم الناشئين ، فهل جهل ذلك المسكين أنه مخاوق ضعيف ، مركب من عناصر مقهورة ، مؤلف من أمشاج في ماء مهين ، وماذا عمل ؟ ان هو إلا آلة مسخرة ، وطينة مخيرة ، وصورة مجندرة ، وصنعة مدبرة ، وآية مصغرة ، وعظة وتذكرة ، فهاجر من جفره ، أو شاكر من برره .

وأما ما لا عمل له فيه فان كان جبالاً أوقوة أو نسباً أو ميراثاً من كل ما لا اختيار له في حصوله ، ولا سبب أوصله إليه فان الأمر أهون ، والمعجب إذن أشدّ جهالة ، وأخسر صفقة ، وأقلّ فكراً ، وأبعد ضلالاً ، وأسوأ حالاً . ومن أجهل ممن يحب بما لم يفعل ، وإن المعجب مغترّ بنفسه ، آمن زوال نعمته حيث لا أمان ، قتل الانسان ما أجهله . واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهي : الجبال ، القدرة ، العلم ، النسب ، الميراث ، الملك .

العلاج

التأمل ، والتذكر ، والتدبر ، وادّكار أن الموت شامل ، والاعتبار بمن مضى من الأمم ، فأخلوا الديار فصارت قاعاً صاففاً بعد العزّ والبأس ، ورسوخ الدولة ، وتنام الزينة .

الأحاديث ووازع الدين

قال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذبذبوا لحثيت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العجب » وقيل لعائشة رضي الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قالت اذا ظنّ أنه محسن . وقال الله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تفتح عنكم شيئا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشح متبع ، وعجاب المرء بنفسه » .

الكبر

الكبر أن يرى الانسان نفسه فوق غيرها بعلم حصله ، أو عمل أتقنه ، أو أصل نسب له ، أو جمال أطغاه ، أو مال ألهاه ، أو قوة أعزّته ، أو عشيرة نصرته . فهذه أسباب تدعو أولاً للعجب بنفسه ، واستحسانه صفته والفرح بما يراه أهلاً له من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحقد ملاً فؤاده ، أو لحسد أغضبه ، أو لرياء اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعو للكبرياء ، أما العجب فقد تقدّم ذكره ، وسبق شرحه .

أما من حقد على من آذاه ، وأضر له السوء ، واستبطن له الشر ، فانه يتكبر عليه ويزدريه ، وهكذا الحاسد على النعمة ، الفاقد للفضيلة ، والمرأى الذي يطلب الرفعة والسودد ، انه لا يقبل العلم أمام الجالس ، ولا يقرّ بالفضيلة للحسودين ، ولا يسمع النصيحة في ملامن العالمين .

العلاج

فليعالج المتكبر نفسه بالعلم والفهم ، وليتذكر أنه مكوّن ضعيف مهزوب ، وليواظب على أعمال المتواضعين وليحذر التنزل والمذلة والابتذال ، فإذا تقدّم لأخوانه وقرنائه فسوى نعالهم وأكرم مشواهم ، وسارّهم وسرّهم وغدا إلى باب الدار معهم ، فهو المتواضع وإن تنزل إلى أسفل الدرجات ، وعامل من تحت درجته معاملة أخوانه أو أخذ يمتلق ، أو يتذلل ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأضحى من المتبذلين ، فليعالج المتبذل نفسه برفعها ، وينف المتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل ، والحقد المسكين .

ذم الكبر وإيضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها في الجوارح ، وثمرتها في الأعمال ، كأن يترفع عن محاسبة نظيره ، ويأنف من مخالطته ، ولا يساويه في مجالسه ، وإذا ناظره غف ، وإن كلمه أنف ، ويتقدّم عليه إن ماشاه ، ولا يقبل منه نصيحته إن هداه ، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد ، وبلية الوعاظ والعلماء ، فضلا عن العامة الجهلاء ، وهو أعظم المحن ، وأكبر البلايا والاحن ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » . والإنسان ظالم جهول قد يسوقه الغرور للمتكبر على الله فيقول « أنا ربكم الأعلى » وقد يرى نفسه أحق بالرسالة ، وأولى بالشفاعة ، فيقول : ولم أرسل المرسلون ؟ واصطفي النبيون ، وضع من تلك النعمة فلا يتبع نبيا ، ولا يرى له رسولا ، وقسدي يرى الناس دونه خلا ، والعامة حيرا ، فيعظم خطيئته ، ويفحش ذنبه .

الفرق بين العجب والكبر

المعجب يرى مدلا بنفسه ، فرحا بسمته ، وإن كان غيره أسمى في نظره ، وأعظم في معتقده ، والمتكبر أعظم جرما ، وأكبر إثما ، فهو يريد أن يرى غيره دونه ، وهو القاهر فوقهم ، وقد ذمه الله تعالى فقال سبحانه « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل النجى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . وقال : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يابح الجبل في سم الحياط وكذلك نجزي المجرمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني آمركما بأثنتين وأنها كما عن اثنتين : أنها كما عن الشرك والكبر ، وأمركما بالإله إلا الله فإن السموات والأرض ومن فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت للإله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرض وما فيهن كانت حلقة فوضعت فيها للإله إلا الله لقصمتها ، ثم أمركما بسبحان الله وبحمده فأنها صلاة كل شيء » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطرا » . وروى عنه عليه السلام أنه بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله : يا ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب جهن ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأني أوان الصدقة اه

ولتقتصر من كتابنا « جوهر التقوى » في علم الأخلاق على هذا المقدار ، ونرجي باقيها إلى تفسير ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وبهذا انتهى المقام الثاني الذي هو في غوائل النفس من المقالة الثانية في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

المقالة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية إيقاظا لنا حتى نرجع مجدنا بهيئة أشرف مما كان عليه آباؤنا العظام ، ولأكتف في هذا المقال بما كتبه العلامة (لوثر وب استودارد) العالم الاجتماعي الأميركي المترجم إلى العربية في الجزء الأول من كتابه المسمى « حاضر العالم الاسلامي » إذ ذكر السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا ، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة إيران تزيديان استيقاظ العالم الاسلامي ، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فزاد المسلمون استيقاظا ، وكيف اتحد الترك والعرب في قتال الطليان في طرابلس وهكذا اشتد غليان العالم الاسلامي ، وقد تقدم هذا كله في سورة الفتح من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى جزأى صفحة ١٦٤ ولنقتصر من الكتاب على ما لم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه : —

وإذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية . إن السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد اثرة في الشرق ، فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي يتسكع في أجياله الوسطى ، فكانت الشريعة الاسلامية وما فيها من تحريم الربا صريحة حتى الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالية ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة إنما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد ، زد على هذا أن التراحم الغربي جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، إذ أن فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان يماشيه الفتح الاقتصادي جنباً إلى جنب ، وربما كان هذا الأخير أهم نظاماً وأكمل عدة فبات كل صقع شرقي في طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رءوس الأموال الغربية متدفقة لا تحصى ، تسرب في البسلاذ وتنتشر بأخضع الصور وألقى الأساليب كالقروض والامتيازات التي من شأنها متى ما عقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية ، فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي النام كان باعثا للشرقيين على العداء والمقاومة ، فاستدعى العالم الاسلامي غضبان ، فهاله مارآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأتى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقد رحو له إزاء حول الغرب الجبار العاتى فأدرك شققة البعد ، فطهق للعجز بجدة في سبيل التحرر الاقتصادي جده في سبيل التحرر السياسي من رقب النذل والاستعباد ، ثم أنشأ حكماء المسلمين وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد ، يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامي رقىا اقتصاديا جليلا ، ففسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سدا في وجه النهضة ، ولالتحول دون مجراها ، فنتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد : ناهجا منهجا اقتصاديا غريبا ، ولكنه حتى اليوم ما برح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالأندلس ومصر والجزائر ، أما متجهه فواحد

في كل قطر إسلامي ، وسنفضل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي ، فليجب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الإسلامية ومنزلته فيها ، وهذا الشأن هو عظيم جداً ، لأن أولئك وحدة وأهمل صلة ظهرت في المسلمين حتى اليوم إنما هي الوحدة الاقتصادية بلاسراء ، ولا يبرز عن البال أن الروابط الدينية ، والعلاقات الطائفية التمهيدية ، التي تجتمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد في توائمي المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم في المذهب الإسلامي أمة واحدة بعضها يفار على بعض ، وجانب يساند آخر ، دج ما هو هناك من الأسباب القوية للنقل والتواصل ، المسيلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم ، واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، أبناؤه مقادير ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة والسماسرة ، حتى وأرباب المصانع والمعامل ، من لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا ، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوافق ، تربط بعضهم ببعض الروابط الإسلامية ، ويحملهم التزامهم القوي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للسياسة المسلمين ، إذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الإسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وئام ، فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضي بهم إلى الانقسام لعللة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا بالسلحة ، أو يؤدي بهم إلى المجازفة بالنفوس والسماء والأموال ، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدوا السكامة ، يبحثون في سبيل الحياة الاقتصادية الإسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يجبر الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هي ثروة المسلمين للمسلمين وثروات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها ، وهي نفص اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية ، وفوق جميع هذا هي تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجوارك ، المقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الإسلامية الاقتصادية وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الإسلامي ، السيطرة التي تتسكك عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب . وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الرابعة في جوهرتين اثنتين

الجوهرة الأولى فيما كتبه لأمم الغرب في مجلة المعرفة في عددها الرابع الصادر في أغسطس سنة ١٩٣٩ وهذا نصه : —

صوت صارخ من الشرق إلى الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملكنا فكان العفو منا سجيحة ✕ فلما ملكناكم سال بالدم أبطح
فهذا وذاكم فعلنا وفعلكم ✕ وكل إناء بالذي فيه ينضح

الانسان نوع واحد من أب وأم فأصبح شهوبا وقبائل فتكاثروا أنفاذا وعشائر لآزداد السعادة ويتم
الهناء في الأمم والأفراد . انتشروا في الأرض شرقا وغربا ، فسكان شريقون وغربيون ، الشرق أب والغرب
ابنه ، والأب يصطف على ابنه بدافع المحبة والولاء ، إن الديانات كلها شرقية ففيها البوذية والكونفوشيوسية
واليهودية والنصرانية والاسلام ، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسنة والرومان من قبل وبعد ميلاد
المسيح واقتسموا السلطة هم والفرس في الشرق الأدنى وهم غاصبون .

هناك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز : لئن رميتني بحجر لأرمينك بالحر ، لا تخرجن من دار أبيك إلا
بعد أن أهديك الصراط المستقيم ، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام : اعبدوا الله أيها الأبناء وافشوا
في الأرض السلام ، لاسلح ، لاقتال ، لاجدال ، كونوا عباد الله اخوانا .

وهل سبب ذلك إلا انه رأى كم تعبدون غير الله ، فاليونان والرومان كانوا يعبدون التوكواب والأصنام
والفونسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين ، والإنجليز كانوا يسجدون للصخور والحجارة ولنباع
المياه ، فأما استوريا (الخمسة) والبروسية والروسيا واسبانيا والبرتغال وهولاندا والمانرك والسويد والنرويج
وسويسره فدينهم القديم دين من ذكرناهم أولا حذوا القذة بالقذة ، فلما رأى كم على هذه الحال دعاكم إلى
عبادة الله وإلى السلام ، فدخلتم في الدين المسيحي أفواجا ، ففرنسا سنة ٤٩٦ م وإيطاليا سنة ٥٥٠ م
وانسكترا سنة ٥٩٦ م ويقرب من هؤلاء في التاريخ النمساويون والأسبانيون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا
ماعداد دولة الروسيا فانها لم تدخل إلا في نحو القرن العاشر الميلادي ، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تعملوا بها
علمه المسيح من السلام العام إذ بقيتم في الشرق وازداد ظلم الريمان للشرقيين ، فإذا كان ؟ ظهرني عربي
في صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح : « افشوا السلام ، وأدعوا الصيام ، وصالوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا
جنة ربكم بسلام » ودعاكم إلى الاسلام والسلام العام واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة لأن المسيح
قبله لم يخضد من شوكتكم ولم تعملوا بنصيحته في السلام فتتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لكم
معلمون ، لم يحض على امتشاق الحسام الاسلامي عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها وتركتم الشرق
لأهله ، إذن الاسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية لسلام أهل الأرض ، فسلام المسيح عقائد ، وسلام الاسلام
عقائد وأعمال .

هنالك أخذ النور يمتد في الشرق ، والظلام يعم في الغرب ، واستبد البابوية الرومانيون بكم ، وقتلوا ،
وأحرقوا بالنار ألوفاً ، وأذلوا ملوككم ، وأذاقوكم سوء العذاب ، قال المسيح لكم : « الطوبى للرحماء فانهم
يرجون ، الطوبى لاصافي السلام فانهم أحباب الله يدعون » خفاقم قوله ، ففي سنة ٧٨٢ قبض شارلمان
الكبير بإيعاز الخبر الروماني على أربعة آلاف ساكسوني ونيف في مدينة واردن ، وضرب أعناقهم في يوم
واحد ، لأنهم أبوا قبول العماد ، وفي سنة ١٠٠٧ أحرق في مدينة أورايما جملة (أرانيكيين) وهزم أحياء ،
وتبع ذلك كثير من القتل والاحراق في سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عمّ الظلم والاهلاك والتدمير ،
وأسس ديوان التفتيش في سنة ١١٨٤ وصادق عليه البابا (انيوشفسيسوس الثالث) وثبته البابا غريغوريوس
وتسلم ماركو مينيكوس وربهانه ادارته ، وسودوا صفحات التاريخ باحراق وقتل الملايين .

هنالك ساقتم العناية الإلهية إلى الشرق كما ساقتمكم في المرة الأولى التي فيها اعتنقتم دين المسيح ،
لأن في الشرق نورا اسلاميا ، ومتى أشرق على ربوعكم قل ذلك الظلام ، ان الله هو الذي رحكم بانبعث
نفوس رجال الدين إلى اغرائكم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة ، فأثرتم الحروب
الصليبية ، ودام الصراع نحو مئتي سنة ، فرجعتم تحملون في صدوركم نور العلم والاصلاح والحرية والاخاء بسبب
معاشرة أهل الاسلام ، فلم تملكوا الأماكن المقدسة ولا بلاد الشرق ولكن ملكتم ناصية السيادة وانتزعتوها

من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرقيين فكانت الهزيمة لأولئك البازرات الذين هم في الحقيقة الجائون على الدين ومبغية لا الشرقيين ، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلاسجة وأراد الله انتقام سلطتهم بالعدل « إن ربى على صراط مستقيم » .

فظهر فيكم (لوتر) المصلح العظيم (وفولتير روسو) وأضرابهم إلا بعد اطلاعكم على كتب منقولة عن تعاليم الاسلام « وأمرهم شورى بينهم » .

ألم يقل (سايو الفرنسي) في كتابه المسحوق (تاريخ العرب) : « إن اللاتينيين استمدوا العلوم الفلكية الأولية من العرب فإن (جوربرت) الذي كان بابا روما الملقب بساوتر الثاني أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الإفريج العلوم الرياضية التي كتبها من عرب اسبانيا ، وادهيلارد الانكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من اسبانيا ومصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية . وهكذا سارت أم أوروبا مثل الاستاذ (رودلف) من أهالي بروجس الباحقية إذ ترجم مسائل بطليموس في الفلك ، وبتليون البولندي ترجم كتاب الخازن في علم الضوء والنظر ، وهكذا كثير وكثير جدا .

هاأنتم الآن اليوم رجعت مرة ثالثة إلى الشرق بلاسجة لإلتهتضام حقوقه وإذلال الشرقيين ، وما مثلكم في ذلك إلا كمثل النمل إذ تحارب جوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كبد المغلوبين ، فينقرض الغالبون لسكسهم على مدى الزمان ، فأنتم في ذلك كالنمل أو كدولة الرومان .

هانحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا وبينكم في أيامنا هذه فألفينا عهدنا مع الضعفاء محفوظا فأما أنتم فلا عهد لكم مع الضعفاء ، فهاكم أيها الاخوة ماجاء في كتاب أشهر مشاهير الاسلام تحت عنوان « جندي سابور وأمان عبد أمضاء جيش المسلمين » وهذا نصه : —

روى الطبري أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندي سابور ورزبرن عبد الله بن كليب فاصرمهم فأقاموا عليها ينادونهم ويراحونهم القتال فلم يفجأهم يوما إلا بأبواب البلد فتفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبت أهلها خمار المسامون من ذلك وأرسلوا فسألوههم : أن مالكم ؟ قالوا زميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنهونا ، فقال المسامون ما فعلنا ، فقال أهل جندي سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسامون فيما بينهم ؟ فإذا عبد يدعي مكنا كان أصله منها هو الذي كتب لهم فقالوا انا لانعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلنا ولم نبدل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : إن الله عظيم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ما دتم في شك ، جبروهم وفوا لهم ، وفروا لهم وانصروا عنهم » اهـ

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين ، فهل فعلتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى ؟ وقد قلتم : ساعدونا ، ونحن ما أثرناها إلا لتحرير المستعبدين ، فهاكم ما قلته العلامة الطائر الصيت (لوتروب استودارد) الأمريكي في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » وهذا نصه : —

« مما لامشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق الحرج والساعة العصبية ، إذ التفت الشرق في سنة ١٩١٤ فرأى الأمم الأوروبية التي كانت مبرحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية قد انبرت تتناحر في سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتناحر مدفعة بعضها بعضا نحو الجزيرة الهائلة والنيران الجهنمية ، ورأى وحدة الجيل الأبيض قد عصفت فيها ريج المطامع السياسية ، والنقائص الأدبية فزعزعتها وهدمتها تهديما ، فوقفت كل أمة من الأخرى وبينهما غورسجيق ، وهوة بمسدة ، ولم يكن للأمم الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الجائحة

الكبرى سوى ذلك البيان الحزى نقش ساسة الحلفاء حروفه في أعلام دولهم ورايات جيوشهم ، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ، ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الأسرار تنفض ، فذاع للأمة كافة أنه في الحين الذى كان فيه أقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطيرون إلى أنحاء العالم قاطبة سلبهم الحرية المهربة عن الغاية التى فى سبيلها أثرت دولهم الانغماس فى الحرب الزبون وهى تحرير الشعوب المستعبدة ، وإطلاق الأسر للأنتم المستضفة فى اختيار سكرها ، وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الأقطاب الساسة فى الوقت عينه يتفاوضون ويمقدون ويبررون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الأدنى ، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع السكابي ، تلك الروح الاستعمارية التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الإنسان ، ولما كان انعقاد مؤتمر الصلح الذى ولى الحرب أتى بطائفة تلك المعاهدات لابتلاك الحطاب الحرية التى أذاعها الأقطاب والساسة وجهات أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤداهما (حبر على ورق) إخضاع الشرق الأدنى والأوسط إخضاعا تاما ، واقتيادهما بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظهها » انتهى ما جاء فى الكتاب المذكور فى صفحة ٤٢ و ٤٣

أليس هذا نار يخنا ونار يخكم وفينا بهمد عبد لنا ، ولم نقوا بههود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الانسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الاخوة الغربيون : الدهر قلب « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، الشرق هو الشرق ، وقديما هجمت عليكم أمم من قبل التاريخ المسيحى فأهلكوا الحرث والنسل ، ثم أعادوا السكره منذ نحو سبع قرون ولا تزال أعقاب التتار فى بلاد النمسا إلى الآن ، وهامهم التتار المسلمون فى قلب روسيا المسيحية ، أليس هؤلاء أمما شرعية سطت على أوروبا !

حذار حذار أيها الغربيون ، إن فلاسفتكم وأكابر علمائكم يعامون أن عملكم عاقبته خسرة لكم ميين ولكنكم لا تسمعون الناصحين ، لأن العامة يسوقون نوابكم إلى مغرولة الشهوات الزائلة ، وأعينهم فى غطاء والجهل يطمس على أبصارهم فلا يدركون سرّ العواقب ، فهمل ترضون أيها السؤاس أن تكونوا أسرى العامة تابعين لأهوائهم ، ألساء ما تفعلون .

شرّ الشرق أبدى ناجذيه لكم ، آن وقت الحساب ، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب فأسرع الزرع فى نمائه ، احذروا غضبة الشرقيين ، اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان ومع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أدلا تعقلون ؟ أفلا تظنون !

فيا ليت شعري من ذا الذى يصد ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ، ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أو الهواء عن مسراه ؟ إذا خطر لكم ذلك فأهون به خاطرا ، وما أضلّ هواه .

أفلا تسمعون صوتا ثالثا : أفلا تسمعون اليوم أيها الاخوة صوت رجل شرقيّ وهو كاتب هذه السطور ، يقول لكم قولاً بهد الدينين السابقين (المسيحية والاسلام) فلعلكم لما اتبعتم الأول بعد صدوره بخمس قرون وانفقتم بتعاليم الثاين فى حرّيتكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرون تضارعها فى الهدم تسمعون هذا عند صدوره بلا تأخير لأنكم اليوم علماء دارسون معلمون ، وليس كتابنا بل هو كتاب جهل سياسته على العاوم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية . ها هو ذا كتاب «أين الانسان» نشرته منذ ٣٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وبينت فيه قصور الانسان ، وقرّظته علماءكم فى ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقالوا هذا هو الصالح لرقى نوع الانسان ، إذ يجعل الأمم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون بها بالحرية والمساواة والاخاء ، نحن أم الشرق الأدنى عموما وسط بين أوروبا والشرق الأقصى فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة السلام والمحبة والاخلاص ، نحن الآن نطالب السلام . وأنا بلسان ثلاث مئة وخمسين مليوناً من المسلمين أطلب السلام فهل أتم مشتهون ؟ انتهى ما كتبتة فى مجلة المعرفة وبهذا تم الكلام على الجوهر الأوى

الجوهرة الثانية : وهي خاتمة المقالة الرابعة

في ذكر سر من أسرار آية : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

وقبائل لتعارفوا إِنْ أكرمكم عند الله اتقاكم »

وهي من عجائب القرآن ومعجزاته في هذا الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين .

(أما بعد) فيأيها المسلمون : هل أناكم نبأ معجزات القرآن الحكيمية ، وعجائبها السياسية ، وحلها الهندسية ، وحلاها الجوهريّة ، وعقودها الدريّة ، وحكمها القدسيّة ، وأنوارها البهيّة ، وأسرارها الربانية ، وعلاؤها اللدنيّة ، وآياتها العبقريّة ، وآثارها الجليلة .

أحدثكم أيها الاخوان حديثا انه لو تعلمون عظيم ، أحدثكم عن سرّ القرآن ، ونور العرفان ، وبرهان الزمان ، وشرف الانسان ، وجمال الدين ، وفضل رب العالمين . بماذا أحدثكم ؟ أحدثكم عن نبأ السياسة الشرقية والغربية ، في الآيات القرآنية ، سيقول قائل ما هذا التشويق ؟ ولهم هذا التعميق ؟ قل وأوجز ، واقتصر وانجز . فأقول :

لقد خطر لي خاطر منذ عشرين سنة ، إذ قرأت في إحدى الجرائد أن انكليترا لما رأت أن ذكورها يقاوتن عن اناثها في كل ألف نفس ١٥ أي تزيد النساء عن الذكور ١٥ في كل ألف ، وانهم ينادون بالويل والثبور ، ويقولون : لمن نكل أمر هؤلاء النسوة ؟ وذلك في ناديهم الأكبر المسمى (البرلمان) .

فلما سمعت ذلك عجب كل العجب ! وفكرت في أمر الانسان والحيوان ، فوجدت حقا أن النسبة محفوظة في كل أمة من أمم الأرض ، وفي كل حيوان ، وفي كل قرية ، فهالني الأمر جدا ، وأخذني العجب كل مأخذ ، وقلت في نفسي : ان عناية الخالق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الانسان والحيوان ، وراعت النسبة بين الذكور والاناث ، ولو أن أهل مصر ، وأهل سوريا مثلا ، لم يولد لهم اناث أود كور لمدة ثلاثين سنة مثلا لانقرضت الأمة انقراضا تاما ، إذ لا يجد الذكور لهم اناثا يلدون لهم . ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة ، أي اني وجدت في كل قرية وبلدة ومصر قد تساوى تقريبا ذكورها واناثها ، ولم يذر الله قرية ولا أمة من هذه المساواة ، لافرق بين المتوحشين والمتمدنين ، ثم نظرت في الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الاناث أو الذكور من البقر في بلدة حتى يحتاج الذكور أو الاناث من بلدة أن يذهبوا إلى أخرى ، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير منقوصة . ثم اني بعد ذلك اطلعت على هذا الاحصاء فأيد قولي وهو :

(١) إن القارّة التي يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هي أوروبا فان نسبتهم إليهم كنسبة خمس إلى أربع .

(٢) وأن نسبة الرجال إلى النساء في آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣ وفي افريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٦٨ وفي استراليا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٨٢٢

هذا الاحصاء ربما كان تقريبا واسكنه على كل حال أيد نظريتي . هناك فكرت في أمر آخر :

الصناعات والعلوم

فقلت : هاأنذا أنظر فأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكّاء ، وفيها صنّاع ، وفيها عمال ، يظهر لي أن العقول لما خلقت روعيت فيها النسبة ، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انتشر العلم بينهم أقلهم مفكرون للمجموع وأكثرهم لأعمال خاصة ، أو علوم تناسبهم ، فهالني الأمر أيضا ، وقلت : يظهر أن الحكمة العامة كما راعت

النسبة بين الذكور والاناث بالمساواة راعت النسبة في أعمال الحياة وعلموها على مقتضى الحاجة كالمعادن من ذهب وحديد وفضة ، ثم هذه صارت عقيدة عنسدى ، قلت : إذن هذا الانسان ظالم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيما خافى له .

الأرض واستعدادها

ثم نظرت الى الأرض التى نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد ، ففي بلادنا نزرع القطن وبلاد الانجليز لاتصلح له ، وهم محتاجون لصنع قطننا ، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية ، فتتوعدت خواص الأرض وخواص العقول ، فأيقنت أن الحكمة عامة ، وأن الانسانية طفلة ، وأنه سيأتى يوم يعرف الناس هذه النظرية ويستخروا كل عقل فيما خلق له كما يستعملون كل أرض فيما خلقت له ، ومستحيل أن يسعد الناس على الأرض إلا اذا فعلوا ذلك أى شغلوا كل العقول في جميع الأرض ، فالأرض عروس ازيئت للناس وهى مخبوءة عنهم حتى يهيئوا لها جميع العقول في الشرق والغرب ، ذلك هو مهرها الذى ينالون به ثمراتها ، ثبتت هذه العقيدة عندى .

نظرتى في الأمم

ثم نظرت في حال الأمم فوجدتهم في الشرق والغرب جميعا يجهلون هذه الحقيقة ، ومن عرفها منهم لا كماه بلسانه ، وقلبه بالظلم والغش مشغول ، ونظرت في سياسات الأمم شرقيها وغربيها فما نوع الانسان إلا أشبه بالذئاب والفئور والصقور ، كل لكل راصد ، وله محاب .

تأليف « أين الانسان »

هنالك ألفت كتاب « أين الانسان » وذكرت فيه ان الله يعاقب الأمم على جهاها ولا بد من حرب يجتمع فيه أهل الشرق وأهل الغرب ، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١ م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، ولقد كان عجبى عظيما حينما اطلعت على تقريرا قرظته العلامة الاستاذ (سائتلايه الطلياني) من فلاسفة ايطاليا وحكامهم ، فقد لخصه في مجلة بلقثهم التى نشرها في أوروبا ، هكذا ورد ذكر هذا الكتاب في تأليف العلامة (كراديفو) الفرنسى في هذه السنة (١٩٢٦ م) وسأذكر لك كلامهما قريبا هنا ، فالكتاب إذن ظهر منذ ١٧ سنة وتأليف التفسير لم يكن بطريق جدى إلا في هذه السنين ، وقد أتمته منذ سنة ونصف وهأنذا الآن أى في أوائل سنة ١٩٢٧ م وقدم للطبعة ، فانظر ماذا حصل :

توجهت منذ أيام إلى ناحية المرج (كما تقدم في سورة الانفال) وقابلنى عالم بعلم الزراعة ، وأراني حشرة صغيرة تملاك الأشجار ، فإذا جرى ؟ فكرت في أمر الحشرة ، وأن انائها قد تلد بفسير ذكور ، وانها أشبه بالنار اذا شبت في بيت أحرقت بقية البيوت ، فهى وجميع الأمراض العامة والطاعون وأمناها اتخذت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حقل إلى حقل ، ومن أمة إلى أمة ، هنالك تفكرت في قوله تعالى : « وأصلحوا ذات بينكم » في سورة الأنفال ، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين وفي قوله تعالى هنا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

الذكورة والانوثة اتحدنا في أدنى الحيوان ، وفي أدنى النبات ، ثم أخذنا الافتراق الشخصى يظهر في الأصناف العالية فيهما ، فإذا جرى ؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعارف من جبال وأخلاق وآداب ، فأجتمعا وتزوجا وولدا ، هنالك رجعت إلى هذه الآية وتفكرت في كتاب « أين الانسان » فوجدته كله

معنى هذه الآية ، لأنها ابتدأت بالذكورة والانوثة ، وهى هى التى عليها بنيت كتاب ﴿أين الانسان﴾ ، هنالك أخذنى العجب كل مأخذ ، وعلمت أن كتاب ﴿أين الانسان﴾ الذى أعجب به أهل أوربا وقالوا فى فرنسا وفى إيطاليا : انه ينعش العقول والأرواح هو سر هذه الآية ، فأنا هناك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » الخ ولكن هذه الآية صرحت بمبدأ الفسكرة ونهايتها ، فبدؤها الذكور والاناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبائل ، وقد قدمت لك انى قسمت جميع العلوم والصنائع على الذكور والاناث ، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه ، وعلى هذا تكون هذه الآية خطابا للأمم كلها بدليل انه قال : « يا أيها الناس » ولم يقل أيها المؤمنون ، وانما قال يا أيها الناس لأن ههنا الكلام صرجه العقل كما بينته لك ، فاني لما ألفت الكتاب لم أولفه باعتبار انه دين بل هو مبنى على العقل ، فهذه الآية وان كانت مقدسة فهى خطاب للعقل الانسانى العام ، إذن على المسلمين أن تقوم فيهم طائفة مفسدة تبحث على نحو ما بحثت فى كتابي ﴿أين الانسان﴾ وذلك بعد أن يساوا الأمم فى العلوم العصرية ، وهذه الطائفة يعمون ما ابتدأته فى كتاب ﴿أين الانسان﴾ ويخطبون الأمم بالعقل كما خاطبناهم ، وحينئذ نكون حقيقة : « خير أمة أخرجت للناس » فيكون فى العالم الإسلامى جماعتان : جماعة تصلح ذات البين بين المسلمين ، وجماعة حكماء مفكرون للتعارف مع الأمم وتسمى « جماعة التعارف » تيمنا بالقرآن ، ويفهمون الأمم أن التعارف مبنى على البحث العقلى الذى ابتدئ بالذكور والاناث ، هذا ما سنرجع لى فى هذه الأيام سطرته ليكون تذكرة لمن بعدنا . وهالك ما وعدتك من ذكر ما كتبه الاستاذ (سنتلانه) والبارون (كراديفو) وانما أكتب هذا لك هنا :

(١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوربى حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكماء فى أوروبا والصين كما أمر ربنا .

(٢) لنعلم أن أم الأرض مستعدة للتفاهم والعقل .

(٣) وأن القرآن حقيقة دين الفطرة .

(٤) وانى مع انه ليس بينى وبين أحد من أهل أوروبا معرفة ولا مخاطبة ، ولم تكن من المسلمين جماعة يشتدون أزرى ، بل كان الفضلاء من أهل بلادى يعرضون عنه اعراضا ، بل أكتب وحيدا فريدا لا ناصر لى إلا الله عز وجل الذى سبب الأسباب ، فطبع الكتاب ونشرت بلاقوة تنشرها إلا قوة الايمان واليقين بالنصر .

أقول : انى مع هذا أرى حكماء أوروبا وكبراءها يقرظون كتاب ﴿أين الانسان﴾ ويقرظون هذا التفسير أيضا ، فمن هذا تعلم أن للأمم الإسلامية مستقبلا باهرا ، فسيقرونها هذا التفسير وأمثاله ، ويقوم فيهم حكماء وعلماء ، ويبنون على ما أسسناه ، ويشيدون ما بنيناه ، ويجدون الأمر عليهم سهلا لطيفا ، إن الله أبدى ونصرنى نصرا مؤزرا ، وهذا النصر هو للأمم الإسلامية الذين سيقرونها هذا التفسير بعدى ويقرونها كتبى الأخرى ، فسيسبرون فى طريق الرقى وهم مجتهدون منصورون ، ولينبغى فيهم نابغون ، فلا بدئى بتقرير الاستاذ (سنتلانه) الذى ترجمه المرحوم مصطفى أفندى رياض من الطليانية إلى العربية وهالك نصه : « قال الاستاذ سنتلانه : ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فهو ذلك السكائب النحرير ، والمحرر الشهير ، ذلك الانسان ذوالعقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، وتلك الحركة ترمى إلى الاستقلال السياسى والاصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بهيد المدى مشوب بشيء من الابهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وبين ما جاء به القرآن الكريم ، وبقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التى

ازدانت بهدانة الاسلام في غابر الأيام ، فقد أراد المؤلف أن يفشر هذه الأفكار ويبيها بين قومه تارة بالخطابة وأخرى بالكتابة ، فما دَوَّن في هذا المعنى كتابان جديران بالذكر ، وهما « نظام العالم والأهم » و « منهضة الأمة وحياتها » وآخر ماصدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب « أين الانسان » ذلك الكتاب الحديث الذي انفشرمند عهد قريب ، وهو الذي أردنا التعريف عنه ، كتبته الشيخ أخيرا وقال فيه انه يقدمه لمؤتمر الأجناس العام الذي عقد بولندره في يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م كهدية لحكام الخافقين ، وعلماء المشرقين ، وفلاسفة المغربين ، وساسة العالم أجمع ، والحق يقال انه لمعمل انساني عظيم في قالب احتجاج سياسي ، ولم يك كتابه موجها إلى المصريين فقط بل للعالم كله ، لأن المسألة التي يريد حلها هي مسألة العالم بالاجماع . قال المؤلف : انه بينما كان في ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ ينظر إلى السماء ليكتشف مذهب هيلي الذي أئذ علماء الفلك الناس بهودته في هذا الزمن ، سمعت له سوانح للمقارنة بين نظام العالم الجليل ، ونظام الأهم الضئيل ، فرأى بونا شاسعا مؤلما ، فسأل نفسه : أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية محرومة من سكان مثلنا ؟ واذا كانت مصورة فكيف تكون حياة تلك الجماعات ؟ أهى أقل كمالا منا ؟ وكيف تكون حال الانسانية بعد ضرر خسة وسبهين عاما عند ما يعود المذهب لزيارتنا ، أهناك أمل أن يجد الناس أقل وحشية ، وأقل ظلما ، وأقل خشونة ، وأقل نفاقا ؟

وبينما كان في ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م تتجاذبه الأفكار وقع في نوم عميق إذ رأى نورا مشرقا وشابا جيل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذهب هيلي لرؤية الأرض ، فقال له : أين الانسان ؟ فأجابه المؤلف بتأثر وانفعال : نحن أولاء بنو آدم نوع الانسان (وهنا دار بينه وبين الروح حديث دام عدة أيام) قالت الروح : أظنون أنكم تتألفون الانسانية الحققة ؟ وبأى طريقة يستحل الانسان هذا الاسم ؟ ألم تقل في كتبك انه حتى الساعة لم ير إلا تقدم مادي في المدنية واسكن المدنية الحققة هي المؤسسة على الوجدان والصدقة والعدل والاحسان ، ألم تلم تذك زهورها نادرة عندكم ؟ فأجاب المؤلف : ان كان للانسانية مساوئ فان لها أيضا فضائل وان كانت أنتجت أشرا فلها أن تفتخر بمن أخرجتهم من عظماء الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة والحكماء الذين يشرفوننا ، فأجابت الروح : أظن أن ذلك يكفي ؟ أنت لا تدري حقيقة الانسان ، إن المادة قابلة لتطورات كثيرة مبتدئة من المعادن للانسان ، وهكذا الروح الانسانية لها قدرة غير متناهية من كالات يظهر أن الانسان يجهلها . لو عرف الانسان شرف طبيعته وتعهدها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل ، ولكنه ماذا عمل بفطرته وعقله ؟ فلم يرب بين الناس سوى المشاكسة والحاربة والظلم تحت ستار من النفاق والخيانة والقدر ، وهذه القوت هي السائدة على جماعة المتمدنين ، ولا ثبات ذلك نرجع إلى العلم ونسأل فلسفة (داروين) الذي رأى الأهم القوية تفك بالضعيفة وقبدها من الوجود ، حكم بأن لافلاح إلا بالغالبة وقوة السلاح ، وكذلك قيل : « إن الأهم التي تأكل اللحوم تقهر النباتيين » ، فكذبهم الأفعال وانتصرت اليابان في حربها مع الروس ، هكذا بينا الحيوانات التي من فصيلة واحدة تعيش براحة بعضها مع بعض فان الشعوب التي هي أكثر حضارة على العكس من ذلك روا بطها قائمة بالمظالم والوحشية الدائمة ، فأين الانسان ؟ ثم سألته الروح : لعلمكم تفخرون بالسكك الحديدية ، والتلغراف الذي لاسلاك له ، واتقان السلاح من كل نوع ، وهذه كلها لفائدة الأهم الغالبة فانها تنزع السلاح من الأهم المقهورة ، وتتخذها خدما وعبيدا ابتغاء مرضاة الشهوات المادية ولزيادة الزهو والمساوئ ، وعاليه تكون نتيجة تقدم المدنية هو اعطاء الحق للأقوى فتي يفهم الناس أنهم لم يعرفوا للآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه ؟ ومتى يفهمون أن لافرق بين استعداد وكفاءة انسان وانسان وجنس وآخر ؟ واننا كلنا من نوع واحد ومن طبيعة انسانية واحدة ؟ ألم يك أوروبى اليوم المتمدنين هو سلالة أولئك البرابرة التتر بين الذين خربوا ملك الرومان ؟ من يقدر أن يحزم

بأن زنبقى اليوم وهو ذلك الفقير المتوحش لا يكون له مستقبل باهر ؟ واعلم أن القضية الميتة القائلة بأن القوى يغلب الضعيف لا تنطبق على العصر الحاضر الذى يقضى بأن العقل فوق القوة ، هنا يخصص المستقبل فن واجب الانسانية المقدس أن تتحد حتى تحكم الطبيعة ، وتستخرج أسرارها ، وتوهل العقول لعصر جديد فى التاريخ حتى لا يصبح فيه أسياد وعبيد ، ولا يقال قاهرون ومقهورون ، ولتسكون الانسانية واحدة متحدة فى العلم والعمل والمنافع العامة ، فهلا كان من الأمم حولكم أولو بقية يهون عن الفساد فى الأرض بترك زراعتها ، وعن خراب العقول بتعمد إهمالها ، وفى كليهما ضرر عظيم على المجموع الانسانى ؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة المناوئة للضعيف واستعباد من لا يقوى على الدفاع . اعقلوا أيها الناس ! فأين الانسان ؟

عادت الروح للسؤال : ماذا تنفعه الشهامة التى وهبها الله له فهو أشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحا فضرب به نفسه لجهله استعماله ، وهنا عددت الروح كثيرا من افراط ومساوى الجمعية الانسانية كالزخرف والزينة والنفاق والكذب فى الحياة الاجتماعية ، وتسكمت على الخداع الذى ساد فى الشعوب السياسية ، أولئك الذين يعلنون بألسنتهم ما يخالف ضمائرهم تبعاً لنافعهم الذاتية ، هنا انقطعت المحادثة حيث اختفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر ، وتبع ذلك فصل فى الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التى أثرت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء ، وجمال المنظر ، وتغريد الأطياف ، وهلم جرا ، كل ذلك قاده لفكر واحد ، وهو : أوجد فى العالم جمال كثير ، ورونى بهى ، ونظام هكذا كامل ولا يشعر به الانسان وفى نفسه فضائل طبيعية وبدور يديهة من المحبة ، يظهر أن الانسان لا يعرف ذلك لأن شهواته وأمياله أسدلت نقاباً على عقله ، فذلك هو يجهل ذاته والعلم هو الذى ينهى فيه المحبة ويقر به لآخوانه ، فإذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذلك الرونى وكان الانسان ميالاً للخير ، أقول بأن أن يأتى اليوم الذى يرى فيه نفسه حكيماً مستنيراً بالعلم فيعرف ماله وما عليه ؟ فالיום يستثنى بعض العلماء كالعلامة (كمنت) الألماني و (هربرت سبنسر) الانكليزى وأمثالهم من يستخامون علومهم للتوفيق بين الشعوب ، وإزالة البغضاء من بينهم ، وسيأتى يوم تظهر فيه الانسانية بمظهر يختلف عن سابقه ، وبينما كان المؤلف يفكر فى ذلك عادت الروح إليه فى ليلة من يوليوسنة ١٩١٠ وعرضت عليه سياحة سماوية فتقبل بالارتياح هذه السياحة فى العالم السماوى إذ رآها فرصة جديدة لوصف عجائب السموات ، ومن ثم يهرج على الفكرة الأساسية ويقول : كيف يبعد الانسان الذى يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب عن المنظمات الاجتماعية ؟ فأجابه صرشه : ذلك لأن الانسان لم يترك طباعه البهيمية ولا أفكاره الأولى ، ثم أدى بهما المطاف إلى كوكب غير زحل ، كوكب لا يعرفه علماء الفلك ، فوجدوا فيه أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعة فى شكل حكومة واحدة باسم نادى الأمم العام وهو ذلك الحكم الذى تصبو إليه نفوس الناس ، ولكن شتان بين اليقظة والنم ، ذلك النادى هو مجلس مؤلف من أعضاء فوضت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية الشاسعة الأرجاء ، فشاهد من مزايا العدل وحسن النظام والصدق فى القول ما لا يحلم به أهل الأرض ، وقد سأله بعض أعضاء هذه الجمعية المباركة أن يصف لهم أحوال الانسان الاجتماعية ، فكانت إجابته سبباً لحيرتهم ودهشتهم ، حتى أنهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالانسان بل حكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية فى صورة الانسان ، وهنا انقطع الحلم ، وتبع ذلك فصل فى المذكرات لاحظ فيه المؤلف الشريعة السائدة فى العالم الطبيعى والكيمائى ، ونسبة المواد الثابتة التى تتكوّن منها الأجسام المختلفة ، والنسبة المعتدلة فى تعداد الاناث والذكور فى عالم النباتات والحيوان ، ثم فسرك قائلا : أمن الجائر أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى للأداة شرائع محكمة ، وأن العالم المعنوى الذى هو أرقى منها يتركه لحكم المصادفة ، وكيف انفصمت عرى الانسانية ، وقطعت تلك الرابطة التى نشاهدها فى العوالم السفلى ، اذا كان عضو واحد من الأسرة الانسانية ضعيفاً جاهلاً وحشياً فالأعضاء الأخر تتأثر به ، لأن الانسانية متضامنة

متحدة ، فالشعوب القوية التي تذل الضعيف تربي في نفوس أبنائها عادات البطش والظلم التي يكتسبها الغالبون فيتولد عنها نتائج سيئة لمستقبلهم الاجتماعي والسياسي ، وسيعاقب كل قريبا أو بعيدا على انتهاك حرمة القوانين الطبيعية ، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لا نتعلم ولا نتفكر ولا يكون منك جيوش ولا قواد ، نحن أعلم منك بما يلزم لحمايتك ومصلحتك ، وأنا عليك لسا هرون .

مفائدة السكيات والمدارس مادام السؤاس يقولون مالا يفعلون ، ويعلمون ذلك لشبانهم ، ويفتخرون بأن هذه سياسة ، فعلاّم السكيات ، اذا كان السؤاس يهدمون البناء ، أليس من العار أن العالم الذي حولنا من الأرض والسموات معظمه عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون ، فالجهل يفرق الناس والعلم يزيدهم محبة ، وكلما قلّ العلم قلّ الحب ، ولذلك ترى الحكماء أشدّ حبا للناس ، والجهال والكذّابون والسؤاس أقلّ حبا وأكثر طمعا وجهما للمال ، فعمادنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أبتريكا قال الفزالي : « البسلاهة خير من الفطانة البتراء ، فتبجح بدعوى المعرفة مع اننا لم نزد إلا ما قرأناه في كراسة المعلم وقبلناه بغير تحقيق ، ثم ندعى خدمة الانسانية والمدنية وفي الحقيقة نخدم أنفسنا ، ليس هناك أهم حكم عليها أن تعمس للأبد في الانحطاط ، وكما أن في عالم المعادن والنباتات نقل الأشياء الثمينة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية فترى الأذكى في سائر الأمم يتلون ، وأما الذين يمكن استخدامهم في الامور والأعمال العادية فهم دائما كسبرون » .

وعليه فلا يمكن أن يقال لأي جنس أنت محكوم عليك أن تبقى في مكانك بغير عروج ، فالحكم على أمة بالانحطاط جنانية عليها وعلى المجموع الانساني الذي يخسر بذلك عضوا عاما فرمناشأ فيها من العقول والآراء ما يعم بركانه السكون أجمع : فتلها والحالة هذه كمثل من يستعمل الذهب والفضة لعمل عجالات السكك الحديدية وفي ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤايف سنة الكرى فعادته الروح واستصعبته معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرغبون ولا يرهبون ، وبالشوق والحب يهللون ، وسمع الموسيقى ونغمات الآلات تشف الآذان مرحة بأعمال الحياة ، اذا شيخ جليل القدر ، وهو العالم الاحصائي في علم الأرض والمريخ قد بدأه بسؤال فقال : خبرني ماذا فعلتم بالانسانية ؟ وماذا ارتقيتم عن الحيوان ؟ فأجابه بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها ، فقال الشيخ : أنت تشرح الحيوان وما يحتاجه الجسد ، ولكن سألته عن الانسانية : فأى حكومة أسستم ولأى نقطة وصلت الصداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الانسانية ؟ فظفرك المؤايف يدافع عن الانسان بتلك الأساليب الخطائية المعروفة من حيث التضامن ، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الانسانية (بصرف النظر عن الفارق السطحي في اللون والعقيدة) وتكوين الحكومات وما أشبه ذلك . وقال : إنما تعاليمكم الناقصة المبتورة هي التي بتقاليلها في الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التي لم تقررها الطبيعة ، وقد استنتج الفيلسوف اليوناني (أبيقور) والعالم الطبيعي الانجليزي (دروين) بأن الأضعف لابد أن يكون طعمة للأقوى وقاسا نظام الانسان على هذا الحيوان فرجعا بالانسان الى مرتبة دنيسة تأبأها الفطرة ويدحضها العقل ، إلا أنكم يا بني آدم نوع واحد لا أنواع ، ولكم ناموس وقانون خاص لا تتعلونه ، فأتم كجسم واحد ونفس واحدة ، فلا يصح أن يعتدى بعضهم على بعض لأن ذلك مضر بمصالح الانسانية العام ، ألا تعلمون أن الانسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة ، فكما زاد العدد كثير المدد ، وبتسائر الأمم تتكاثر الخيرات ، وعلى هذا القياس لا يصح أن يقال ان الأمم القوية تكون أفيد للانسانية ، ولكن الأفيد لها ان كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يعيش لما يصلح له ، ويتبع الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعا للعدل والعلم والفضيلة ، أفما كان الأجدر بدل الانقسام أن تجتمع الأمم فتشكل منها ناديا عاما يتعهد بتحسين الجنس البشري ، انه ينقصنا كثير من العمل للحصول على ذلك ، فأى علاج يفيد

لاصلاح سوء النظام السائد ؟

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الاحصائي في علم الأرض ، فأجابه معيدا إليه كلمات الاستاذ (كنت) في علم تربية النفس : « العلاج اثنان علم وعدل ، فبهما يساس الملك ، وهما صنوان لايفترقان ، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ماأوجدته الطبيعة والانسانية ، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة ، فشكل منها يدور في فلك لايتعداه ، ولايطغى كبيرها على صغيرها ، وهي نظرية محسوسة دلت عليها العناية العالمة والجاذبية التي هي أساس الطبيعة البشرية ، ولتسكن كل أمة منكم كوكبا يجب الأعلى الأدنى ، فلايطغى بعضها على بعض ، ولتسكن الأمة الكبرى لأخواتها الصغيرة كالشمس للسيارات حولها تلقى عليها أشعة علمها ، لاينبغي منها جزاء ولاشكورا ، وليس هناك إلاطريق واحد للوصول إلى هذا الحل الانساني الأخوي المحبوب ، ألا وهو العلم ، ولتسكن في جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نموذتهم أطفالهم فضائل الحب العام وورزايا الحروب ، وبذلك تصل إلى الحل المرغوب ، ثم بين المؤلف طريقة التعليم التي يلقونها في الكوكب القريب من نبتون بالفعل الثامن عشر وهي مبنية على مثال الحب في نوعنا العالى الشريف الذي هو بمثابة الكهرباء لا تنور إلا بالفرك ، فالغناء والموسيقى والتأمل في جمال الطبيعة يثبت في الأطفال عادة اعتبار الانسانية كعائلة كبيرة وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون نافعون ، فيرى الانسان انه كائن مقدس ينفع أخاه ويعتبر حياته لا تنتهي عند ذاتها ، بل كدرسة تربية الأفراس والأزواج ، والمحرمات والمشتبهات ، والانسان فيها يستعد لمستقبل زاهر . وبالفصل التاسع عشر فصل محاسن الحكماء وضرب كثيرا من الأمثال الحسية للامور العقلية ، وكلها ترمى إلى مبدأ الكتاب الأصلي ، وهو مشروح في صفحة ١٩١ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ولولا ضيق المحلة وعدم امكان التامخيص استكنا أنينا على ترجمته إلى اللغة الطليانية بالحرف الواحد وبالصفحة ٢٠٥ نرى مظاهر روحانية للنفس ثم لوحة الحياة الانسانية بصفحة (٢٠٠-٢٠٤) مأخوذة من لوحة المريح وهو المسمى (لغز قابس) وهو في ذلك يرمى إلى مذهب السياسي في النظام الذي أشار إليه ، ويصعب جام غضبه على هام النفاق والوحشية والجماعات الجفسية المقول عنها متمدينة ، ويقول : ان الذهب والفضة لا يجديان نفعا ، ولا يفيان شيئا ، بل هما للبادلة في المنافع وانهما لا قيمة لهما اذا لم يضاف اليهما تنمية النفس والفضيلة ، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخارجية بحسب الفلسفة العامة تختلف ، فارة تكون للخير ، وتارة للشر تبعا للظروف ، فالتى للخير لا تكذب ولا تعتدى ومركزها الحق ونفس الانسان ، وفيها تكون سعادة الأمم جميعا فتعاون الأجناس بعضها مع بعض لفائدة المدنية العامة ، وسيصلها نوع الانسان في مستقبل الأزمان ، وبالفصل التتم عشرين خلاصة الكتاب بالصفحة ٢٢٥ في بيان استخراج السلام العام في الأمم من النواميس الطبيعية ، والنظامات الفلسفية ، والفطر الانسانية ، وقد سبقت الإشارة إليه ، ثم يلي ذلك فهرست ، وبالصفحة ٢٤٧ تحت عنوان « نعمة من موسيقى الكتاب » ضمنها الأسباب التي دعتة لتحريره ثم أوضح ما كان يخالج نفسه من آيات كتاب الله العزيز ، وهي هذه : « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (جزء ٢٥ - ٢١) . « وكل شيء عنده بمقدار » (جزء ١٣ - ٩) . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (جزء ٢ - ٢٣٣) . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (جزء ٢ - ٤٩) . وعليه فان هذه النسبة ، وهذه الشرائع ، وهذه العدالة كلها هي التي تحكم العالم الطبيعي بأجمعه كذرات الاكسوجين والايديروجين الثابتة التي تتكون الماء وتدخل في تركيب سائر المواد في العالم الطبيعي والكماوى ، وبمقابلة العالم النباتي بالعالم الحيواني معا ، وكذا بمقابلة العالم الحيواني بالعالم الانساني ترى الانسان يشاركهما في الغذاء والتناسل ، ويشارك الحيوان في الحركات الاختيارية والحواس والادراك والفرائز ولتسكن النبات والحيوان يولدان كاملين ، وكل منهما عنده من المبدأ جميع ما يلزم لأداء وظيفته الخاصة ،

فالمشكوكات تنزل الخيوط ، والنخلة تبني خيليتها بلا حاجة إلى مرشد ، أما الانسان فعلى العكس يحتاج للعلم فيقول انه وان كانت العقول واحدة ، فالاستعداد الشخصي مختلف ، فوظيفة العلم يجب ترجيحها لتنمية الأفعال الانسانية المختلفة ، ولكن التربية الحالية حائدة عن الصراط السوي ، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة بناسا بالسودان تجدهم أقوى أجساما ، وأصح أبدانا ، من المتمدنين كما قال منهم المستر (كارينتر) وترى قوة الأهل بالسودان عظيمة جدا كما ان بعض عوائلهم طاهرة لا تشوبها شائبة .

واذا قرأنا تاريخ الرومان مثلا نجد ما يدهش العقول ، فتراهم يفتخرون بفز الأرم وتدويع الممالك ، فالزبلة في التربية العلمية التي بثمرتها تغذى الأجسام تعطى العقول نماذج مشابهة لتلك التي عند الحيوانات المفترسة وهي التي تطفئ في الانسان قابلية التقدم التي هي هبة الطبيعة ، و بينا ترى الناس يعطفون على بعضهم بالقول تراهم يجهرون بامتداح القواد القاتلين كنباليون ، ويشرفون الكذوب من رجال السياسة ، فتى نرى كل طائفة فرحة بما لديها ، قانعة بما وصلت إليه ، وأن الشعور بالحبة شامل الجميع ، ولكن رغما من سائر الموانع نرى حركة في عالمنا الحاضر تدفع الانسانية للأمام ، فالحق كامن في النفوس يجب البحث عنه في الآفاق لظهوره للناس على سطح الكرة ، ومتى تجلت الانسانية بهذا المنظر الذي يشده المؤلف ، فهناك الوفاق والوثام ، الانسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أولها بأخرها ، فن معدن لا ينجو إلى نبات ينمو ويتوالد ويتدرج بالترتيب إلى حيوان يترقى فيصعد إلى أعلى درجاته من قرد وفيل وأمشاها فيصل الانسان إلى أعلاه وهو الذي يكتسب بالتدرج خصال السكائنات التي تماثله مضافا إليها خصاله وفيه بذور المحبة والرحمة كما قيل في « اخوان الصفاء » : -

« منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر (بوذا أو جوطامي) فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والعطف على كافة الكائنات الحية ، ولما ظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الانساني ، وكذلك الاسلام منع القتال في الأشهر الحرم وحرم الصيد في الحرم وقتل المحتجب به ، وأجمعوا أن يقولوا للناس : ارحموا ترجوا ، واعلموا أن للحيوان ادراكا وشعورا ، وانه يتألم كما تألمون ، وبشعر كما تشعرون ، فليأكل من تؤذوه ، وهناك أبناء كثيرة مأثورة عن علماء الانسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبارون هولباخ دلامتري وهلفيتيوس ولكنهم لم يقولوا على كبح جراح جهل واستبداد الانسان . وهاهي طريقة (داروين) خطت خطوة للوراء وهكسلي أوضح أن لافارق بين أدنى الانسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا ، بل المسافة في آخرهما أوسع مما في أولهما ، فظنوا أنهم وجدوا كنزا وأن الانسان الجاهل في مستوى الحيوان ، وانه يجوز للأمم القوية اهتمام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار أنهم أدنى منهم مقاما وانهم ماخلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وعبيدا مسخرين ، وختم الكتاب بخطاب حماسي للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والاستعباد ، ويتنسّموا رائحة الحرية التي ستنها لهم الطبيعة البشرية .

هذا كتاب الشيخ طنطاوي الذي أردنا أن نوسع له في مجلتنا ، وماهى بالعادة المتبعة لديها ، لأن ذلك الكتاب من الصحف العظيمة الدالة في الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية ، وليس لنا عليه ملاحظة إلا تجاهله بالنوق التاريخي وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتباك الشعوب ، وما يصادفه القراء من صعوبة حل نظرياته ، ومن البديهي كما قال المؤلف انه لا يمكن في أقل من عشر سنوات (ان أمكن) وضع أساس اصلاح اجتماعي عظيم مثل هذا ، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم فيعملون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ما هو الحب العام ، وينشرون تلك المبادئ السامية بالمدارس ويلاحظون تطبيقها ، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا باخلاص المؤلف وعلو مقاصده في هذا الكتاب مع فصاحته وبلاغته وتفوق معلوماته التي يندر وجودها في الكتاب واتساع دائرة فكره لا يسعنا إلا الدهش من عدم مراعاته ذوق

الأمم التي حوله ، وتسلسل تاريخها وهو ما لما أشارت إليه جرائدنا في العصر الحاضر » انتهى مقال الاستاذ سانتلانه الطلياني عن كتابي « أين الانسان » والحمد لله رب العالمين .

وهذا مقال الاستاذ البارون « كراديفو » وكلامه في « أين الانسان » وفي التفسير ، وهذا كانت نشرته جريدة الاهرام في أواخر سنة ١٩٢٩ وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب أين الانسان ، فذكرناهما معا لتفشرح صدور أهل العلم في الاسلام ، وليعلموا أن ديننا روح العالم الانساني ، وليشجعهم على العلم والنشر ، وهالك ما قال : -

(١) « مصر الحديثة ، روح الديانة المصرية ، جامعة الأزهر ، الشيخ محمد عبده . »

(٢) « النهضة الاسلامية للشيخ طنطاوي جوهرى . »

(٣) « نشأة مصر الحديثة في عهد محمد علي باشا . »

واننا سنبين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث وهي : -

(١) الميل الشديد الذي أظهره محمد علي باشا ورفاة بك إلى التقدم والاتفات إلى معارف ومواهب أهل أوروبا .

(٢) النهاية التي أظهرها رجال الدين ، وهما الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوي جوهرى في تمثيل الدين الاسلامي وتأثيره في النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث .

(٣) الوطنية الحديثة الوهاجة التي مثلها خير تمثيل كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

وهذا ما كتبه المؤلف فيما بين صفحة ٢٧٥ وصفحة ٢٨٤ في الجزء الخامس من كتاب أين الانسان بعد أن قرّظ الاستاذ تفسيره للقرآن الشريف أحسن تقرّظ : وقد تقدّم ذلك التقرير في أول المجلد السابع عشر من هذا التفسير فلانعيده هنا ، وقال بعد ذلك مانصه : -

« وقد نشر الشيخ طنطاوي كتاب « أين الانسان » المطبوع سنة ١٩١١ الذي قرّظه الاستاذ سانتلانه الطلياني الكبير في المجلة الشرقية بروما لسفنها الراهة ، والاستاذ كتب أخرى مثل : « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » ، وكتاب « أين الانسان » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ، فهو في هذا يشبه الفارابي من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الاسلوب والمنهج ، جمع بين دقة الفكر وجمال الاسلوب وغيرهما .

« الاستاذ في هذا الاسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل توماس موروس وكامبانيا ومعاصرنا هانوبنر .

« وصف الاستاذ الجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهر نقائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يسدى نصائح ، ويبدى حججا ، لالتئام الأمم ، واتحاد الدول ، بل يطلب مافوق ذلك ، وهو الحب والاخلاص العام والمثل الأعلى في ذلك : ويتمنى (كما تبنى الفارابي) أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام وتبادل المنافع : ولكن دولنا الآن في الأمم الأرضية وان كانت ارتقت ارتقاء ماديا لم يؤسس بنيانها إلا على تبادل الحرب ، وتخريب المدن ، وقطعة السلاح ، فأما تلك الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهي مغلوب عليها ، إن الأساس الذي بنت عليه الدول الآن هو ماسطره (داروين) الانجليزي ، وقفي على آثاره (نيتشه) الألماني من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء . إن المؤلف خيالا ساميا غزير المعنى واسعا ، فانه بينما كان ينظر إلى السماء في ليلة من ليالى ربيع سنة ١٩١٠ م وهو يبحث في مذنب هالي الذي يرجع مرة بعد أخرى ، أخذ يقول : يا ليت شعري : اذا كانت هذه السماء العسافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل

سكاتها مثقنا في الظلم والقتال ؟ أم هم في هناء وعدل كما نرى في نظم السموات ، وبينما هو مستغرق في تأملاته إذ وافته روح مشرفة النور ، بهية الطلعة ، في هيئة شاب جليل حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها بجولة في السموات العلاء ، فلبى طلبها بشوق عظيم ، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام : باستر سيدول سويدنبرج

إلى أن قال : « ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وتنبأ فيه بطريق حكيمى شعري بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى . إن مقصود هذا الكتاب كله ومافيه من المحاورات التصويرية هو نشر التعليم العام ، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يترج بمغانيمهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاما للأطفال في أول حياتهم ، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم ، كارهين للعرب ، ناظرين لجمال الطبيعة ، محترمين الجمعية الانسانية أى احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث في الشيوخ نشوة الشباب ، ويبعث في النفوس الانسانية غراما وولوعا ، ويقلب الطبائع الانسانية بما فيه من السحر الخلال ، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة ، قائمة النظام ، ويهيئ الأطفال في الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التي زارها والنصيحة التي سمعها من أولئك العلماء .

فثل هذا الكتاب المماوء حكمة وعلماء ، الفزير المادة ، السامى الفسكرة ، الناتج من تفكير عميق ، وبحث يقل نظيره يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالجلاسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو مفتخرة لمصر والاسلام . وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد في لندن في شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م » انتهى كلامه .

بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية

في سر قوله تعالى : « إن الله عليم خبير »

في ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق أول فبراير سنة ١٩٣٢ م بينما أنا بين اليقظة والنوم إذ خيل لى كأن فى الجور رجالا ولكنى لأرى أشخاصهم ، وهم يتساحسون ، وهذا ما رعبت من حديثهم . قال أحدهم : حدثنى رعاك الله ، لم يقول الله تعالى فى آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . عليم خبير ! مع أن العلم والخبر مترادفان ، فقال الآخر : إن كمال العلم الاحاطة بكل شىء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، وأوله وآخره ، وهذا على أنهم الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه . بحيث لا يتصور مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون استفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه ، فأما الخبير فهو الذى لا تعرب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجرى فى الملك والملكوت شىء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تسكن ، ولا تضطرب ، نفس ، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر .

فلما سمعت ذلك ، قلت فى نفسى : هذا هو الترادف بعينه ، فأين الجواب ؟ وهناك جاشت نفسى وهى لاتزال فى حال تشبه حال النوم ، وأخذت تسأل نفس السؤال وهما مترادفان ، فما كاد الخطر يخطر لى بذلك حتى سمعته يقول له : إن معنى العليم هو معنى الخبير ، ولكن هناك فرق ، لأن العلم إذا أضيف إلى الخنايا الباطنة سمي خبرة وسمى صاحبها خبيرا فهو أشبه بذكر الخاص بعد العام ، فهناك زاد اضطراب نفسى وقلت فى نفسى : يا سبحان الله ، ولم ذكر هذا الخاص ؟ ألكنة العلم لا المنفعة للمسلمين ذكر هذا الاسم هنا ،

فياليت شعري هذه الآية مذكورة في أمس نظام الدولة الإسلامية ، ونظامها يقتضي أن الناس جميعا مدبرون فيبقى تبارفهم ، وأرقامهم هم الذين اتقوا ، وهم الذين يذكرون ربهم فلا ينسون ، وإتباعونه فلا يعصونه ، وما كاد الخاطر يتم حتى سمعته يقول له : إن هذا سرّ قول علماء مصطلح الحديث ، أن الجرح مقدم على التعديل ، وهناك استيقظت وأنا في دهش من هذا المثال ! أولا هو يوافق ما أنا بصده ، ولكن الفائدة لم تتم ، فرجعت إلى معنى « عليم خير » في كتاب شرح أسماء الله الحسنى للغزالي رحمه الله ، فوجدت هذه المعاني بنصها وفصها ، فلم يبق عليّ إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتعديل ؟ وما نتائجها هنا في نظام الدول والممالك ؟ وهنا توجبت لبدع السكائنات ، وهو الذي علم تلك الأرواح العالية ، فأنا منه أقتبس المعرفة وهو معلم الأولين والآخرين ، ففتح عليّ وتذكرت ما ذكره ابن خلدون في المهدي المنتظر ، وتقدم ذلك في أول ﴿ سورة الحج ﴾ فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله نقل جميع أحاديث المهدي ، وأن في بعض رواياتها طعنا ، وإذا كان في الراوي تعديل وجرح فالجرح مقدم ، وعلى ذلك تكون أحاديث المهدي فيها ما فيها ، وهذه الأحاديث قامت شيع في الإسلام ودول ، ولكنها عفت آثارها ، ومن آثار هذه الأمم حسن بن الصباح الذي تقدم ذكره في ﴿ سورة الكهف ﴾ عند آية : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وكيف أصرا أتباعه بشرب الخشيش حتى سماهم المؤرخون حشاشين ، وكيف ظهر لهم هيئة مقدس معصوم ؟ وكيف اتقادوا له ، وكيف يكون الدرس الذي ألقاه على أتباعه في القرن الخامس الهجري هو نفسه الذي تلقاه محمد بن تومرت وهو معاصر للغزالي (الذي يقال أنه لاقاه) بعده حذوا القذة بالقذة ، فالأول كان في قلعة الموت بنامية أسبهان ، والثاني بالقرب الأقصى ببلاد السوس ، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه ، واعتقدوا فيه العصمة ، وكلاهما أمر فأطيع ، ومنعوا الناس العلم ، واستند كل منهما إلى أحاديث المهدي .

محادثات في أمر المهدي ومما سمعته لاسم الخبير المذكور في الآية ؟

وبيان أن سرّ القرآن يذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن ، وأن المسلمين في مستقبل الزمان سينتفعون بهذه المعاني الجميلة البديعة .

حضر صديق العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير . فقال : هذا مقام غريب ، الآية جاءت لهدم التفاضل بين الناس إلا بالتقوى ، ولكن الخبرة إلى الآن لم يظهر المقصود منها ؟ ذكرت المهدي ابن تومرت وذكر حسن بن الصباح ، ولكن لم تظهر المناسبة التامة بين هذا التاريخ وبين الآية ؟ فقلت يا صاح : أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التي وردت في المهدي جعلت أمره موكولا إلى النسب ، وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ماضوهم إليها من الاغراء والتحذير قد رفعوا أنفسهم فوق الأمم ، فاستكان المسلمون أي استكانة ، وخضعوا ، وتركوا العلوم بأمرهم ، وحقرها ، ولا تزال آثار تلك الظلمات إلى الآن .

اللهم أنقذ المسلمين من ظلم واسارهم ، اللهم أنجز وعده الذي وعدت أن نكون خير أمة أخرجت للناس اللهم أنت اللهم المعلم ، فأنقذ أمتنا من الجهالة العمياء . فقال : أي جهالة تريد ؟ فقلت : ألم تعلم مامرّ سابقا في هذه السورة وما قبلها من أخبار العباسيين والأمويين ، وأن العباسيين قاموا باسم المهديين ، وأن الأرض تملأ عدلا ونورا بعد ماملت ظلما وجورا ، هل برّوا بوعدهم الأمة ؟ ألم يقتل السفاح رجالات من الأمويين كانوا في ضيافته ؟ ألم ينشوا القبور ؟ وإذا كان العباسيون هم الذين جاء الحديث بأنهم يملئون الأرض عدلا ونورا ، مخلصين المسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت ، وظلموهم ، وظلموا المسلمين ، فكيف يقدون الأمويين في العسف والجور ويذكرون عليهم حتى أن محمد بن عبد الله الحسني الذي كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم قريبا بكى على أيامهم ، فأين العدل ، وأين النور ؟ وأين المهديّة التي جى بها

للمسلمين ؟ أليس ذلك لاستكانة النفوس ، وتقديم التعديل على الجرح . وجعل النسب في النبوة العليا ، وعدم الاكتراث بالتقوى ، ولا الفضائل الانسانية التي جاء بها نص الآية هنا ، وهي التي يفهمها تقام الدول وبجملها تذل ، جهلت الأمم الاسلامية آيات القرآن الصريحة ، وهاهنا القرآن يقول على رؤوس الأشهاد ، ان الفضل بالقوى ، وهاهي هذه قصة طالوت ﴿ في البقرة ﴾ ضربت الذكر صفحا عن النسب ، وجعلت الملك تابعا للعلم والقوة ، إذن جعل المهدي تبعا للنسب من أكبر مصائب الاسلام ، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى بين الناس ، وأخذ الدجل والبهتان والكذب الصراح ينتشر بين المسلمين ، وأخذ أولئك الرؤساء يشنون الجهالة بين أُمم الاسلام ، ويرجعون المرءوسين إليهم انكالا عليهم واستعاذة بهم غالبا ، وقد تقدم هذا وانحاز في آخر ﴿ سورة ابراهيم ﴾ عند ذكر أغما غموز بالهند ، وفي ﴿ سورة الكهف ﴾ كما تقدم ، وفي ﴿ سورة الشعراء ﴾ عند آية السحر ، وفي ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية الرؤساء والمرءوسين ، وفي مواضع أخرى فلانهم هنا ، وهذا كله إنما جاء من عدم البحث في تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثار التقليد الذي هذ مجد أمتنا الشايع ، أنا لست أنكر فضائل بعض المهديين في الاسلام ، ولست أنكر انني تعلمت في الأزهر الشريف الذي هو ثمرة من ثمرات المعز لدين الله الفاطمي ، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين ، ولكن المنفعة إنما جاءت بسبب العقول الكبيرة المودعة في هؤلاء كالمالك الذي أقامه محمد بن تومرت وأحاطه بالأحوال المستعبدة للشعب ، فبقى الملك أمدا ثم ذهب وهكذا الفاطميون ، ولقد عاش المسلمون زمنا ليس بالقصير قرنا وقرونا وهم يتفكرون ظلال الألفاظ ، فناموا عليها ، وعكفوا عكيفا أدى للنوم العميق ، لأن تعاليم المسلمين ومنهم أهل الأزهر الذين أنا منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ ، وتركزت جبال الطبيعة ، وجبال النجوم ، وجبال العقول ، وبهاج الحكمة ، فطمست النفوس ، وخسفت العقول ، وانكمشت الأمة في تلك القرون حتى وقفنا هذا .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد طال الكلام فليكن الهجوم على الموضوع ، لأنني أريد العلاقة بين ذكر التعاليم الخبير ، وبين ذكر تاريخ المهديين الذي ذكرته هنا ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أريد ماهو السر في ذلك ، وما علاقة هذه الأسماء الحسنی بهذا التاريخ ؟ وبمنظام أُمم الاسلام ، فأرجو أولا ذكر حديث واحد من الأحاديث وان كان قد تقدم في ﴿ سورة الحج ﴾ لندرس الجرح والتعديل فيه . ثانيا : اذكر نتيجة ذلك لبيان المقصود . فقلت : جاء في الجامع الصغير مانصه : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتبعوهم فإن فيهم ولي الله المهدي » (حم ك عن ثوبان) . وقال الشارح : اسمه محمد بن عبدالله يأتي قبيل عيسى أومعه ، وقد ملئت الأرض ظلما وجورا فيملؤها قسطا وعدلا . وقال بعد ذلك : قال الشيخ حديث صحيح .

فقال : فاذكر لي أولا ماهذه الرموز ؟ وما تلك الرموز التي تقدمت في تخريج أحاديث الاحياء المتقدمة في هذه السورة فاني لا أعرفها ، وثانيا : اذا كان الحديث صحيحا فكيف تتجاوزه ونقول إن أحاديث المهدي ضعيفة ؟ فقلت : الجواب عن الأول ان الرموز تبلغ ، قال فأرجو بيانها . فقلت ها هي ذه :

(خ) البخارى .	(ن) النسائي .
(م) مسلم .	(هـ) لابن ماجه .
(ق) قهما .	(ع) هؤلاء الأربعة .
(د) لأنى داود .	(س) لهم إلا ابن ماجه .
(ت) الترمذى .	(حم) لأحمد في مسنده .

(ع) لعبد الرزاق في المجامع .

(ع) لأبي يعلى في مسنده .

(قط) للدارقطني .

(فر) للديلمي في مسند الفردوس .

(حل) لأبي نعيم في الحلية .

(هب) للبيهقي في شعب الإيمان .

(هق) له في السنن .

(عد) لابن عدي في الكامل .

(عق) للعقيلي في الضعفاء .

(خط) للخطيب أحمد بن علي .

(عم) لابن عبد الله في زوائد أي زوائد مسند أبيه

(ك) للعجاكم .

(خد) للبخاري في الأدب .

(تح) له في التاريخ .

(حب) لابن حبان في صحيحه .

(طب) للطبراني سليمان الأعمى في الكبير .

(طس) له في الأوسط .

(طص) له في الصغير .

(ص) لسعيد بن منصور .

(ش) لابن أبي شبة .

الجواب عن الثاني : وهو قول شارح الجامع الصغير ان الحديث صحيح فأنا أذكره بما تقدم ، وهو أن الجرح مقدم على التعديل ، أنسيتها ؟ قال نعم هو صحيح قلت ولكن غيره يقول ههنا جرح لبعض الرواة . قال : فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بتمامه مختصرا . فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . إن الله علم قبل أن يخلق السموات والأرض أن المسلمين ستشتد غفلتهم وينامون نوما عميقا ، ويقلد الأبناء الآباء والتلاميذ الشيوخ ، بلا علم ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فأنزل هذه الآية ، وجعل المدار في الفضل على التقوى ، وعلم أن أمما وأمما سيجهلون أمم الاسلام تبع أناس بأحوال خاصة ، ولا يجهلون المدار على صلاحيتهم للحكم ، فقال إنما أزلت هذه الآية ، لأنني أخبر بواطن طباعكم ، ومن بواطنها انها تريد الأثرة والرفعة ، واستعباد الناس باسم النسب لا بالتقوى ، فجعلت التقوى هي الأصل لافي الفضل على الناس ، والخيب النسب قد يكون جاهلا أوفاسقا ، فيفضل الناس ويتخذهم خولا ، ولذلك فصل رسولكم ذلك بأن أمر بلالا أن يؤذن في الكعبة بحضور أشرف قريش تطبيقا على معنى الآية ، فذكر خير هنا اتضح في أيامنا هذه ، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها ، والله يعلمها قبل خلق العالم فأنزل هذه الآية ، وهذان محاسن أسماء الله الحسنى ، والسر كل السر في تلك الأسماء وهي أسماء الله وهذا هو حسناتها حسناتها هو جمال العلوم وجمال الوجود ، فجمال المعلوم هنا ظهر في الخبرة المأخوذة من معنى خير ، لأن اختبارنا لتاريخ أمم الاسلام عرفنا أن هذا المهدي الذي جاء به الحديث المتقدم هو السفاح ، والسفاح قد تقدم تاريخه وكفى بافظه دليلا .

فقال صديقي : ولكن ذلك سيكون يوم القيامة . فقلت : هذا الحديث ينطبق عليه فإن الرايات السود التي جاءت من قبل خراسان هي التي كانت مع أبي مسلم الخراساني ، وهو الذي قام بها من خراسان لنصرة بني العباس ، وقد عرفت تاريخه فيما تقدم في نفس السورة ، فهو تاريخ ملطخ بالدماء ، فقد قتل من المسلمين على مامر بك ٢٥٠ ألف مسلم غدرا بأمر ابراهيم الامام ، وهو أخو السفاح ، إذن هذه المهدوية بنيت على سفك الدماء . فقال : وما المانع من أن يكون المهدي يخرج في آخر الزمان ، وتقوم راياته السود من خراسان فقلت : إذن يكون معنى هذا اننا نعيش بلا عقل ، القرينة ظاهرة واضحة ، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء ، ولماذا لا يأتي المهدي في آخر الزمان إلا من نفس هذا المكان وتكون راياته سودا ؟ ثم ما هذا المهدي الذي يأتي بالسيف ؟

الله أكبر : إن العلوم كلها كفروع شجرة واحدة ، فدراسة الحديث من غير مراعاة العلوم الأخرى معناه

الجهل والقفلة ، وعدم الفطنة والموت . فقال : وما تقول في قول الشارح : ان اسمه محمد بن عبد الله ، سلمنا أن الجرح هنا مقدم على التعديل ، وأن التاريخ أيد ذلك ولكن لم ذكر أن اسمه كذلك ؟ نقلت : بينما كان العباسيون تخفق راياتهم السود في خراسان كما تقدم آنفا ، وكان هذا الحديث يفشرون المسلمين كانت تفسر أحاديث أخرى مثل حديث : « يخرج رجل من بيتي اسمه علي اسمي واسم أبيه علي اسم أبي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » .

وعبد الله هذا من ذرية الحسن ، وابنه هو النفس الزكية المتقتم في تفسير هذه السورة ، وهو الذي قتله المنصور فيما بعد ، وقد كانت له البيعة الصحيحة ، وأفتى به أبو حنيفة ومالك ، فاضطهدهما المنصور . هذا معنى كلام الشارح ، وحرام علي أن أعرف هذا ولا أدينه للمسلمين بعدنا ، لأن عزل التاريخ وبقية العالوم عن القرآن والحديث أضرت أشد الضرر بأمنا الإسلامية العزيزة علي ، وهي التي قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . فقال : لقد ظهر سر اسم الخبير في هذه الآية ، وظهر اشراق نور اسم من أسماء الله في علم سياسة الأمم الإسلامية ، فهمل تسمح بقول تلقيه مختصرا فيما تؤمله لأمة الاسلام من أمثال هذا المقال ؟ فقلت : ان أرجو ما أرجوه لأمة الاسلام انهم بقراءة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكماء ، لا يشق لهم غبار ، ذلك انه قد اتضح الآن أن دين الاسلام ليس هو ذلك الدين الذي يعيش على الألفاظ ويعلق عليها أهمية الحياة وحدها . كلا . إن هذا التفسير وما كتبه قبله قد كشف الستار عن هذه الناحية ، وقد فهم المسلمون فعلا وعملا ، ودفت الجهالة في قبرها ، وولد في الاسلام جيل جديد فعلا ، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة ، فلا رجعة للجهالة بعد اليوم ، وأنا اليوم سعيد بأبناء بلاد الاسلام .

والآن أقول ﴿ كلمتين اثنتين ﴾ بشارة لشبان المسلمين : الكلمة الأولى ما كتبه في ﴿ سورة البقرة ﴾ من نبأ لم أوضحه إذ ذاك ، ولكني أوضحه الآن : وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذي بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليمتعلموا علم الحقوق ، هناك كفلهم وراقبهم الاستاذ (لمير) . ذلك ان داناب (الذي كان أيام احتلال الانجليز مصر قابضا بيد من حديد على التعليم بها ، منع الشبان في التعليم الثانوي من كل ما يرقى أفسارهم) لم يسم من اعتراض (لمير) الفرنسي المذكور على التعليم الثانوي لقصوره وتقصيره ، فليس بعد التلاميذ لدراسة الحقوق التي كان يرأسها الفرنسي المذكور بمصر دراسة صحيحة ، فلذلك رفته من الوظيفة ، فرجع إلى فرنسا ، وصار يستقبل تلاميذ المصريين ويعطف عليهم .

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زاروني وأخبرني واحد منهم قائلا : اننا نحن الثلاثة كنا نجمع الأزهار من الحقيقة ، فدعانا الاستاذ (لمير) وقال : لقد لاحظت فيكم أصرا لم أره في اخوانكم المصريين ، ذلك انكم تحبون الزهر ، فما السبب ؟ قال : فأجبنا اننا كنا سنة ١٩٠٧ م نتعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوي جوهرى ، وكان في دروس الانشاء يحببنا في الطبيعة ، ويجعل نفوسنا في شدة الشوق إليها . فقال : أنى مصر هذا ؟ فقالوا نعم . فقال : إذا وجد في مصر رجل مثل هذا فلماذا جئتم فرنسا ؟ ليفتح كلية ، وليعلم هو وأمثاله في نفس مصر فانها ترتقي سريعا .

فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوره عقلي ، فنظرت إلى الآخرين بدون أن أتكم ، فكانت جوابهما : ان الكلام كان بحضورنا : هذه هي كلمتي الأولى .

كلمتي الثانية

سترى أيها الأخ الذكي في أول ﴿ سورة الحديد ﴾ عند معنى : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ما هو رأي (ستانلى هول) وهو أ كبر علماء النفس في أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها

وما نجد في كتابه في ذلك أن شرط النجاح ثمانية أشياء ، ومن هذه الثمانية حب الطبيعة ، وقال : يجب على الناس أن يكثروا من الشئ في الحقول لرؤية أحسن المناظر ، ثم قال : وسفير الوطنية ما كانت نابذة من الحقول ومنها ترقية العواطف ، ومنها الصحة ، ومنها كشف ما فيها من القوى الكامنة ، ففي كل منا قوة كامنة ، وهذه لابد من استخراجها ، وإظهار ما فيها من الخبائث ، ولا جرم أن قرأ هذا التفسير وأماهله سيجدون الطبيعة حبا جما ، وسيكون فيهم حكماء لا نظير لهم في الأمم لأنهم في حال حبهم الطبيعة يؤدّون درسا دينيا ، فهنا اتحد الدين والعقل ، وسيزول الدجل والتلبيس من أهم الاسلام بسر اسمها الطير الذي ظهر في هذا المقام وسينبغ في الاسلام خبراء بالعلوم بإشراف هذا الاسم ، وتظهر محاسن الوجود المقتبسة من حسن أسماء الله ، وإليها الإشارة بآية : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » وهذه الأمة هي الأمة الاسلامية كما تقدم في تفسيرها فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى وبين كون الأمة الاسلامية أمة تهدي بالحق وبه تعدل ؟ لولا أن جلال أسماء الله الحسنى الذي أشرق اليوم فعلا على أهم الاسلام قد ابتداء يكشف لهم الحقائق التي كانت مستورة ، وقد ظهرت لهم نفس الحجاب الإلهية في المخلوقات ، وصارت أهم مافي دين الاسلام ، وهذا هو الوعد الذي وعده الله ، فقال : « ليظهره على الدين كله » وقال : « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

هذه هي الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى ، ومن محاسن المخلوقات المشرقات التي يراها الناس صباحا ومساء وكانوا عنها غافلين ، إن الله تجلى للناس اليوم بالعرفان ، وذلك كله سر قوله : « إن الله عليم خبير » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاربعاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية : الساعة الثانية بعد الظهر .

بهجة هذا المقال

وحكم فيها وصحة وجال

في يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبى العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هذه المقالة تتقد حساسة ، فإذا خطر لك بعد ذلك فحدثني به ؟ فقلت يا أخي كأنك تعلم الغيب ، اننى بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابقة انتحيت جانبا وخلعت ملابسى ساترا العورة ، جالسا في الشمس ، عملا بما كتبت ، واستجلبا للصحة ، إذ تقدم في أول ﴿ سورة يونس ﴾ عند آية : « هو الذى جعل الشمس ضياء » مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها للصحة إذا وقعت أشعتها على نفس الجسم بشروط خاصة ، فهذا إذا أمس عملت بما علمت كما فعلت مرارا ، ولم أكد لأجلس فيها وأضواء الشمس تحيط بجسمي حتى أخذت أفكر في هذا الانسان المسكين المحبوس ، هذا الانسان الذى قتلته العادات ، اكتسبى بالملايس ، ترفا وتنعمنا وتجملا ، فأصبحت الملابس جلا ثقيل ، وذلا وبلا ، وشرّا مستطيرا ، وأخذت أقول : يا الله ، يارب السماء ، يا حكم ، يا عدل ، يا حلیم ، أنا أستعيز بك من الذل ، ومن الجهل ، ومن سوء المنقلب ، يارباه قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللفظ هو المقصود ، فأخذ علماء منا يحسبونها بالجل ، وأخذوا يتلونها لقضاء الحاجات ، وألف فيها البونى [شمس المعارف الكبرى] كأن هذه الأسماء نزلت من السماء لأجل السحر ، لا لأجل ارتقاء الأمم ﴿ وبعبارة أطف ﴾ لأجل قضاء الحاجج ، وقرأنا القرآن فاكتفينا بالفشور ، ونبذنا الحقائق ، ونسينا أنه يجعل الفضل للتقوى لا للنسب ، فوقعنا في ذل وحيرة ، وجهل مشين ، حبس النوع الانسانى في عاداته من حيث الملابس والأغذية ، وحبس المسلمون في اعتقادات أذلهم دهورا ودهورا .

تشابهت الأمم في أحوالها

هاهي ذه الانجليز في الهند اليوم في أثناء كتابة هذه المقالة تغذي الوطنيين العذاب لامتناعهم عن شراء الملابس ، لماذا ؟ لأن عمالهم يصنعونها ويبيعونها هؤلاء ، جهل والله يارب هذا الانسان الجهول ، صنع فريق من الانسان الملابس ، لماذا ؟ ليجعلها ترفا وتنعما لفريق آخر ، ليعيش من كد يده ، تيقظ هذا الفريق اليوم ، فقال : أيها الأخ : أنا لا ألبس ، لأن هذه الملابس سجون ، ودل لاغز ، لأن العلم اليوم يحددنا أن هذه الملابس ليست ضرورية ، فقليلها يفي ، بل تعريض الجسم للشمس يزيد قوة ومثانة فنحن كنا جاهلين ، فيقول الفريق الأول : لا بد أن تلبس ، وها أناذا أضرب بك بقنابلي ، وعسى أن أزيد هذا المقام بياناً في ﴿سورة الممتحنة﴾ عند قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة» وأن نبين تحريم شراء البضائع التي يصنعها من يؤذي المسلمين من الدول الحاضرة وأسأل الله التوفيق لذلك .

أف هذه الانسانية العمياء ، ومثل هذه الملابس ينطبق على عكوف المسلمين على الدراسة اللفظية ، فاكثفوا بالانظ ونسوا المعنى ، نسوا جمال النجوم ، جمال البحار ، جمال الشجر ، جمال الزهر والحقل والغابات .

فليقف المسلم في الحقل ، وليقف في الجبل ، وليقف في ظلام الليل ينظر النجوم ، فليقف وليقف ، فهناك هناك تجلي ، ثم تجلي ، ثم تجلي له معاني هذا الوجود ، يقف أمام عجائب ربه في هذه الدنيا حتى يستعد للقاءه بعد الموت ، فهناك تبرز له معاني كتاب الله ، هناك تبرز له معاني أسماء الله الحسنى ، أي يعرف السر في وصفها بأنها حسنى ، وكيف كانت حسنى ؟ وكيف يصفها الله بالحسنى ، لماذا ولماذا ؟ إذن يكون المسلم في فهمه إذ ذاك بعقله مثله كمثل جسمي وهو عار مقابل لأضواء الشمس مباشرة ، فتسكون صحته أتم ، وتقتل الحيوانات الذرية المهلكة للانسان ، وتعتدل دورة الدم ، إن مثل المسلم في تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كمثل جسمي والشمس تشرق عليه .

سيتعلم المسلمون بعدنا من نفس عجائب صنع ربهم ، فيعطيهم من العلم ما لا يحصر على حسب استعداد كل امرئ ، وبهذا وحده تزول تلك التويمات التديعة ، والرؤساء الخادعون ، والدعاوى الطويلة العريضة ، وتسكون الدراسة موجهة للحقائق لا مجرد الألفاظ ، ويخرج النوع الانساني من الغرام بأصنام مشخصة مزينة ومن الغرام بأشخاص خاوية نفوسهم إلا من الایهام والدجل ، ومن الاكتفاء بالكتب المصنفة .

إن الناس يخضون لما هو جليل ، فأصنام قدماء المصريين ، وعجولهم المخططة ، وماوكهم ، كل هؤلاء صرنبون خير زينة ، وعلى منوال هؤلاء في التزيين والتضليل الأمم التي تفتك بغيرها في زماننا الحاضر المفتوح والاستعمار ، وقولهم : جئنا لاسعادكم ، فهؤلاء أصنام خاوية كأصنام قدماء المصريين ، وهكذا أكثر من ادعوا المهدوية في الاسلام ، وكثير من الشيوخ السجاليين ، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة في نوع الانسان كالتباهي بالملابس التي بها استعبدت بلادنا المصرية بتدخل الأجنبي .

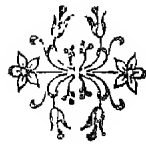
كل ذلك سيزول من بلاد الاسلام حينما يدرسون نفس الوجود ، ويفهمون الحسن الحقيقي فيه ، ويدركون سر وصف أسماء الله بالحسنى ، فالحسن الذي يجب فهمه لاسعاد الانسانية حسن هذه الأرض ، وهذه السماء ، وهذا هو انكشاف الغطاء عن أعين المسلمين ، وقد آن أوانه ، وظل ابانه : من الآن ، من الآن ، من الآن ، فليشر الأذلاء بالعر .

كل ذلك أيها الأخ حضر في نفسي عند ما جلست في الشمس ، لأنني لم أجد فرقاً بين حبس نعمة ضوء

الشمس عن جسمي وبين مجلس العلم عن العقل بالوقوف عند الأماط ، أو بأوامر رئيس يقول : « العلم حجاب » أو بالاكتماء بالسكتب المصنفة إلى آخر ما تقدم هنا .

هذه هي الخطرات التي خطرت لي أمس وجسمي يتلقى أشعة شمس الشتاء ، وأنا معتقد في نفس الوقت أن هذه من نعمة العلم ، واني أؤدّي واجبا ، لأن المؤلف اذا لم يعمل بما يكتبه لم يؤثر التأثير المطلوب ، فأنا والحمد لله في مطعمي ومشربي أجد في أن أعمل بأقوال الأطباء ، وهكذا وجدت في اساني ميلا إلى التكلم فيما لا يعني فأنا أجد بقية حياتي في حفظه بقدر امكاني بعد ماسطرت الكلام على آفات اللسان قريبا ، وليس على أن أنال كل مطلوب في مهمما كبرت سني ، ولكن نفس الاجتهاد نعمة كبرى ، وان لم ينل الانسان الغاية . هذه حالي الآن أنشرها ذكري لمن بعدنا . فقال : إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكياء . فقلت : أنا موقن بذلك ، وعسى أن يزيد هذا المقام كشفا في أول ﴿ سورة الحديد ﴾ وفي آخر ﴿ سورة الحشر ﴾ وإلى هنا تم الكلام على ﴿ سورة الحجرات ﴾ والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثاني والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ، ويليها الجزء الثالث والعشرون ، وأوله تفسير سورة : ق)



(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صواب	خطأ	سطر	صفحة	صواب	خطأ	سطر	صفحة
أن يبيعوا	أن يباعوا	٥	١٥٢	اعترف	اغترف	٨	٥
الرابعة عشرة	الرابعة عشر	٢٤	١٦٠	والغربية	الغربية	٤	٧
وانهم	وانه	١	١٧٤	الزمو	والزمو	٦	١٦
وقفنا	وقفنا	٤	١٧٧	خزبه	خزبه	٣	٢٠
الحالي	الآتي	٢٣	١٨١	شفيها	شفيح	٨	٢٠
١٤٩٢ ب م	٤٩٢ ب م	١٣	١٨٣	متروكات	المتروكين	٢٧	٣٥
خالدة	خامدة	٢٩	١٨٣	تهاون	تهان	١	٣٦
أوأكثرهم لم يعرفها	وأكثرهم لم يعرفها	٥	١٨٨	يتوضآن	يتوضؤون	٢٣	٣٦
والمالك فلا	والمالك	٢٨	١٨٩	ويصليان	ويصلون	١٩	٣٨
ونسبنا	ونسبنا	٣١	١٨٩	قاموا بها	أقاموا بها	١٩	٣٨
فلم يستفتح	فلم يستفتح	٢٧	١٩٠	دائرة العلم	دائرة لعلم	١٢	٤١
نعيش	نعيش	٢٥	١٩٣	الانسان	الانساس	٤	٤٦
السياح على قراهته	السياح	٤	١٩٦	حرب	لحرب	٢٥	٤٦
ومجدنا	ومجدنا	١٠	١٩٨	مانكاد	مانكاد	٦	٤٧
طلق	طلق	٤	٢١٦	ضاراً	ضار	١٦	٤٨
التفاصيح	التفاصيح	٢٢	٢١٦	ذوى	ذى	١٣	٥٠
على الكافرين	على الكافر	١	٢٢٠	لمقاوية	لمقاوية	٢	٥٧
رئى	رى	١٩	٢٢٤	عما أقسم	التي أقسم	٣٢	٦٨
فما هذا	فهذا	٢٢	٢٢٤	من القرطم	منه القرطم	١٧	٧٠
وروسو	روسو	٤	٢٣٦	ونفس هذه	ونفس هذا	٩	٧٣
ورزر	ورزر	١٩	٢٣٦	المسائل	السائل		
فقد	فقد	٥	٢٣٧	المسلمين	المرسلين	٢٢	٨٧
انهم	هم	٩	٢٣٨	وجود	موجود	٣٣	١٣٧
				وقطعوا رءسهم	وقتلوا رءسهم	٦	١٥١

(تمت)

فهرس

الجزء الثاني والمشرين

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ تفسير سورة الفتح مكتوبة مشكاة بالحرف الكبير
- ٤ هذه السورة أربعة أقسام
- ٥ القسم الأول في تفسير البسملة ، وبيان أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء ، وهي عامة وخاصة ، وهذه الأخيرة تختلف باختلاف الأشخاص ، ولقد كانت أمنيته في حال صغري أن أقف على الحقائق ، ولم أكن لأبلى بالصيت والعلو والعظمة ، دخلت (دارالعلوم) ودهشت لما رأيت عاومها هي التي كنت أبحث عنها في الحقول من فلك وطبيعة الخ وقد وصل اتهامي لنفسي انني كنت أظن أن نعمة الانشاء لا أستحقها ، وهنا حكاية المرحوم الشيخ محمود العالم ، ولما وظفت في الحكومة طالت نفسي بمهددها وهو نشر العلم ، وهنا ألفت كتابا ، وحوادث الدهر تزجني فلم أعبأ بها ، ولقد انشرت الكتب في جميع أقطار الاسلام شرقا وغربا ، حتى ان شابا من بلاد التركستان الصينية حضر هذه الأيام وقص قصصه في المحافل العامة ، وانه كان في حيرة مثل سيرة المؤلف ، فأقنعه منها هذه الكتب مثل « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » الخ ، ثم قال انه وصل إلى كابل ببلاد الأفغان فوجد الفكرة هناك منتشرة إن المؤلف هنا عرف رحمة الله الخاصة إذ نال أمنيته وهي انتشار الفكرة حتى في بلاد الصين وجميع الشرق الأقصى والأوسط ، وهذه هي الرحمة الخاصة التي لم يصل خبرها إلا في تفسير سورة الفتح وهذا عجب وهو يقول : انه ما كان ليخطر له وهو يبعث على شاطئ نهر أبي الأخضر في الصغر انه يشارك مسلمي الصين في تلك المباحث وهو حي .
- ٨ إن الحسين سنة الماضية كانت ذات صفة خاصة ، فاجتاز الناس أحوالا قديمة ، وارتقوا ، ونالوا سعادات بالمركبات المختلفة في الأرض وفي الجوالج . إن سعادات المجموع الانساني ازدادت ولكن الأفراد لم ينالهم شيء من تلك السعادات ، فالناس أشبه بقطرات الماء في البحر الملح ، هي كثيرة ولكن القطرة فيه نظير القطرة في إباء في منازلنا ، ثم تكلم عن الحسين سنة الآتية فقال : إن الناس سيستعملون قوة المد والجزر ، وضوء الشمس ، وحرارة جوف الأرض في مصالحهم ، وستقوم الكهرباء بأعمال مدهشة مع جهلنا بحقيقتها ، وسيبري الناس الخطباء في أقطار بعيدة ، ويسمعون كلامهم . ويقول عالم آخر : إن هذه الآراء ليست أضغاث أحلام . كلا . سيتملي الجوالج بالمركبات ولا يكون هناك اصطدام ، وسيتحول السحاب بواسطة الكهرباء إلى الصحاري والقفار ، فينزل عليها المطر فتخرج البركات والخيرات ، وسترتق الجراحة حتى تمسح ما قبح من أشكال الناس ، وسيجدد الفسل ، وربما يولدون الأطفال في المعامل الكيميائية .
- ١٠ القسم الثاني من السورة ، التفسير اللفظي للسورة كلها ، من أول السورة إلى قوله تعالى : « فسيؤتيه أجرا عظيما » .
- ١٢ القسم الثالث من السورة ، تفسير : « سيقول لك الخلفون » إلى قوله : « عذابا ليما »

- ١٣ بيعة الرضوان ، وهي بيعة الشجرة .
- ١٥ اطائف هذا القسم ، وهي أربع اطائف : اللطيفة الأولى في آية : « قل للخلفين من الأعراب » ، هذه الآية أعطتنا قاعدة كالتى يتبعها الأطباء وعلماء الأخلاق ، لأنهم يداورون المريض ، والخلق بضد ما هو عليه كالحرارة في مرض بارد الخ .
- ١٦ اللطيفة الثانية : ليس على الأعمى حرج ، وههنا ايضاح الكلام على الاستعداد فليجعل كل اصرى في الأمة في العمل اللائق لمزاجه وصحته وقوته ، فكل مجاهد على مقدار طاقته ، هذه هي الحقيقة المثلى اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ولتكون آية للمؤمنين » ، ويبان أن الولوع بالعلوم ، والولوع برفق الأمة هما الصفتان اللتان بهما يصل الانسان إلى أعلى سعادة في الدنيا والآخرة ، والله وملائكته يكفونون معه ، هذا يؤخذ من هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »
- ١٧ جهاد الفرد وجهاد الجيش : إن جهاد الفرد أشق من جهاد الجيش ، لأن الجندي في الجيش معه نظارؤه ، أما الفرد فهو يعضى في عمله متكللا على ربه ، والمهونة له أكثر من المعونة للفرد في الجيش ، إن نصر النبي ﷺ في الغار أعظم من نصره وهو في غزوة من الغزوات ، فحرب أيها الذكي نصر الله لك وأنت وحيد كما جرت أنا أيام هذا التفسير ، فاعلم أن الله مع المجاهد بنفسه في رفق أمته ، وقد جعل قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تحزن إن الله معنا ، وهو في الغار ضرب مثل لسكل عالم اسلامي يحب هذه الأمة الاسلامية ويحمل لها ، وقد أدعش المؤلف سرعة قضاء حوائجه وحل مشكلاته الدنيوية والعلمية أثناء هذا التفسير ، ومن أعجبها أنه توقف في مسألة تسيير السفن بالسكهرباء ، لأنه ليس من علماء هذا الفن ، فحدثه نفسه أنه سيطالع عليها حالا ، فاطلع عليها بعد دقائق في مجلة علمية لم يرها من قبل فسكتبها في ﴿ سورة البقرة ﴾ وهو مبتدئ في تفسيرها .
- ١٩ تذكرة في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الأخرى ، وإذا كان الخفية والشفاعة دققوا في أمر ذبح الهدى ، أهو الحرم أم المسكان الذي أحصر فيه المحصر ؟ وذلك في الوسائل فكيف بالمقاصد وهي مانحن فيه من الهداية للصراط المستقيم ، إن الأئمة رضى الله عنهم دققوا في الوسائل ليعلمونا أن ندقق نحن في المقاصد وهي أعمال القلوب .
- ٢٠ دفع وهم : إياك أيها المسلم أن تظن أنك بمجرّد الاسلام لا تحيط بك المصائب . كلا . فهذا وهم بل الانسان يرتقى بما يقاسى من الشدائد ، وما يزاول من الأعمال ، وإياك أيضا أن تقول : إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم شفيعا لي فأنا سعيد من غير عمل ، فإن الشهداء والعلماء شفعاء ، ومن كان مصاحبا لواحد من هؤلاء وهؤلاء للأعمال فهو خاسر الدنيا والآخرة ، فالشافعون المذكورون محركون للعمل لا مبطون إن الشفاعة قد حرفها جهال المسلمين ، إن الشفيع ليس معلما للكسل .
- اللطيفة الرابعة في معنى : سنة الله الخ وهي تدل على أن الله مع كل مخلص . الكلام على بيعة الرضوان ، وقصة مكرز وسهيل بن عمرو ، والمحاورة بين النبي صلى الله عليه وسلم وعلى في محو ذكر الرسالة من الكتاب .
- ٢١ القسم الرابع من السورة . تفسير : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » إلى آخر السورة .
- ٢٣ المسلمون ضرب الله مثلهم بزرع أخرج شطاؤه ليغيظ بهم الكفار ، واسكن المسلم الآن يرى أن بعض المسلمين أشبه بزرع هشيم تذرؤه الرياح ، فهم الأعيب في يد الفرنجة ، فهذه هوذا الأمير عبد الكريم يريد أن يحرق مرأكش ، ومولاي يوسف يأمره الفرنسيون أن يذبح منشورا يقول فيه : « إن

عبد الكريم ليس له حق في ذلك ، فهذا موت لاهياة » . نقول : وهذا الموت ببدء الحياة ويرتقي المسلمون . اللطائف العالة في السورة وهي أربع اطائف .

٢٤ اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : كما أن الأرض الطيبة هي التي يخرج نباتها سهلا بلا نصب ولا تعب ، وثمرات زرعها تنفع كل ساكن في الأرض ، هكذا القلوب الشريفة كقلبه صلى الله عليه وسلم ، فهو يقبل العلم ويعلم النفوس الضعيفة الجاهلة ، وصفاء نفسه يجعله قابلا للكشف العالي ، وهو الفتح على الحقيقة ، ويتفرع على هذا الفتح العالي كل فتح ظاهري كفتح مكة وصالح الحديدية أراى فتح اسلامي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، وهذا الفتح يتقدمه صفاء النفس لقبوله ، ويعقبه تمام النعمة ، وانتشار النبوة في الأرض ، وعلو هذا الدين على غيره ، فهذه أربعة أمور هي المذكورة في الآية . آثار الفتح النبوي في زماننا ، وبيان أن المسلمين ملأوا الأرض نورا ؟ ثم وجعوا فازروا وذلوا ، ولكن جيلنا الحاضر سيرجع المجد على يديه ، ودليلنا ماقاله العالم الأمريكي صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » الذي يقول : « إن أوروبا في الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر قد أخذت تخنق المسلمين خنقا وتحمل ديارهم ، وهذا العمل أحدث رد فعل وبغضا شديدا ، وأخذ المسلمون يقرءون علوم أوروبا ، وحصل التفاعل الشديد ، وليس ارتقاء المسلمين الحديث مجرد محاكاة للغرب . كلا . بل نفس الأمم الاسلامية لها من نفسها آراء وحكمة ، وبهذا وذلك حصل انقلاب في آراء المسلمين بعيد المدى ، من ذلك آراء خير الدين باشا الذي ألف كتابا لاصلاح تونس سنة ١٨٩٠ ، وانتشر ذلك الكتاب ثم مات المؤلف واحتلت فرنسا تونس . قال : وقد أثر كتابه تأثيرا حسنا حتى أصبح كتابا مقدسا عند أهل تونس والجزائر ، وقد جعل محور الكلام فيه على أن العدل والحرية هما أسس تقدم أوروبا . ثم قال صاحب « حاضر العالم الاسلامي » مانصه : « إن سيطرة أوروبا على المشرق مبنية على أساس واه ضعيف ، فليس الغربي محبوبا عند المشرق ، والاحترام راجع للخوف لا للمحبة ، وما يدل على ضعف السيطرة الأوروبية في المشرق حادثة الحرب الروسية اليابانية ، فاليابان لما غلبت الروس عرف المشرقيون ضعف أوروبا ، ففرح أهل المشرق جميعا وأيقنوا أن أوروبا خارجة كلها عن المشرق ، وساعد على استيقاظ المشرقيين زيادة اعتداء أوروبا اعتداء وحشيا بربريا بجشع ونهم » . وقال أرمينيوس : « اعتداء الغرب على المشرق جعل الأخير يزداد اتحادا » .

٣٠ ثم قال مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » : « إن الخلافة في صدر الاسلام كانت منيعة الجوانب عظيمة القدر ، وبعد ذلك صارت استبدادية وأخذ المصلحون يحاربونها ليرجعوها إلى الشورى ، ثم ذهبت الحرية الدينية في خبر كان ، ولكن سيرة الخلفاء الراشدين باقية في الأذهان ، والعرب في شبه جزيرتهم هم الذين حافظوا على حريتهم إلى الآن ، وأقوال أبي بكر وعمر في الحرية لاتزال تسمع في كل آن ، إذن ليس الاسلام سبب تضعف المسلمين . كلا . بل السبب كل السبب هو استبداد الأمراء وتأويل الآيات القرآنية بما يوافق أهواءهم ، فنبذوا الحرية والشورى » .

٣١ « إن اليقظة الاسلامية اليوم تشمل الإصلاح الديني والسياسي لتخلص المسلمين من أمصاتهم الظلمة ، ولكن جاء تيار ظلم أوروبا فرقت في وجه هؤلاء المصلحين وساعد الظلمة من ملوك المسلمين على اذلالهم وهذا زاد بعض المسلمين لأوروبا ، إن بعض المصلحين كمحمد علي باشا مصر والسلطان العثماني محمود الثاني في تركيا أرادا ارتقاء بلادهم ، ولكنهم أبقوا السطة في أيديهم فأملحوا الظواهر ولم ينهوا على

الأساس ، فإن رجال الدولة ملزمون بالطاعة العمياء ، وهناك أخزاب قامت حرة أحسن من سابقهم ، اقتبست آراء أوروبا بمطالعة المجلات ونحوها كالحركة الفكرية في تركيا في آخر القرن التاسع عشر ، فأثرت ثمرا يافعا ، ولكن الإصلاح الظاهري لأولئك الملوكة المستبدتين لم يفعل شيئا .

مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم : بعد ما كتب المؤلف ما تقدم تبدي له شخص خيالي أخذ يتحدث ويقول له : أنت مثلك الآيات السابقة بشجرة لها أغصان ، فأصاها هو كشف العلوم ، وأغصانها ثلاثة : صفاء النفس المعبر عنه بالمغفرة والهداية والنصر ، فهنا قوة جسمية يشير لها النصر ، وقوة أدبية تشير لها الهداية ، وكشف النفس تشير له المغفرة . ثم قال الخيال : أنا جئت لك من الثريا ، لأنك دائما تنظر في النجوم لأتم لك مقصود الآية ، ولا بد من تطبيقها على الأمم الحاضرة وعلى الأمم الإسلامية السابقة ، أما التطبيق الأول فهو أن ملخص تعاليم أوروبا يرجع إلى ما سيأتي ، إن التعليم له دعائم ثلاث : دعامة الأدب ، ودعامة الجسم ، ودعامة العقل . فإذا علمنا الصبي صناعة أوعاها ولم نعلمه طهارة الضمير فأننا نكون قد أعطينا سلاحه يضر مجتمعا ، وإذا برع في العلوم وكان مهذبا ولكننا لم نقر جسمه فلانفع فيه ، فالقوة البدنية يشار لها بالنصر في الآية ، والقوة العلمية يشار لها بانكشاف الحقائق وهي الفتح ، والقوة الأدبية يشار لها بالهداية . أما التطبيق الثاني فهو ما ذكره ابن خلدون عن أحوال الأمم السابقة ، ذلك أن الأمة إذا تقلص الدين منها ذهبت وراء الشفقة والحنان فالعدل فزوال الملك ، فهنا أصل هو الدين وفروعه تبع له ، والسياسة نتيجة ذلك كله ، فزوال الدين مبدأ ، فالأخلاق فسياسة الدولة ، فالدين ومعه العلم هو القوة العلمية ، والرحمة ومعها الأدب هي القوة الأدبية فأما القوة الجسمية فلها شأن آخر ، ذكره في ﴿سورة النمل﴾ مثل الحديث المنيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يخاف علينا إلا من كثرة الفتن والترف والمفيدة أيضا تصرح النبوة بأن المسلمين سيفرقون في الترف وهو شر لهم ، وذلك هو ضعف الأبدان المنافي للنصر ، إذن المعاني المذكورة في هذه الآية طبقت على الأمم الحاضرة تعلمنا وعلى الأمم السابقة اضمحللا ، أليس هذا من معجزات القرآن ؟ ﴿تذكرة﴾ إن حركات الصلاة ، وأعمال الحج ، وكذا الصوم كلها مقويات للأبدان ، وهذه إحدى الدعائم ، وبقى العلم والأدب وهما واضحا في أقوال الصلاة ، ويلحق بما تقدم في تقوية الجسم السابق والرمي ، وهما متروكان في الإسلام الآن .

مسامرتان فيهما ذكر فتاة ألمانية تزوجت مصريا ، فلما رأت أباه وأمه يصليان دهشت وأسلمت ، لأنها عرفت قيمة هذه الحركات ، وسيدة أخرى رأت تاجرا في المرح يتوضأ ويصلي ، وقد أخبرها بأن هذا يتكرر خمس مرات في اليوم . فقالت : إذن لا أحد منكم يمرض .

نظرة المؤلف في أم الإسلام المستقبلية . يقول : إن أم الإسلام المستقبلية ستكون صلاتهم غير صلاة المسلمين الحاليين ، لأنهم سيقربون مثل هذا ويعرفون سر هذه الأعمال فتكون صلاتهم بعلم فيرون في الصلاة صحة كما تقدم ، وهداية للأخلاق في : «اهدنا الصراط» الخ وتحريضا على العلم في نحو : «الحمد لله رب العالمين» .

وهنا مسامرة ثالثة لازدياد شرح أن الفتح هو الفتح العلمي ، وذلك أن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره قدم الفتح العلمي كما في الآية على الفتح العملي . ذلك أن المسلمين كانوا حكام الهند ولما دخل الانجليز الهند انتشر العلم فيها وغض الطرف عنه المسلمون وحقروه فزال ملكهم في القرن الثامن عشر ، وكلما ثاروا صودروا في أنفسهم وأموالهم ، والهندوس هم الذين كانوا يتعلمون ، فرأى

السيد أحمد خان أن التعليم مطلوب ، فأسس المدرسة المذكورة وذلك سنة ١٨٥٦ م وجعل لغتها الانجليزية لأن الاوردية لا تصلح لذلك ، ورضى بالانتقاد الشديد على اختياره اللغة الانجليزية ، ولكن المعارضون فيما بعد سيعلمون أنه محق ، فالمدارس على الغاية لاعلى المبدأ ، وجعل المدرسة أولاً في أكواخ والمسال قليل ، وانتفع بمواهب علماء أوروبا مثل علماء جاهتي كبردج وأكسفورد ، وكان معه ابنه السيد محمود حين زار تلك الجامعات ، وجعل المدارس على الخلق والتربية الشخصية ، فلم يجد مفراً من جعل الدلاميذ يتعلمون تعلماً داخلياً ليتمّ تقويمهم ، وهكذا جعل فيها التمارين الرياضية ، إذن قامت السكينة بالتربية البدنية والخلقية والعلمية وهي الأركان الثلاثة المتقدمة في الآيات جسمية وخلقية وعلمية يد تعمل ، وقلب يحب ، وعقل يفكر ، لولا كية «عليك» لم يكن للمسلمين صوت الآن ، لولاها لكانوا الآن خداماً وعبيداً ، وقد قالت الصحف الفرنسية عن مؤسس السكينة : انه نبي التربية ، وتوفي سنة ١٨٩٨ وقد أنشأها لتنتشر الثقافة منها في العالم الاسلامي كله . إن كية (عليك) تحتاج إلى ٦٠٠ ألف جنيه ، وقد وصلت الآن إلى ٢٠٠ ألف جنيه بتدبير السيد أحمد خان ابن السيد محمود ، ثم قال الخطيب : ليرحل المسلم المصري فليتعلم فيها ، لأن تعليمها لا نظير له ، والأزهر لم يصل إليه الآن .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين الخ ان عصر الصعابة كانت السكينة فيه بأنوار النبوة ، أما عصرنا فالعامة وصغار العلماء يطمشون بما يرون من أن المسلمين مع ضعفهم وانتشارهم في الأرض محفوظون ، فأما الحكماء فانهم يزيدهم سكينة فوق ذلك ما يعرفون من عجائب الصنعة الإلهية . «مسامرة» جاء فيها أن علماء الدين في زماننا كهؤلاء الطب ، فكما أن عالم الدين اكتفى بتعليم العامة الوضوء والصلاة وما شابهها من الامور العلمية ، ولم يذكرهم بحمال هذا العالم وعجائبه ، هكذا عالم الطب لا يعنى إلا بالمداواة ، أما حفظ الصحة المقابل لمعرفة عجائب العالم فهو متروك عنده ، فهذه أم تعيش كما يعيش النمل ، عمل ولا علم ، إن دين الاسلام علم وعمل ، فليدرس المسلم الدنيا فانه أولاً يراها عابسة مملوءة من الشرور ، ولكن بعد التروى يرى هذه الشرور مفاتيح النعيم ، ومستحيل أن يحقق هذا غير كبار المفكرين ، مثال ذلك ما ستره من الدمايل التي ماهي إلا قلاع تحتها الجرائم القتالة للأعداء الداخلة في الجسم من الشررات المهلكة من الخارج ، فالدمايل أمراض ولكنها جعلت نعمة لتخليص الجسم من الأذى ، إن الأسد جندي لاجداث الحياة لشبهه ولاحداث اهلاك لفريسته فهذا مثال واحد عرفنا جنود الله المهلكة ، والجنود المهدات لاجداث الحياة .

كما أن جسم الانسان يهلك بالهفونات ولكن أمثال الدمايل والحمى تخلصه ، هكذا الأمة اذا فسدت يسلط الله عليها الأعداء ، فهؤلاء الأعداء كالدمامل ظاهريهم ضرر وباطنيهم نفع . خطاب المؤلف لأمم الاسلام يقول : إن الله وعدنا أنه يرينا الآيات في الأنفس والآفاق وقد أنجز وعده ، في زماننا لأننا عرفنا ما معنى منتقم وجبار ، فاذا كان منتقماً بأمثال الحمى والدمايل وحلول الأعداء الديار فهو انتقام ظاهراً رجة باطناً . وهذا كى المؤلف أن طبيباً مصرياً مشهوراً يداوى الناس ولكنه هو ترك نفسه فلم يبال بصحتها ، فالمؤلف نصحه بأن يقلع عن ذلك ، فليحافظ على صحته ، فسمع النصيحة وانتفع ، وهذه الحادثة تنطبق على حال المسلمين ، فهم بالقمه مولعون وغفلوا عن ترقية العقول كما قد يفغل الطبيب عن صحة جسمه وهو مكب على مداواة الناس . هذا بيان أنواع الجنود ، هي حسية ومعنوية ، وكل منهما إما للإهلاك وإما لاجداث الحياة .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكيما » . إن هذه الجنود واضحة في أجسام الناس التي تراها مشكلة لنظام الأم مشكلة تامة ، ويبانه أن جسم الانسان أشبه بمملكة ، وهذه المملكة يحيط بها الأعداء من كل جانب ، ويمكن دخولها إما من الفم وأما من الجلد كما يدخل العدو المملكة من الباب أو من السور ، فإذا دخلت الميكروبات وهي الحيوانات الذرية المملكة من الفم تلقتها الجيوش التي في المعدة فأهلكتها ، فإذا نجت منها تلقتها جنود أخرى في الامعاء وأيضا لا تجد لها الاكسوجين فتموت ، فأما اذا دخلت هذه الجنود المملكة من الجلد فان الجنود المدافعة وهي السكرات البيضاء والليمفاوية تقاثلها ، وتكون هناك معركة دموية بسببها تجندل جنود من الاعداء وجنود من المدافعين وخلايا من الجسم ، فتصبح هذه مادة القيح ، ثم تقوم جيوش الجسم بتريق جلد الورم كاللحم مثلا ، فتنفتح أعقب ذلك أنها تجفف الجرح وتصلح الجسم من جديد ، وقد اعتاد العامة في مصر أن يسموا ما يرى تحت الابط من ورم « حيلة » أي قوة للجرح الحاصل في اليد مثلا ، وهذا القول عجيب لأن علم الطب الآن أثبت أن هذه تكتنن الجنود الجسم نعباً فيها ، لنفث الجسم من الاعداء الداخلين . ومن عجب أن الانسان اذا أهمل الرياضة البدنية والاستحمام بالماء الحار والبخار والتعرض لضوء الشمس وتغذيت الأغذية المتراكمة في الجسم فانه يفسد لولا أن الله يسلط على تلك العفونات فيه الحمى ، تلك الحمى التي تذيب تلك العفونات بدل الشمس وأنواع الحرارة المتقدمة ذكرها . إذن ظهر من العلم اليوم أن جميع هذه الامراض نعم لانقم ، وظهر أن هذه الخلوقات جنود الله لافرق بينها وبين جنود الأم المعلومة في كل زمان .

٤٨ إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض ، الدم سائل لالون له ، خذ قطرة دم صغيرة بحيث تكون جزءا من عشرين ألف جزء من البوصة فانك تجد فيها ٩ آلاف من الخلايا البيضاء ، وخمسة ملايين من الخلايا الجراء ، ونفس هذا الجزء مثل سق الابرة ، ووظيفة الخلايا الجراء أولا أنها تملون الدم ثانيا أنها تحمل الاكسوجين فتوصله إلى خلايا الجسم ، ثالثا أنها تأخذ البقايا المتخلفة في الجسم فتعطيها إلى الهواء فتخرج معه وهي المادة الكربونية ، ووظيفة الخلايا البيضاء انها تحارب الاعداء ، فهي جيوش مقاتلة مدافعة ، فهي تصطف صفوفاً وتخرق أجسام الجيوش الداخلة وتسكن أنفاسها فتموت .

٤٩ المعركة اليومية في الجسم البشري ، الوقاية الطبيعية للجسم ، المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه ، العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم ، الخلايا البالغة ، الحرب بين الميكروب والخلايا ، الوقاية النوعية ، العدوى والمرض .

٥٠ المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه .

٥١ العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم .

٥٢ الخلايا البالغة .

٥٣ الحرب بين الميكروب والخلايا .

٥٥ صورة توضح حركة الأهداب التوجيهية وشكل البلعمات عند خروجها من الأوعية الشعرية ، وتبين الغدد والجاري الليمفاوية ، وكيفية اجتماع الميكروبات بطرق خاصة .

٥٦ صورة تعرف كيف تمتد الأوعية وتنقل البلعمات إلى المنطقة المطلوبة ، ويان شكل الاميبا ويان الخلايا الهدبية المبطنة للقصبة الهوائية .

٥٨ صور تبين اتجاه البلعمات نحو الجلد لضمه ، وتبين خروج البلعمات إلى ميدان القتال ، وتبين محاصرة

- البلسمات للميكروبات .
- ٥٩ وفيه أشكال تبين إرادة الميكروبات بالمواد المهيمنة ، وكيف تأكل البلسمات الميكروبات ، وكيف تخرج البلسمات من الأوعية الشعرية .
- ٦٠ الوقاية النوعية . خلاصة ما تقدم .
- ٦١ فبسط في جنود الإحياء و جنود الاماتة ، أو الظلمة والنور ، و بيان أنها تسمى أنواع كبرد الكهروباء السالبة والموجبة ، والجوامد والسوائل والغازات والميكروب بقسميه وهكذا .
- ٦٢ خطاب الله عزوجل للعالم ، اطاعة الكهروباء والأنوار لربها ، خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجمادات .
- ٦٣ ههنا نحو عشرين نوعا من خطاب الله لهذه المخلوقات كخطابه للذرات أن تفتت المواد لئلاء النبات ، وللذرات التي في المواد المتعفنة وللآساد والجراد والنمل والعنكبوت وبنى آدم ، وكقوله : قم ياشرق وتم ياغرب ، وللسلمين اليوم أن اتحدوا ، وللعلماء منهم أن ينصحوهم .
- ٦٧ تفنن في صور المادة وتفنن في صور الألفاظ و بيان هذا المقام أن هنا شمسا وكواكب تتردد في المنازل طالعة غاربة فتحدث عنها صور شتى من حيوان ونبات وعجائب لا يحصرها ، وههنا نظير ذلك في الانسان هواء يتردد في الخارج فيحدث به صرير فتكون حروف وتلك الحروف تعطي صوراً معنوية تعرفها النفس وهي صور جميع المخلوقات المتقدمة ، وهكذا هناك حركات في الذهن تعطي صوراً كلية هي العاظم والمعارف ، إذن ههنا شمس وكواكب تجري فتحدث صوراً وهواء يعطي صوراً في النفوس بألفاظ وأفكار في العقل تفعل كذلك ، فالجنود إما من صور تحدثها الكواكب ، وإما من ألفاظ تحدثها الطوائف في الفهم ، وإما من نفس العقل .
- ٦٩ و جنود العلم اليوم في بلاد الاسلام تطرد عدوين : الحرافات والأهم الاوروبية أى المجرمة منها ثم ان الجنود النورية حسية وعقلية ، والقسم الثانى أحق باسم الجنود ، ومقدمة إيضاح هذا القسم الثانى ما يأتى : ان الناس ضيوف عند ربهم ، وهذه الضيافة لها مثل وهو أن (ماريه) بنت عفزر من بنات ملوك اليمن خطبها ثلاثة من حفرل الشراء ، وقدموا لها هدايا ، وأسمعوها شعرا ، فكان أشعروا كرم الثلاثة إنما هو حاتم المشهور بالكرم ، وهذه الحكاية قصصتها على الفلاحين فأذكرتنى أن الأمم ضيوف عند ربهم ، نظرت النخيل ليلا والكواكب فتذكرت أن الناس يمدحون من يقدم لهم طعاما ويضئ لهم سراجا ، والله قدم للناس الكواكب والشموس وجميع ما فى الأرض ، فهم يفهمون النعم القليلة ولا يفهمون النعم الكثيرة فى السموات والأرض ، فهم ينسون الكثير ويفهمون القليل . الجنود صنفان ولا حصر لأفرادها . الجنود المعنوية العقلية .
- ٧١ جنود العقول الانسانية والحيوانية . الاستدلال بالعقول الارضية الجزئية على العقول السككية السماوية
- ٧٢ النتيجة صادقة لمقدمات محسوسة . نتيجة هذا القول تفسير آية : « ولله جنود السموات والارض » وآيات كثيرة .
- ٧٣ ههنا عقول انسانية تستخرج سراجا تنتفع به ، وهذا السراج إن هو إلا من البترول أو الفحم أو الشمع أو الكهروباء أو غيرها ، وهل كل ما فى الارض إلا مشتق من الشمس ، إذن الضياء الارضى مشتق من الضياء السماوى فليكن العقل الأرضى مشتقا من عقل كلى وهو الذى صنع الشموس والكواكب كما صنعنا نحن أضواءنا فى الارض فى قناديلنا ، وما ذاك العقل الكلى إلا ملك وما أكثر الملائكة وما أكثر

النجوم والشموس .

٧٤ ملخص ما تقدم في ستة جل ، غاندى يصف رحلته في المياه المصرية ، وهذا المقال مناسب لهذا المقال من حيث انه ذكر الشدة واللين ، والحب والخوف ، وقل : إن اللين ينفع في كل حال ، وأن من استعمل اللين لا يكون عمله شريفا إلا اذا كان قويا لا يخاف ، والمحبة لا تجتمع مع الخوف ، المحبة لا تنال عند ما تعطى : المحبة تكافح العالم ثم تفوز وتفوز ، إن المحبة في الانسان أقوى من الكهر باء في الطبيعة من يكشف المحبة العامة أقوى من يكشف الكهر باء ، ولا جرم أن الشدة واللين والحب والخوف من جنود الله المعنوية في هذا المقام ، وههنا مقال ضاف يشرح : —

(١) معنى أن الحياة مطردة الوجدان مع انها محوطة بهوامل الهدم والهلاك ، وذلك أن الهدم ماهو إلا اصلاح لما فسد وارجاعه بحال أنفع للوجود من الحال السابقة ، إذن هذا العالم محوط بالحب ، وما الهدم إلا عملية لبقاء ذلك المحبوب بهد هدمه .

(٢) وما معنى أن الحب له السيادة في العالم والعالم كما شقاء ، وأن ذلك الشقاء والغل ماهو إلا اثرية ورقية للأرواح في الارض فلا يظهر انه ضد الحب هو لا الحب .

٨٠ (٣) ثم ما معنى أن ناعوس المحبة يعطى سلاحا وطمأنينة ويفسر خفايا الطبيعة وهذا مفهوم مما سبق الاطيفة الرابعة في قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله الخ » وفيها أربع جواهر : الجوهرة الأولى في آية : « ليظهره على الدين كله » وفيه مقال (لوثراب استودارد) الامريكى تكلم عن الرسالة المحمدية إذ قام بمشرها في زماننا هذا السباح والتجار والحجاج وغيرهم كالطرق الدينية وأهمها جماعة السنوسية الذين يدخلون الوثنيين في الديانة الاسلامية في افريقية ، وقد قال أحد الانجليز : « إن الاسلام يفوز فوزا عظيما في أواسط افريقيا ونوره ينسخ ظلام الوثنية ، والنصرانية أصبحت خرافة » . وقال مبشرو تسانتى : « إن الاسلام يسير سيرا حثيثا لم يقف إلى اليوم ، النصراني يحلمون بفتح افريقيا في نومهم والاسلام فتحتها في اليقظة ، عرب زنجبار من سنة ١٩٠٠ بشروا بالاسلام بلاد (نياسلانده) فأصبح بعد سنين معدودة في كل قرية مسجد ومدرسة والانجليز لم يقدروا على صد هذه الدعوة ، وسيجتاز الاسلام زمبارى ويطبق جنوب افريقيا والقارة كلها ، والاسلام ينسخ النصرانية كما ينسخ الوثنية ، فالذين تنصروا أيضا يسامون ، بل النصرانية في الحبشة ينسخها الاسلام في هذا الزمان ، بل ظفر الاسلام في الحبشة أعظم ظفر للاسلام ، والمسلمون المرتدون قهرا في روسيا رجعوا إلى الاسلام .

٨٢ الكلام على آية أشداء على الكفار ، وأن هذه الشدة أحست بها أوروبا في زماننا ، فقد جاء في مقالة عنوانها « أوروبا وآسيا » أن انكاترا وإن خرجت ظافرة من الحرب الكبرى كان هذا الظفر خيبة لها فقد ثار عليها الأفغان والهند ومصر ، ثم ان تركيا المضاعفة نهضت وطردت انكاترا وحلفاءها ، والصين تطالب البلاد المنساخت منها (وبعبارة أخرى) آسياء قائمة اليوم ضد أوروبا وقد أصبحت روسيا معاونة لأهل آسيا بعد الحرب وقد كانت مهادية لهم قبلها ، وأيضا يقول : ان انكاترا استفادت من بغض الروسيا لأهل آسيا ، فكانت الروسيا ترهب الصين والدولة العثمانية ، وانكاترا كانت تأخذ ثمرات ذلك ، فاحتلت ما أرادت احتلاله ، وإيطاليا أخذت طرابلس ، وفرنسا أخذت الجزائر وهكذا ، فلما أصبحت الروس بلشفية تنفس الشرق الصعداء وأصبح أمام انكاترا ومن معها وجهها لوجه تحفز المسلمين لتلك الشدة المذكورة في الآية ، وبيان الذى أوقد نار تلك الشدة وهو السيد جمال الدين

الأفغانى ، وقد حبس معه رجل اسمه « رضا آقا خان » فى قزوين ، ولما جاء رجال الدين إلى الاستانة زاره رضا آقا خان المذكور وأوصاه جمال الدين أن يقتل سلطان الفرس ناصر الدين فقتله ففرح جمال الدين وهذه أغضب سلطان تركيا عليه وهو عبد الحميد ، فعمل الحيلة فى قتله ، فقتله بحجة السرطان فى لسانه ٨٥ تعاليم جمال الدين مهروفة قوية ، ولم يخفه أحد من أهل أوروبا مثل ما خافته بريطانيا ، سجنته فى الهند ثم أطلقته فجاء إلى مصر ، وله يد فى الثورة العربية ولما دخل الانجليز نفوه ، ثم وصل القسطنطينية فساعده السلطان على الجامعة الاسلامية .

٨٦ شدة المسلمين على الكفار فى زماننا ، وإغارة ايطاليا على طرابلس ، وتآلب الدول البلقانية على تركيا خفرت جميع أملاكها ، ثم اتفقت انكسرتا والروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وعصت فرنسا على مراكش ، فغضب المسلمون غضبا شديدا ، وهذه العداوات جعلت المسلمين يحبون الوثنيين فى الشرق الأقصى ، وفرحوا بانتصار اليابان على روسيا فرحا شديدا ، وأحبوا أن تدخل اليابان دين الاسلام ، وأوفد السلطان وفدا إلى اليابان .

٨٨ إن أوروبا نفسها بايغارها صدور المسلمين جمعت كتهم .

٨٩ الفصل الرابع فى الكلام على الجامعة الاسلامية ، وأن ساسة أوروبا يشهدون أن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها فى كل زمان ، وايس نداء السلطان عبد الحميد للمسلمين بالجهاد شرعيا حتى يتخذ دليلا على وهن تلك الجامعة .

٩٠ بيان أن الصحافة الاسلامية اليوم منتشرة انتشارا عظيما ، وقد أيقظت المسلمين هى وغيرها إيقاظا عظيما

٩١ فى سنة ١٩٠٠ لم يكن فى العالم الاسلامى أكثر من مائتى صحيفة للدعوة فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٩ خمسمائة صحيفة ، وزاد سنة ١٩١٤ على ألف صحيفة ، وازدياد التواصل أشعل تلك الحركات .

٩٢ يقول عالم فرنسى : « إن المسلمين لا يهتبروننا مالمدين فى بلادهم » .

٩٣ نور على نور وفيه انتشار الاسلام فى أوروبا وأمريكا فى زماننا ، وكيف أسلم الاستاذ محمد أفندى عز الدين (لوماكس الأمريكانى) وهامى ذه رسالته فى ذلك ، يقول : « الاسلام فى جوهره قوة وقدره الخ » .

٩٤ متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهادنى سواء السبيل ، وههنا ذكر خمسة أصول اسلامية كالشهادتين والصلاة والصوم الخ .

٩٥ وهكذا الحاج ناصر الدين دينه المستشرق الفرنسى المصور المشهور ومعه الاستاذ راشد بك رستم ، وقد ألف الأول رسالة عربىها الثانى اسمها « أشعة خاصة بنور الاسلام » وفيها أن قوة الحياة كامنة فى اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ، وأن أوروبا مصرة على عداوة الاسلام والمسلمين ، وقد نقل عن القس (زويمر) أن خمسين مليوناً من السودان و قبيلة هادسا الكبيرة وقبائل بلاد النيجر والشاطئ الذهبى أسلم الكثيرون منهم ، بل الاسلام سيعمهم جميعا ، وفى البنغال بالهند أسلم أكثر من عشرة ملايين ، وكذلك برمانيا بجوارها زاد عدد المسلمين على الثلث فى عشر سنوات ، وفى أنحاء أوروبا وأمريكا أسلم كثيرون .

٩٨ شرح عداوة أوروبا للاسلام : وكرهية الاسلام تحت ستار العلم

٩٩ الجوهرة الثانية فى آية : « رجاء بينهم » مع آية : « إنما المؤمنون اخوة » فى (سورة الحجرات) وفى هذه الجوهرة ملخص المقدمة التى كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامى » .

١٠٠ نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه ، وههنا أعجب المؤلف بدين الاسلام إعجابا شديدا ، إذ ذكّر سلطان

الروم والفرس الخ ارتقى الاسلام ارتقاء مدهشا في زمن الخلفاء الراشدين وفي العصور الأولى ، ثم أخذ يتدلى شيئا فشيئا ، وأول التدلى في أوائل القرن العاشر ، وههنا مزق هذه الدولة الاحن والضفائن بسبب جعل الخلافة ملكا عضوا لاشورية ، فرجعت العصبية كرة أخرى ، وههناك تفككت أجزاء تلك الأمة الاسلامية ، فسكان للعباسيين دولة في بغداد ، وللا مويين في الأندلس ، وللغاطميين في مصر ودخل الفرس أولا والترك ثانيا في أمور الدولة ، فزقت الدولة كل مزق ، وفي القرن الحادى عشر المسيحي حيت معالم الحضارة الاسلامية .

١٠٦ دخول الترك في الاسلام سراعا لم يدمت أخلاقهم ، ولما حكموا أمم الاسلام لم يكونوا رجاء بالانصارى الذين يحجون إلى بيت المقدس كما كان العرب من قبلهم فآذوهم فتعصبت أوروبا ، فسكان ذلك سببا للحروب الصليبية ، فالترك هم السبب في تعصب أوروبا للنصرانية ضد المسلمين .

١٠٨ خضع المسلمون العرب للترك ، ثم جاء جنكيزخان وخلفاؤه فأهلك العالم الاسلامى وقطع سدود العراق فأصبحت البلاد صراعى للماشية بهدان كانت مزارع عامرة إلى آخره .

١١٠ الترك العثمانيون هجموا على أوروبا ووصلوا إلى فينا ، ولكن أوروبا زدتهم ، ومن ذلك الوقت أحست بأنها قوية ، وقوتها الأموال الأمريكية الجديدة ، ونام الاسلام قرونا إلى القرن التاسع عشر ، وقد اقتسمت أوروبا أقطاره ، ولكن الآن هب الاسلام من نومه ، وابتدأ يأخذ دوره .

١١٢ الفصل الثانى فى آية : « رجاء بينهم » وبيان أن انكلترا وفرنسا كانتا تجهلان حال العالم الاسلامى أيام الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة .

١١٤ ذكر ما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها من أن الاسلام دين الحرية ، وأن المسلمين أول الأمم فى الحرية من أى صنف كانوا .

١١٥ الفصل الثالث فى أن أوروبا شورية فى بلادها مستبدة فى غير بلادها ، وأهل الشرق والمسلمون لا بد فائزون من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » .

١١٦ الفصل الرابع فى هياج العالم الاسلامى .

١١٧ مجزة جديدة لم تعرف من قبل وهى توضيح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » الويل لأوروبا اذا جهلت : من كلام المؤلف الأمريكى المذكور .

١٢٣ مؤلف ههنا الكتاب يقول : « إن المسلمين اليوم أرقى منهم أيام الامام الغزالى مبرهنا بما يقرهون من كلامه الفلسفى » .

١٢٤ فصل فى ذكر مثال واحد لرجة المسلمين لغير أمم الاسلام من رجال العصور المتأخرة ألا وهى السيد الأجل الذى كان حاكما فى مدينة (ينان) من بلاد الصين بأمر ملكها ، وقد أقام العدل ، ونظم الجند ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، وحزنت الأمة كلها عليه لمسامات ، وبنت له المعابد ، وأبقت اسمه مذكورا فى الكتب على مدى الأجيال إلى الآن .

١٢٦ الجوهرة الثالثة فى آية : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

١٢٧ الصلاة فى نظر المهاتما غاندى ، وأنه يرى أنه كلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة وأن أول حياته إلحاد ثم جاءه نور من الله ، الصلاة لاروح ألزم من الغذاء للجسم ، ولا حجة للصلاة وههناك حجة للأكل ، بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يسعدوا إلا بالصلاة ، لافلسفة عندى ولكن عندى الصلاة .

١٢٨ فضل الله على الناس : يعتقد المؤلف أن عذاب الناس في الأرض لم يقصد به التعذيب وهم محبوسون فيها ، ويجب كيف يكون السجن بستانا وفيه أشجار للهدى المسجونين ، ولقد أظم الله أهل أسباطه أن يمرّوا الاطفال على قبول التعذيب ، وأظم السودانيين الرضاء بالتعذيب أمام العانيات .

١٢٩ الجوهرة الرابعة في آية : كزرع أخرج شطأه الخ . يذكر المؤلف أن الله صدق وعده وأن هذا زمن ظهور المعجزات ويشكر ربه على ذلك ، لأنه ذكر في أوائل هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على سوريا فقتلوا بها ، وذكر في آية : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا » الخ أن اليهود اتكأوا على شفاعتة آبائهم فغاب ظنهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وذلك جعل لرقينا نحن وأنه اعتبار لنا لا ذير ، وأن هذا سرّ (ال م) الخ . يقول المؤلف هذا تقدم ، وهل كان يخطر لي أنني لا يتمّ طبعي للتفسير حتى أرى أن العراق قد صارت مستقلة ، وأن سوريا ستستقل حالا ، وأن ذلك سيكون فاتحة دور جديد في الشرق الأدنى ، وأن أوروبا خاب ظنها .

١٣١ الفتح الاسلامي في زماننا وآثار النبوة المحمدية ، ثم زادت دهشة المؤلف من حضور شاب تركستاني من بلاد التركستان الصيفية وقد أخبر الناس بمصر وفي الجرائد أن هذه الكتب كانت سبب فتح مدارس في بلاد التركستان والصين وغيرها ، وأن هذه الأمم انقلب نظامها رأسا على عقب ، ومعنى هذا أن الاسلام انتشر انتشارا غريبا مدهشا ، وهذه كلها آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

١٣٢ المؤلف يتخيل شبانا يأتون من التركستان والصين في المراكب الهوائية يزورون أهل شمال افريقيا ويردّ هؤلاء الزيارة لهم ، ويجب المؤلف أيضا من أن يكون هذا الزمان قد ظهر فيه مؤتمر اسلامي لم يكن له نظير ، وفيه ثمان لجان لحفظ كيان الأمم الاسلامية .

١٣٤ ﴿ سورة الحجرات ﴾ نص الآيات مشكلة .

١٣٥ القسم الأول من السورة تفسير البسملة ، وأن عادة الشعراء أن يبدؤوا بالفزل ثم ينتقلوا للدح ، ولكن براعة استهلال القرآن جاءت بذكر الرحمة والرحمة مشروحة في ﴿ سورة الرحمن ﴾ والرحمة في ﴿ سورة الفتح ﴾ أصولها انكشاف الحقائق ثم فتح البلدان ، والرحمة في هذه السورة عملية وهي الفضائل التي تبلغ ١٢ كالأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح واجتناب التجسس الخ وهذه مباحث واسعة ، ماخصه أن مقتضى الرحمة أن لا يكون نقص في الانسانية حتى يحتاج الانسان في دفعه إلى الزواجر القرآنية ، وأجاب المؤلف على ذلك بأن هذا العالم كله ليس شيئا مذكورا ، وهل هو إلا حركات وتلك الحركات صارت أضواء ان كانت أقلّ وحجرا وحديدا وأرضا الخ ان كانت كثيرة ، إذن هذه الدنيا كلها وكواكبها كهرباء مضغوطة ، إذن هذا عالم أشبه بالعدم ، وما أشبه بالعدم فهو ناقص ، والله موجود ، وهو يريد أن يخلق روحا يكملها ، ووسيلة كمالها أن تتفاعل تفاعل الكهرباء السالبة والموجبة حتى يكون لها وجود مستقل ، أو شبه مستقل ، ومن تمام التفاعل العلم والحكمة والأنبياء والاهلآء وهكذا .

١٣٨ جال في جبال : خيال المؤلف يرى أن العالم موسيقي ، ويبين ذلك بأن المادة راجعة فعلا إلى أنوار كهربائية ، وهذه الأنوار فيها حركات وأنوار ، فالحركات موسيقي والأنوار جبال ، وضروب القسمين لاحد لأفرادها ، فلو تجلّت لنا العوالم على هيئتها الأصلية لتزوّقت أرواحنا من جبال الصور المشبكة الألوان وسماع الأغاني المدهشة ، فمن رحمة الله أن حجب هذا كله بالقتال والنقصان ، وأنواع الذنوب ، وذميم الاخلاق لنتشغل بالخروج منها .

- ١٣٩ القسم الثاني ، التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة من أولها إلى آية : « والله غفور رحيم »
- ١٤١ القسم الثالث من السورة من آية : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بقباً فتبينوا » إلى آخر السورة
- ١٤٣ خاتمة في مباحث هذه السورة وهي ٩ مثل أن لا يتجاوز صوتهم صوته صلى الله عليه وسلم وهكذا .
- ١٤٤ قسم التخلية فيه ١٤ فصلاً مثل النهي عن تصديق كلام الفاسق ، ومثل النهي عن الغيبة وهكذا
- ١٤٥ القسم الثالث : التحلية بالفضائل ، مثل أن الناس يتعارفون ، وأن بلالا أذن على ظهر الكعبة وقرش ترى ذلك على خلاف عادتها .
- ١٤٧ لطيفة في آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وبيان أن المؤلف رأى امرأة عرجاء صفراء ، فخطر له أنها لا تطلب للزواج ، وانتقل من ذلك إلى أن كل امرئ ممتحن لمن يريد زواجها ، فالجاهل يكتفي بامتحان ظاهر الجال وليسكن العقول يرى أن الامتحان يكون في الخلق والقوة الجسمية والقوة العقلية ، وهذه الخلال الثلاث هي التي تسمى لها جميع مدارس العالم شرقاً وغرباً كما تقدم في آية ويهديك صراطاً مستقيماً ، وهنا عجب المؤلف من آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وهو امتحان في الأخلاق ، وهذه دعامة من الدعائم الثلاث وامتحان الله في إحداها ، وإذا امتحن الله فيما هو أصعب فعلياً أن نمتحن فيما هو أسهل من باب أولى ، إذن لمتحن كل شيء ، الطيب يمتحن المريض بحسب نبضه لسا ، وسماع عدد الضربات ، ومشاهدة البول واللسان ، فهو ممتحن باللس والسمع والبصر ، هكذا فلنمتحن كل شيء ولا نتشكل على الغريزة ، بل ندقق الامتحان في كل شيء وههنا ذكر المؤلف امتحان الرجل الكامل من كتاب « مسرّات الحياة » وأنه ذو العقل الرزين ، والعواطف الشريفة ، الصادق النظر ، ذو القوة البدنية ، فإذا لم يكن العقل رزيناً وقع في الخطأ ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة كان الإنسان عاجداً لنفسه ، وإذا لم يكن جسمه حديدياً فإن عمله يكون ضئيلاً وإن كانت نيته حسنة ، إن العبقري من الرجال صفاته عظيمة ومقامه فوق كل مقام .
- ١٤٩ اللطيفة الثانية في آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « عليم خبير » وفيها أربع مقالات : المقالة الأولى في الصلح بين الطائفتين المقتلتين .
- ١٥١ الشيعة العباسية والعلوية ، وههنا دهش المؤلف من جميع المسلمين في تلك العصور ، فالشيعة العباسية والعلوية قاموا في وجه بني أمية ، ولكنهم بعد انهزام الأمويين لم يحصل منهم عدل لأمع الأمويين فانهم قتلهم قتيلاً في حال الأمن ، ولأمع بعضهم فإن العباسيين اغتصبوا الملك من بعض بني الحسن الذي تمت له البيعة الصحيحة ، فتولى الملك السفاح ثم المنصور الذي قتل صاحب البيعة ، وكان المنصور والسفاح كثيرى الغدر بمن يعطونهم الأمان من أقاربهم العباسيين ومن غيرهم من العلويين ومن أشياعهم حتى أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، ذلك الذي قتل ٦٠٠ ألف نفس بلا ذنب إلا الاتهام ، وذلك بأمر إبراهيم الامام .
- ١٥٤ سياسة العباسيين في تأييد سلطانهم .
- ١٥٥ المنصور والدولة العباسية .
- ١٥٧ امتحان المؤلف لسيرة هذه الأمم مثل أن هشام بن عبد الملك يقتل سرا أباهاشم بن محمد بن الحنفية غدراً ومثل أن أباهاشم لما أحس بالموت أوصى لبني العباس بالبيعة ، ومثل أن العباسيين بايعوا باسم آل محمد ومثل أنهم غدروا بأبي سلمة الخلال المأثر الشهير ، ومثل أن عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة طلب المال من السفاح ، ومثل أن أبا جعفر المنصور يقتل أبناء الحسن الذين كانوا نصراءه بالأمس ،

فأين الشورى إذن ؟ ومثل اختلاف الآمين والمؤمن

١٥٩ نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام ، الأمويون أعزوا العرب ، والعباسيون أذلوههم ، واستعانوا بالفرس والترك ، وهذا العمل بقي إلى الآن ، مثل المماليك البرية والبحرية بمصر ، واستعان أمراء الأندلس ببابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ، وكيف ذلت هذه الأمة بهذا الجهل .

١٦٠ بيان أن الأمة أشبه بدافل وكل قرن سنة ، فهي الآن في الرابعة عشرة ، إذن قد بلغت باوفا أشبه بياوغ الاحتلال ، وكل ما حصل لآبائنا هو عظة لنا ، فهي نعمة لأننا المستقبل .

النظام العام في الاسلام ، وبيان أن أم الاسلام كانت عادلة في أحكامها بواسطة القرآن والدين ولكن الملك تنقل من دولة إلى دولة « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

١٦٢ جمال السلام ونور الحكمة وأزهار الحقائق العلمية : يقول المؤلف : انه بينما كان يفكر في تفسير « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » في سورة ق إذا استبان له بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف في ﴿ سورة ق ﴾ لها صلة بها في أول ﴿ سورة البقرة ﴾ والتي في أول سورة البقرة مفتاح للعلوم التي كانت أبوابها مغلقة قبل زماننا : والذين بعدنا سيفتحون أبواب تلك العلوم بهذه المفاتيح ، وأن النباتات أنواع متفرقات مختلفات ، فيها ما يتفدى به الدود مما هو قدر عفن منبوذ ، ومنها ما يتفدى به الانسان ويدهما درجات كثيرة جدا ، وليس في الأرض عاقل يمترض على هذا النظام ، فسكل عاقل في أرضنا لا يمترض على اتساع عالم النبات لتفذية الحشرات والأنعام والدود والانسان ولا يأنف من ذلك ، بل يراه أصرا عظيما ، وإذا كان هذا واضحاً في النبات فلتنقس عليه ما ليس بشديد الوضع في غيره مثل دين الاسلام ، فهو تنزيل الله ، وقد فعل الله فيه ما فعل في النبات ، فكما رأينا النبات قبل الدود والحشرات الخ هكذا رأينا هذا الدين قبل أيها ليست في الذروة العليا من الانسانية ، ولم تقبل منه تلك الأمم إلا على مقدار همها كما قبل الدود من النبات على مقدار استعدادها ، فهذا نظام عجيب ، وهذه حكمة التكوين الذي هو أمر آخر غير نظام التشريع ، ولا جرم أن نظام الفلسفة العام ونظام الحكومات كحكومتنا المصرية ، ونظام الديانات العام ، ونظام المذاهب الاسلامية كلها تقاس على نظام النبات كما تقدم ، فنظام الفلسفة العام لا يختص بعلم من الطبيعيات أو الرياضيات ، بل هو عام لها كلها ، ويذر الفيلسوف آحاد الأمم يفكرون في العلوم الجزئية كما حصل من الدود والحشرات في الاكتفاء من النبات بما يناسبها ولم تفكر كما يفكر الانسان في جميع النبات ، فكما كان الانسان فيلسوف الحيوانات هكذا رأينا قارئ الحكمة فيلسوف العلماء بالعلوم الجزئية ، وهكذا صاحب السلطان في الأمة كرئيس الجمهورية له الاشراف هو ومجلس النواب على الوزراء ، فهو في الأمة كالفيلسوف المذكور مع العلماء وكالانسان مع الحيوان في أمر النبات ، هكذا علماء المذاهب الاسلامية عموما من الشيعة وأهل السنة ، فسكل هؤلاء لا يخطر ببالهم نظام الاسلام العام ، بل هم متفرقون في الفروع التي تلقوها كابر عن كابر ، فهو لاء أشبه بحيوان يأكل نباتا خاصا ، أو شيخ قرية في البلاد المصرية وهكذا ، وليس يقدر أن يرفع بصره إلى أعلى ، وهذه درجته وهو معذور في ذلك ، وسيقوم في المسلمين الآن وبعدها أناس حكماء يقولون : أيها المسلمون على رسلكم : ماذا جرى لكم ؟ ان علماءنا السابقين كانوا معذورين جميعا ، وعلينا نحن أن ندرس القرآن دراسة أخرى .

١٦٩ ألم تروا كيف كان الصحابة إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لا يتركونها حتى يفقهوا معناها ، ونحن لا نعرف ماذا كانوا يتعلمونه منه ، وها هو ذا نور الله في الخليقة ، فلندرس الدنيا ونظامها

وبهذا يتجلى لنا هذا القرآن والا فكيف نرى أن ابن عمر لم يحفظ البقرة إلا في ثمان سنين وما معنى « ليتدبروا آياته » .

١٧١ آراء « جون راسكن » في التعليم وأن المدار فيه على أن يكون مغريا للتعليم أن يكون مكبا على العلم أما كثرة المعلومات فلا أهمية لها . ويقول غيره : « نحن لا نهبط طعنا على أول النهار هكذا ليس التعليم خاصا بأول العمر ، الحياة كلها زمان للتعليم ، ولا سبيل لجعل الانسان عاشقا للعلم مدة الحياة إلا بتعليم المعلمين له ذلك » . إن حكماء الأمم الاسلامية بعدنا سيصلحون ما أفسده سوء التعليم لأبائنا ، وسيصرفون هذه الأمة عن هذه الذنوب والأخلاق الشائنة ، وسيقولون : إن ما وقع لأبائنا جعل نعمة لنا لنحترس مما وقعوا فيه ، وإذا كانت الأمم المحيطة بالمسلمين قد اتحدت أقلا يكون المسلمون أولى بهذا الاتحاد ، وعلامة هؤلاء المصلحين في الاسلام أولا أن عددهم قليل كقلة عدد ملكات النحل ، ثانيا : هم يحبون خلاصة العلوم كلها فتتفدى نفوسهم بها كما تفدت ملكات النحل بعسل أبيض مخالف لفضاء رعايا هذه الملكة ، ثالثا : انهم مغرمون بحمال هذه الدنيا ، رابعا : ان الناس يميلون إلى تعاليمهم .

١٧٣ نور على نور في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة إلى الآن ، وفي هذا المقام مقالة المفيرة أمام رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية ، ومقالة عبادة بن الصامت للقوقس صاحب مصر لما خوفه بجموع الروم ، وأن المسلم ينال أحد أمرين : إما دخول الجنة بالقتل ، وإما النصر في الدنيا .

١٧٥ آراء خطيرة في الخلافة : وهو مقال ثلثا في ذكره في « مجلة المعرفة » يقول فيه : « إن خلفاء المسلمين بعد العصر الأول لم يتبعوا الشورى ، والخلفاء الراشدون لم يجعلوها بالوراثة ، والمسلمون ليسوا سلعها يرثها الأبناء عن الآباء ، فيجب أن يجتمع الأمراء اليوم ، ويجعلوا واحدا منهم هو الخليفة ، وليكن جديده أعظم ، وعلم أمته أوسع ، بشرط أن لا يكون السلطة أجنبية عليه يد .

١٧٦ وههنا ذكر الولايات العشر المفرقة عن الدولة العباسية لما أخذت في الاضمحلال مثل البصرة وخوزستان وفارس والبحرين والجماعة وهكذا . ذكر استبداد الجند والخدم ، وكيف فعل جند المغاربة والأتراك بالمعز سنة ٣٥٥ هجرية إذ أوقفوه في الشمس وعذبوه ، ثم قتلوه قتلا شديدا .

١٧٧ جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن ، وهي نيف ومائة دولة ، وعدد رؤسائها ١٢٠٠ رئيس فيهم خلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأنباكة والاختشيدية والخديوة والشرفاء والبابات والدايات ، ومنهم العرب والفرس والترك والشراكسة والأكراد والهنود والتركمان والافغان وغيرهم ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقبروان وقرطبة والاسطانة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها .

١٨٠ بهجة الجمال في تاريخ الأمم الاسلامية وفي جواب اعتراض على المؤلف : يقول المعارض على المؤلف أنك قد ظهرت في هذا المقام بظهير يحمل القارئ في حيرة من دول متشاكسة ، وأحوال متعارضة ، مع ان آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما » لا تتحمل ذلك ، وهذا خارج عما درج عليه المفسرون ؟ فأجاب المؤلف قائلا : أولا إن الانسانية بارزة من وسط الحيوانية المثارة الشهوات ، وقد أرادت الاعتدال في القوة السبعية والبهيمية ، ثم ظهر فيها مصلحون أمثال (كونفوشيوس) المصلح الصيني في القرون الأولى ، وقد ظهرت علومه صريحة ترتيبا مدعشا منظما بحيث انه جعل تهذيب الفرد يتبعه نظام الأسرة يتبعها نظام الدولة فيكون العدل العام ، ونظام الفرد الذي هو الأساس مبني على

نظام تهذيب الأخلاق ، وهذا مبنى على النقاوة المبنية على الصدق والأخلاص في التفكير ، المبني على اتساع المعارف ، المبني على المشاهدة ، إذن كونه فيسوس يجعل المشاهدات مبدأ تمتد منها سلسلة تنتهي بنظام الدولة ، وآراء هذا الحكم تقارب آراء علماء اليونان مثل سقراط في جمهوريته الذي يقول : « إن رجال الحكومة يجب أن يكونوا منزهين عن المادة منصرفين إلى المثل الأعلى ، وهم آباء للأمة والأمة أبناؤهم ، وتعليمهم يجب أن يكرن تعلما عاليا على مقتضى مقله كونه فيسوس وإن لم يعرف أحدهما الآخر ، ولما طبق المؤلف هذه المعارف على أمم الاسلام وجد أن ترتيب الحكومات من أعلاها إلى أدناها في مراتبها الخمس ظهرت في أمم الاسلام فعصر الصحابة بهيئة الوصف الذي وصفه سقراط ، ثم جاء الأمويون والعباسيون ومن معهم ومن بعدهم فأخذوا ينزلون درجة درجة ، فكان المثل الأعلى أيام النبوة وعصر الصحابة وحكومة الجسد التي هي أقل منها كانت أيام الدولة الأموية وأول العباسية ، ثم كانت حكومة الثروة والمال ، ثم اضمحلت الدولة فكان الاستبداد ، وذلك ظاهر في بغداد والناصرة وقرطبة وجميع بلاد الاسلام ، وهذا كله يجب ذكره تطبيقا على آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » وكل هذا داخل تحت فصول مثل عالم الحيوان وظهور الانسان وآراء سقراط الخ . تطبيق علوم تلك الأمم على أممنا الاسلامية .

١٨٦

١٨٧ خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي ، وعبد الله الحسني .

١٨٨

١٨٨ خطاب المؤلف للمسلمين ، وبيان أن الله أسس ذلك التاريخ لنا الآن ، وخطاب الله للأفراد والأمم .

١٨٩

١٨٩ فصل في أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها .

١٩٠

١٩٠ الفصل الثامن في تبیان نعم الله علينا وعلى الناس

١٩١

١٩١ نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول والمزارع والثمرات

١٩٢

١٩٢ اشراق شمس الاسلام بعد اظلام ليله : الاتفاق بين ملك اليمن ، والملك ابن السعود .

١٩٤

١٩٤ مصداقا لما قلناه من ظهور نور الاسلام في زماننا هذا خاصة بعد عصر الصحابة والتابعين وذكر معلومات

جديدة عن بلاد التركستان الصيفية ، وانها اشرقت فيها شمس الأنوار المحمدية ، وأخذوا يقرءون علوم الأمم التي لم يقرأها آباؤهم بما قرءوا في كتب مؤلف هذا التفسير .

١٩٦

١٩٦ المقالة الثانية : « يا أيها الذين آمنوا لا يدخر قوم من قوم » الخ وبيان أن هذه الآيات فيها مقامان :

المقام الأول في غوائل اللسان ، المقام الثاني في غوائل القلب ، والمقام الأول يشتمل على مباحث الجهمية النفسية في أوروبا ، وعلى ما كتبه الامام الغزالي .

١٩٧

١٩٧ أما مباحث الجهمية النفسية ، فهي ترجع إلى أن للانسان مغناطيسية اذا ضغطها ولم يتكلم وكنتم أموره

كان أشبه بكوكب ، وانجذبت إليه الناس ، وارتقى عقله ، وكثر ماله ، وأحبه جميع الناس بل انصب ولا تعب ، أما المتكلم بكل ما يخطر له فانه يصبح فارغا ويحقره الناس وهو لا يدري لماذا يكون هذا الاحتقار

٣٠٣

٣٠٣ أما ما قلناه الامام الغزالي في الاحياء فذلك انه جعل غوائل اللسان عشرين نوعا وفصلها تفصيلا ، وقد

ذكرنا هنا منها عشرة ، وسنذكر العشرة الأخرى في ﴿ سورة : ق ﴾

٣٠٤ بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت ، وذكر الأحاديث الشريفة مثل حديث : « من صمت نجا »

ومثل : « الصمت حكم وقليل فاعله » وقد كتب على الهامش بيان صفة هذه الأحاديث من الضعف

والصحة والحسن الخ .

٣٠٨ ذكر آفة الكلام فيما لا يعني .

- ٢١٠ الآفة الثانية : فضول الكلام والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » .
- ٢١١ الآفة الثالثة : الخوض في الباطل ، والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله » الخ .
- ٢١٢ الآفة الرابعة : المراء والجدل .
- ٢١٤ الآفة الخامسة : الخصومة وأحاديثها .
- ٢١٦ الآفة السادسة : التعر في الكلام والتشدد .
- ٢١٧ الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان وأحاديث في ذلك مثل حديث : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » .
- ٢١٩ الآفة الثامنة : اللعن وتحريمه بأحاديث مثل : « ان اللعائن لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »
- ٢٢٢ الآفة التاسعة : الغناء والشعر .
- ٢٢٤ الآفة العاشرة : المزاج ، وأن المزاج يحسن نركه ، وإذا ضحك الانسان فليكن ذلك قليلا جدا ، والا استخف به الناس نارة وأبضوه نارة أخرى .
- ٢٢٨ المقام الثاني من المقالة الثانية في غوائل الأعمال القلبية ، وبيان الفضيلة والزيلة والسعادة الخ
- ٢٣٠ انقضب : ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض .
- ٢٣١ العجب وسببه وعلاجه ، العلاج ، الأحاديث ووازع الدين ، الكبر .
- ٢٣٢ العلاج ، ذم الكبر وإيضاحه ، الفرق بين العجب والكبر .
- ٢٣٣ المقالة الثالثة في قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
- ٢٣٤ المقالة الرابعة في جوهرتين : الجوهرة الأولى ما كتبه المؤلف في مجلة المعرفة تحت عنوان « صوت صارخ من الشرق إلى الغرب » ، وأن أوروبا غدرت في عهودها أيام الحرب العظمى ، إذ قالوا : أيها الشرقيون : إنا نحارب لاستقلالكم ، ثم ظهر انهم غير مخلصين ، ونحن أيام قدرتنا في عصر الصحابة وفيما بعد عهد أحد عبيدنا ، وبيان أن المسيح أرسله الله فقال للناس : كونوا اخوانا ومع ذلك لم يسمع تلك النصيحة الرديمانية فبقوا في الشرق كما هم فجاء نبينا صلى الله عليه وسلم فوجدهم كما هم فقال بالسلام وسمانا مسلمين ، وشعارنا : السلام عليكم ، ولكن الله أمره بالقتال عند الحاجة ، فلم تخرج أوروبا إلا بالقتال ، ثم صارت أوروبا بعد ذلك أمة مخترقة استبدت بها القسيسون والرهبان ، وأحققوا آلافا وآلافا منهم بسبب أمور دينية ، ولما أشعل البابا الحروب الصليبية على المسلمين وبقيت مائتي سنة تدور المسيحيون وعرفوا من مخالطة المسلمين حقوقهم وحرياتهم فرجعوا وأوقفوا رجال الدين عند حدودهم فارتقوا ، وهامهم أولاء جاموا كرة أخرى للشرق ، فلتعلم أوروبا أن الشرق اليوم غير الشرق السابق وليتذكروا أحم الشرق لما هجمت على أوروبا في أزمان قديمة فدكتها دكا ، ثم ليتذكروا التتار الذين هجموا عليها منذ نحو ٧ قرون وهذه بقاياهم في روسيا وغيرها ، فهذه هو الشرق اليوم يريد أخذ نأره ، فالويل لأوروبا .
- ٢٣٨ الجوهرة الثانية في ذكر سر آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وأن المؤلف لما عرف أن هذه الدنيا مدهش نظامها ، وأن الذكور والاناث أعدادهما متقاربة في الانسان وفي الحيوان أدهشه ذلك وأخذ يفكر في أن العلوم والصناعات حتما يجب أن تكون موضوعة في العقول بنظام كما

أن المنافع موزعات على الأرض بنظام ، إذن الناس جميعا في الأرض جاهاون غافلون ، فيعجب عليهم أن يستخرجوا منفعة كل عقل ومنفعة كل أرض ليسعد الانسان الجاهل الآن .

٢٣٩ الأرض واستمدادها ، نظرت في الأمم ، تأليف أين الانسان ، يقول المؤلف : انه سنة ١٩١١ ألف كتاب أين الانسان ، وأرسله إلى أوروبا ، وملخص هذا الكتاب أن المؤلف تخيل انه ركب مركبة بين القفظة والنوم وارتقى بها مع انسان روسي حتى وصل إلى كوكب وراء نبتون ، وهناك وجد أربعة آلاف أمة متحدثين معا ، ولما رأوا المؤلف أخذوا يهزمون بنظام أهل الأرض ، وعدوا كل نظامنا الحالي نظاما حيوانيا ، فما هذه الآلات المهلكات إلا ذرائع للحيوانية لا للانسانية ، وكيف يسمى فريق من الناس في تقليم أظفار الفريق الآخر واخضاعه واذلاله ليكون آلة مسخرة له ، فهو ينزل عن الانسانية إلى الحيوانية ، وكيف تبقى الأرض عند طائفة من الأمم لاجمال فيها يستخرجون منافعها ، والأمم الأخرى قد اكتظت أرضهم بسكانها . كلا . ثم كلا . يجب أن يؤخذ ما زاد من الناس عن أرضهم إلى أرض أمة أخرى يعيشون معهم بسلام ، ويجب أن يوضع كل امرئ فيما استعد له ، ويجب أن يتعلم إلى آخر درجة يستحقها ، والأمم كلها ملزمة بذلك ، فتطالب كل أمة بتعليم كل فرد ، وباستخراج كل منفعة في الطبيعة ، وليكن كل انسان نافعا لسلك انسان كأنهم جسم واحد ، وقد لخص هذا الكتاب الاستاذ (سنتلانه) التالي في مجلته بمدينة رومه ، وأثنى على الكتاب .

٢٤٠ ههنا مبدأ كلام الاستاذ (سنتلانه) وفيه هذه المعاني المتقدمة .

٢٤٦ الاستاذ (البارون كراديفو) وكلامه في أين الانسان ، وهو يذكر أن آراء المؤلف في السلام العام أحسن من آراء (داروين) الانجليزي ، ونيقشيه الألماني ، وأن هذين يريدان أن يفتك القوي بالضعيف ، أما الشيخ فانه يريد أن يكون الناس أمة واحدة ، ويقول : انه يجب أن يتعلم التلاميذ ذلك في مدارسهم ، ويسمعون النغمات التي نظمت في محبة جميع النوع الانساني الخ .

٢٤٧ بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية ، في سر قوله تعالى : « إن الله عليم خبير » وبيان سر اسمه الخبير ، وذلك أن الله علم قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا إذ يظنون أن المدارعما هو على النسب ، فحكم الأمم يرجع إلى النسب لا إلى الكفاءة والتقوى وأمثالهما فقال لهم بصريح العبارة ان المدارع على التقوى ، وختم الآية بأنه عليم خبير والخبرة معرفة بواطن الامور ، ومن بواطن الامور هنا أن أم الاسلام اكتفت بالألفاظ والظواهر ، وقدمت التعديل على الجرح في الأحاديث مع ان الجرح مقدم على التعديل في أمثال أحاديث المهدي الذي جعل مداره على النسب لاعلى التقوى ، وههنا ذكر حديث الرايات السود المقبلة من قبل خراسان ، فهذه نتج عنها تولية السفاح العباسي ، وهل السفاح يكون مهديا ؟ وهل المهدي الذي يملأ الأرض عدلا هو الذي يهلك من بني العباسي وغيرهم رجلا بلا ذنب بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والذي ورد أن اسمه على اسم النبي ﷺ واسم أبيه على اسم أبيه هو النفس الزكية ، وأبوه عبد الله ، واسمه محمد ، وقد قتله المنصور والبيعة كانت له ، فاذا قيل ان الذي رايته السود تأتي من قبل خراسان يكون قبل قيام الساعة ، نقول إذن يكون معنى هذا اننا لا نقول لنا ، فهل رايات السود وخراسان ينحصر المهدي فيهما مرتين ، وما هذه الهداية التي لا تقوم إلا بالسيف ، إذن ظهر اليوم سر خير بعد عليم لأن الله يعلم بواطن الأمم ، فلذلك جعل المدارع على التقوى لعلهم أن ميل الناس قوى جهة النسب ، فلكونه خيرا بذلك صرح بما ذكرناه .